النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

جلد ١٦

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

بسم الله الرحمن الرحیم

النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره

کاتب:

جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی

نشرت فی الطباعة:

وزاره الثقافه والارشادالقومی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة المجلد ۱۶

اشارة

سرشناسه : ابن تغری بردی، یوسف بن تغری بردی، ۸۱۳-۸۷۴ق.

عنوان و نام پدیدآور : النجوم الزاهره فی ملوك مصر والقاهره/ تالیف جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی.

وضعیت ویراست : [ویراست ؟].

مشخصات نشر : قاهره: وزاره الثقافه والارشادالقومی، الموسسه المصریه العامه، ۱۳۴۲.

سال چاپ: ۱۳۹۲ ه. ق

نوبت چاپ: اول

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱۶

مشخصات ظاهری : ۱۶ج. (درسه مجلد).

یادداشت : عربی.

یادداشت : جلد سیزدهم تاجلد شانزدهم توسط فهیم محمد شلتوت، جمال‌الدین شیال و ابراهیم علی طرخان تصحیح‌شده توسط الهیئه‌المصریه‌العامه للتالیف و النشر منتشر گردیده است.

یادداشت : ج.۱، ۲، ۳، ۴، ۷ ، ۸ ، ۱۱ و ۱۲ (چاپ ؟: ۱۳).

یادداشت : ج. ۱۵ (چاپ؟: ۱۳۹۱ق. = ۱۹۷۱م. = ۱۳۵۰).

یادداشت : ج.۱۶ (چاپ؟ = ۱۳۹۲ق. = ۱۹۷۲م. = ۱۳۵۱).

یادداشت : بالای عنوان: تراثنا.

یادداشت : کتابنامه.

عنوان دیگر : تراثنا.

موضوع : مصر -- شاهان و فرمانروایان

موضوع : مصر -- تاریخ -- ۱۹ - ۸۹۷ق.-- سالشمار.

شناسه افزوده : شلتوت، فهیم محمد، مصحح

شناسه افزوده : شیال، جمال‌الدین، مصحح

شناسه افزوده : طرخان، ابراهیم علی، مصحح

رده بندی کنگره : DT۹۵/الف۲ن۲ ۳ ۱۳۴۲

رده بندی دیویی : ۹۶۲/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۵-۵۵۴۷

تقدیم

یتناول الجزء السادس عشر من کتاب النجوم الزاهرة التأریخ للسنوات من ۸۵۵ إلی ۸۷۲ هجریة (۱۴۵۱- ۱۴۶۷ میلادیة) و تشمل هذه

الحقبة: -

وفيات السنوات الثلاث الأخيرة من فترة حكم السلطان الملك الظاهر جقمق.

ثم فترة حكم السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق.

ثم فترة حكم السلطان الملك الأشرف إينال العلائى.

ثم فترة حكم السلطان الملك المؤيد أبى الفتح أحمد بن إينال.

ثم فترة حكم السلطان الملك الظاهر خشقدم.

ثم فترة حكم السلطان الملك الظاهر أبى نصر يلباى المؤيدى.

ثم فترة حكم السلطان الملك أبى سعيد تمربغا الظاهرى.

ثم ابتداء سلطنة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى.

و بنهاية هذا الجزء ينتهى كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة.

و قد تميزت هذه الحقبة التاريخية بقصر فترات الحكم للسلاطين الذين حكموا مصر و ما والاها من البلاد. فمثلا السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق حكم شهرا و ثلاثة عشر يوما، و السلطان الملك المؤيد أبو الفتح أحمد بن إينال حكم أربعة أشهر و أربعة أيام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۲

و السلطان الملك الظاهر أبى نصر يلباى الإينالى المؤيدى حكم شهرين إلا أربعة أيام، و السلطان الملك أبو سعيد تمربغا الظاهرى حكم شهرين.

و لم تعرف البلاد نوعا من الاستقرار إلا فى فترة حكم الظاهر جقمق- مع اضطراب الأحوال بسبب المماليك السلطانية- و فترة حكم الأشرف إينال العلائى، و فترة حكم الظاهر خشقدم، ثم فترة حكم الأشرف قايتباى المحمودى.

و قد تناولها مؤلفنا تناول المؤرخ المعاصر للأحداث القريب منها اللصيق بحكامها، و لذلك فقد أصبح كتاب «النجوم الزاهرة» بالنسبة لهذه الحقبة أوثق مصدر تاريخى لها، و لولا أنه شجب كثيرا من التفصيلات التى وردت فى كتاب آخر له هو كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» لقلنا بأنه أوسع مصدر تاريخى تناول هذه الحقبة؛ ذلك لأن كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس عالج التأريخ لهذه الحقبة فى اختصار شديد، و كتاب «إنباء الغمر» لابن حجر مع اختصاره وقف بالأحداث عند سنة ۸۵۰ هجرية فقط، و كتاب «عقد الجمان» للبدر العينى مع بسطه و اتساعه وصل بالتأريخ إلى سنة ۸۵۰ هجرية أيضا، و فوق ذلك فهو لم يحقق أو يطبع بعد، كذلك كتاب «التبر المسبوك» للسخاوى ليست له ميزة كتابنا هذا؛ لأنه يعالج الأحداث فى اختصار شديد أيضا، و من هنا تجىء أهمية مؤلفات ابن تغرى بردى لهذه الحقبة.

و لا ندرى إن كان ابن تغرى بردى قد توقف عند هذا الحد من التأريخ أم أنه كتب شيئا بعد ذلك لكنه لم يضمّ إلى هذا الكتاب أو غيره فلم يصل إلينا، و لعل المرض الذى أصيب به المؤلف (مرض القولنج) قد حال بينه و بين مواصلة التأريخ إلى الوقت الذى وافته فيه منيته.

و يقول السخاوى فى كتابه الضوء اللامع «و تعال قبل موته بنحو سنة بالقولنج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۳

و اشتد به الأمر من أواخر رمضان بإسهال دموى بحيث انتحل و تزايد كربه، و تمنى الموت لما قاساه من شدة الألم إلى أن قضى فى يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة سنة أربع و سبعين» و إننا لنتساءل: فلم لم يؤرخ لبقية سنة ۸۷۲ ه و سنة ۸۷۳ ه و لم يكن قد دهمته شدة المرض بعد؟!

و کم کنا نود أن نعرف سببا قاطعا لتوقف مؤرخنا عن مواصلة التأریخ حتی الوقت الذی اشتد به المرض، و لکن المراجع التی بین أیدینا لم توضح لنا ذلک، فضلا عن أن کتاب المؤلف «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور» قد توقف هو الآخر خلال أحداث سنة ۸۷۲ ه.

و إذا کان لنا أن نستنتج و نرجح فإننا نستنتج أن المؤلف قد طال به المرض و أن وطأته اشتدت علیه منذ الفترة التی انقطع فیها عن التألیف حتی وافته المنیة.

و مهما یکن من شیء فالمؤلف- و قد صحبنا علی هذه الرقعة الشاسعة من تاریخ مصر- لا بد أن نقول: إن کتابه کان جدیرا بتلک التسمیة الرائعة «النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة».

و إذا کان سیودعنا بهذا الجزء فإن الذی لا شک فیه أن اسمه سیظل قادرا علی التجول فی کل العصور، و أن نشر کتابه- فی هذه الطبعة- قد جاء فی فترة تحتاج إلیها مصر لتتکامل معرفتنا بها، و لیزیدنا العلم بها حبا و إعزازا، و تعلقا و تقدیسا.

و لقد کان من الطبیعی أن یعمق جمال الدین أبو المحاسن یوسف بن تغری بردی الإحساس بالمنهج التاریخی الذی سار علیه من قبل المؤرخون المسلمون، فنجد عنده التتبع و الدقة، و الأمانة، و صحة الإسناد، و الاستنباط، و وجهة النظر الخاصة، و إذا کان هذا الذی نسمیه وجهة نظر خاصة ینکر أحیانا علی أتباع هذه المدرسة إلا أننا نراها واضحة عنده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۴

و لنتأمل تعلیقه علی کلام کثیر مثل «للّه دره فیما قال». و لنتأمل هذا النص «قلت: هو کما قالوا و زیادة» ثم یضع هذه الزیادة التی تدین هؤلاء الترکمان الذین أساءوا السیرة و سلبوا الناس أموالهم، و خربوا البلاد.

و هو حین ینقل رأیا یخالف رأیه- و بخاصة ما ینقله عن المقریزی- و کما ألمحنا إلیه فی مقدمة الجزء الرابع عشر- یسوق الرأی بحذافیره حتی و لو کان فی رجل یعزه و یجله، فهو مثلا ینقل رأیه عن الملک المؤید شیخ المحمودی الذی یقول فیه ... « إلا أنه کان بخیلا مسیکا یشح حتی بالأکل، لحوحا غضوبا، نکدا حسودا معیانا، فحاشا سبابا ...

الخ» فهو بعد هذا الرأی المصادم له یقول «و کان یمکننی الرد علیه فی جمیع ما قاله بحق غیر أننی لست مندوبا إلی ذلک فلهذا أضربت عن تسوید الورق و تضییع الزمان».

و قد تکون هناک دعوی تقول إنه کان یقف إلی جانب السلطة العلیا فی الدولة، و إنه کان یری أن کل خروج علی النظام غیر مقبول و یجب أن ترسل إثره الجیوش تجریدة بعد تجریدة؛ علی حد ما نعرف من رأیه فی حرکات الرفض بین عرب البحیرة أو بین العربان فی الشرقیة، أو بین الهوارة فی صعید مصر.

و نحن- ابتداء- لا نملک إلا التسلیم بشیء من هذا، لکننا نعرف عنه غیرته علی تماسک البلاد، و عدم تعرضها للهزات فی عصر کثرت فیه الهزات، و نعرف عنه أیضا الصدق فی الأحکام و الشجاعة فی إعلانها، و لنتأمل هذا الجانب الذی یطالعنا کثیرا فی مؤلفاته ...فهو یقول- مثلا- فی زوج أخته القاضی کمال الدین عمر بن العدیم قاضی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۵

قضاة الحنفیة بالدیار المصریة «کان عالما فطنا مع طیش و خفة» و یقول عن الأمیر سیف الدین آقبردی بن عبد اللّه المؤیدی أحد أمراء الألوف بالدیار المصریة «کان شجاعا مقداما کریما مع جهل و ظلم و جبروت و خلق سیئ، و بطش وحدة مزاج، و قبح منظر. قلت:

و علی کل حال مساوئه أکثر من محاسنه» و یقول فی شأن تولیة جمال الدین الصفی لکتابة السر «و عدّت ولایة هذا الجاهل لمثل هذه الوظیفة العظیمة من غلطات الملک الأشرف [برسبای] و قبح جهله» و یقول فی شأن الملک الظاهر خشقدم حینما ولّی شمس الدین محمدا البباویّ نظر الدولة ثم الوزارة «و سمع الملک الظاهر خشقدم بسعة ماله- و کان من الخسة و الطمع فی محل کبیر- فاحتال علی

أخذ ماله بأن ولّاه نظر الدولة...

فشق ذلك على الناس قاطبة، وعدوا ذلك من قبائح الملك الظاهر خشقدم ... و شغر الوزر ... فطلب السلطان البباوىّ و ولّاه الوزر».

و صحيح أنه منحدر من سلالة المماليك، و صحيح أنّا نحس إعجابه بالعظام منهم، و لكنه فى الوقت نفسه يقدم فى موضوعية تامة عمليات الغدر و الخديعة و الوقيعة التى غص بها هذا العصر الذى يؤرخ له.

و لعمرى ما ذا يراد من المؤرخ غير هذا؟! نحن نعتقد أن الذى عصمه هو تقاليد «المدرسة التاريخية الإسلامية» التى ألمحنا من قبل إلى مميزاتها، و التى كان مؤرخنا واحدا من عمدها.

ثم يأتى أخيرا بيانه الواضح، و وصوله إلى ما يريد بأقل الألفاظ مع سلامة تركيب الجملة العربية، إذا قيس بغيره من مؤرخى عصره، و مع اعتبار ما كان طاغيا على أساليب هذا العصر من خروج على قواعد اللغة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۶

و قد عاب عليه السخاوى استخدامه بعض الكلمات التى تخرج على مقاييس اللغة مثل أخرب، و أخلع. و لعمرى فإن هذا القليل- الذى رآه المؤلف صادق الدلالة على معناه- لا يعد خطيرا إلى جانب الفيض الكثير من الأساليب المنسقة السهلة الفصيحة.

و أخيرا فنحن حين ترفع القلم عن الحرف الأخير من هذا الكتاب، أو بعبارة شاعرية عن هذه النجوم الزاهرة نحسّ بأنه من أجل مصر، بل و من أجل الوطن العربى يجب أن يقرأ هذا الكتاب، و نحسّ أنه كان من حسن حظنا أن أتاحت لنا «الهيئة المصرية العامة للكتاب» أن نقابل القارئ العربى بهذا الجزء الذى نرجو أن يحمله على متابعة قراءة الكتاب من أوله جزءا جزءا، أو كما يحب أن يقول مؤلفه «نجما نجما».

منهج التحقيق:

و قد اعتمد فى تحقيق هذا الجزء على نسخة أيا صوفيا المصورة و المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ۱۳۴۳ تاريخ، و اعتبرت أصلا للتحقيق و رمز لها بالأصل أو بحرف «ص» و قوبل على طبعة كاليفورنيا التى حققها المستشرق وليم پوپر معتمدا على مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ۱۷۸۸ معتبرا إياها أصلا، و مقابلا- لها على مخطوطة أخرى بنفس المكتبة برقم ۱۷۸۹ و أيضا على المصورة الشمسية لنسخة أيا صوفيا.

و قد اعتمد پوپر أيضا على كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» للمؤلف و اعتبره نسخة معاونة رمز لها بحرف «H» و أضاف كثيرا من تفصيلاته فى هوامشه.

و قد روجع هذا الجزء على ما جاء فى هذا الكتاب الذى توجد منه نسختان بدار الكتب بالقاهرة. إحداهما مصورة عن نسخة أياصوفيا و محفوظة برقم ۲۳۹۷ تاريخ، و الأخرى مصورة عن نسخة الفاتيكان و محفوظة برقم ۲۴۰۴ تاريخ تيمور، و قد حققت الجزء الأول منه و ينشره حاليا المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. و قد سبق أن نشر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، مقدمةج۱۶، ص: ۷

المستشرق وليم پوپر مقتطفات منه تهتم بالتفصيلات التى لم ترد فى كتاب «النجوم الزاهرة» و اعتبر المنشور ملحقا بالجزء السابع من كتاب النجوم طبعة كاليفورنيا.

و سيجد القارئ أن مؤلفنا كثيرا ما يشير إلى التفصيلات و التفريعات التى أوردها فى كتاب «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» و شجبها فى كتاب «النجوم الزاهرة». ذاكرا أنه أغفلها فى «النجوم» و يحيل القارئ فى معرفتها إلى كتاب «الحوادث» ذاكرا أن «الحوادث» يعنى بتفصيل الأحداث و عرضها أكثر من عناية «النجوم» بها.

و لقد تتبعنا المنهج الذى قام عليه تحقيق الأجزاء السابقة من كتاب «النجوم» و جعلناه أساسا لتحقيق هذا الجزء، و أضفنا إلى هوامشه ما رأينا إضافته من كتاب «الحوادث» مما يوضح النص أو يوثقه أو يضيف إليه جديدا.

و رجعنا فى تحقيق الأحداث و تراجم الأعلام إلى المصادر المعتمدة و المطروقة فى هذا الميدان، و التى رجع إليها السادة المحققون للأجزاء الأخرى من هذا الكتاب.

و إذا كان هذا الجزء قد صدر بعد فقدنا للعالم الكبير المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال فإنه ما من شك فى أن التراث قد فقد بفقده عالما جليلا صادق الجهد نفاذ البصيرة يدين له التراث بفضل تحقيق «مفرج الكروب» و غيره. و بدين له بجهده الذى بذله فى هذا الجزء، أثابه اللّه عن العلم و التراث خير المثوبة.

و إنا لنرجو أن يكون الجهد الذى بذل موضع القبول؛ و اللّه ولى التوفيق.

۱۰ من جمادى الأولى سنة ۱۳۹۲ ه.

۲۱ من مايو سنة ۱۹۷۲ م.

فهيم محمد شلتوت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۵]

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق

على مصر و هى سنة خمس و خمسين و ثمانمائة:

و فيها كان تزايد الغلاء حتى خرج عن الحدّ، و بيع القمح بنحو ألف و خمسمائة درهم الإردب، و الفول و الشعير بألف درهم الإردب، ثم تزايد بعد ذلك على ما حرّرناه فى الحوادث.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد بالقاهرة، فى يوم الجمعة ثانى المحرم، و قد تقدّم ذكر نسبه إلى العباس فى ترجمة أخيه المعتضد داود من هذا الكتاب.

و تولى الخلافة بعدة أخوه حمزة بغير عهد منه، و لقّب بالقائم بأمر اللّه.

و نزل السلطان الملك الظاهر للصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و مشى فى جنازته إلى أن شهد دفنه، و ربما أراد حمل نعشه فى طريقه، و مات المستكفى و هو فى عشر الستين، بعد أن أقام فى الخلافة تسع سنين و نحو عشرة أشهر. و كان ديّنا خيّرا، منجمعا عن الناس بالكلّيّة، كثير الصّمت، قليل الكلام، ذكر عنه أخوه أمير المؤمنين المعتضد داود- و كان شقيقه- عند ما عهد له بالخلافة فى مرض موته، أنه لا يعرف عليه كبيرة فى مدة عمره- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲

و توفّى القاضى جمال الدين عبد اللّه بن هشام الحنبلى الفقيه، أحد نوّاب الحكم بالقاهرة، فى العشر الأخير من المحرم، و كان فقيها فاضلا مشكور السّيرة فى أحكامه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الرئيس مجد الدين عبد الرحمن بن الجيعان، ناظر الخزانة الشّريفة السّلطانية و كاتبها، فى يوم الخميس تاسع عشرين المحرم، بعد قدومه من الحجاز متمرّضا، و خلّف عدّة أولاد، أمّهاتهم أمهات أولاد جوار بيض مسلمات.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد المعروف بابن زبالة الشّافعى المصرى الأصل و المولد، قاضى قضاة مدينة الينبع، بها فى هذه السنة. و كان مولده بباب البحر خارج القاهرة، ثم انتقل إلى الينبع بعد أمور، و ولى قضاءها إلى أن مات، و كان له سمعة وصيت بتلك البلاد.

و توفّى السلطان خوندكار مراد بك ابن السلطان محمد بك كرشجى بن أبى يزيد ابن عثمان، متملّك برصا و أدرنابولى، و ما والاهما من ممالك الرّوم، فى سابع المحرم بمملكة الروم.

و تولّى الملك من بعده ولده السلطان محمد بن مراد بك، و اقتدى بسنّة أبيه فى الجهاد و الغزو، و نكاية العدوّ، و أخذ البلاد و القلاع من يد الفرنج، و مات السلطان مراد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳

بك و هو فى أوائل الكهولية، و كان خير ملوك زمانه شرقا و غربا؛ مما اشتمل عليه من العقل و الحزم و العزم و الكرم و الشجاعة و السؤدد. و أفنى عمره فى الجهاد فى سبيل اللّه تعالى، و غزا عدّة غزوات، و فتح عدّة فتوحات، و ملك الحصون المنيعة، و القلاع و المدن من العدوّ المخذول. على أنه كان منهمكا فى اللذات التى تهواها النفوس، و لعل حاله كقول بعض الأخيار- و قد سئل عن دينه- فقال: أمزّقه بالمعاصى، و أرقّعه بالاستغفار. فهو أحقّ بعفو اللّه و كرمه، فإن له المواقف المشهورة، و له اليد البيضاء فى الإسلام و نكاية العدوّ، حتى قيل عنه إنه كان سياجا للإسلام و المسلمين- عفا اللّه عنه، و عوّض شبابه الجنة- فلقد كان بوجوده غاية التجمل فى جنس بنى آدم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد بن حسّان، الفقيه الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء، فى يوم السبت أول شهر ربيع الأول، و كان فقيها ديّنا مشكور السّيرة، و تولّى مشيخة سعيد السّعداء من بعده الشيخ خالد.

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد الحلبى، المعروف بالحجازى، ابن أخت السخاوى، فى يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول، و كان أديبا، و هو ممن عرف فى هذه الدولة بخاله خليل السخاوى، و عدّ من بياض الناس، على أنه كان قليل البضاعة من العلوم و الفضيلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴

و توفّى الشيخ شمس الدين محمد الحنفى الرومى الأصل و المولد، المصرى الدّار و الوفاة، المعروف بالكاتب، فى يوم الأحد ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، بعد أن نال حظّا من ملوك مصر، لا سيما من الملك الظاهر جقمق؛ فإنه عظم فى دولته إلى الغاية و نالته السعادة، و عدّ من الرؤساء، و لم يكن لذلك أهلا، غير أن ملوك زماننا كالعميان، يضع الواحد يده على كتف الواحد، فمهما تحرّك الأوّل بحركة تحرّك الثانى بمثله.

فأول من قرّب شمس الدين هذا الظاهر ططر، فاقتدى جميع من جاء بعده من السلاطين به من تقريب شمس الدين هذا، و لا يعرف أحدهم لم قرّبه و اختصّ به غير الظاهر ططر، فإنه كان له مقاصد لا يعرفها هؤلاء، ثم انحطّ قدره، و نكب و صودر، و ادّعى عليه عند القضاة بدعاوى اقتضت تعزيره و حبسه بسجن الرّحبة، و قاسى أهوالا- كلّ ذلك بأمر السلطان الملك الظاهر جقمق لمّا تغيّر عليه، نكالا- من اللّه، فإنه كان واسطة سوء مع دهاء و مكر، و عقل تام، فإنه اتصل لما اتصل، و لم يقتن دابة يركبها، بل كان كلما أراد أن يطلع القلعة ركب من الشيخونية حمارا مكاريا بالكرى، و طلع إلى القلعة، و اجتمع بالسلطان ثم نزل و عاد على الحمار المذكور إلى داره بالشيخونية، فى كل يوم على ذلك.

و كان قليل العلم، إلا أنه كان له مشاركة و محاضرة و معرفة بمداخلة الملوك، محظوظا عندهم.

كان مرتّبه فى اليوم على الجوالى فقط دينارين، و له أشياء غير ذلك، و كان شكلا مهولا، طوالا، ذا لحية كبيرة، و على رأسه عمامة هائلة، و قبّع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵

جوخ كبير جدا، و يلفّ عليه أزيد من ثوب بعلبكى رفيع، و قيل ثوبان عوضا من الشاش.

و مع تقربه من الملوك كان عنده عفّة عن أموال الناس، و عدم طمع بالنسبة إلى غيره- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ المعتقد محمد السفارى، نزيل جامع عمرو بن العاص، فى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى و قد ذكرنا واقعته مع الملك الظاهر جقمق فى الحوادث، و ملخصها أنه كان وقع من بعض فقرائه ما أوجب إحضاره، فامتنع، فألحّ السلطان على الوالى بإحضار الشيخ محمد المذكور، فلما حضر إليه ثانيا أفحش فى الجواب للوالى، ثم تكلم فى الملأ بكلام يدل على موت السلطان فى

سابع عشر جمادى الأولى، و شاع ذلك بين الناس، فمات الشيخ قبل ذلك اليوم، أعنى يوم سابع عشر جمادى الأولى بستة أيام، فتعجّب الناس من ذلك.

و الذى أظنّه أن الشيخ ما قال إلا عن نفسه، فتوهمت العامة أن الشيخ يشير بذلك عن السلطان، و اللّه أعلم، و على كل حال واقعة غريبة- رحمه اللّه.

و توفّى السيّد الشريف هلمان بن وبير بن نخبار أمير مدينة الينبع بها فى أواخر جمادى الأولى، و هو فى أوائل الكهولية، و كان شابا مليح الوجه، مشكور السّيرة، لولا أنه على مذهب القوم- عفا اللّه عنه.

و تولى بعده إمرة الينبع أخوه سنقر، و كانت ولاية هلمان المذكور، بعد عزل ابن أخية معز بن هجّان بن وبير بن نخبار فى سنة تسع و أربعين و ثمانمائة- ا ه.

و توفّى السيد الشريف أميان بن مانع الحسينى المدنى، أمير المدينة الشريفة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶

النبوية- على ساكنها أفضل الصلاة و السلام- فى جمادى الآخرة بها، و تولّى إمرة المدينة من بعده زبير بن قيس بن ثابت.

و توفّى الأمير ناصر الدين محمد الحلبى الحاجب الثانى بحلب المعروف بابن ألتغا، فى يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان بالقاهرة، غريبا عن أهله و عياله، و كان أصله من بعض قرى حلب، و ترقّى فى الخدم حتى لبس زىّ الجند، و خدم أستادارا عند بعض أعيان حلب، و تموّل، و ترقّى بالبذل حتى صار حاجبا ثانيا بحلب، و هو لا يعرف كلمة مركّبة باللغة التركية، و يتلفظ فى كلامه بألفاظ فلاحى القرى إلى أن مات، غير أنه كان مشكور السيرة، كريم النفس- رحمه اللّه.

و توفّى القاضى تاج الدين محمد ابن قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى فى يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان و دفن من الغد عن ثمان و ستين سنة، و خلّف مالا كثيرا، و كان مسيكا بخيلا، و إليه أشار الحافظ بن حجر بقوله [السريع]

مات جلال الدين، قالوا: ابنه يخلفه، أو فالأخ الراجح

فقلت: تاج الدين لا لائق لمنصب الحكم، و لا صالح

أراد بتاج الدين هذا فى الأول ثم بالتورية (۴) قاضى القضاة علم الدين صالح البلقنى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷

و توفّى الأمير سيف الدين يشبك بن عبد اللّه السيفى سودون الحمزاوى نائب صفد بها فى ليلة السبت تاسع عشرين شهر رمضان، و كان يشبك المذكور ولى دواداريّة السلطان بحلب سنين، ثم ولى نيابة غزّة؛ ثم نقل إلى نيابة صفد إلى أن مات بها، و كان مشكور السّيرة، لم تسبق له رئاسة بالديار المصرية، و تولّى الأمير بيغوت المؤيّدى بعده نيابة صفد ثانى مرّة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد بن أمير على بن إينال اليوسفى الأتابكى، أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية، فى ليلة الثلاثاء سابع عشرين ذى القعدة، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة جدّه الأتابك إينال، و مات و سنّة نحو خمسين سنة- تخمينا- و إلى والده أمير على ينتسب الملك الظاهر جقمق بالعلائى و قد تقدّم ذكر ذلك كله فى أوّل ترجمة الملك الظاهر جقمق، و كيف أخذه الملك الظاهر برقوق منه.

و كان أحمد المذكور أميرا ضخما عاقلا، رئيسا ديّنا خبيّرا، متواضعا، عارفا بأنواع الفروسية، و عنده محبة للفقراء و أرباب الصلاح، و كان سمينا جدا، لا يحمله إلا الجياد من الخيل، و كان ممّن رقّاه الملك الظاهر حقمق، و أمّره عشرة فى أوائل سلطنته، ثم ولّاه نيابة الإسكندرية، و زاده عدّة زيادات على إقطاعه، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، عوضا عن الأمير إينال العلائى بحكم انتقاله إلى الأتابكيّة بعد موت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸

یشبک السودونی المشدّ، فدام علی ذلک إلی أن مات، و تأسّف الناس علیه لحسن سیرته بالنسبة إلی أخیه محمد؛ و إلی الشهابی أحمد بن نوروز، شادّ الأغنام، فإنهما کانا أسوأ حواشی الملک الظاهر جقمق سیرة، بخلاف الشّهابی أحمد فإنه لم یکن له کلمة فی الدولة إلا بخیر- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی السیّد الشریف إبراهیم بن حسن بن عجلان الحسنی، المقبوض علیه مع أخیه علی بن حسن قبل تاریخه بمکة، و حمل إلی القاهرة، و حبس بالبرج من القلعة مدّة طویلة، ثم أخرج مع أخیه إلی ثغر دمیاط، فدام به بعد موت أخیه علیّ إلی أن مات فی هذا التاریخ.

و توفّی الأمیر سیف الدین تمراز بن عبد اللّه من بکتمر المؤیدی، المصارع شادّ بندر جدّة قتیلا بالحدیدة من بلاد الیمن، فی خامس عشرین شهر رمضان، بعد أن فرّ من جدّة بمال السلطان عاصیا علیه، فلم یحصل له ما قصد، و قد أوضحنا أمره و ما وقع له من یوم خروجه من جدة إلی یوم موته فی أصل هذه الترجمة، سیاقا فی أواخر ترجمة الملک الظاهر هذا.

و توفّی قاضی القضاة شیخ الإسلام بدر الدین أبو الثناء، و قیل أبو محمد بدر الدین محمود ابن القاضی شهاب الدین أحمد بن موسی بن أحمد بن حسین بن یوسف بن محمود العینتابی الحنفی، قاضی قضاة الدیار المصریة، و عالمها و مؤرخها، فی لیلة الثلاثاء رابع ذی الحجة، و دفن من الغد بمدرسته التی أنشأها تجاه داره بالقرب من جامع الأزهر، و مولده بعینتاب فی سنة اثنتین و ستین و سبعمائة، و نشأ بها، و تفقّه بوالده بعد حفظه القرآن الکریم، و کان أبوه قاضی عینتاب، و توفّی بها فی شهر رجب سنة أربع و ثمانین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹

و سبعمائة، ثم رحل ولده القاضی بدر الدین هذا بعد موته إلی حلب، و تفقّه بها، و أخذ عن العلامة جمال الدین یوسف بن موسی الملطی الحنفی و غیره، ثم قدم لزیارة بیت المقدس فلقی به العلامة علاء الدین العلاء بن أحمد بن محمد السیرامی الحنفی شیخ المدرسة الظاهریة- برقوق- و کان أیضا توجّه لزیارة بیت المقدس، فاستقدمه معه إلی القاهرة فی سنة ثمان و ثمانین و سبعمائة، و نزّله فی جملة الصوفیة بالمدرسة الظاهریة- برقوق- ثم قرّره خادما بها، ثم وقع له بعد ذلک أمور حکیناها فی ترجمته فی المنهل الصافی، إلی أن عرف بین الطلبة، و فضل فی علوم، و صحب الأمیر جکم من عوض، و الأمیر قلمطای العثمانی الدّوادار، و تغری بردی القردمی إلی أن توفّی الملک الظاهر برقوق فی سنة إحدی و ثمانمائة، فولی حسبة القاهرة فی مستهل ذی الحجة من السنة، بسفارة هؤلاء الأمراء عوضا عن الشیخ تقی الدین أحمد المقریزی، فمن یومئذ وقعت العداوة بینهما إلی أن ماتا، ثم صرف بعد أشهر، و تولی حسبة القاهرة غیر مرّة، و آخر ولایته للحسبة فی سنة ست و أربعین و ثمانمائة عوضا عن یرعلی الخراسانی- انتهی.

فنعود إلی ما کنا بصدده: ثم ولی القاضی بدر الدین هذا نظر الأحباس فی الدولة المؤیّدیة، و لما تسلطن الملک الأشرف برسبای صحبه و عظم عنده إلی الغایة، و صار ینادمه، و یقرأ له التواریخ من أیام السلف من الوقائع و الأخبار، و یعلمه دینه، کان یقرأ له

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰

التاریخ باللغة العربیة ثم یفسره له باللغة الترکیة، و کان فصیحا فی اللغتین، و کان الملک الأشرف یسأله کثیرا عن دینه و عما یحتاج إلیه من العبادات و غیرها، فیجیبه القاضی بدر الدین المذکور بعبارة تقرب من فهمه، حتی لقد سمعت الأشرف یقول غیر مرة:

«لولا العینتابی لکان فی إسلامنا شیء».

و ولّاه قضاء الحنفیة مرّتین، و مات الأشرف و هو قاض، فعزل فی الدولة العزیزیة بالشیخ سعد الدین سعد الدّیری، و لزم داره علی نظر الأحباس مدة سنین إلی أن سعی علاء الدین علیّ بن آقبرس فیها و ولیها، فاستقبح الناس علیه ذلک من وجوه عدیدة، ثم مات بعد ذلک بمدة یسیرة.

و کان إماما فقیها أصولیا، نحویا، لغویا، بارعا فی علوم کثیرة، و أفتی و درّس سنین، و صنّف التصانیف المفیدة النافعة، و کتب

التاریخ، و صنّف فیه مصنفات کثیرة ذکرناها مع جملة مصنفاته فی المنهل الصافی، یطول الشرح فی ذکرها هنا.

و لما انتهینا من الصلاة علی قاضی القضاة بدر الدین هذا بجامع الأزهر، و خرجنا إلی مشاهدة دفنه، قال لی قاضی القضاة بدر الدین محمد بن عبد المنعم البغدادی الحنبلی.

«خلا لک البرّ فبض و أصفر» فلم أردّ علیه، و أرسلت إلیه بعد عودی إلی منزلی ورقة بخط العینی هذا یسألنی فیه عن شیء سئل عنه فی التاریخ من بعض الأعیان، و یعتذر عن الإجابة بکبر سنه و تشتت ذهنه، ثم أبسط القول فی الشکر و المدح و الثناء إلی أن قال: «و قد صار المعوّل علیک الآن فی هذا الشأن، و أنت فارس میدانه، و أستاذ زمانه، فاشکر اللّه علی ذلک».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱

و کان تاریخ کتابة الورقة المذکورة فی سنة تسع و أربعین و ثمانمائة- انتهی.

و توفّی السید الشریف عفیف الدین أبو بکر محمد الأیکی العجمی الشافعی نزیل مکة المشرفة بمنی فی ثانی یوم من التّشریق، و حمل إلی مکة، و دفن بها، و کانت جنازته مشهودة، و کان الناس فی أمره و صلاحه علی أقسام، رأیته بمکة و اجتمعت به مجلسا خفیفا- رحمه اللّه.

و توفّی الشیخ المعتقد الصالح أحمد التّرابی المصری فجأة، فی یوم الجمعة حادی عشر ذی الحجة، و دفن بزاویته من الغد، بالقرب من تربة الشیخ جوشن خارج باب النصر.

و کان رجلا صالحا دینا خیرا معتقدا، و کنت أصحبه، و کان لی فیه اعتقاد و محبة- رحمه اللّه تعالی.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم أربعة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزیادة ثمانیة عشر ذراعا و ثمانیة أصابع.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۶]

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملک الظاهر جقمق علی مصر و هی سنة ست و خمسین و ثمانمائة.

فیها أخذ الغلاء فی انحطاط من الدیار المصریة و أعمالها.

و فیها توفّی الشیخ الإمام العلّامة علاء الدین علیّ ابن الشیخ قطب الدین أحمد القلقشندی الشافعی، أحد فقهاء الشافعیة، فی یوم الاثنین مستهل المحرم، و دفن من الغد فی یوم الثلاثاء خارج القاهرة، و مولده بالقاهرة فی ذی الحجة سنة ثمان و ثمانین و سبعمائة، و نشأ بها، و حفظ عدّة متون فی مذهبه، و تفقّه بعلماء عصره، مثل شیخ الإسلام السّراج البلقینی، و ولده قاضی القضاة جلال الدین، و العلّامة عز الدین بن جماعة، أخذ عنه المعقول، و عن الشیخ الإمام العلّامة فرید عصره علاء الدین محمد البخاری الحنفی، و قاضی القضاة شمس الدین محمد البساطی المالکی، و غیرهم، و برع فی عدة علوم و أفتی و درّس، و تولّی عدّة تداریس، و رشّح لقضاء الدیار المصریة غیر مرّة، و سئل بقضاء دمشق فامتنع، و تصدّی للاشتغال سنین، و انتفع به جماعة من الطلبة- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الإمام المقرئ ناصر الدین محمد بن کزل بغا الحنفی، إمام المدرسة الأشرفیة بالعنبریّین، فی یوم الأحد تاسع عشر صفر، و هو فی عشر الخمسین،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳

و مات و لم یخلف بعده مثله فی القراءات و حسن التأدّی، لا سیما فی قراءة المحراب فإنه کان من الأفراد فی ذلک، و کان أبوه من ممالیک الأمیر ألطنبغا الجوبانی نائب دمشق- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی عظیم الدیار المصریة و عالمها و رئیسها کمال الدین أبو المعالی محمد ابن العلّامة القاضی ناصر الدین أبی المعالی محمد ابن القاضی کمال الدین محمد بن عثمان بن عثمان بن محمد بن عبد الرحیم بن هبة اللّه البارزی الحموی الجهنی الشافعی، کاتب السرّ

الشریف بالدیار المصریة، و ابن کاتب سرّها، و صهر السلطان الملک الظاهر جقمق، بداره بخط الخرّاطین من القاهرة، فی یوم الأحد سادس عشرین صفر، و حضر السلطان الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی، و دفن عند والده بالقرافة الصّغری تجاه شباک الإمام الشافعی- رضی اللّه عنه.

سألته عن مولده، فقال: بحماة فی ذی الحجة سنة ستّ و تسعین و سبعمائة.

قلت: و نشأ بها تحت کنف والده، و حفظ القرآن العزیز، و صلی التراویح بالناس فی الدّیار المصریة لما قدم مع والده سنة تسع و ثمانمائة، ثم عاد مع والده إلی حماة، و حفظ التمییز فی الفقه، و قرأه علی الحافظ برهان الدین إبراهیم الحلبی المعروف بالقوف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴

ثم قدم إلی الدیار المصریة مع والده أیضا بعد قتل الملک الناصر فرج فی سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و تفقّه بقاضی القضاة ولی الدین أحمد العراقی، و أخذ المعقول عن العلّامة عز الدین بن جماعة، و عن تلمیذه ابن الأدیب، و أخذ أیضا عن قاضی القضاة شمس الدین البساطی المالکی، و عن العلّامة البارع الزاهد علاء الدین محمد البخاری الحنفی، و لازمه کثیرا و انتفع بدروسه، و أخذ النحو فی مبادئ أمره عن الشیخ یحیی العجیسی المغربی و غیره، و سمع البخاری من عائشة بنت عبد الهادی، و اجتهد فی طلب العلم و ساعده فی ذلک الذکاء المفرط، و الذهن المستقیم و التصور الصحیح، حتی برع فی المنطوق و المفهوم، و صارت له الید الطولی فی المنثور و المنظوم، لا سیما فی الترسل و الإنشاء و المکاتبات، فإنه کان إمام عصره فی ذلک، هذا مع ما اشتمل علیه من العقل و العراقة و السکون و السؤدد و الکرم و الإکرام و سیاسة الخلق و حسن الخلق، و الرئاسة الضخمة، و الفضل الغزیر.

و باشر کتابة السّر فی أیام والده نیابة عنه، و عمره نیف علی عشرین سنة.

ثم استقل بالوظیفة نیفا علی ثلاثین سنة، علی أنه صرف عنها غیر مرة المدّة الطویلة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵

و أول ولایته لکتابة السرّ فی یوم السبت خامس عشرین شوال سنة ثلاث و عشرین و ثمانمائة فی الدولة المؤیّدیّة شیخ؛ تلقّاها عن والده القاضی ناصر الدین بعد موته، و استمرّ فی الوظیفة إلی أن صرف عنها بصهره علم الدین داود بن الکویز ناظر الجیوش بالدیار المصریة، و استقرّ القاضی کمال الدین هذا فی الوظیفة و نظر الجیش عوضا عن علم الدین المذکور- أعنی أن کلّا منهما أخذ وظیفة الآخر- و ذلک فی محرم سنة أربع و عشرین، فباشر وظیفة نظر الجیش إلی أن صرف عنها بعبد الباسط بن خلیل الدمشقی فی یوم الاثنین سابع ذی القعدة من سنة أربع و عشرین المذکورة، فلزم القاضی کمال الدین هذا داره علی هیئة عمله من الحشم و الخدم و الإحسان لمن یرد علیه من کلّ طائفة، و أکبّ علی الاشتغال و طلب العلوم مدّة سنین إلی أن طلبه الملک الأشرف برسبای فی یوم سابع شهر رجب سنة إحدی و ثلاثین، و خلع علیه باستقراره فی کتابة سرّ دمشق بعد موت بدر الدین حسین، فتوجه إلی دمشق و باشر کتابة سرّها مدّة إلی أن قدم القاهرة صحبة الأمیر سودون من عبد الرحمن نائب دمشق، و عزل سودون و تولّی جار قطلو نیابة دمشق، فخلع السلطان علیه بقضاء دمشق مضافا لکتابة سرّها، و کان ذلک فی یوم الأربعاء مستهل شعبان سنة خمس و ثلاثین، فباشر الوظیفتین معا، و حسنت سیرته و أحبّه أهل دمشق.

و من غریب ما اتفق فی ولایته لقضاء دمشق أن العلّامة علاء الدین البخاری کان إذا ولی أحد من طلبته القضاء أو الحسبة یغضب عنه و یمنعه من دروسه، فلمّا بلغه ولایة القاضی کمال الدین هذا فرح، و قال: «الآن أمن الناس علی أموالهم و نفوسهم»، و ناهیک بقول الشیخ علاء الدین هذا فی حقّه.

و استمر علی وظیفته بدمشق إلی أن طلب إلی الدیار المصریة، و ولی کتابة سرّها بعد عزل الصاحب کریم الدین عبد الکریم بن کاتب المناخ فی یوم السبت العشرین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶

من شهر ربيع الآخر سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، فباشر الوظيفة مدّة إلى أن صرف عنها بالشيخ محبّ الدين بن الأشقر فى يوم الخميس سابع شهر رجب سنة تسع و ثلاثين..

و لزم المقرّ الكمالى داره إلى أن أعيد إلى قضاء دمشق مسئولا فى ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة أربعين و ثمانمائة، فباشر قضاء دمشق ثانيا، و خطب بالجامع الأموى، و كتب إليه الشّرفى يحيى بن العطّار و هو بدمشق: [البسيط]

يا سيّدا جدّ بالنّوى لى و طال ما جاد بالنّوال

من منذ سافرت زاد نقصى يا طول شوقى إلى الكمال

فأجابه القاضى كمال الدين المذكور و أنشدنيها من لفظه لنفسه- رحمه اللّه تعالى.

[الطويل]

خيالك فى عينىّ يؤنس وحدتى على أنّ داء الشوق فى مهجتى أعيا

فإن مات من فرط اشتياقى تصبّرى أعلله بالوصل من سيدى يحيى

و من شعره- رحمه اللّه- أيضا ما كتبه على سيرة ابن ناهض بعد كتابة والده القاضى ناصر الدين [الرجز]

مرّت على فهمى، و حلو لفظها مكرّر، فما عسى أن أصنعا

و والدى دام بقا سؤدده لم يبق فيها للكمال موضعا

و له أشياء غير ذلك ذكرناها فى غير هذا المحل.

و استمر [القاضى كمال الدين] على قضاء دمشق إلى أن طلب من دمشق إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷

الدّيار المصرية فى الدّولة العزيزية- يوسف- فحضر بعد سلطنة صهره الملك الظاهر جقمق، و طلع إلى القلعة بعد أن احتفل وجوه الدولة إلى ملاقاته، و خلع عليه باستقراره فى كتابة السرّ على عادته بعد عزل الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه، و ذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعين، و هذه ولايته الثالثة لكتابة السرّ.

و استمر فى الوظيفة على أمور وقعت له- ذكرناها فى الحوادث- إلى أن مات فى التاريخ المقدم ذكره بعد أن باشر الوظيفة على طريق وزراء السّلف من الملوك فى الإنعام و العطايا و البرّ و الصدقات و الرواتب و الإحسان للفقهاء و الفقراء، بل و إلى غالب من ورد عليه و تردّد إلى بابه كبيرا كان أو صغيرا، غنيّا كان أو فقيرا، حتى شاع ذكره و بعد صيته، و قصده الناس من الأقطار، و هو مع ذلك لا يكلّ و لا يملّ، بل يجود بما هو فى حاصله، و بما عساه يدخل إليه.

و لقد حدّثنى غير مرّة أنه لم يستحقّ عليه منذ حياته زكاة عين، قلت: «فلله درّه، لقد استحق قول الشيخ جمال الدين بن نباتة فى ممدوحه الملك المؤيّد إسماعيل صاحب حماة حيث قال: [الرجز]

لا ظلم يلقى فى حماه العالى إلا على العداة و الأموال

و لما حجّ فى سنة خمسين و ثمانمائة، و حجت فى تلك السنة أيضا كريمته خوند زوجة السلطان الملك الظّاهر جقمق، و سافرا معا فى الرّكب الأوّل، فظهر للناس من علوّ همّته، و غزير مروءته، و عظيم إحسانه، ما لعلّه يذكر إلى الأبد، و لقد حدثنى بعض أعيان مكة أنه كان إذا وقف على أخبار البرامكة و غيرهم ينكر ذلك بقلبه، حتى رأى ما فعله القاضى كمال الدين هذا من الإحسان إلى أهل مكة و غيرهم، فعند ذلك تحقّق ما قيل فى سالف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸

الأعصار، قلت: «و هو أعظم من رأينا و أدركنا، و للّه الحمد و المنّة على إدراكنا لمثل هذا الرّجل الذى مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم زين الدين طاهر بن محمد بن على النّويرىّ المالكى أحد فقهاء المالكية بالقاهرة، فى يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول، و سنّة نيّف على ستّين سنة تقريبا، و كان إماما عالما فقيها ديّنا صالحا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الملك الكامل خليل بن الملك الأشرف أحمد بن الملك العادل سليمان، صاحب حصن كيفا من ديار بكر، قتيلا بيد ولده فى شهر ربيع الأول.

و تولى ولده المذكور الملك من بعده، و لقّب بالملك النّاصر، و دام فى مملكة الحصن إلى شهر رمضان من السنة المذكورة، فوثب عليه ابن عمه الملك حسن و قتله، و سلطن أخاه أحمد، و لقّبه بلقب أبيه المقتول الملك الكامل.

و كان الملك الكامل خليل- صاحب الترجمة- ملك الحصن بعد قتل أبيه الملك الأشرف فى سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، و قد ذكرنا واقعة أبيه الأشرف فى ترجمة الملك الأشرف برسباى لما أراد القدوم عليه، و قتل بيد أعوان قرايلك- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين ألطنبغا بن عبد اللّه الظاهرى المعلم اللفّاف، أحد أمراء الألوف بالدّيار المصرية- بطّالا- فى يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر، و كان أصله من صغار مماليك الملك الظاهر برقوق، و طالت أيّامه فى الجنديّة إلى أن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹

عمّر و تسلطن الملك الظاهر جقمق، فقرّبه و أنعم عليه بإقطاع هائل، بعد مسك قلمطاى الإسحاقى، ثم بعد مدة يسيرة أمّره عشرة، ثم زاده زيادات كثيرة، و ولّاه نيابة الإسكندرية، ثم عزله بعد مدّة، و جعله من جملة مقدّمى الألوف بالديار المصرية، فباشر ذلك إلى أن عجز عن الحركة لكبر سنّه و استعفى، فأخرج السلطان إقطاعه لولده المقام الفخرى عثمان زيادة على ما بيده، فلم تطل مدّة ألطنبغا هذا بعد ذلك و مات، و كان عاقلا ديّنا خبيرا عارفا بأنواع الفروسيّة، رأسا فى لعب الرّمح معلّما فيه، و لهذا كان شهرته بالمعلّم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين برسباى بن عبد اللّه السّاقى المؤيّدى أحد أمراء العشرات، فى يوم الجمعة سابع عشرين جمادى الأولى، و أنعم السلطان بإمرته على الأمير جانم الظاهرىّ السّاقى، و كان برسباى رجلا عاقلا ساكنا حشما وقورا - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير جمال الدين يوسف بن يغمور نائب قلعة صفد بها فى أوائل شعبان، و كان مولده بالقاهرة، و تشتّت بالبلاد إلى أن قدم القاهرة بعد موت الملك المؤيّد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰

شيخ، و ترقّى إلى أن ولى نيابة قلعة صفد، ثم نقل إلى أتابكية صفد، ثم أعيد إلى نيابة قلعتها ثانيا، إلى أن مات، و كان عارفا مدبّرا سيوسا عاقلا- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الإمام العالم العلّامة زين الدّين عمر ابن الأمير سيف الدين قديد القلمطاوى بمكّة المشرّفة فى مجاورته فى ثامن عشر شهر رمضان، و سنّة ثمان و ستون سنة، و كان إمام عصره فى النحو و العربيّة و التّصريف، و له مشاركة كبيرة فى فنون كثيرة، و كان يتزيّا بزىّ الأجناد، و يتقلّل فى ملبسه، و لا يتعاظم فى أحواله، و يركب الحمار مع عراقته فى الرّياسة و تبحّره فى العلوم، حتى إنه مات و لم يخلف بعده مثله فى علم العربيّة و التّصريف.

و توفّى الأمير الطواشى زين الدين خشقدم الرّومى اليشبكى، مقدم المماليك السّلطانيّة- بطّالا- بداره التى أنشأها بالقرب من قنطرة طقز دمر خارج القاهرة، فى ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال، و سنّه نيف على سبعين سنة، و كان أصله من خدّام الوالد، و قدّمه فى سنة تسع و تسعين إلى الملك الظّاهر برقوق فى جملة خدّام و مماليك، فأنعم به الظاهر على فارس الحاجب، ثم ملكه بعد فارس الأمير يشبك الشّعبانى الأتابكى و أعتقه، ثم اتّصل بعد موت أستاذه بخدمة السلطان، و صار من جملة الجمداريّة الخاص، ثم نقل إلى نيابة المقدم، و دام بها سنين إلى أن ولى تقدمة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱

الممالیک السلطانیة بعد موت الافتخاری یاقوت الأرغون شاوی، فی سنة ثلاث و ثلاثین، فدام علی ذلک الی أن قبض علیه الأتابک جقمق العلائی، و حبسه بثغر الإسکندریة مع من حبس من الأمراء الأشرفیة و غیرهم.

ثم أطلق، و توجّه إلی دمیاط، فدام بها مدّة، ثم نقل إلی المدینة الشریفة، و بعد مدّة قدم إلی القاهرة فدام بطّالا إلی أن مات.

و کان طوالا حشما متعاظما، صاحب سطوة و مهابة و حرمة زائدة، مع طمع کان فیه و شمم، مع عدم فضیلة- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین طوغان السّیفی آقبردی المنقار نائب الکرک قتیلا بید العربان فی هذه السّنة، و هو من الأصاغر الذین أنشأهم الملک الظاهر جقمق فی أوائل دولته، و لم أعرفه قبل ذلک و لا أعرف معتقه، بل قیل إنه من ممالیک آقبردی المنقار، و قیل نوروز الحافظیّ، و الأوّل أقرب.

و توفّی القاضی جمال الدین یوسف بن الصّیفیّ الکرکیّ المالکی القبطی بطّالا بدمشق فی هذه السّنة، عن سنّ عال، بعد أن ولی نظر جیش طرابلس و کتابة سرّ مصر فی بعض الأحیان بعد موت علم الدین داود بن الکویز، ثم عزل عنها لعدم أهلیّته، و ولی عدة وظائف بالبلاد الشّامیّة إلی أن کبر سنّه و عجز عن المباشرة، فتعطّل إلی أن مات، و قد قدّمنا من ذکره نبذة عند ولایته کتابة السّرّ بمصر فی ترجمة الملک الأشرف برسبای، فلینظر هناک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲

و فرغت هذه السّنة و الملک الظاهر جقمق مریض مرضه الذی مات منه بعد خلعه فی صفر حسبما تقدّم ذکره، رحمه اللّه تعالی، و تسلطن ولده الملک المنصور عثمان فی حیاته.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم خمسة أذرع و أربعة و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۷]

اشارة

ذکر سلطنة الملک المنصور عثمان علی مصر السّلطان الملک المنصور أبو السّعادات فخر الدین عثمان ابن السلطان الملک الظاهر سیف الدین أبی سعید جقمق العلائی الظاهریّ.

و هو الخامس و الثلاثون من ملوک مصر الأتراک، و الحادی عشر من الجراکسة.

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملک الظاهر جقمق نفسه عن الملک، و حضر الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة، و القضاة الأربعة، و جمیع الأمراء، و أعیان الدولة بقاعة الدّهیشة من قلعة الجبل، و بایعوه بالسلطنة فی الثانیة من نهار الخمیس الحادی و العشرین من محرم سنة سبع و خمسین و ثمانمائة، و کانت البیعة له بالسلطنة فی الثانیة من نهار الخمیس بعد طلوع الشمس بخمس و عشرین درجة، و لبس الخلعة علی العادة، و رکب من الدهیشة و علیه السواد الخلیفتی بشعار الملک و أبهة السلطنة علی نحو ثلاثین درجة من طلوع الشمس.

و سار و بین یدیه الأمراء و أعیان المملکة إلی أن نزل بالقصر السلطانی، و حمل الأمیر الکبیر إینال العلائی الناصری القبّة و الطّیر علی رأسه، إلی أن جلس علی تخت الملک، و قبّل الأمراء الأرض بین یدیه، و خلع علی الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة، و علی الأمیر الکبیر إینال المذکور، علی کل منهما أطلسین متمّرا، و فرسا بسرج ذهب، و کنبوش زرکش، و أنعم علی الخلیفة بألف دینار، و بإقطاع هائل زیادة علی ما بیده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴

و تمّ أمره فی السلطنة، و لقّب بالملک المنصور، و عمره یومئذ نحو الثمانی عشرة سنة تخمینا.

و كان الطالع عند بيعته بالسلطنة سبعا و عشرين درجة من برج الحوت، و الغارب برج السّنبلة، و المتوسط برج القوس، و السّاعة ساعة المرّيخ، و القمر بالوجه الثالث من برج العقرب.

و استمرّ الملك المنصور بالقصر السلطانى ساعة، ثم عاد إلى منزله بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، و هذا بخلاف عادة الملوك، لأن العادة جرت أنّ السّلطان إذا تسلطن يمكث بالقصر ثلاثة أيام بلياليها، و عنده أعيان الأمراء و الخاصّكيّة، فأبطل ذلك كلّه الملك المنصور، و عاد من يومه، لكون والده على خطة و هو حاضر الحس، و فعل ذلك مراعاة لخاطره.

ثم فى يوم السبت ثالث عشرين المحرم جلس الملك المنصور على الدكّة بالحوش السلطانى، و حضر الأمير دولات باى المحمودى الدّوادار الكبير أمير حاج المحمل إلى بين يديه، و قبّل الأرض، و خلع عليه، و نزل إلى داره.

ثم أصبح يوم الأحد طلع المقام الغرسى خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج إلى القلعة، و قد حضر أيضا من الحج، و سلّم على الملك المنصور، فأقبل عليه المنصور، و خلع عليه كامليّة صوف بنفسجى بمقلب بفرو سمّور، ثم خرج من عنده و دخل إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵

الملك الظاهر جقمق، و عاده و سلّم عليه بقاعة الدّهيشة، و قبل أن ينزل رسم له الملك المنصور بالتوجّه من يومه إلى ثغر دمياط.

و كان الملك الظاهر جقمق لما استقدمه من الإسكندرية للحج أطمعه بالسّكنى فى القاهرة، فنزل خليل المذكور إلى تربة جدّه الملك الظاهر برقوق بالصحراء، و سافر منها ليلته إلى دمياط.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشرين المحرّم أنعم السّلطان الملك المنصور بإقطاعه الذى كان بيده أيام أبيه على الأمير تنم من عبد الرزّاق أمير مجلس.

و أنعم بإقطاع تنم- و هو أيضا تقدمة ألف- على الأمير يونس الأقبائى شاد الشّراب خاناه.

و أنعم بإقطاع يونس على الأمير جانبك القرمانى- الظاهرىّ برقوق- ثانى رأس نوبة، و الإقطاع إمرة أربعين طبلخاناه.

و أنعم بإقطاع جانبك القرمانى على الأمير يشبك الناصرى، و هو أيضا إمرة أربعين.

و أنعم بإقطاع يشبك الناصرى- و هو إمرة عشرة- على الأمير كزل السودونى المعلّم، و كان بطّالا.

ثم فى يوم الثلاثاء سادس عشرينه حضر الملك المنصور خدمة القصر على العادة قديما، لأن والده الملك الظاهر كان أبطل خدمتى السبت و الثلاثاء من القصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶

و خلع على الأمير لاجين الظاهرىّ الزّرد كاش ولالاة الملك المنصور باستقراره شاد الشّراب خاناه عوضا عن يونس المقدّم ذكره.

و خلع على جانبك قرا الظاهرىّ- جقمق- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة باستقرارة زرد كاشا عوضا عن لاجين المذكور.

ثم توجّه الملك المنصور من القصر إلى البحرة بالحوش السلطانى، و طلب به مباشرى الدولة، و حضر الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و الطّواشى فيروز الرّومى النّوروزى الزّمام و الخازندار، و كلّمهم فى أمر المماليك السلطانيّة، و من أين تكون النفقة عليهم، لأن الملك الظاهر لم يدع فى الخزائن شيئا، و طال جلوسهم عنده إلى قريب الظهر، و انفضّ المجلس بعد كلام طويل، و اختلفت الأقوال فيما وقع فيه من الكلام، و محصول ذلك كله أن السلطان شكا للجماعة قلّة وجود المال بالخزانة السلطانية، و سألهم فى المساعدة فى أمر النفقة، فدار الكلام بينهم فى ذلك، إلى أن التزم كلّ منهم بحمل شىء مساعدة له فى نفقة المماليك، و انفضّ المجلس بعد أمور حكيناها فى الحوادث.

ثم فى يوم الخميس ثامن عشرين المحرّم خلع السلطان على الأمير جانبك الظّاهرىّ بالتكلم على بندر جدّة على عادته فى كل سنة، و خلع على عدّة من الخاصّكيّة بالتوجّه إلى البلاد الشامية بالبشارة بسلطنة الملك المنصور عثمان، و هم:

جانم الأشرفىّ السّاقى البهلوان، توجّه إلى نائب الشام الأمير جلبّان.

و طوخ النّوروزى رأس نوبة الجمداريّة إلى نائب حلب الأمير قانى باى الحمزاوى.

و برسباى الأشرفى الأمير آخور إلى نائب طرابلس الأمير يشبك النّوروزى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷

و قايتباى الأشرفى الأمير آخور إلى نائب حماة الأمير حاج إينال اليشبكى.

و دولات باى إلى نائب صفد الأمير بيغوت الأعرج المؤيّدى.

و تمر الأشرفى الخاصّكىّ إلى نائب قلعة دمشق و قضاتها و غيرهم.

و سودون يكرك إلى نائب غزة جانبك التاجىّ.

و خشقدم مملوك قراجا الأشرفى إلى نائب الكرك و القدس.

و إينال الظاهرى- جقمق- إلى نائب الإسكندرية برسباى البجاسى.

ثم فى يوم السبت سلخ المحرم أعاد السلطان الجمع بقاعة البحرة من قلعة الجبل بسبب نفقة المماليك السلطانية، و أعاد على مباشرى الدولة الكلام فى أمر النفقة، فكثر الكلام بسبب ذلك، و كان زين الدين الأستادار قد تقرّب إلى الملك المنصور أيام والده، و صار أستاداره و اختصّ به، و مهّد أموره معه، فلما تسلطن ظنّ أنه سيكون من أمره فى دولته أضعاف ما كان له فى دولة والده الملك الظاهر جقمق، و أخذ فى هذا الجمع يمتنع من حمل ما قرّر عليه من الذهب برسم نفقة المماليك، و أنه فى حمله بوظيفة الاستادارية، و أوسع و صمّم على مقالته، و كان فى المجلس الأمير جانبك الظاهرى.

نائب جدّة- و الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش- و هو أعدى عدوّ لزين الدين الأستادار- مع من حواه المجلس من الأمراء و أعيان المملكة، و كثر الكلام بسبب امتناع زين الدين من حمل المال، و تغيّر السلطان عليه بسبب ذلك، فأمر يمسكه و عزله، و تولية الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة للأستاداريّة، و أحضر فى الحال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸

خلعة الأستاداريّة و ألبسها للأمير جانبك المذكور، و نزل إلى داره و بين يديه وجوه الدّولة، و سرّ الناس قاطبة بعزل زين الدين المذكور عن الأستادارية، فإنه كان طال و استطال، و ظلم و عسف، و أخذ عدّة إقطاعات من أخباز المماليك السلطانية و الأمراء؛ استولى عليها بالشّوكة، و أضافها إلى الديوان المفرد، و حجر على غالب الأشياء، و استولى عليها من معايش الفقراء و أرباب التكسّب، و صار هو يأخذها ثم يبيعها بأضعاف ما أخذها، حتى جمع من هذا المال الخبيث أموالا كثيرة، و عمّر منها الجوامع و المساجد و السّبل، فكان حاله فى ذلك كقول القائل:

[الطويل]

بنى جامعا للّه من غير ماله فكان بحمد اللّه غير موفّق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها لك الويل، لا تزنى و لا تتصدّقى

و قد حرّرنا أحواله من ابتداء أمره إلى يوم عزله فى غير هذا المحل- و المقصود هنا الآن أخبار الملك المنصور- ثم رسم الملك المنصور بحبس زين الدين و إلزامه بخمسمائة ألف دينار.

ثم أنعم الملك المنصور على الأمير بردبك الظاهرى- جقمق- البجمقدار، أحد أمراء الخمسات بإمرة عشرة من الديوان السلطانى، و أنعم بإقطاع بردبك على سودون من سلطان الظاهرى البجمقدار حسابا عن إمرة عشرة ضعيفة، و أنعم على جانبك القجماسى الأشرفى المعروف بدوادار سيّدى بإمرة عشرة أيضا من الذخيرة من المتوفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹

و فى عصر هذا النهار سلّم السلطان زين الدين يحيى الأستادار المنفصل إلى الأمير جانبك الظاهرى الأستادار المستقر فى الأستادارية،

و أمره بمعاقبته، فنزل به من القلعة على أقبح وجه، فنعوذ بالله من زوال النّعم، و ما ربّك بظلّام للعبيد، و ازدحم الناس تحت القلعة لرؤيته، فما منهم إلا شامت أو متهكّم، فتفضّل عليه الأمير جانبك، و تنزّه عن عقوبته، رحمة عليه لا خوفا من عاقبته، و أعاده إلى القلعة فى يوم الأربعاء، و قد حرّرنا ذلك كلّه فى الحوادث.

ثم فى يوم الاثنين ثانى صفر خلع السلطان على الأمير فيروز النّوروزىّ الزّمام الخازندار بإعادة الذخيرة إليه.

و خلع على الأمير قشتم الناصرىّ باستقراره فى نيابة البحيرة على عادته أوّلا على كره منه، و هو أيضا أحد أعداء زين الدين الأستادار، و كان قشتم من محاسن الدهر.

و فيه أنعم الملك المنصور على السّيفى قانصوه المحمدى الساقى الأشرفى بإمرة عشرة من الذخيرة أيضا، و قانصوه أيضا من نوادر الدهر و محاسنه.

و مات السلطان الملك الظاهر جقمق فى تلك الليلة حسبما ذكرناه فى خمس مواطن من مصنفاتنا، لا حاجة فى ذكره هنا ثانيا.

ثم فى يوم الأربعاء ثانى يوم دفن الملك الظاهر جقمق نودى بالقاهرة بالأمان و النّفقة فى المماليك السلطانيّة فى آخر صفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰

و فيه نقل زين الدين الأستادار إلى طبقة الخازندار فيروز على حمل ما قرّر عليه.

و فيه خلع السلطان على جانبك الأشرفى اليشبكى والى القاهرة، و على ير على محتسب القاهرة، و على الناصرىّ محمّد بن أبى الفرج نقيب الجيوش المنصورة باستمرارهم.

و خلع على الأمير قراجا العمرى الناصرىّ كاشف الشرقيّة بالوجه البحرى، بعد عزل عبد اللّه عنها، فتزايد سرور الناس بعزل هذا الظالم أيضا.

ثم فى هذا اليوم عوقب زين الدين الأستادار بالعصىّ و المعاصير، و ضرب على سائر أعضائه، و حضر الناصرىّ محمد بن أبى الفرج عقوبته، و كان السلطان ألزمه باستخراج الخمسمائة ألف دينار منه.

ثم فى يوم الثلاثاء استقرّ الزينى فرج بن النحّال كاتب المماليك فى نظر الدولة و خلع السلطان على تنم الخاصّكىّ الظاهرى المعروف برصاص باستقراره فى التّكلم على بندر جدّة عوضا عن الأمير جانبك الظاهرى الأستادار بسفارة جانبك.

ثم فى يوم الخميس ثانى عشر صفر أمسك السلطان الملك المنصور- برأى مماليك أبيه- جماعة من الأمراء المؤيدية، و هم: الأمير دولات باى المحمودىّ المؤيدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱

الدّوادار الكبير، و الأمير يرشباى الإينالى المؤيدى أحد أمراء الطّبلخانات و أمير آخورثان، و الأمير يلباى الإينالى أحد أمراء الطّبلخانات و رأس نوبة؛ و كان القبض على دولات باى بقاعة الدّهيشة، و على يرشباى بالإسطبل السلطانى، و على يلباى من سوق الخيل، و قيّدوا الجميع إلى بعد أذان الظهر، فأنزلوا بالقيود على البغال إلى النّيل، و حملوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها، و كان مسفّر دولات باى الأمير جانبك قرا الذى استقرّ زردكاشا، و قد تولّى نيابة الإسكندرية فى الباطن عوضا عن برسباى البجاسى، و حمل إليه التقليد بعد يومين، فاتّضع بمسك هؤلاء قدر المؤيدية، و ارتفع أمر الأشرفية.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشر صفر أنعم السلطان على الأمير قرقماس الأشرفى الجلب، أحد أمراء الطّبلخانات و قريب الأشرف برسباى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصرية، عوضا عن دولات باى المحمودى بحكم حبسه، و أنعم بإمرة قرقماس المذكور على الأمير جانبك النّوروزى، المعروف بنائب بعلبك و القادم من مكة قبل تاريخه.

و فيه استقرّ الأمير تمربغا الظّاهرىّ الدّوادار الثانى و أحد أمراء العشرات دوادارا كبيرا، عوضا عن دولات باى، و أنعم عليه بإمرة أربعين، و هو إقطاع يرشباى الإينالى، و أنعم بإقطاعه على يشبك الظاهرى بعد أيام.

و فيه أيضا استقرّ الأمير أسنباى الجمالى الظاهرى أحد أمراء العشرات دوادارا ثانيا،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲

عوضا عن تمربغا على إقطاعه إمرة عشرة من غير زيادة، و استقرّ الأمير سنقر العائق الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانيا عوضا عن يرشباى، و استقرّ الأمير يردبک البجمقدار أمير آخور ثالثا، عوضا عن سنقر المذکور، و استقرّ الأمير جانبک اليشبکى و الى القاهرة زردکاشا عوضا عن جانبک قرا المتوجّه إلى نيابة الإسکندرية، مضافا إلى ما بيده من الولاية و الحجوبيّة و شدّ الدواوين، فعظم ما وقع فى هذا اليوم من الولاية و التغايير على أعيان الأمراء، و نفرت القلوب من الظاهريّة فى الباطن بسبب تولية تمربغا الدوادارية الکبرى، و کان الأمير أسنبغا الطّيّارى رأس نوبة النّوب رشّح لولايتها، و أن يکون الأمير جرباش المحمدى کرد رأس نوبة النّوب عوضه.

و بات الناس على ذلک، فأصبح وقع ما حکيناه، و من يومئذ وقع الکلام فى الدّولة و وجد من له غرض فى إثارة الفتنة مدخلا يدخل منه، و ترقّب الناس وقوع الفتنة، غير أن الناس فى سکون، و البواطن مشغولة إلى ما سيأتى ذکره.

ثم فى يوم الثلاثاء سابع عشره أنعم السلطان على الأمير سونجبغا اليونسى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بإقطاع الأمير يلباى الإينالى بحکم حبسه بالإسکندرية و أنعم بإقطاع سونجبغا المذکور و إقطاع جانبک النّوروزى نائب بعلبک على قانى بک السّيفى يشبک بن أزدمر أحد الدوادارية، و على قوزى الظاهرى الساقى، و استقرّ سنطباى الظاهرى ساقيا عوضا عن قوزى، و خير بک الأشرفى صاحب تمراز المصارع دوادارا عوضا عن قانى بک.

و فيه أيضا عوقب زين الدين أشدّ عقوبة بحضرة الأمير جانبک الظاهرى الأستادار و غيره، و هو لا يظهر ماله من الذخائر غير ما أخذ له، و هو دون المائة ألف دينار، ذکرنا تفصيلها فى غير هذا المحل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳

و فى هذه الأيام أشيع بوقوع فتنة، و وثوب المماليک السلطانية بسبب النفقة عليهم.

و فيه استعفى الأمير الوزير تغرى بردى القلاوى الظاهرى من الوزر، فأعفى على أنّه يقوم بالکلف السلطانية فى يومه و من الغد.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن عشر صفر عقد مجلس بين يدى السلطان بالقضاة الأربعة بسبب أملاک زين الدين الأستادار الموقوفة عليه و على جوامعه و مساجده، و وقع بسبب ذلک أمور آل الأمر إلى بيعها.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الصاحب أمين الدين بن الهيصم باستقراره وزيرا على عادته، قلت: إذا أعطى القوس لراميه.

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه عمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى بسبب قصّاد ملک الحبشة، و کان أشاع أهل الفتن فى أمسه أن السلطان يريد يعمل الخدمة بالحوش ليقبض على جماعة کبيرة من الأعيان، فانفضّ الموکب، و لم يقع شىء من ذلک.

ثم فى يوم الاثنين ثالث عشرين صفر المذکور رسم السلطان للأمير جرباش الکريمى الظاهرى- برقوق- أمير سلاح بلزوم بيته بحکم کبر سنّه و عجزه عن الحرکة، و کان جرباش من القبائح، و أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير قراجا الظاهرى- جقمق- الخازندار، و صار من جملة أمراء الألوف، و قراجا المذکور من خيار أبناء جنسه دينا و عفّة و کرما، و أنعم بإقطاع قراجا و وظيفته على الأمير أزبک من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴

ططخ الظاهرى- جقمق- الساقى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و أنعم بإقطاع أزبک على الأمير بتخاص العثمانى الظاهرى برقوق، و کان بطّالا.

و فيه أيضا استقر الأمير تنم من عبد الرّزاق المؤيدى أمير مجلس أمير سلاح عوضا عن جرباش الکريمى قاشق بحکم لزومه داره.

و فيه خلع السلطان على الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الکبير خلعة الأنظار المتعلقة بالدّواداريّة، و نزل بخلعته فى موکب جليل، و

لسان حاله ينشد: - [البسيط]

من راقب الناس مات غمّا و فاز باللذّة الجسور

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشرينه خلع السلطان على الأمير تنبك البردبكى الظاهرى المعزول عن حجوبيّة الحجّاب قبل تاريخه، باستقراره أمير مجلس عوضا عن تنم المنتقل إلى إمرة سلاح، و من الغريب أنه لما ولى إمرة مجلس، و طلع إلى القلعة بعد ذلك، و جلس فى الموكب، قعد قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير فوقه، و هذا شىء لم يعهد من أن أمير آخور يجلس فوق أمير مجلس، فعدّ ذلك من جنون قانى باى و قلّة أدبه، إذ [أن] تنبك المذكور فى مقام أستاذه، لأنه خچداش چاركس،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣۵

و أيضا أنه كان فى الدّولة الأشرفيّة أمير مائة و مقدّم ألف، و قانى باى جندى بحياصة، فما ثمّ وجه من الوجوه لجلوسه فوقه.

و فيه أيضا عزل السلطان جماعة كبيرة من الخاصّكيّة البوّابين من المؤيّديّة، و ولّى عوضهم جماعة من حواشيه، فزاد ما بالمؤيّديّة، و أخذوا فى عمل الرّكوب فلم يكن لهم طاقة لذلك لقلّتهم؛ فلم يجدوا بدّا من مصالحة الأشرفية ليكونوا معا، فسعوا فى ذلك فى الباطن إلى ما يأتى ذكره.

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشرينه وصل إلى القاهرة مملوك الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب، و مملوك نائب قلعتها، و حاجبها، و قبّلوا الأرض، و أخبر مملوك نائب حلب عن مخدومه أنه قبّل الأرض، و سرّ بسلطنة الملك المنصور إلى الغاية، فرحّب السلطان بهم و خلع عليهم.

ثم فى يوم الخميس سادس عشرين صفر قرى تقليد السلطان الملك المنصور بالسلطنة بالقصر الكبير السلطانى من قلعة الجبل، فجلس السلطان على كرسى الملك، و جلس الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة على الأرض على يمينه، فعظم ذلك على الخليفة، و لم يبده إلا بعد ركوب الأتابك إينال، و حضر القضاة الأربعة و تولّى قراءة التقليد القاضى محبّ الدين بن الأشقر كاتب السّرّ، و بعد فراغ القراءة خلع السلطان الملك المنصور على الخليفة و على كاتب السّر، و خلع على القضاة الأربعة.

ثم فى يوم السبت ثامن عشرين صفر خلع السلطان على قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى بإعادته إلى قضاء القضاة، بعد عزل شرف الدين يحيى المناوى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣۶

و فيه استقرّ السيفى يشبك القرمى الظاهرى و الى القاهرة بحكم عزل جانبك اليشبكى، بحكم انتقاله إلى الزرد كاشية، حسبما تقدّم ذكره.

هذا و قد أخذت المؤيّدية فى استمالة الأشرفيّة من يوم قبض الملك المنصور على خچداشيتهم دولات باى و رفقته (٢)، و لا زالوا بهم حتى وافقوهم لحزازة كانت فى نفوس الأشرفيّة أيضا من الملك الظاهر جقمق قديما، و قد تجدّد مع ذلك أيضا قول بعض أمراء الظاهرية للأشرفيّة فى أخذ ابن أستاذهم الشّهابى أحمد ابن الملك الأشرف برسباى من عند عمّه زوج أمّه الأمير قرقماس الأشرفى، و إرساله إلى ثغر الإسكندرية ليقيم بها عند أخيه الملك العزيز يوسف، فعظم ذلك على أم الشّهابى أحمد، و على زوجها الأمير قرقماس، فكان ذلك من أكبر الأسباب لموافقة الأشرفيّة للمؤيّدية، ثم ساعدهم أيضا من له غرض فى تغيير الدّول، لا رغبة فى أحد بعينه بل حتى يناله ما قد أمّل، و قد صار ذلك عادة عند موت كلّ سلطان من عهد الملك المؤيد شيخ إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة؛ لعدم أهلية الملوك، و لغفلتهم عن هذا المعنى فى أيام عزّهم، و أعجب من هذا أنّ أحدهم لا يزال فى غفلة عن ذلك حتى يشرف على الموت، فيعهد لولده بالسلطنة مع معرفته و تحقّقه بما يفعلونه مع ولده من بعده، كما فعل بأمثاله، و قد قيل فى المثل: «إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك انظرها بعد غيرك»؛ فلما انتظم الصلح بين الطائفتين سرّا تحالفوا و اتفقوا على الركوب فى يوم بعينه.

كلّ ذلك و المنصور و مماليك أبيه و حواشيه فى غفلة عن ذلك، و أكبر همّهم فى تفرقه الإقطاعات و الوظائف، و فى ظنّهم أن

دولتهم تدوم، و أن الملك قد صار بيدهم، هذا مع عدم التفاتهم لتقريب العقلاء، و مشاورة ذوى التدبير و أرباب التجارب ممن مارس تغيير الدّول و الحروب و الوقائع، و صار أحدهم إذا لوّح له بعض أصحابه بشيء مما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷

يدلّ على ذلک يستخفّ عقله و يهزأ به، حتى لقد بلغنى من بعض أصحابنا الثقات أنه قال للأمير تمربغا مشافهة. «بلغنى أن الأشرفيّة فى عزم الرّكوب على السلطان» فضحک تمربغا و قال: «هم نقطوا بعقلهم»؛ ازدراء بأمرهم و استخفافا بشأنهم، و ليس هذا من شأن من قد صار أمور المملكة بيده فى سائر أحوالها، و إنما شأن الذى يكون فى هذه الرتبة أن يفحص دائما عن أخبار أصدقائه و أعدائه، و لا يكذّب مخبرا و لا ينهر منذرا، بل يسمع كلام كلّ ناصح نصحه، فيأخذ ما صلح بباله، و يترک ما لم يعجبه، من غير أن يفهم عنه لأحد من نصحائه عدم قبول كلامه، بل يشكره على ذلک و يثنى عليه، و يحرّضه على ما هو فيه، و يصغى لكلام كلّ قائل حتى يفهمه، ثم يفعل ما بدا له، هذا مع الاحتراز و التحرّى فى أموره، و استجلاب الخواطر، و تأليف القلوب له و لسلطانه، ما دامت الدولة مضطربة كما هى عادة أوائل الدّول، فيصير بذلک فى غالب أموره على يقظة، فإن كان خيرا فيحمد اللّه على التوفيق، و إن كان شرّا فيتأهب لذلک قبل وقوعه، ثم بلقاه بعد استحكام و استعداد بقوة جنان، و بذل النفوس و الأموال، و هيهات بعد ذلک إن تم الأمر أو لم يتم، فإن كان النصر فهو من عند اللّه، و إن كانت الأخرى فيكون لما سبق فى الأزل، فيزول ملكه، و هو معذور مشكور، لاندمان مقهور، فأين هذا مما كان فيه هؤلاء القوم، و قد صار الناس عند الأمير الكبير إينال، و لبسوا السلاح، و أجمعوا على قتالهم، و هم إلى الآن فى تكذيب الأخبار و استبعاد ما سيكون، فمن أساء لا يستوحش، و المفرّط أولى بالخسارة، و عدم التدبير هو أصل التدمير، و هو كما قيل: - [السريع]

ما يفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

و بات الملک المنصور و أمراؤه فى ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل على تفرقة النفقة على المماليک السلطانية فى غده، و قد انبرم أمر القوم، و تجهزوا لما عساه يكون.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸

ذكر (ابتداء الوقعة بين السلطان الملک المنصور عثمان و بين الأتابک إينال العلائى)

و أهلّ شهر ربيع الأول يوم الاثنين، و فيه كان ابتداء الوقعة بين السلطان الملک المنصور عثمان و بين الأتابک إينال العلائى حسبما نذكره هنا على سبيل الاختصار، و قد حرّرنا ذلک فى تاريخنا «حوادث الدهور» باستيعاب.

فلما كان وقت السّحر من يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و خمسين و ثمانمائة ركب جماعة كبيرة من أعيان المماليک الأشرفية، و رافقهم جمع كبير من المؤيّديّة و السّيفيّة و غيرهم من غير لبس سلاح، و وقفوا بالرّميلة من تحت القلعة لمنع الأمراء من طلوع الخدمة، و كان بالصّدف بات تلک الليلة جميع الأمراء فى بيوتهم، لكون السلطان كان فى أمسه لم يتوجّه إلى القصر، و أمر بعمل الخدمة من الغد بالحوش السّلطانىّ، ليبدأ بنفقة المماليک فى اليوم المذكور، فلم يكن إلّا ساعة يسيرة من وقوفهم، و قدم الأمراء جميعا إلى الرّميلة يريدون طلوع القلعة، فتكاثرت المماليک عليهم و احتاطوا بهم، و أخذوهم غصبا بأجمعهم، و عادوا بهم إلى بيت الأمير الكبير إينال العلائى، و هو من جملتهم، و كان سكنه بالدّار التى على بركة الفيل الملاصقة لقصر بكتمر السّاقى تجاه الكبش، و أخذوا من جملة الأمراء الأمير قراجا الخازندار الظاهرىّ، و قد صار من جملة أمراء مقدمى الألوف، و هو أحد أركان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹

مملكة الملک المنصور عثمان، و أخذوا معه أيضا من الظّاهريّة الوزير تغرى بردى القلاوى الظاهرىّ، و بردبک البجمقدار الأمير آخور الثالث.

وفـات الممالیـک من أعیـان الأـمراء الأـمیر تنم من عبـد الرزّاق أمیر سـلاح، فإنه قـد أحسّ بالأمر فی أمسه، فلم یحسن بباله إلّا موافقهٔ السّلطان، لأمر یریده اللّه عزّ و جلّ، فرکب سحرا، و قصد القلعهٔ، و وافاه الأمیر تمربغا الظاهری الدوّادار الکبیر فی طریقه، فطلعا معا إلی الملک المنصور، و اجتمع الممالیک و معهم الأمراء فی بیت الأمیر الکبیر و قد کثر جمعهم، و تزاید عددهم و هم بغیر سـلاح، و صار جمیع الأـمراء معهم فی صـفهٔ التّرسـیم، و لم یبق عنـد الملـک المنصور من أعیـان الأمراء غیر الأمیر تنم أمیر سـلاح، و الأمیر قانی بای الچارکسـیّ الأـمیر آخور الکبیر، و الأـمیر تمر بغا الـدوّادار الکبیر الظاهری، و الأمیر جانبک الأسـتادار؛ و کان أیضا من أمراء الظاهریهٔ بالقلعهٔ برد بک البجمقدار فهؤلاء مقدمو الألوف، و إن کان تمر بغا إقطاعه طبلخاناهٔ، فمنزلته تقدمهٔ، و کذلک جانبک الظاهری.

و کـان عنـد الملـک المنصور من الأـمراء غیر ممالیک أبیه جماعـهٔ منهم یونس العلائی الناصـری نائب قلعـهٔ الجبل، و کزل السّودونی المعلّم، و مغلبای الشـهابی أحـد أمراء العشـرات، و قطّی الدّوکاری نائب البحیرهٔ، و عبد اللّه کاشف الشّرقیهٔ، و من ممالیک أبیه الأمیر لاجین شادّ الشـراب خاناه، و أسـنبای الجمالی الدّوادار الثانی، و أزبک من ططخ الخازندار الکبیر، و هو صهر الملک المنصور و زوج أخته، و سنقر العائق الأمیر

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۶، ص: ۴۰

آخور الثانی، و سنقر أستادار الصّحبهٔ، و جماعهٔ أخر تأمّروا فی الدولهٔ المنصوریهٔ لا یعتدّ بهم؛ کونهم إلی الآن صفهٔ الخاصّکیّهٔ، فهؤلاء [هم] الأمراء.

و أمـا من کان عنـده من ممالیک أبیه الخاصّـکیّهٔ و الجمداریّـهٔ و غیرهم فکثیر جـدا، علی أنه کان بالقلعـهٔ جماعـهٔ کثیرهٔ غیر الظاهریهٔ [الجقمقیهٔ] من الظاهریهٔ [البرقوقیهٔ] و الناصریهٔ و المؤیدیهٔ و الأشرفیّهٔ و السّیفیّهٔ.

و أمـا من کـان مع الممالیـک من أعیـان الأـمراء ببیت الأـمیر الکبیر من المقـدمین، الأمیر الکبیر إینال، و تنبک أمیر مجلس، و أسـنبغا الطّیاری رأس نوبـهٔ النّوب، و خشـقدم المؤیـدی حاجب الحجاب، و طوخ من تمراز الناصـری، و جرباش المحمـدی الناصـری کرد، و یونس الاقبائی، و قرقماس الأشـرفی الجلب، و أما من أمراء الطبلخانات و العشـرات فکثیر ذکرناهم فی غیر هـذا المحل، یطول الشـرح فی ذکرهم.

و لمـا اجتمع القوم فی بیت الأمیر الکبیر، و عظم جمعهم، أتاهم الأمراء و الخاصّـکیّهٔ و الأعیان من کل فـجّ، حتی بقوا فی جمع موفور، فأعلنوا عنـد ذلک بالخروج عن طاعـهٔ الملک المنصور، و الـدّخول فی طاعهٔ الأمیر الکبیر إینال، و الأمیر الکبیر یمتنع من ذلک بلسانه، فلم یلتفتوا لتمنّعه، و أخـذوا فی لبس السـلاح، فلبسوا فی الحـال عن آخرهم، و طلبوا الخلیفـهٔ القـائم بـأمر اللّه حمزهٔ، فحضـر قبـل تمام لبسهم السلاح، و احتفظوا بالأمیر قراجا الظاهریّ، و تغری بردی القلاوی، و بردبک البجمقدار، کونهم ظاهریهٔ جقمقیّهٔ.

و لمـا حضـر الخلیفـهٔ أظهر المیل الکلیّ للأتابک إینال، و أظهر کوامن کانت عنـده من الملک المنصور و حواشـیه، منها: أنّ المنصور جلس یوم قرئ تقلیده علی الکرسیّ و جلس الخلیفهٔ مع القضاهٔ أسفل، و أشیاء من هذا، و قام مع الأمراء فی خلع

النجوم الزاهرهٔ فی ملوک مصر و القاهرهٔ، ج۱۶، ص: ۴۱

المنصور أتمّ قیـام، کـلّ ذلـک و الممالیک فی احتراز عظیم علی جماعـهٔ من الأمراء؛ خوفا من فرارهم إلی الملک المنصور حتی علی الأمیر الکبیر.

و لمـا تکامـل لبس الممالیـک و الأـمراء السـلاح طلبوا من الأـمیر الکبیر الرّکوب معهم و التوجّه إلی بیت قوصون تجاه باب السلسـلهٔ، فامتنع تمنّعا لیس بذاک، ثم أجابهم فی الحال، و رکـب هو و الأمراء و حولهم العساکر محدقهٔ بهم إلی أن أوصلوهم إلی بیت قوصون المـذکور، و دخلوه من باب سـرّه الـذی بالشارع الأعظم، و نزل الأمیر الکبیر بمن معه من الأمراء بالمقعد من الحوش، و جلس الخلیفهٔ بالقصـر الفوقانی بالبیت المذکور، و رسم علی قراجا و تغری بردی القلاوی و بردبک بالقصر أیضا، کل ذلک و القوم فی غیر ثقهٔ من الأمیر الکبیر و غیره من الأمراء، حتی کلّم الأمیر الکبیر بعض أصحابه العقلاء بکلام معناه قول القائل: [البسیط]

إذا وترت امرءا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

إن العدوّ و إن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوما فرصة وثبا

و أظن القائل له الأمير أر نبغا الناصرى أحد أمراء الطبلخانات، فإنه كان أمثل القوم و أقواهم بأسا و أفرطهم شجاعة.

و أما الملك المنصور لما بلغه ما وقع من القوم فى بيت الأمير الكبير تحقق من عنده من الأمراء و الأعيان ركوب الأمير الكبير و خروجه عن الطاعة، فأمروا فى الحال يشبك القرمى و الى القاهرة أن ينادى بطلوع المماليك السلطانيّة لأخذ النفقة، و أن النفقة لكل واحد مائة دينار، فنزل يشبك من القلعة و المنادى بين يديه ينادى بذلك، إلى أن وصل إلى الرّميلة تجاه باب السلسلة، فأخذته الدّبابيس من المماليك، فتمزقوا، و ذهب القرمى إلى حال سبيله، ثم أمر الملك المنصور لأمرائه و حواشيه بلبس السلاح، فلبسوا بأجمعهم، و لبس هو أيضا، كل ذلك و آراؤهم مفلوكة، و كلّهم غير منضبطة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۲

و صرت أنا أنظر إليهم من أسفل القلعة، فلم أجد عندهم انزعاجا و لا هرجا مع جمودة حركاتهم، و لم ينزل من القلعة أحد لحفظ المدرسة الحسنيّة مع معرفتهم أنها مسلّطة على القلعة غاية التسليط، هذا مع كثرتهم و قوّة بأسهم بالقلعة و السلاح و الرجال، و عندهم السلطان و شوكته إلى الآن منقامة - فما شاء اللّه كان.

و أما الأمير الكبير فإنه حال ما استقرّ به الجلوس ندب دواداره و صهره بردبك، و معه الأمير سونجبغا اليونسى رأس نوبة، و نوكار الناصرى أحد أمراء العشرات و ثانى حاجب إلى القلعة رسالة إلى الملك المنصور يطلب منه إخماد الفتنة بإرسال جماعة من أمرائه، و هم: تمربغا الدّوادار الكبير، و لاجين شادّ الشّراب خاناه، و أسنباى الدوادار الثانى، فطلعوا إلى الملك المنصور و كلّموه فى ذلك، و عادوا إلى الأمير الكبير بأجوبة طويلة مضمونها أنه امتنع من تسليمهم، فأرسلهم الأمير الكبير ثانيا، و صحبتهم بردبك دواداره و صهره، فتوجهوا إلى القلعة، و طلعوا إلى المنصور ثانى مرّة، و طلبوا منه ما ذكرناه، فامتنع، و عوّق عنده سونجبغا و نوكار، و أرسل بردبك بالجواب.

و ابتدأ القوم فى القتال من يوم الاثنين المذكور، و اشتدّ الحرب، و جرح من الطائفتين جماعة، ثم خرج جماعة من أصحاب الأمير الكبير، لأخذ مدرسة السلطان حسن فامتنع من بها من فتح أبوابها، فنقبوا حائطا من جوارها مما يلى حدرة البقر، و دخلوا منه إلى المدرسة المذكورة، و عمّروا سلالم سطحها، و طلعوا منه إلى مآذنها، و رموا منها بالمدافع على قلعة الجبل، و قوى أمر أصحاب الأمير الكبير بأخذ المدرسة المذكورة إلى الغاية، غير أن الأمير الكبير إلى الآن يقدّم رجلا و يؤخّر أخرى فى الخلاف على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۳

المنصور، و يحسب العواقب، و صار يظهر أنه مكره على ذلك، فلم يقبل المنصور منه ما أظهره، و تحقّق كل أحد ما القصد بالركوب. ثم نزل الملك المنصور من القصر السلطانى بأمرائه و عسكره إلى الإسطبل السلطانى، و جلس بالمقعد المطل على الرّميلة، و نزل من عساكره جماعة مشاة من باب السلسلة إلى الرّميلة؛ لقلة وجود الخيل بالقلعة، فإنه كان أيام الربيع و الخيول غالبها مربوطة على القرط بالبرّ الغربى من الجيزة، حتى إنه كان جميع ما بالقلعة من الخيول أقل من مائة فرس، و منعوا من إحضار خيولهم التى بالربيع، و عزّ توصلهم إليها، و قاتلوا القوم و هم مشاة غير مرّة.

و صار أمر الأمير الكبير فى نمو بمن يأتيه من المماليك السلطانيّة، و جميعهم فرسان غير مشاة، فإنه صار كل واحد منهم يرسل غلامه فيأتيه بفرسه من مربطه بالربيع بخلاف القلعيين، فإنهم ممنوعون من ذلك؛ من حجر أصحاب الأمير الكبير عليهم لهذا السبب و غيره.

و لما رأى الملك المنصور أمر الأمير الكبير فى زيادة أراد النزول إليه بعساكره فى الحال من أوّل وهلة، فمنعه قانى باى الچاركسى من ذلك بسوء تدبيره لأمر سبق، و كان فى نزوله غاية المصلحة من وجوه عديدة.

و مضى نهار الاثنين بعد قتال كبير وقع فيه، و بات الفريقان فى ليلة الثلاثاء على أهبة القتال، و أصبحا يوم الثلاثاء على ما هم عليه من

القتال و الرمی بالمدافع و النفوط و السهام من الجهتین، و الجراحات فاشیة فی الفریقین، إلا أن فیمن هو أسفل أکثر، غیر أنه لا یؤثّر فیهم لکثرتهم، و لم یکن وقت الزّوال حتی کثر عسکر الأمیر الکبیر إینال بمن یأتیه أرسالا من الممالیک السلطانیة، و استفحل أمره، لا سیما لما نزل الأمیر جانبک الظاهری أستادار العالیة إلیه داخلا فی طاعته، و معه خجداشه الأمیر بردبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴

البجمقدار، أحد أمراء العشرات، و رأس نوبة، و سرّ الأمیر الکبیر بنزوله إلی الغایة، و کان لنزول جانبک المذکور من القلعة أسباب خفیّة.

ثم فی هذا الیوم لهج الخلیفة أمیر المؤمنین القائم بأمر اللّه حمزة بخلع الملک المنصور عثمان من الملک غیر مرّة فی الملأ، فقوی بذلک قلب أصحاب الأمیر الکبیر و جدّوا فی القتال، و تفرّقوا علی جهات القلعة، و جدّوا فی حصارها، و منعوا من یطلع إلیها بالمیرة و غیرها، و خفّ التّرسیم عن جماعة من الأمراء من أصحاب الأمیر الکبیر ممّن کانت الممالیک تخاف من ذهابهم إلی الملک المنصور، و کانوا قبل ذلک یحتفظون بهم بطریق التحشم، و هو أن الأمیر منهم کان إذا رکب للقتال أو غیره دار حوله جماعة من الممالیک الأشرفیّة و غیرهم و ساروا معه حیث سار کأنهم فی خدمته حتی یعود إلی مکانه، فمن آخر یوم الثلاثاء هذا و من صبیحة یوم الأربعاء ترکوا ذلک لعلمهم أن جمیع الأمراء و العساکر صاروا فی طاعة الأمیر الکبیر، و شرع الجمیع فی القتال بممالیکهم و حواشیهم، و فی عمل التدبیر فی أخذ الملک المنصور و خلعه من السلطنة، و باتوا تلک اللیلة علی ما هم علیه.

و أصبحوا یوم الأربعاء ثالث شهر ربیع الأوّل و القتال عمّال، و أصحاب الملک المنصور تنسّل منه إلی الأمیر الکبیر واحدا بعد واحد، و من بقی منهم عند الملک المنصور لا- یلتفت إلی من ذهب، بل هو علی ما هو علیه من القتال لکثرة عددهم، و للقیام بنصرة ابن أستاذهم، فکان فی یوم الأربعاء هذا وقعات بین الطائفتین بالمناوشات لا بالمقابلة و باتوا علی ذلک.

فلما کان یوم الخمیس رابع شهر ربیع الأوّل أرسل الملک المنصور إلی الأمیر الکبیر بالأمیر سونجبغا، و الأمیر نوکار، و الزینی عبد الرحمن بن الکویز، و شهاب الدین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۵

الإمام الإخمیمی، و معهم مندیل الأمان للأمیر الکبیر و من معه من الأمراء لیطلعوا إلی طاعة السلطان، و ترددوا بین الملک المنصور و الأتابک إینال غیر مرّة فی عمل الصلح، و کثر الکلام بینهم إلی أن انفضّ المجلس علی غیر طائل، و لم ینبرم صلح، و منع الأمیر الکبیر سونجبغا و نوکار من الطلوع إلی القلعة، و عاد الإخمیمی بالجواب إلی السلطان، و فی الحال عاد القتال علی ما کان علیه، فإنه کان بطل الرّمی من القلعة و من المدرسة لعمل الصلح، فلما انفضّ الأمر علی غیر صلح عاد کلّ أحد من الطائفتین إلی ما کان بصدده.

و أعلن الخلیفة فی هذا الیوم أیضا بین الملأ- بخلع الملک المنصور من السلطنة، و سلطنة الأتابک إینال، و الأتابک إینال یمتنع من ذلک فی ذلک الوقت حتی ینظر ما یکون من أمر الملک المنصور و محاصرته.

ثم تکلّم الخلیفة فی الیوم أیضا بین الناس بأعلی کلامه: «قد خلعت الملک المنصور من الملک»، هذا و قد ضعف أمر الملک المنصور و استفحل أمر الأتابک إینال، غیر أن الرّمی من القلعة بالمدافع و غیرها مستمرّ، و هلک من ذلک جماعة کبیرة من عساکر الأمیر الکبیر و من الأجناد و العامة و المتفرجین.

و أصبح یوم الجمعة خامسه حضر المقرّ الجمالی ناظر الجیش و الخاص و عظیم الدّولة عند الأمیر الکبیر، فقام له الأمیر الکبیر و اعتنقه و أجلسه بإزائه فوق الأمیر خشقدم حاجب الحجاب، فعند قدومه تحقّق کل أحد بزوال دولة المنصور و إقبال دولة الأتابک إینال، و تکلّم المقرّ الصحابی مع الأتابک کلاما کثیرا لا یشارکهما فی ذلک أحد إلا فی النادر، ثم رسم الأمیر الکبیر بطلب القاضی محب الدین بن الأشقر کاتب السّرّ و القضاة الأربعة، فحضروا فی الحال و قد نزل الخلیفة من القصر أیضا، و جلس عند الأمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶

الکبیر هو و القضاة و شاهدوا المدافع التی ترمی علیهم من القلعة، و کان أهل القلعة فی یومی الأربعاء و الخمیس قد أمعنوا فی الرمی من القلعة علی الأمیر الکبیر و أصحابه حتی کان المدفع یصل إلی باب سرّ بیت قوصون الذی فیه الأمیر الکبیر، و ربما عدّی الباب و وقع بالشارع علی المارّ إلی صلیبة ابن طولون، و لما حضرت القضاة عند الأمیر الکبیر تکلّموا مع الخلیفة فی خلع الملک المنصور عثمان بکلام طویل، ثم طلبوا بدر الدین ابن المصری الموقّع فأملاه قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی الشافعی ألفاظا کتبها تتضمن القدح فی الملک المنصور و خلعه من السلطنة، و کان ذلک فی أوائل الساعة الثالثة من نهار الجمعة. و خلع الملک المنصور فی الیوم المذکور من الملک و حکم القضاة بذلک.

فکانت مدة سلطنة الملک المنصور من یوم تسلطن بعد خلع أبیه الملک الظاهر جقمق فی یوم الخمیس حادی عشرین المحرم من سنة سبع و خمسین هذه إلی یوم الجمعة هذا شهرا واحدا و ثلاثة عشر یوما، و لا نعرف أن سلطانا أقام هذه المدّة الیسیرة فی ملک مصر فی الدّولة الترکیة غیره، هذا مع کثرة عساکره و ممالیک أبیه و حاشیته، و ما أری هذا إلا نوعا من المجازاة- انتهی.

و لما فرغ بدر الدین المصری من کتابة الورقة أمره قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی أن یقرأ ما فی الورقة علی من حضر المجلس من الأمراء و غیرهم، و قرئت علیهم إلی آخرها، ثم سأل قاضی القضاة من حضر المجلس عن سلطنة الأمیر الکبیر إینال علیهم، فصاحوا بأجمعهم: «نحن راضون بالأمیر الکبیر»، و کرّر القاضی علیهم القول غیر مرّة، و هم یردون الجواب کمقالتهم أوّلا، و فرحوا بذلک، و سرّوا غایة السرور، و انفضّ المجلس علی خلع الملک المنصور و سلطنة الأتابک إینال، غیر أنه لم یلبس خلعة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷

السلطنة، و لا رکب بشعار الملک؛ ترک ذلک لوقته، و صار الناس فی خطابه من یومئذ علی أقسام و ألفاظ مختلفة، فمن الناس من صار یقول له: «یا خوند» و منهم من یقول:

«أغاه»، و منهم من یقول: «الأمیر الکبیر»، و منهم من یقول: «السلطان» کلّ ذلک و هو علی حالة جلوسه کأوّل یوم دخل إلی بیت قوصون المذکور، أعنی من أوّل یوم الوقعة و لم یتغیّر علیه شیء مما کان علیه، و لم یرکب من المقعد المذکور من یوم قدم بیت قوصون غیر مرة واحدة فی یوم الثلاثاء، و عاد من وسط الحوش قبل أن یصل إلی باب البیت النافذ إلی الرّمیلة، ردّه أصحابه إجلالا لقدره، و إنما کان یجلس هو بالمقعد، و الأمراء عن یمینه و یساره جلوسا و وقوفا بین یدیه، و الممالیک و العساکر تخرج من بین یدیه للقتال طائفة بعد أخری باجتهاد و عمل جد فی مدة هذه الأیام من غیر أن یستحثهم أحد لذلک، و هذا شیء عظیم إلی الغایة. [الخفیف]

و إذا سخّر الإله أناسا لسعید فإنهم سعداء

و کنت أنظر فی تلک الأیام إلی وجه الأمیر الکبیر لأتحقّق هل هو مسرور أم محزون، فلا أعرف هذا منه لثباته فی سائر أحواله، و سکونه و عقله، فإنه کان ینفذ الأمور علی أحسن وجه من غیر اضطراب و لا هرج، بتأنّ و تؤدة، و کلما وقع من أصحابه ما یخالف ذلک یأخذ فی تسکینهم و ثباتهم علی القتال من غیر عجلة، ثم یقول لهم:

«القلاع ما تؤخذ إلا بالصّبر و الثبات و التأنی».

ثم إن الأمیر الکبیر أمر فی الیوم المذکور بعمل منبر لیخطب علیه قاضی القضاة بالبیت المذکور لصلاة الجمعة، فصنع ذلک فی الحال، و تهیأ القوم لصلاة الجمعة، فلما دخل وقت الصلاة خطب قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی و صلّی بالأمیر الکبیر و الخلیفة و جمیع العساکر بمقعد البیت المذکور، ثم انصرف القضاة بعد الصلاة إلی منازلهم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸

هذا و القتال مستمرّ أشد ما یکون بین الطائفتین، و قد تداول نزول الخاصکیة و الممالیک من عند الملک المنصور إلی الأتابک إینال، و هم مع ذلک کل یوم فی زیادة فی القتال لا یلتفتون إلی من یذهب من عندهم، و یقول بعضهم لبعض: «نحسبه أنه جرح و

مات، و ما علينا ممّن يتوجّه من عندنا، و نحن نقاتل إلى أن نموت، و الملك المنصور جالس بالقصر السلطانى، و عنده من أكابر الأمراء الأمير تنم أمير سلاح، و الأمير قانى باى الچاركسى.

هذا مع مبالغة أصحاب الأمير الكبير فى القتال أيضا لا سيما من يوم حضر المقرّ الجمالى ناظر الجيوش و الخاص، ثم حضر القضاة، و خلع الملك المنصور فى يوم الجمعة، فمن يومئذ بذلوا نفوسهم لنصرة الأمير الكبير، و خوفا من أن يصير للملك المنصور عليهم دولة، فسيكون فناؤهم على يديه، و أيضا إنهم تحققوا سلطنة الأتابك إينال، فاشتاقت نفوسهم لما عساه ينالهم من الإقطاعات و الوظائف و غير ذلك، فاقتحموا الأهوال لذلك من غير صبر و لا تأنّ: - [الوافر]

و أعظم ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

هذا و الجراحات فاشية فى كلّ من الطائفتين، و يقتل أيضا منهم فى اليوم الواحد و الاثنان و أكثر و أقل.

و لما كان يوم الجمعة المذكور توعّك فيه الأمير أسنبغا الطيّارى رأس نوبة النّوب، و مات من ليلته شبه الفجاءة من غير سابق مرض، و صلّى عليه من الغد بالمقعد من بيت قوصون، و حمل و دفن بالصحراء، و كان من محاسن الدنيا، يأتى التعريف بحاله فى الوفيات كما هى عادة هذا الكتاب.

ثم أصبح يوم السبت سادس شهر ربيع الأول حضر المقرّ الجمالى الصاحبى ناظر الجيش و الخاص عند الأمير الكبير، و صحبته غالب مباشرى الدولة و القضاة، و كتبوا محضرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۹

يتضمّن ما وقع فى أمسه من خلع الملك المنصور من السلطنة و مبايعة العساكر للأمير الكبير بالسلطنة، و كتب فى المحضر جماعة كبيرة من أمراء الظاهرية و غيرهم، و فيه قوادح فى الملك المنصور. ذكرناها فى غير هذا المحل.

و جدّ فى هذا اليوم كلّ من العسكرين فى القتال، و رتّب الأمير الكبير جماعة من أعيان الأمراء على المواضع التى يتوصل منها إلى القلعة، و حرّض الوالى و غيره على مسك من يطلع إلى القلعة من الغلمان و الخدم بالمآكل و غيرها، و مسك بسبب ذلك جماعة و ضرب آخرون.

و فى هذا اليوم و الذى قبله صارت أمراء الألوف تخاطب الأمير الكبير و هم وقوف، و صار لا يقوم لأحد منهم عند ذهابه و إيابه، و كان الأمير أسنبغا الطيّارى رأس نوبة النّوب- رحمه اللّه- فى يوم الجمعة الذى مرض فيه رمّل على كتابة الأمير الكبير على المراسيم و غيرها، و ناهيك بأسنبغا، فإنه كان يوم ذلك أمثل الأمراء و أجلّهم، رأيته أنا و هو يرمّل على علامته من غير أن يحتشم معه الأمير الكبير فى ذلك و لا تجمّل معه، بل صار كلما علّم العلامة و رمى بها أخذها أسنبغا و رمّل عليها كما كان يفعله مع السلطان، فإن العادة لا يرمّل على السلطان إلا رأس نوبة النّوب.

هذا و قد تحقّق أهل القلعة زوال ملك الملك المنصور، و هم على ما هم عليه من الشدّة فى القتال، و القيام بنصرة ابن أستاذهم، غير أنهم كما قيل فى الأمثال: «سلاح حاضر و عقل غائب»، لكونهم شبابا لم تمرّ بهم التجارب، و لا لهم ممارسة بالحروب، و لا يعرفون نوعا من أنواع الخديعة و المكر بأخصامهم، و أيضا لم يكن عندهم من الأمراء و غيرهم ممن له خبرة بهذه الأنواع غير أمير واحد و جندى، و كل منهما غير مقبول الكلمة عندهم. فالأمير كزل المعلّم، و الجندى السيفى كمشبغا الظاهرى- برقوق- المعلم، و أما من عداهما من الأمراء فحالهم معروف لا يحتاج إلى بيان، و أعظم من كان هناك من الأمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۰

الأمير تنم أمير سلاح، و قانى باى الچاركسى الأمير آخور، فأما تنم فإنه لم يأت بشىء إما تقصيرا منه لمعنى من المعانى، أو لقلة دربته بالحروب و الخطوب، و أما قانى باى فحاله معروف لا يحتاج للتعريف به.

و أصبح الناس فى يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول و القتال مستمرّ بين الفريقين، و كلّ منهم فى أشد ما يكون من القيام بنصرة

صاحبهم إلى قريب الظّهر، فنزل من القلعة جماعة كبيرة مشاة إلى عند سبيل المؤمنىّ، فخرج إليهم جماعة كبيرة من عسكر الأمير الكبير، و تقاتلوا بالرّماح و السيوف و الأطبار، و افترقوا ثم التقوا غير مرّة حتى أردف عسكر الأمير الكبير طوخ من تمراز الناصرى من مكانه الذى كان مقيما به عند زاوية قانى باى الچاركسى بجماعته، ثم أردفهم جماعة أخر من عند الأمير الكبير، و التحم القتال بينهم و قتل جماعة من عسكر الأمير الكبير، منهم: طقتمر الناصرى رأس نوبة الجمداريّة تهبيرا، لأنه كان هرب من عند الملك المنصور و نزل إلى الأمير الكبير فى يومه، فلما ظفروا به قتلوه، لما كان فى نفوسهم منه، ثم ممجق اليشبكى الخاصكى أخذ سحبا إلى القلعة، فمات من جراحه، و أيتمش المؤيدى الخاصكى، و قانى باى الأشرفى الخاصكى و غيرهم.

و دام القتال بينهم حتى ملك أصحاب الأمير الكبير سبيل المؤمنى بعد أمور و حروب، ثم أطلقت أصحاب الأمير الكبير النّار فى البيوت التى بجوار الميدان برأى تمراز الأشرفى الزّردكاش، فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمنى و أحرقته عن آخره، و كان بسطحه جماعة كبيرة من السلطانية فنزلوا عنده، فحينئذ وجد أصحاب الأمير الكبير طريقا لهدم سور الميدان، فهدموا جانبا منه، و دخلوا منه إلى الميدان الذى تحت قلعة الجبل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵١

هذا و قد انحاز السلطانيّة إلى باب السلسلة، فكان فى هذا اليوم حرب بين الطائفتين لم يقع مثله فى الستة أيام الماضية.

فلما دخل القوم إلى الميدان ولّت المنصورية الأدبار، و قام السلطان الملك المنصور عثمان من مجلسه بمقعد الإسطبل السلطانى، و طلع إلى القصر الأبلق من قلعة الجبل، و معه جماعة كبيرة من مماليك أبيه و غيرهم من الأمراء و الخاصكيّة، و دخل قانى باى الچاركسى إلى مبيت الحرّاقة من الإسطبل، و دام الأمير تنم بالمقعد مستعزّا بخچداشيّته المؤيديّة و غيرهم، و تمزّقت عساكر المنصور فى الوقت كأنها لم تكن، من غير أمر أوجب ذلك، و تركوا باب السلسلة و فرّوا منه قبل أن يطلع إليه واحد من أصحاب الأتابك إينال، ثم فعلوا ذلك أيضا بقلعة الجبل و تركوها و أبوابها مفتّحة، و لم يقاتلوا بها ساعة واحدة، و تمزّقوا كلّ ممزّق.

و كان هذا بعكس ما كان منهم فى السبعة أيام الماضية من شدّة القتال و عظم الثّبات و قوّة البأس، إلى أن كان من أمرهم ما كان فى هذا اليوم، و تركوا باب السلسلة و القلعة و انصرفوا فى الحال على أقبح وجه، و كان يمكنهم أن يقاتلوا القوم بالميدان أيّاما؛ فإن الميدان لا فرق بينه و بين الرّميلة، و ليس بينه و بين باب السلسلة تعلق، و أيضا و لو ملكت أصحاب الأمير الكبير باب السلسلة و الإسطبل السلطانى كان يمكنهم القتال من القلعة أياما، إذ ليس للقلعة تعلّق بالإسطبل، و قد ملك المؤيّد شيخ أيام إمرته الإسطبل من الأمير أرغون الأمير آخور نائب غيبة الملك الناصر فرج، و دام به أياما، و لم يقدر على أخذ القلعة و لا توصل إليها بوجه من الوجوه، و كان مع الملك المؤيد أقوام هم هم، و أيضا لم يكن بالقلعة يوم ذاك بعض من كان بها الآن، و وقع ذلك لخلائق من الملوك أنهم ملكوا باب السلسلة و لم يقدروا على أخذ القلعة.

و المقصود من هذا الكلام أن ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة إلا فى الأمن و الرّخاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٢

لا غير، كل ذلك لما تقدم ذكره أنه ليس عندهم من يدبّر أمورهم، و إلا فكان يمكنهم أن يطلعوا إلى القلعة و يحصنوها و يقاتلوا بها أياما حتى تعمل مصالحهم، و إذا سلّموها يعطوها بالأمان و الرّضا، هذا إذا لم يكن لهم نهضة للهروب و الخروج من الدّيار المصرية، و الاختفاء فى مكان من الأمكنة من القاهرة، كما فعل غيرهم من الملوك السالفة، على أن أصحاب الأمير الكبير كان أخذ منهم التعب و الجهد فى هذا اليوم و الذى قبله أمرا كبيرا، و كلّ أكثرهم من القتال، فلو امتنعت السلطانيّة بباب السلسلة يوما أو يومين لطال أمرهم بعد ذلك، و وقع لهم أمور ليس فى ذكرها الآن فائدة، و كان أمر المماليك الظاهرية فى مبدأ الأمر عجيبا من شدّة بأسهم أولا، و فى تهاونهم آخرا، و قد قيل فى الأمثال:

«على قدر الصعود يكون الهبوط».

و لما بلغ الأمير الكبير إينال طلوع الملك المنصور من الإسطبل السلطانى إلى القصر الأبلق ندب فى الحال الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد إلى الطلوع إلى باب السلسلة و تسليم الإسطبل السلطانى، و لم يتحرك الأمير الكبير من مكانه، و لا ظهر عليه فرح و لا كآبة، فهذا أيضا مما تعجبت منه، و طلع الأمير جرباش إلى باب السلسلة بعد أن استولى أصحاب الأمير الكبير عليها.

و كان من خير أخذهم لباب السلسلة أن الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى أمير سلاح لما قام الملك المنصور و طلع إلى القصر، و تشتت عساكره ثم دخل قانى باى الچاركسى مبيت الحرّاقة من الإسطبل قام تسم المذكور و مشى إلى المقعد الذى كان يجلس به الملك المنصور فى أيام الوقعة، و أشار إلى القوم بمنديل كان بيده كمن يطلب الأمان، ثم ركب فى الحال و فى زعمه أن الجماعة تتلقاه بالرحب و القبول، لأياد كانت له، و صحبة عند الأمير الكبير قديما و حديثا، و أيضا أن غالب من كان من أصحاب الأمير الكبير هو خچداشه أو صاحبه، فركب فرسه و نزل حتى وقف عند باب السلسلة أسفل الحدرة، و فتحت خوخة باب السلسلة و دخل القوم، فحال ما وقع بصرهم عليه تناولته الألسن و الأيدى بالسب و الضرب، حتى أخذ و أنزل بغير تخفيفة على حالة غير مرضية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳

و لولا أن بعض خچداشيّته المؤيدية حماه لكان أمره ربما وصل إلى التلاف، و كذلك وقع للأمير كزل المعلّم، و أما عبد اللّه كاشف الشرقية فإنه أخذ و رأسه مكشوفة و شيبته قد تضمخت بالدماء السائلة على وجهه من الضرب بالدبابيس، و القوم تهجم عليه كرّة بعد أخرى لهلاكه، لولا قائل كفّهم عنه و هو يقول: «لا تقتلوه؛ يروح مال السلطان، دعوه حتى يأخذ السلطان أمواله»، ثم وقع ذلك بجماعة من الخاصكية يطول الشرح فى ذكرهم من الأخذ و السلب مما عليهم و الإخراق بهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۵۳

أما الأمير تنم فإنه لما أخذوه و دخلوا به إلى الأمير الكبير، و على رأسه قبّع أخضر من غير تخفيفة، و معه كزل المعلّم، و عبد اللّه الكاشف، فأوقف بين يدى الأمير الكبير على بعد، فكان أول ما تكلّم به تنم أن قال: «بينى و بين الأمير الكبير عهود» أو معنى ذلك، فقال الأمير الكبير: «أنت نقضت العهد»، يعنى بتركه و طلوعه إلى الملك المنصور، ثم أمر به و برفقته فحبسوا بالقصر عند الأمير قراجا و غيره، ثم نقلوا بعد ساعة إلى ركبخاناة الإسطبل السلطانى، و أضيف إليهم قانى باى الچاركسى و غيره ممن يأتى ذكرهم عند توجههم إلى سجن الإسكندرية.

و لما طلع الأمير جرباش إلى الإسطبل و ملك باب السلسلة، قام الأمير الكبير عند ذلك من مقعد بيت الأمير قوصون، و ركب فرسه، و خرج منه فى موكب عظيم إلى الغاية، و الخليفة عن يمينه، و تنبك البردبكى أمير مجلس عن يساره، و العساكر بين يديه محدقة به، و قد وقفت الخلائق دهليزا لرؤيته، حتى سار من بيت قوصون تجاه باب السلسلة إلى أن طلع إليها، و جلس بالحرّاقة من باب السلسلة، فحال جلوسه تفرّقت العساكر فى قبض أعيان الأمراء الظاهرية و غيرهم، فقبضوا منهم على جماعة كثيرة يأتى ذكرهم بعد ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۴

ثم أخذ قانى باى الچاركسى من مبيت الحرّاقة، و أنزل به عند رفقته المقبوض عليهم، و قيّدوا الجميع بركبخاناة الإسطبل، و لم ينج أحد من أمراء الظاهرية غير أسنباى الجمالى الدّوادار الثانى فإنه فرّ من القلعة، و اختفى على ما سيأتى ذكره.

ثم أمر السلطان فى الوقت بالإفراج عن الأمير قراجا الظاهرى، و عن الأمير تغرى بردى القلاوى، و عن الأمير بردبك الأمير آخور الثالث، و رسم لهم بلبس الكلفتاه من الغد، و حضور الخدمة السلطانية.

ثم رسم الأمير الكبير فى الحال بقلع السلاح، و قلع هو قبل الناس ما كان عليه، و كان لبسه فى تلك الأيام كلها قرقل مخمل أحمر بغير أكمام، و قلعت العساكر فى الحال السلاح من عليهم، و سكنت الفتنة كأنها لم تكن، و بات الناس فى أمن و سلامة، على أن القاهرة كانت فى مدّة هذه الأيام و القتال عمال فى كل يوم فى غاية الأمن، و الحوانيت مفتّحة، و الناس فى بيعهم و شرائهم، و أكثرهم جالس بالدكاكين للفرجة على من يمرّ عليهم من العساكر الملبّسة، بل كان يتوجه منهم أيضا جماعة كبيرة إلى الرّميلة للفرجة على القتال كما

كان يتوجه بعضهم للفرجة على المحمل و غيره، و لم تقفل أبواب القاهرة فى هذه المدة، و لا شوّشت الزّعر على أحد، بل كان كل واحد يمضى إلى حال سبيله، و القتال عمّال بين الطائفتين لا يصيب من العامة إلا من توغّل منهم بين المقاتلة، فهذا أيضا من الغرائب، على أنّنا لا نعلم وقعة كانت بمصر تطول هذه المدة، و لا حوصرت قلعة الجبل سبعة أيام إلا فى هذه الواقعة.

و أما وقعة يشبك الشعبانى و رفقته مع الملك الناصر المقدم ذكرها ليس هى كهذه الوقعة، و مع هذا قفّلت القاهرة فى تلك الكائنة أياما و نهبت الزّعر عدّة أماكن، فكانت هذه الوقعة بخلاف جميع الوقائع فى هذا المعنى- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۵

و بات الأمير الكبير إينال بمبيت الحرّاقة من الإسطبل السلطانى حتى أصبح و تسلطن منه على ما يأتى ذكره مفصلا فى ترجمته عقيب هذه الترجمة.

و زالت دولة الملك المنصور عثمان كأنها لم تكن، فسبحان من لا يزول ملكه.

فكانت مدة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه حسبما تقدّم ذكره إلى يوم خلعه الخليفة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأول شهرا واحدا و ثلاثة عشر يوما، و إلى يوم تسلطن الملك الأشرف إينال فى صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول المذكور شهرا و ستة عشر يوما، و لا نعلم أحدا من ملوك مصر من الأتراك كانت مدّته فى الملك أقصر من مدة الملك المنصور هذا، مع عظم شوكته، و ثبات قدمه فى الملك، فما شاء اللّه كان، و ما هذا إلا نوع من القصاص، و قد ورد فى الإسرائيليات: يقول اللّه سبحانه و تعالى: «يا داود أنا الربّ الودود، أعامل الأبناء بما فعلت الجدود» و قد رأينا هذه المكافأة فى واحد بعد واحد من يوم خلع الملك المنصور حاجى بالملك الظاهر برقوق من السلطنة إلى يومنا هذا، و الجميع يشربون هذا الكأس من يد أتابكتهم، و يرد عليهم هذا الشراب بتدبير مماليك أبيهم، و قد تقدم ذكر هذا المعنى فى مواطن كثيرة، و الإضراب عن ذكر هذا أجمل.

و لما طلع الملك المنصور من الإسطبل إلى القصر ودّعه مماليك أبيه و فارقوه، فلا قوة إلا باللّه، و توجه هو إلى الحريم السلطانى عند والدته، و أقام عندها إلى أن طلبه منها الملك الأشرف إينال، فخرجت معه إلى قاعة البحرة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، فأقام الملك المنصور بالبحرة من يوم خلع هو و من يخدمه مع والدته و أولاده و الجميع فى التّرسيم إلى يوم الأحد ثامن عشرين شهر ربيع الأول، فأخذ منها بجميع خدمه و والدته و أولاده، و أنزلوا الجميع فى حرّاقة إلى ثغر الإسكندرية، و كانت هيئة نزول الملك المنصور من القلعة أنه أركب على فرس بوزبقيد، من غير أن يركب أحد من الأوجاقيّة خلفه كما هى عادة الملوك من الأمراء، و مضوا به من باب القرافة فى وقت القائلة، و قد خرجوا الناس للفرجة عليه بخارج القاهرة، و ساروا به و حوله الخاصكية بالسيوف و الرّماح، و جماعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۶

كبيرة من أعيان الأمراء، و قد ازدحم الناس بالكيمان للفرجة عليه، حتى اجتاز بقرافة مصر القديمة إلى أن وصل إلى نيل مصر، و أنزل فى الحرّاقة، و سافر من وقته فى بحر النيل إلى الإسكندرية، فسجن بها، و هذا أيضا من الغرائب من أن ملك مصر يخلع و يتوجّه مقيّدا إلى الإسكندرية نهارا، و لم يقع ذلك لغيره فى السنين الخالية، و كان مسفّره خير بك الأشقر المؤيّدى الأمير آخور الثانى.

و استمر الملك المنصور مسجونا بثغر الإسكندرية و عنده والدته و جواريه و أولاده إلى ما يأتى ذكره- أحسن اللّه عاقبته بمحمد و آله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۷

ذكر سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد اللّه العلائى الظاهرى ثم الناصرى، ملك الدّيار المصرية بعد انهزام

الملک المنصور عثمان فی یوم الأحد سابع شهر ربیع الأوّل من سنة سبع و خمسین و ثمانمائة، و طلع إلی باب السلسلة و بات بمبیت الحراقة حسبما ذکرنا إلی أن تسلطن من الغد، و قد ذکرنا طلوعه و ما وقع له فی حرب الملک المنصور فی ترجمته مفصلا، و یأتی ذکر سلطنته أیضا فی أوّل ترجمته کما هی عادة هذا الکتاب.

و الملک الأشرف هذا هو السلطان السادس و الثلاثون من ملوک الترک و أولادهم بالدیار المصریة، و الثانی عشر من ملوک الچراکسة و أولادهم بها.

و لما کان صبیحة یوم الاثنین ثامن شهر ربیع الأوّل من سنة سبع و خمسین المذکورة طلع أعیان الدولة و العساکر إلی الإسطبل السلطانی بقماش الموکب و انضموا الجمیع بالحرّاقة من باب السّلسلة، و قد حضر الخلیفة و القضاة الأربعة و سائر أمراء الدّولة، و بویع الأمیر الکبیر إینال بالسلطنة، و لقب بالملک الأشرف، و لبس خلعة السلطنة من مبیت الحرّاقة بالإسطبل السلطانی فی أوّل ساعة من النهار المذکور، بعد طلوع الشمس بنحو ست درجات، فی ساعة القمر، و الطالع الحمل، و کان بویع بالسلطنة حسبما تقدم ذکره فی بیت قوصون قبل أن یملک قلعة الجبل فی یوم الأربعاء ثالثة، ثم فی یوم الجمعة حسبما ذکرنا ذلک فی وقته، ثم فی یوم السبت سادسه، ثم فی عصر أمسه بعد طلوعه إلی باب السلسلة، و العهدة فی سلطنته من وقت لبسه الخلعة السوداء الخلیفتیة و رکوبه بشعار الملک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۸

و لما تمّ لبسه خلعة السلطنة من المبیت المذکور خرج منه، و مشی حتی رکب فرس النوبة، بأبهة السلطنة و شعار الملک. و حمل ولده المقام الشهابیّ أحمد القبّة و الطیر علی رأسه حتی طلع إلی القصر السلطانی، و الأمراء و العساکر مشاة بین یدیه، ما خلا الخلیفة.

و سار علی تلک الهیئة إلی أن وصل إلی باب القصر، فنزل عن فرسه، و دخل القصر الکبیر، و جلس بإیوانه علی تخت الملک، و قبّلت الأمراء الأرض بین یدیه، و خلع علی الخلیفة القائم بأمر اللّه فوقا نیاکمخا حریرا بوجهین أخضر و أبیض، بطرز یلبغاوی زرکش، و قدّم له فرسا بسرج ذهب، و کنبوش زرکش، و تمّ جلوسه بالقصر السلطانی إلی یوم الجمعة علی ما سنذکره بعد ذکر نسبه فنقول:

أصله چارکسیّ الجنس، أخذ من بلاده، فاشتراه خواجا علاء الدین، و قدم به إلی القاهرة، هو و أخیه طوخ، و طوخ کان الأکبر، و کان اسم إینال غیر إینال، فاستقرّ إینال، فاشتراهما الملک الظاهر برقوق- أعنی إینال و طوخ- من الخواجا علاء الدین المذکور فی حدود سنة تسع و تسعین [و سبعمائة] تخمینا، فأعتق الظاهر أخاه طوخ المذکور، و دام إینال هذا کتابیّا بطبقة الزّمام، إلی أن ملکه الملک الناصر فرج بن برقوق و أعتقه، و أخرج له خیلا علی العادة، و استمرّ من جملة الممالیک السلطانیّة، إلی أن صار فی آخر الدّولة الناصریّة خاصکیا، فدام علی ذلک إلی أن أنعم علیه الأمیر الکبیر ططر فی الدّولة المظفریة [أحمد] بإمرة عشرة فی أوائل سنة أربع و عشرین، ثم نقل إلی إمرة طبلخاناة فی أوائل دولة الأشرف برسبای فی سنة خمس و عشرین و ثمانمائة، ثم صار بعد انتقال قانی بای الأبوبکری البهلوان إلی تقدمة ألف، ثانی رأس نوبة النّوب، ثم نقل إلی نیابة غزّة بعد عزل الأمیر تمراز القرمشی و قدومه إلی الدّیار المصریة، و ذلک فی یوم الثلاثاء ثامن عشرین شوال سنة إحدی و ثلاثین

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۹

و ثمانمائة، فباشر نیابة غزّة إلی أن سافر صحبة الملک الأشرف برسبای إلی آمد فی سنة ست و ثلاثین و ثمانمائة.

و لما عاد الأشرف من آمد و نزل بمدینة الرّها- و قد استولی علیها و هی خراب- طلبه الملک الأشرف لیستقرّ فی نیابة الرّها فامتنع، و رمی بسیفه و أغلظ للأشرف فی الکلام، فاستشاط الأشرف غضبا و لم یسعه إلا أن طلب مملوکه قراجا شادّ الشّراب خاناه، و خلع علیه بنیابة الرّها، و قال: «أنا ما یمتثل أوامری إلا ممالیکی».

و انفضّ الموکب، و ذهب إینال هذا إلی مخیّمه، فندم علی ما وقع منه، و خوّف عواقب ذلک، فأذعن، و طلبه السلطان فی عصر النهار المذکور، و خلع علیه أطلسین متمرّا، و وعده بأن یمده بالسلاح و العلیق و غیر ذلک، و أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار

المصرية، زيادة على نيابة الرّها، عوضا عن جانبک الحمزاوى المستقر فى نيابة غزّة عوضه.

و خرج إينال و هو متغيّر اللون- رأيته لما سلمت عليه- و دام فى نيابة الرّها، إلى أن عزله الأشرف عنها بالأمير شاد بک الجكمى ثانى رأس نوبة فى يوم الثلاثاء سبع عشرين شوال سنة سبع و ثلاثين، و استقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة و تقدمة ألف، و هو الإقطاع الذى كان بيده زيادة على نيابة الرّها.

فدام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف فى يوم الخميس عاشر رجب سنة أربعين و ثمانمائة بنيابة صفد بعد عزل الأمير يونس الركنى الأرغونى الأعور عنها، فاستمر فى صفد إلى أن طلبه الملک الظاهر جقمق فى سنة ثلاث و أربعين، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية فى صفر السنة المذكورة، و ولّى صفد عوضه قانى باى البهلوان أتابک دمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۰

و كان قدوم إينال هذا إلى القاهرة فى يوم السبت ثالث عشر صفر، فدام بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الملک الظاهر جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد موت تغرى بردى البكلمشى المؤذى فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست و أربعين، فباشر الدواداريّة إلى أن نقله الظاهر إلى أتابكيّة العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابک يشبک السّودونى المشدّ فى سنة تسع و أربعين و ثمانمائة، فدام أتابكا إلى أن مات الظاهر جقمق، و ملک بعده ابنه المنصور عثمان، و وقع ما حكيناه من الفتنة بينه و بين المنصور حتى خلع المنصور و تسلطن حسبما ذكرناه فى أول هذه الترجمة- انتهى ذكر نسبه.

و لنعد لما كنا فيه من جلوسه بعد قلعه خلعة السلطنة بالقصر فنقول:

و لما تمّ جلوسه بالقصر طلب خچداشه يونس العلائى الناصرى نائب قلعة الجبل، و خلع عليه باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل يشبک قرا و حبسه، و أمر السلطان الأمير قانى باى الأعمش الناصرى- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة- أن يجلس مكان يونس المذكور.

ثم أصبح السلطان الملک الأشرف إينال هذا فى يوم الثلاثاء تاسع ربيع الأول خلع على جماعة كبيرة بعدّة وظائف:

فخلع على ولده المقام الشهابى أحمد باستقراره أتابک العساكر عوضا عن نفسه.

و على الأمير تنبک البردبكى الظاهرى أمير مجلس بإمرة سلاح عوضا عن الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيّدى بحكم القبض عليه و سجنه.

و خلع على الأمير طوخ من تمراز الناصرى غليظ الرقبة بإمرة مجلس عوضا عن تنبک المذكور و خلع على الأمير خشقدم الناصرى المؤيّدى حاجب الحجاب باستمراره على وظيفته.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۱

و خلع على الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد باستقراره أمير آخور كبيرا عوضا عن قانى باى الچاركسى بحكم القبض عليه.

و خلع على الأمير يونس الأقبائى دوادارا كبيرا عوضا عن تمر بغا الظاهرى بحكم القبض عليه، لكن يونس هذا ولى الدّواداريّة على تقدمة، و كان تمر بغا وليها على إمرة طبلخاناه.

و خلع على الأمير قرقماس الأشرفى الجلب باستقراره رأس نوبة النّوب عوضا عن الأمير أسنبغا الطيّارى بحكم وفاته.

و خلع على الأمير جانبک الظاهرى نائب جدّة خلعة الاستمرار على وظيفته الأستادارية الكبرى.

ثم أمر السلطان فى يوم الأربعاء عاشره بالمناداة فى المماليک السلطانية بأن النفقة فى يوم الاثنين.

ثم فى يوم الأربعاء هذا حملت الأمراء المسجونون من القلعة على البغال إلى بحر النيل و سفّروا من وقتهم إلى الإسكندرية، و هم: الأمير تنم المؤيّدى أمير سلاح المقدّم ذكره، و قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و الأمير تمربغا الدوادار، و الأمير لاچين شادّ

الشراب خاناه، و أزبك الساقى الخازندار، و سنقر العائق الأمير آخور الثانى، و جانم الساقى الظاهرى، و سودون الأفرم الظاهرى، و جانبك الظاهرى البوّاب- و هما ممن تأمّر فى الدولة المنصورية-، و الجميع ظاهرية ما عداتنم وقانى باى.

و فى يوم الأربعاء هذا أشيع كلام بسبب تولية السلطان ولده أحمد أتابكا عوضه، و أن ذلك بخلاف العادة، فخارت طباع الأشرف من غير أمر يوجب ذلك، و أصبح من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۲

الغد فى يوم الخميس خلع على الأمير تنبك البردبكى الذى كان استقرّ فى إمرة سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضا عن ولده الشهابى أحمد، و أنعم على ولده المذكور بإمرة مائة و تقدمة ألف- على عادة أولاد السلاطين- و جعله يجلس رأس الميسرة.

قلت: و هذا أول وهن وقع فى دولة الأشرف إينال من كونه يولّى ولده أتابكا فى الأمس، ثم يعزله فى الغد من غير أمر يقتضى ذلك، و لو صمّم على بقاء ولاية ولده لتمّ له ذلك و لم ينتطح فى ذلك عنزان.

ثم خلع على الأمير خشقدم الناصرى حاجب الحجّاب باستقراره أمير سلاح عوضا عن تنبك المذكور.

و خلع على قراجا الخازندار الظاهرى باستقراره حاجب حجّاب عوضا عن خشقدم المؤيّدى المذكور.

ثم استقرّ الأمير تمراز الإينالى الأشرفى دوادارا ثانيا عوضا عن أسنباى الجمالى بحكم تسحّبه، و أنعم عليه بإمرة عشرين.

ثم استقرّ جانبك من قجماس الأشرفى شادّ الشّراب خاناه عوضا عن لاجين بحكم حبسه.

و استقرّ خير بك الأشقر المؤيّدى أمير آخور ثانيا عوضا عن سنقر العائق بحكم سجنه.

و أنعم على خير بك المذكور بإمرة عشرين، و كانت العادة إمرة طبلخاناة.

و استقر قانى باى الأعمش الناصرى نائب قلعة الجبل عوضا عن يونس العلائى نائب الإسكندرية- كما تقدّم ذكره-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۳

ثم أنعم السلطان على الأمير جانبك القرمانى الظاهرى رأس نوبة ثانى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن الأمير أسنبغا الطيّارى بعد وفاته.

و استقرّ يشبك الناصرى رأس نوبة ثانيا عوضا عن جانبك القرمانى المذكور.

ثم أنعم على الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن قانى باى الچاركسى بحكم القبض عليه و حبسه.

و أنعم على برسباى البجاسى المعزول عن نيابة الإسكندرية بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية عوضا عن الأمير طوخ بحكم انتقال طوخ إلى تقدمة أخرى أكثر خراجا منها- و هو إقطاع تنبك المنتقل إلى الأتابكية-.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة بإمرة طبلخانات، و عشرات، باستحقاق و بغير استحقاق، كما هى عوائد أوائل الدّول، يطول الشرح فى تسميتهم.

ثم خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدة وظائف، منهم: البدرى حسن بن الطولونى باستقراره معلّم المعمارية، و أميرزة بن حسن الدّوكارى التركمانى بكشف الوجه القبلى على عادته، و على جماعة أخر.

ثم فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول المذكور استقرّ الأمير جانبك من أمير الأشرفى الظريف أمير طبلخاناه خازندارا كبيرا عوضا عن الأمير أزبك من ططخ الظاهرى بحكم سجنه بالإسكندرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۴

و استقرّ بردبك دوادار السلطان قديما و زوج ابنته دوادارا ثالثا بإمرة عشرة و هذا شىء لم نعهده كون الدوادار الثالث يكون أمير عشرة، و ما عادته إلا خاصكيا، و كان حق بردبك هذا الدواداريّة الثانية لكونه مملوك السلطان و دواداره و زوج ابنته، غير أن

السلطان لما رأی أن تمراز الأشرفی غرضه فی الدوادارية الثانية لم يسعه إلا الإنعام عليه بها، لعظم شوكة الأشرفية يومئذ.

ثم استقرّ يشبک الأشقر الخاصكی الأشرفی أستادار الصّحبة بعد عزل سنقر الظاهری عنها من غير إمرة.

ثم فی يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليک السلطانية على أقسام متعددة نفقة كاملة، و هی مائة دينار، و نصف نفقة، و ربع نفقة، و عشرة دنانير، و هذا لم يقع قبل فی الدّولة التركية، و لام السلطان بعض أعيان الأمراء على ذلک، فقال: «هذا الذی كان رتّبه تمربغا للتفرقة فی الدولة المنصورية»، فكلم ثانيا، فاعتذر بقلة المتحصل فی الخزانة السلطانية.

قلت: «و العذر الثالث أن كلمة الشّحّ مطاعة».

قلت: «و الذی فرّق فی المماليک السلطانية إنما هو الذی جمعه الملک المنصور عثمان من السّلف و المصادرات فی أيّام سلطنته، و إلا فما ترک والده الملک الظاهر جقمق فی الخزانة شيئا يذكر، لكرم نفسه و كثرة عطاياه- رحمه اللّه تعالى-».

ثم فی يوم الثلاثاء سادس عشره خلع السلطان على جماعة من الأمراء خلع الأنظار المتعلقة بالوظائف المقدم ذكرها.

ثم فی يوم الأربعاء سابع عشره وصل الأمير دولات بای المحمودی الدّوادار من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۵

سجن الإسكندرية، و وقع فی خروج دولات بای المذكور و مجيئه من ثغر الإسكندرية غريبة فيها عبرة لمن اعتبر، و هو أنّ الأمراء الذين قبض عليهم الملک الأشرف إينال هذا كان غالبهم هو الذی حسّن للمنصور القبض على دولات بای هذا و سجنه بثغر الإسكندرية فلما أمسكهم الملک الأشرف و سيّرهم إلى الثغر، رسم بإطلاق دولات بای من السجن، فتوافوا خارج الإسكندرية، و قد أفرج عن دولات بای، و رسم بحبسهم عوضه، فانظر إلى هذا الدّهر و أفعاله بالمغرمين به، لتعلم أن اللّه على كل شیء قدير.

و فی يوم الخميس ثامن عشره أنعم السلطان على الأمير يونس العلائی نائب الإسكندرية بإقطاع الأمير جانبک اليشبكی الوالی ثم الزّردكاش بعد وفاته، و أنعم بإقطاع يونس المذكور على قانی بای الأعمش الذی استقرّ عوضا عن يونس فی نيابة القلعة.

و فی يوم الجمعة تاسع عشره أفرج السلطان عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار من محبسه بالبرج من قلعة الجبل، و خلع عليه كامليّة بمقلب سمّور، و نزل إلى داره.

و فی يوم السبت العشرين من ربيع الأول المذكور استقر نوكار الناصری الحاجب الثانی زردكاشا بعد موت جانبک اليشبكی، و استقرّ سمام الحسنی الظاهری حاجبا ثانيا عوضا عن نوكار.

و فی هذه الأيام خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدّة وظائف حتى تجاوز عدد رءوس النّوب على خمسة و عشرين نفرا، و الدّوادارية صاروا عشرة نفر بعد ما كانوا خمسة، و كذلک البجمقدارية و البوّابون، و قس على ذلک.

ثم قبض السلطان على نيف و ثلاثين مملوكا من مماليک الظاهرية، و حبسوا بالبرج من القلعة، و كان نفی قبل تاريخه جماعة أخر، و شيّع شاهين الفقيه الظاهری، و هو ممن لا يلتفت إليه، و سنقر أستادار الصّحبة، كلاهما إلى القدس الشريف.

ثم أخرج أيضا يشبک الظاهری، و كان تأمّر فی الدولة المنصورية عشرة، و يشبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۶

الساقی، و سنطبای رأس نوبة الجمداريّة إلى طرابلس، ثم أخرج بعدهم أيضا جماعة أخر.

و فی يوم الاثنين ثانی عشرينه استقرّ الأمير زين الدين يحيى أستادارا على عادته أوّلا، بعد عزل الأمير جانبک نائب جدّة عنها برغبة من جانبک المذكور.

و فيه وصل الأمير برشبای الإينالی المؤيّدی الأمير آخور الثانی- كان- و الأمير يلبای الإينالی المؤيدی من ثغر دمياط، بطلب من السلطان.

و فی يوم الخميس خامس عشرينه وصل الأمير سودون الإينالی المؤيّدی قراقاش من القدس الشريف بطلب.

ثم فی یوم الثلاثاء سلخ ربیع الأوّل ظهر الأمیر أسنبای الجمالی الظاهری الدّوادار الثانی- کان- و کان مختفیا من یوم ملک السلطان باب السلسلة فرسم له بالتوجه إلی القدس بطّالا.

و فی یوم الخمیس ثانی شهر ربیع الآخر وصل الأمیر جانم الأمیر آخور - کان- قریب الملک الأشرف برسبای من حبس قلعة صفد و خلع السلطان علیه کاملیّة مخمل أخضر بمقلب سمّور، و وعده بکل جمیل، نذکر ذلک فی تاریخنا الحوادث مفصلا هذا و غیره لکونه محلّ ضبط الحوادث، و ما نذکره هنا لیس هو إلا على سبیل الاستطراد و الأمور المهمة لا غیر، و أما جمیع الوقائع ففی الحوادث تطلب هناک- انتهی.

و فی یوم الجمعة أوّل جمادی الأولی قبض السلطان علی الأمیر قراجا الخازندار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۷

الظاهری، و هو یومئذ حاجب الحجّاب، و حبسه بالبحرة من قلعة الجبل من غیر أمر أوجب مسکه، و إنما هی مندوحة لأخذ إقطاعه.

و فی یوم السبت ثانی جمادی الأولی أنعم السلطان بإقطاع قراجا المذکور و هو إمرة مائة و تقدمة ألف علی الأمیر جانم الأمیر آخور الأشرفی، و خلع علی الأمیر جانبک القرمانی باستقراره حاجب الحجّاب عوضا عن قراجا المذکور، و رسم السلطان بتوجّه قراجا إلی القدس بطّالا، فسافر یوم الاثنین رابعه.

و فی یوم الثلاثاء خامسه قرئ تقلید السلطان الملک الأشرف إینال بالقصر الکبیر من قلعة الجبل، و حضر الخلیفة و القضاة الأربعة، و جلس السلطان علی الأرض من غیر کرسیّ علی مرتبة، و جلس علی یمینه الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة، ثم جلست القضاة الأربعة کل واحد فی منزلته، و قرأ القاضی محب الدین بن الأشقر کاتب السر التقلید إلی أن تمّت قراءته، فخلع علیه السلطان، و علی الخلیفة، و انفضّ الموکب.

و فی یوم الجمعة ثامنه عقد السلطان عقد الأمیر یونس الأقبائی الدوادار الکبیر علی ابنته بجامع القلعة بحضرة السلطان.

و فی یوم السبت تاسع جمادی الأولی خلع السلطان علی الشیخ عز الدین أحمد الحنبلی باستقراره قاضی قضاة الحنابلة بالدیار المصریة، بعد وفاة قاضی القضاة بدر الدین بن عبد المنعم.

و فیه رسم السلطان أن یحطّ عن البلاد بالوجه القبلی و البحری و سائر الأعمال ربع ما کان یطرح علیهم قبل ذلک من الأطرون، و سرّ الناس بذلک و تباشروا بزوال الظلم و إزالة المظالم.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۸

و فی یوم الأحد سابع عشره ورد الخبر علی السلطان بقتل الأمیرین سونجبغا و تغری بردی القلاوی المعزول عن الوزر قبل تاریخه، قتل الواحد الآخر، ثم قتل الآخر فی الوقت، ذکرنا أمرهما مفصلا فی تاریخنا الحوادث، فأنعم السلطان بإقطاع تغری بردی القلاوی علی الأمیر یرشبای الإینالی المؤیّدی، و أنعم علی الأمیر یلبای الإینالی المؤیّدی بإقطاع سونجبغا، و کان إقطاعه قدیما قبل أن یمسک، و أنعم بإقطاع عبد اللّه الکاشف علی سودون الإینالی المؤیّدی قراقاش، و أنعم علی تنم الحسینی و علی قلمطای الإسحاقی الأشرفیین بإقطاع یلبغا الچارکسی بحکم تعطّله و لزومه داره، لکل واحد منهما إمرة عشرة.

و فی یوم الاثنین ثالث جمادی الآخرة أنعم السلطان علی خیر بک الأجرود المؤیدی أتابک دمشق- کان- بعد قدومه من السجن بإقطاع دولات بای المحمودیّ الدّوادار- کان- بعد موته، و الإقطاع إمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، و کان دولات بای الدّوادار أخذ هذا الإقطاع بعد موت أرنبغا، و أرنبغا أخذه بعد قانی بای الچارکسی، کلّ ذلک فی دون ثلاثة أشهر.

و فی یوم الأربعاء خامس جمادی الآخرة ورد الخبر من الشام بموت قانصوه النّوروزیّ، أحد أمراء دمشق، فأنعم السلطان بتقدمته علی الأمیر فانی بک المحمودی المؤیدی، و کان فانی بک بطّالا بدمشق.

ثم فی یوم الاثنین رابع عشر شهر رجب أدیر المحمل علی العادة، و لعبت الرمّاحة، و کان الملک الظاهر جقمق أبطل ذلک، فأعاده

الملك الأشرف هذا، و سرّ الناس بعمله غاية السرور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۶۹

و فى يوم الخميس سابع عشر رجب المذكور ندب السلطان الأمير قانم طاز الأشرفى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بنقل الأمراء المسجونين من ثغر الإسكندرية إلى جيوش البلاد الشامية، فتوجّه إليهم، و نقل الجميع ما خلا الأميرين تنم المؤيّدى أمير سلاح، و قانى باى الچاركسى، فإنهما داما فى سجن الإسكندرية.

و فى يوم السبت رابع شهر رمضان استقرّ الزينى فرج بن ماجد بن النحّال كاتب المماليك السلطانية وزيرا بعد تسحّب الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم.

و فى يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بيغوت الأعرج المؤيدى نائب صفد، فرسم السلطان بانتقال الأمير إياس المحمّدى الناصرى أتابك طرابلس إلى نيابة صفد دفعة واحدة، و حمل إليه التقليد و التشريف على يد الأمير خشكلدى القوامى الناصرى أحد أمراء العشرات، و استقرّ حطط الناصرى المعزول قبل تاريخه عن نيابة غزّة أتابك طرابلس عوضا عن إياس المذكور، و أنعم بإقطاع حططإمرة عشرين بطرابلس- على جانبك المحمودى المؤيدى، و كان بطّالا بطرابلس.

ثم استهلّ شوال يوم الجمعة، فصلى السلطان صلاة العيد بجامع القلعة الناصرى على العادة، ثم صلّى من يومه أيضا الجمعة بالجامع المذكور، فكان فى هذا اليوم خطبتان فى يوم واحد، و كثر كلام الناس فى هذا الأمر، فلم يقع إلا كل جميل من سائر الجهات، و صار كلام الناس من جملة الهذيان، و أنت تعلم مقدار ما أقام الأشرف بعد ذلك فى الملك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۰

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر شوال المذكور خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهرى المعزول قبل تاريخه عن الأستادارية باستقراره فى التكلم على بندر جدّة بعد أن أنعم عليه بزيادة على إقطاعه، و جعله من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، ثم رسم بنفى الأمير بردبك التاجى الأشرفى- الذى كان تكلم على بندر جدّة فى السنة الماضية- إلى القدس بطالا، و أخرج السلطان إمرة بردبك المذكور إلى جكم الأشرفى خال الملك العزيز يوسف، و الإقطاع إمرة عشرة.

و فى يوم الاثنين ثامن عشر شوال المذكور تسحّب الأمير زين الدين الأستادار، و اختفى؛ مما حمل للديوان السلطانى من الكلف، و بلغ السلطان ذلك، فأرسل السلطان خلف على بن الأهناسى البرددار بخدمة زين الدين المذكور [سابقا]، و هو يومذاك أستادار المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و استقرّ به أستادارا عوضا عن زين الدين دفعة واحدة، و علم السلطان أن عليّا هذا ليس هو فى هذه الرّتبة، و لا فيه أهلية لأن يكون من جملة كتّاب ديوان المفرد، فتكلم فى الملأ بكلام معناه أن السلطان إذا أقام كائنا من كان من أقلّ الناس فى أيّ وظيفة شاء- و كان للسلطان به عناية- سدّ تلك الوظيفة على أحسن الوجوه، فسكت كلّ أحد، لعلمهم أن السلطان يعلم حاله، كما يعلمونه هم، و اختاره لهذه الرّتبة.

ثم فى يوم السبت ثالث عشرين شوال ورد إلى الدّيار المصرية قاصد خوندكار محمد بك ابن مرادبك بن عثمان، متملّك بلاد الرّوم، لتهنئة السلطان بالملك، و أيضا يخبره بما منّ اللّه عليه من فتح مدينة إسطنبول، و قد أخذها عنوة بعد قتال عظيم فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، بعد ما أقاموا على حصارها من يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من هذه السنة- أعنى سنة سبع و خمسين المذكورة- إلى أن أخذها فى التاريخ المقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۱

قلت: و للّه الحمد و المنة على هذا الفتح العظيم.

و جاء القاصد المذكور و معه أسيران من عظماء إسطنبول، و طلع بهما إلى السلطان و هما من أهل قسطنطينية، و هى الكنيسة العظمى بإسطنبول، فسرّ السلطان و الناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا، و دقّت البشائر لذلك، و زيّنت القاهرة بسبب ذلك أياما، ثم

طلع القاصد المذكور و بين يديه الأسيران المذكوران إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس عشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور و رفقته بشوارع القاهرة، و قد احتفلت الناس بزينة الحوانيت و الأماكن، و أمعنوا فى ذلك إلى الغاية، و عمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، و قد استوعبنا طلوع القاصد المذكور فى غير هذا المحل من مصنفاتنا بأطول من هذا.

و بالجملة فكان لمجىء هذا القاصد بهذه البشارة الحسنة أمير كبير، و عيّن السلطان من يومه الأمير يرشباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخور الثانى- كان- بالتوجّه إلى ابن عثمان صحبة القاصد بالجواب السلطانى، و قد كتبنا صورة الكتاب الذى جاء من ابن عثمان على يد القاصد المذكور بفتح مدينة إسطنبول، و الجواب الذى أرسله السلطان صحبة يرشباى هذا، كلاهما مثبوت فى تاريخنا حوادث الدهور، إذ هو محل ضبط هذه الأمور- انتهى.

ثم رسم السلطان بالمناداة على زين الدّين يحيى الأستادار، و تهديد من أخفاه عنده بالشنق و التنكيل، و وعد من أحضره بألف دينار إن كان متعمما، و بإقطاع إن كان جنديا.

ثم فى يوم الاثنين ثالث ذى القعدة استقرّ القاضى محب الدين بن الشّحنة الحنفى كاتب سرّ مصر. بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧٢

ثم فى يوم الاثنين ثانى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير جانبك النّوروزىّ نائب بعلبك باستقراره فى نيابة الإسكندرية بعد عزل يونس العلائى و قدومه إلى القاهرة من جملة أمراء الطبلخانات.

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشرين ذى الحجة ظهر الأمير زين الدين الأستادار من اختفائه، و طلع إلى القلعة و على رأسه منديل الأمان، صحبة عظيم الدولة الصاحب جمال الدين بن كاتب جكم، و كان هو الساعى لزين الدين فى رضاء السلطان عليه، و قبّل زين الدين الأرض بين يدىّ السلطان، فرسم له السلطان أن يلزم داره، و لا يجتمع بأحد، و لا يكاتب أحدا من أعيان الدولة.

و فرغت سنة سبع و خمسين، و ما ذكرناه فيها إنما هو على سبيل الاختصار؛ علم خبر لا غير.

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٥٨]

اشارة

و استهلت سنة ثمان و خمسين و ثمانمائة.

و أول السنة يوم الثلاثاء، فأحببت أن أذكر فى أوّل هذه السنة أسماء أعيان أرباب الوظائف من الأعيان و الأمراء و القضاة و المباشرين، ليعلم الناظر فى هذه الترجمة كيف تكون تقلبات الدهر، و تغيير الدولة بعد أن ينظر المتأمل فى ترجمة الملک المنصور عثمان فى السنة الخالية، و لم يمض بين من سمى فى تلك السنة و بين من سمى فى هذه السنة إلا بعض أشهر، لأن المنصور و الأشرف هذا كلا منهما ولى فى هذه السنة، أعنى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و ما قلناه فى السنة الخالية معناه فى ترجمة المنصور عثمان، على أنا لا نذكر إلا جماعة الأعيان لا غير، و لو ذكرنا كلّ من تغير من أرباب الوظائف من الخاصكيّة و الأجناد الذين أخذوا الإقطاعات و الوظائف لطال الشرح فى ذلک، و خرجنا عن المقصود، و لنعد إلى ما هو المقصود فنقول:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧٣

أما الخليفة فهو القائم بأمر اللّه حمزة، و هو المذكور أيضا فى [السنة] الخالية.

و كذلک القضاة الأربعة فهم على حالهم كما ذكرناه فى ترجمة المنصور أيضا

و كذلک نواب البلاد الشاميّة، فالجميع على حالهم كما ذكرناه فى ترجمة المنصور أيضا.

و تغيّر نائب الإسكندرية، فإنه كان فى تلك السنة برسباى البجاسى، و الآن هو جانبک النّوروزىّ.

و أما أرباب الوظائف من أمراء مائة.

فالأمير الكبير تنبک البردبکى الظاهرى.

و أمير سلاح خشقدم الناصرى المؤيّدى.

و أمير مجلس طوخ من تمراز الناصرى غليظ الرّقبة.

و الأمير آخور الكبير جرباش المحمدى الناصرى كرد.

و الدّوادار الكبير يونس السيفى آقباى نائب الشام.

و رأس نوبة النّوب قرقماس الأشرفى الجلب.

و حاجب الحجّاب جانبک القرمانى الظاهرى.

فهؤلاء هم أرباب الوظائف من مقدمى الألوف.

و بقية مقدمى الألوف هم:

المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و هو يجلس رأس ميسرة فوق أمير سلاح.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧۴

و الأمير جانم الأمير آخور- كان- و هو يجلس تحت أمير سلاح فوق بقية الأمراء.

ثم خيربک الأجرود المؤيّدى.

ثم برسباى البجاسى.

فهؤلاء جميع مقدمى الألوف بالديار المصرية، و هم أقل من النصف من أمراء الظاهر برقوق.

و أما أرباب الوظائف من أمراء الطبلخانات و غيرهم:

فشاد الشراب خاناه جانبک من قجماس الأشرفى المعروف بدوادار سيّدى.

و الخازندار جانبک من أمير الأشرفى الظريف.

و نائب القلعة قانى باى الناصرى الأعمش أمير عشرة.

و الزّردكاش نوكار الناصرى أمير عشرة و التّجمّل به هتكة.

و الحاجب الثانى بتخاص العثمانى الظاهرى- برقوق- أمير عشرة.

و أستادار الصحبة يشبک الأشقر الأشرفى من جملة الأجناد.

و كانت هذه الوظائف المذكورة فى سالف الأعصار لا يليها إلا أمير مائة مقدّم ألف، و لهذا قدمنا ذكرها على غيرها مما سنذكره، فتنازل ملوک زماننا هذا حتى ولى بعضها الأجناد، و قد أبطل الملوک أيضا عدّة وظائف جليلة كان لا يليها إلا أمير مائة مقدّم ألف، مثل نيابة السلطنة، لأن آخر من وليها من العظماء تمراز الناصرى الظاهرى فى دولة الناصر فرج.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٧۵

و رأس نوبة الأمراء، و آخر من وليها نوروز الحافظى فى دولة الناصر فرج أيضا، و كانت هذه الوظيفة تضاهى الأتابكيّة.

و مثل أمير جاندار، فإن الأمير ألجاى اليوسفى صاحب الوقعة مع الأشرف شعبان انتقل إليها من وظيفة رأس نوبة النّوب.

و أما ما ذهب من الوظائف التى كان يليها أمراء الطبلخانات و العشرات مثل شاد الدواوين، و أمير منزل، و شادّ القصر السلطانى، و المهمندار، و مقدّم البريدية، و شادّ العمائر- و إن كان بعض هذه الوظائف مستمرة- فإنه لا يليها إلا الأحداث من الناس، بحيث إنها صارت كلا شىء، و قد خرجنا عن المقصود فى نوع الاستطراد، و لنعد إلى ما كنا فيه.

و رأس نوبة ثان یشبک الناصری، و تعد سبعة من طبلخانات رءوس النوب، و أما العشرات من رءوس النّوب فکثیر جدا، و کان جمیع رءوس النّوب فی أوائل سلطنة برقوق أربعة لا غیر، ثم صاروا فی دولة الناصر فرج بعد تجریدة الکرک سبعة، فنقول: ما تجدّد من کثرة رءوس النّوب یکون عوضا عما ذهب من تلک الوظائف، فیقول القائل لا نسلم، و أین رونق تلک الوظائف المتعددة کثرة من [رونق] وظیفة واحدة؟! و کذلک کانت الحجّاب ثلاثة: حاجب الحجّاب، و حاجب میسرة، و هو أیضا مقدم ألف، و الحاجب الثالث. فأول من زادهم الظاهر برقوق، و جعلهم خمسة حجاب أمراء عشرات، لا هذه الحرافیش الذین یلونها الیوم الجهلة الفسقة.

الدوادار الثانی تمراز الإینالی الأشرفی بإمرة عشرین، و هو من مساوی الدهر.

و الأمیر آخور الثانی خیربک الأشقر المؤیدی أمیر عشرین أیضا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۶

و الزّمام و الخازندار الطواشی الرومی فیروز النّوروزی أمیر طبلخاناه.

و مقدّم الممالیک السلطانیة الطّواشی لؤلؤ الرّومی الأشرفی أمیر عشرة.

و نائبه عنبر، عتیق التاجر نور الدین الطّنبذی، جندیا بغیر إمرة.

و نقیب الجیش الأمیر ناصر الدین محمد بن أبی فرج بعد أن ولی الأستاداریة قبل تاریخه.

و والی القاهرة علی بن إسکندر، و ولیها بالبذل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۷

ذکر أعیان مباشری الدولة من المتعممین

کاتب السّرّ محبّ الدین بن الشّحنة الحنفی.

و ناظر الجیش و الخاص معا، عظیم الدولة الصاحب جمال الدین یوسف بن کاتب جکم.

و الوزیر سعد الدین فرج بن النحّال.

و الأستادار علی البردداد بن الأهناسی

و وظیفة نظر الدولة و نظر المفرد کل منهما تلاشی أمرهما حتی صارت کلا شیء، سکتنا عن ذکر ذلک لوضاعة قدر من یلیها.

قلت: و لو سکتنا عن ذکر من یلی الوزر أیضا لکان أجمل، غیر أنه لا یسعنا إلا ذکرها لمحلها الرّفیع فی سائر الأقطار- فلا حول و لا قوة إلا بالله العلی العظیم.

و أما ذکر نظر الجوالی، و الإسطبل السلطانی، و البیمارستان، و الکسوة، و خزائن السلاح، و الخزانة الشریفة، و أشباههم لیس لذکرهم هنا محل، لکونهم فی غیر هذه الرّتبة.

و فی مثل هذا المحل لا یذکر إلا أعیان الوظائف المعدود أصحابها من ذوی الریاسات، و قد ذکرنا تلک الوظائف کلها فی تاریخنا الحوادث، إذ هو محل ضبط الولایات و العزل- انتهی.

و فی یوم الأحد سادس محرم سنة ثمان و خمسین و ثمانمائة ورد الخبر علی السلطان من حلب بوفاة الأمیر علی بای بن طربای العجمی المؤیّدی أتابک حلب، فرسم السلطان باستقرار الأمیر آقبردی السّاقی الظاهری نائب قلعة حلب أتابکا بحلب عوضه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۸

و استقرّ فی نیابة قلعة حلب الزّینی قاسم بن جمعة القساسی، و أنعم بتقدمة قاسم المذکور- و کان أخذها قبل ذلک عن سودون القرمانی بمدة یسیرة- علی الأمیر یشبک البجاسی.

و استقرّ مکان یشبک البجاسی فی دواداریة السلطان بدمشق خشکلدی الزینی عبد الرحمن بن الکویز.

و فى يوم الاثنين حادى عشرين المحرم أيضا وصل إلى القاهرة تقدمة الأمير قانى باى الحمزاوى نائب حلب، تشتمل على جماعة يسيرة من المماليك و مائة فرس لا غير.

قلت: و هذا كثير ممن أشيع عنه العصيان ثم أظهر الطاعة فى الظاهر، و اللّه متولى السّرائر، و قد أوضحنا أمر قانى باى هذا فى غير هذا المحل مع السلطان الملك الأشرف إينال بأوسع من هذا.

ثم فى صفر رسم بسفر الأمير زين الدين الأستادار إلى القدس بطالا، فلما خرج إلى ظاهر القاهرة قبض عليه، و أخذ إلى القلعة، و صودر ثانيا، و عوقب و وقع له أمور، آخرها أنه ولى الأستادارية- مسئولا فى ذلك- فى يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، و عزل علىّ بن الأهناسى.

و فى يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان و خمسين المذكورة ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل بغير قماش الخدمة، و نزل إلى جهة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۷۹

قبّة النصر خارج القاهرة، ثم عاد من باب النصر، و شقّ القاهرة و خرج من باب زويلة حتى طلع إلى القلعة، و هذا أوّل ركوبه من يوم تسلطن.

و فى يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر ثارت فتنة بسوق الخيل بين المماليك الظاهرية- جقمق- و بين المماليك الأشرفية- برسباى- بالدبابيس، و أصبح كل من الطائفتين مستعدة للأخرى، فلم يقع شىء و للّه الحمد، و قد ذكرنا كيفية الفتنة المذكورة فى تاريخنا الحوادث.

و فى يوم الاثنين ثالث عشرينه عزل السلطان لؤلؤ الأشرفى عن تقدمة المماليك السلطانية، و أعاد إليها الطواشى مرجانا المحمودى بمال أخذه من مرجان، و إلا فأيش هو الموجب لعزل الرئيس بالوضيع إلا هذا المعنى؟!

ثم فى يوم الأحد سادس جمادى الأولى عزل السلطان تمراز الأشرفى عن الدّواداريّة الثانية لأمر اقتضى ذلك، و قد أراح اللّه الناس منه؛ لسوء خلقه، و حدّة مزاجه، و قد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة فى غير هذا المحل.

و فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى المذكورة وصل الأمير جلبّان الأمير آخور نائب الشام إلى القاهرة بعد أن احتفل أرباب الدّولة به، و طلع إلى ملاقاته كلّ أحد، حتى المقام الشهابى أحمد، و طلع إلى القلعة و دخل إلى السلطان بالقصر الأبلق المطلّ على الرّميلة بالخرجة، فلما رآه السلطان قام إليه و اعتنقه، بعد أن قبل جلبّان الأرض بين يديه، ثم أجلسه السلطان على ميسرته فوق ولده المقام الشهابى أحمد، و لم يطل جلوسه حتى طلب السلطان خلعته، و خلع عليه خلعة الاستمرار بنيابة دمشق على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۰

عادته فى مكان جلوسه بالخرجة المذكورة، و لم يقع ذلك لأحد من النواب، لأن العادة أنه لا يخلع السلطان على من يخلع عليه إلا بالقصر الأبلق من داخل الخرجة.

ثم قام السلطان و خرج إلى القصر، و لم يدع جلبّان المذكور أن يقف، بل أمره أن يتوجّه إلى حيث أنزله السلطان، فنزل محمولا لضعف به و لكبر سنه أيضا، و نزل غالب الأمراء الأكابر و أرباب الدولة بين يديه إلى أن أوصلوه إلى الميدان الكبير بطريق بولاق تجاه بركة الناصرى، و مدّ له مدّة هائلة، و ترددت الناس إليه نهاره كلّه، و استمر إلى يوم الأحد عشرينه، فقدّم إلى السلطان تقدمة، و كانت تقدمة هائلة، تشتمل على: عشرة مماليك، و مائتى فرس، منها اثنان بقماش ذهب، و الباقى على العادة، و عدة حمالين، منها ستون حمالا عليها قسىّ، كل حمال خمسة أقواس، و منها مائة و عشرون حمالا بعلبكيا، على كل حمال خمسة أثواب، النصف منها عال موصلى، و ستون حمالا عليها أبدان سنجاب، و عشرة حمالين وشق، و عدّة حمالين عليها أثواب صوف ملوّنة، و عدة حمالين عليها شقق حرير ملوّن، و أثواب مخمل تزيد على مائة حمال، و طبق مغطى فيه ذهب مبلغ عشرة آلاف دينار على ما قيل.

فقبل السلطان ذلک، و خلع على أرباب وظائف جلبّان المذكور خلعا سنيّة، و فرّق السلطان من الخيول على أمراء الألوف جميعهم على قدر مراتبهم.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۱

و فى هذا اليوم أيضا رسم السلطان لنقيب الجيش أن يخرج الأمير تمراز الإينالى الأشرفى الدوادار الثانى إلى القدس بطّالا، فنزل و توجّه به من يومه إلى خانقاه سرياقوس، قلت: [السريع]

ما يفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

فإن تمراز هذا كان فى الدولة الظاهرية- جقمق- من جملة الأمراء و العشرات و كان ممن لا يؤبه إليه، حتى مات الظاهر، و ثار مع الملک الأشرف إينال لما وثب على الملک المنصور عثمان مع من انضم إليه من المماليک الظاهرية و الأشرفية و غيرهم، فلما تسلطن الأشرف قرّب تمراز هذا، و جعله دوادارا ثانيا، و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه، و صار له كلمة فى الدولة و حرمة وافرة، و هابته الناس لشراسة خلقه وحدة مزاجه، و باشر الدوادارية أقبح مباشرة من الظلم و العسف و الإخراق بالناس و البطش بحواشيه و أرباب وظائفه و مماليكه، حتى تجاوز الحد، و ما كفاه ذلک حتى صار يخاطب السلطان بما يكره، و بقى فى كل قليل يغضب و يعزل نفسه، و وقع ذلک غير مرّة، فلما زاد و خرج عن الحد عزله السلطان، و لزم داره أياما، ثم خرج إلى القدس بطّالا.

و فى يوم الاثنين حادى عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على الصاحب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۲

أمين الدين بن الهيصم باستقراره وزيرا على عادته أولا، بعد عزل فرج بن النّحال، و كان أحقّ بها و أهلا لها.

و فى يوم الاثنين هذا أيضا خلع السلطان على مملوكه صهره الأمير بردبک الدوادار الثانى باستقراره فى الدواداريّة الثانية عوضا عن تمراز الأشرفى المقدّم ذكره.

و فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة استقرّ القاضى تاج الدين عبد اللّه ابن المقسى كاتب المماليک السلطانية عوضا عن الصاحب سعد الدين فرج بن النّحال.

قلت: و تاج الدين هذا مستحق لأعظم الوظائف؛ لما اشتمل عليه من حسن الخلق و الخلق.

و فى يوم الجمعة ثانى عشرين شهر رجب سافر الأمير بردبک الدوادار الثانى إلى القدس الشريف، و صحبته كسوة مقام سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام التى صنعها السلطان الملک الأشرف هذا، و خرج بردبک المذكور من القاهرة بتجمل زائد، و معه جماعة من الأعيان، مثل القاضى شرف الدين الأنصارى، ناظر الكسوة و وكيل بيت المال، و السيفى شاهين الساقى و غيرهما.

و فى يوم الخميس سادس شعبان وصل إلى القاهرة الأمير برشباى الإينالى المؤيّدى، أحد أمراء الطبلخانات المتوجّه قبل تاريخه فى الرسلية إلى ملک الروم السلطان محمد بن عثمان، و عليه خلعة ابن عثمان المذكور، و هو لابس لبس الأروام و خلعهم على العادة.

و فيه رسم السلطان بتعويق جوامک أولاد الناس و المرتبين من الضعفاء و الأيتام على ديوان السلطان، و عرضهم السلطان و قطع جماعة كبيرة، و بينما هو فى ذلک وصل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۳

الأمير بردبک من القدس، و حذّر السلطان من الدعاء عليه، و نهاه عن هذه الفعلة فانفعل له، و ترک كل واحد على حاله، و نودى بذلک بشوارع القاهرة، فعدّ من محاسن بردبک المذكور.

و فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم، لعجز متحصّل الدولة عن القيام بالكلف السلطانية، فتغيّر السلطان بسبب ذلک على جماعة، و قبض على الأمير زين الدين الأستادار فى يوم الاثنين و حبسه بالقلعة، و خلع على الأمير ناصر الدين محمد بن أبى فرج نقيب الجيش باستقراره فى الأستادارية عوضا عن زين الدين على كره منه فى الوظيفة، مضافا إلى نقابة

الجیش، و خلع علی سعد الدین فرج بن النحال باستقراره وزیرا علی عادته، و هذه ولایة فرج الثانیة للوزر، و أنعم علیه بکتابة الممالیک، و عزل القاضی تاج الدین المقسی.

ثم فی یوم الأربعاء خامس عشر ذی القعدة ضرب السلطان زین الدین الأستادار، و ألزمه بجملة کبیرة من المال، فأخذ زین الدین فی بیع قماش بدنه و أثاث بیته، ثم أخذه الصاحب جمال الدین ناظر الجیش و الخاص، و تسلمه من السلطان، و نزل به إلی بیته، فدام عنده أیّاما، ثم رسم له بالتوجه إلی داره، و أنه یسافر إلی القدس، فتجهّز زین الدین و خرج إلی القدس فی یوم الجمعة ثانی ذی الحجة.

ثم فی یوم الاثنین خلع السلطان علی شخص من الأقباط یعرف بابن النجار، و استقرّ به ناظر الدّولة بعد شغورها مدة طویلة، و صار رفیقا للوزیر فرج.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۴

و فی یوم الاثنین سادس عشرین ذی الحجة نزلت الممالیک الجلبان الأشرفیة من الأطباق، و هجمت دار الأستادار الأمیر ناصر الدین محمد بن أبی الفرج، و نهبوا جمیع ما کان له فی داره من غیر أمر أوجب ذلک، فلم یسع الأستادار إلا الاستعفاء، فأعفی بعد أمور.

و خلع السلطان علی قاسم الکاشف بالغربیة و غیرها بالأستاداریة عوضا عن ابن أبی الفرج المذکور. قلت: و هذا أول ظهور أمر ممالیک الأشرف الجلبان، و ما سیأتی فأعظم.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۹]

و فی یوم الأحد ثانی محرم سنة تسع و خمسین و ثمانمائة أشیع بین الناس وقوع فتنة، و کثر کلام الناس فی هذا المعنی حتی بلغ السلطان ذلک، فلم یلتفت السلطان لقول من قال.

و فی یوم الأربعاء رابع عشرین صفر من سنة تسع و خمسین المذکورة وصل مملوک الأمیر جانبک الناجی للمؤیّدی نائب غزّة یخبر بموت الأمیر جلبّان نائب الشام، ثم وصل بعد ذلک سیف جلبّان المذکور علی ید یشبک المؤیّدی الحاجب الثانی.

ثم فی یوم الخمیس خامس عشرین صفر رسم السلطان للأمیر قانی بای الحمزاوی- نائب حلب- بأن یستقرّ فی نیابة الشّام عوضا عن جلبّان بحکم وفاته، و حمل إلیه التقلید و التشریف الأمیر یونس العلائی الناصری، المعزول قبل تاریخه عن نیابة الإسکندریة.

و خلع السلطان فی الیوم المذکور علی الأمیر جانم الأشرفی باستقراره فی نیابة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۵

حلب عوضا عن قانی بای الحمزاوی علی کره من جانم المذکور فی ذلک، و استقرّ مسفّر جانم الأمیر بردبک الدّوادار الثانی و صهر السلطان مع توجه بردبک أیضا إلی ترکة الأمیر جلبّان بدمشق.

و أنعم السلطان بإقطاع جانم المذکور علی الأمیر یونس العلائی المقدم ذکره، و هو إمرة مائة و تقدمة ألف.

و أنعم بإقطاع یونس المذکور علی الأمیر بردبک الدوادار، و صار بردبک أمیر طبلخاناه، و أنعم بإقطاع بردبک المذکور علی أرغون شاه و تنبک الأشرفیین، کل واحد منهما أمیر خمسة.

و فی یوم الاثنین تاسع عشرین صفر من سنة تسع و خمسین و ثمانمائة المذکورة استقرّ شمس الدین نصر اللّه بن النجار ناظر الدّولة وزیرا عوضا عن سعد الدین فرج بن النحال بحکم عزله، فلم تر عینی فیما رأیت ممن لبس خلع الوزارة أقبح زیّا منه، حتی إنه أذهب رونق الخلعة مع حسن زیّ خلعة الوزارة و أبّهة صفتها، و لو منّ اللّه سبحانه و تعالی بأن یبطل اسم الوزیر من الدیار المصریة فی هذا الزمان کما أبطل أشیاء کثیرة منها لکان ذلک أجود و أجمل بالدولة، و یصیر الذی بلی بهذه الوظیفة یسمی ناظر الدولة، لأن هذا الاسم عظیم و قد سمی به جماعة کبیرة من أعیان الدنیا قدیما و حدیثا فی سائر الممالک و الأقطار، مثل جعفر بن یحیی بن خالد

البرمكى و غيره، إلى الصاحب إسماعيل بن عبّاد، و هلم جرا، إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم، ثم بنى حنّاء و غيرهم من العلماء و الأعيان، إلى أن تنازلت ملوك مصر فى أواخر القرن الثامن حتى وليها فى أيامهم أوباش الناس و أسافل الكتبة الأقباط، و تغير رسومها، و ذهب بهم أبّهة هذه الوظيفة الجليلة التى لم يكن فى الإسلام بعد الخلافة أجل منها و لا أعظم، و صارت بهؤلاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٨۶

الأصاغر فى الوجود كلا شيء، وليت مع ذلك كان يلى هذه الوظيفة من هؤلاء الأسافل من يقوم بما هو بصدده، بل يباشر ذلك بعجز و ضعف و ظلم و عسف، مع ما يمدّه السلطان بالأموال من الخزانة الشريفة، فليت شعرى لم لا كان ذلك مع من هو أهل للوزارة و غيرها- فلا قوة إلا بالله.

و باشر ابن النجّار الوزر أشرّ مباشرة، و أقبح طريقة، و لم تطل أيّامه، و عجز و بلغ السلطان عجزه، فلما كان يوم الخميس أول شهر ربيع الآخر طلب السلطان الوزراء الثلاثة ليختار منهم من يوليه، و هم: ابن النجّار الذى عجز عن القيام بالكلف السلطانية، و الصاحب أمين الدين بن الهيصم، و سعد الدين فرج بن النحّال، فوقع فى واقعة طريفة، و هى أن السلطان لما أصبح و جلس على الدكّة من الحوش استدعى أوّلا ابن النجّار، فقيل له: هرب و اختفى، فطلب أمين الدين بن الهيصم، فقيل له: مات فى هذه الليلة، و إلى الآن لم يدفن، فطلب فرج بن النحّال، فحضر، و هو [الذى] فضل من الثلاثة، فكلّمه السلطان أن يستقرّ وزيرا على عادته، فامتنع و اعتذر بقلّة متحصّل الدّولة، و فى ظنّه أن السلطان قد احتاج إليه بموت ابن الهيصم و تسحّب ابن النجّار، و شرع يكرّر قوله بأن لحم المماليك السلطانية المرتب لهم فى كل يوم ثمانية عشر ألف رطل، خلا تفرقة الصّيرر التى تعطى لبعض المماليك السلطانية و غيرهم، عوضا عن مرتب اللحم، فلما زاد تمنّعه أمر به السلطان فحطّ إلى الأرض و تناولته رءوس النّوب بالضرب المبرح إلى أن كاد يهلك، ثم أقيم و رسم عليه بالقلعة عند الطواشى فيروز الزّمام و الخازندار إلى أن عملت مصالحة و أعيد للوزر.

و فى يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى المعروف بالتّاجر بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٨٧

خيربك الأجرود المؤيّدى، و أضيف إقطاع المذكور و هو إمرة طبلخاناه إلى الدّولة.

ثم فى يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة كانت وقعة المماليك الظاهرية الجقمقيّة مع الملك الأشرف إينال، و سبب هذه الفتنة ثورة المماليك الأجلاب أوّلا، و أفعالهم القبيحة بالناس، ثم عقب ذلك أن السلطان كان عيّن تجريدة إلى البحيرة، نحوا من خمسمائة مملوك، و عليهم من أمراء الألوف الأمير خشقدم المؤيّدى أمير سلاح، و الأمير قرقماس رأس نوبة النّوب، و عدّة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و رسم لهم السلطان بالسفر فى يوم الاثنين، هذا و لم يفرّق السلطان على المماليك المكتوبة للسفر الجمال على العادة، فعظم ذلك عليهم، و امتنعوا إلى أن أخذوا الجمال.

و سافر الأمير خشقدم فى صبيحة يوم الاثنين المذكور، و تبعه الأمير قرقماس فى عصر نهاره، و أقاما ببرمنبابة تجاه بولاق، فلم يتبعهم أحد من المماليك المعيّنة معهم بل وقف غالبهم بسوق الخيل تحت القلعة ينتظرون تفرقة الجمال عليهم، إلى أن انفضّ الموكب السلطانى، و نزلت الأمراء إلى جهة بيوتهم، فلما صار الأمير يونس الدوادار بوسط الرّميلة احتاطت به المماليك الأجلاب، و عليه الكلفتاة و قماش الخدمة و داروا حوله و هم فى كثرة، و أرادوا الكلام معه بسبب زيادة جوامكهم، و أنه يكلّم السلطان، فتبين لمماليك يونس الغدر بأستاذهم، فتحلّقوا عليه و منعوهم من الوصول إليه، فصار يونس فى حلقة من مماليكه، و مماليكه فى حلقة كبيرة من المماليك الأجلاب، و طال الأمر بينهم، و يونس لا يستطيع الخروج، و تحقق الغدر، فأمر مماليكه بأشهار سيوفهم ففعلت ذلك، و دافعت عنه، و جرح من المماليك الأجلاب جماعة، و قطع أصابع بعضهم، و شقّ بطن آخر على ما قيل، فعند ذلك انفرجت ليونس فرجة خرج منها غارة إلى جهة داره، و نزل بها، و رمى عنه قماش الموكب، و لبس قماش الرّكوب،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۸

و طلع من وقته إلی القلعة من أعلی الكبش، و لم يشق الرّميلة، و أعلم السلطان بخبره، فقامت لذلک قيامة المماليک الأجلاب، و قالوا: «نحن ضربناهم بالدبابيس فضربونا بالسيوف»، و ثاروا علی أستاذهم ثورة واحدة، و ساعدهم جماعة من المماليک القرانيص و غيرهم لما فی نفوسهم من السلطان لعدم تفرقة الجمال و غيرها، و وقفوا بسوق الخيل و أفحشوا فی الكلام فی حقّ السلطان، و هددوه إن لم يسلم لهم الأمير يونس، و السلطان لا يتكلم إلی أن حرّكه بعضهم، فأرسل إليهم بالأمير جانبک الناصری المرتد، و الطواشی مرجان مقدّم المماليک السلطانية، فسألاهم عن غرضهم، فقالوا بلسان واحد: «نريد غريمنا الأمير يونس»، و خشّنوا فی القول، فعاد جانبک بالجواب، فأرسل السلطان إليهم ثانيا بنو كارالزردكاش، فأعادوا له القول الأول، ثم ساقوا غارة إلی بيت يونس الدّوادار، فمنعوهم مماليكه من الدخول إلی دار يونس، فجاءوا بنار ليحرقوا الباب، فمنعوهم من ذلک أيضا، فعادوا إلی سوق الخيل، فوافوا المنادی ينادی من قبل السلطان بالأمان، فمالوا علی المنادی بالدبابيس، فسكت من وقته، و هرب إلی حال سبيله.

هذا و قد طلعت جميع أمراء الألوف إلی عند السلطان، و السلطان علی حالة السكوت غير أنه طلب بعض مماليكه الأجلاب الأعيان، و كلمه بأنه يعطی من جرح من الأجلاب ما يكفيه، و أنه يعطی للذی قطعت أصابعه إقطاعا و مائة دينار، فلم يقع الصلح، و انفضّ الأمر علی غير طائل لشدة حرّ النهار.

و لما تفرّقت المماليک نزلت الأمراء إلی دورهم، ما خلا الأمير يونس الدوادار، فإنه بات فی القلعة.

فلما أصبح يوم الثلاثاء أول شهر رجب ضرب السلطان الكرة مع الأمراء بالحوش السلطانی من القلعة، و فرغ من ذلک، و أراد كل أمير أن ينزل إلی داره، فبلغهم أن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۸۹

المماليک الأجلاب وقوف علی حالهم الأول بسوق الخيل بغير سلاح كما كانوا فی أمسه، فلما تضحّی النهار أرسل إليهم السلطان بأربعة أمراء، و هم: الأمير يونس العلائی أحد مقدمی الألوف، و سودون الإينالی المؤيّدی قراقاش رأس نوبة ثان، و يلبای الإينالی المؤيّدی أحد أمراء الطبلخانات، و رأس نوبة، و بردبک البجمقدار أحد الطبلخانات أيضا و رأس نوبة، فنزلوا إليهم من القلعة فما كان إلا أن وقع بصر المماليک الأجلاب علی هؤلاء الأمراء احتاطوا بهم، و أخذوهم بعد كلام كثير، و دخلوا بهم إلی بيت الأمير خشقدم أمير سلاح تجاه باب السلسلة، و رسّموا عليهم بعضهم.

كل ذلک و المماليک الظاهرية الجقمقية وقوف علی بعد، لا يختلطون بهم، لينظروا ما يصير من أمرهم، فلما وقع ما ذكرناه تحققوا خروجهم علی أستاذهم، و ثار ما عندهم من الكمائن التی كانت كامنة فی صدورهم من الملک الأشرف إينال لما فعل بابن أستاذهم الملک المنصور عثمان، و حبس خچداشيتهم، و تقريب أعدائهم الأشرفية مماليک الأشرف برسبای، فانتهزوا الفرصة، و انضافوا إلی المماليک الأجلاب، و عرّفوهم أن الأمر لا يتم إلا بحضرة الخليفة و لبس السلاح، فساق قانی بای المشطوب أحد المماليک الظاهرية من وقته إلی بيت الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة، و كان فی الخليفة المذكور خفة و طيش، فمال إليهم، ظنا أنه يكون مع هؤلاء و ينتصر أحدهم و يتسلطن، فيستفحل أمره ثانيا أعظم من الأوّل، و سببه أنه كان لما ولّاه الظاهر جقمق الخلافة بعد أخيه المستكفی بالله سليمان صار تحت أوامر الظاهر، لأنه هو الذی استخاره و ولاه الخلافة، فلما ثار إينال علی المنصور عثمان و طلبه و جاء إلی عنده قوی أمر إينال بمجیء الخليفة عنده، فلما تسلطن عرف إينال له ذلک، و رفع محلّه أضعاف ما كان أوّلا، و زاده عدة إقطاعات، و صارت

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۰

له حرمة وافرة فی الدولة إلی الغاية، فلما كانت هذه الفتنة ظن فی نفسه أنه يوافقهم، فإذا تسلطن أحد منهم رفع محلّه زيادة علی ما فعل إينال، و يصير الأمر كلّه بيده، و ما يدری بأن لسان الحال يقول له:

[الرجز]

خير الأمور الوسط حبّ التناهى غلط

ما طار طير و ارتفع إلا كما طار وقع

و لما حضر الخليفة عندهم تكامل لبسهم السلاح، و انضافت إليهم خلائق من المماليك السيفية، و أوباش الأشرفية، و غيرهم من الجياع الحرافيش، فلما رأت الأجلاب أمر الظاهريّة حسبوا العواقب، و خافوا زوال ملك أستاذهم، فتخلوا عن الظاهريّة قليلا بقليل، و توجّه كل واحد إلى حال سبيله، فقامت الظاهرية بالأمر وحدهم، و ما عسى يكون قيامهم من غير مساعدة، و قد تخلّى عنهم جماعة من أعيانهم و خافوا عاقبة هذه الفتنة؟!.

هذا و قد تعبأ السلطان لحربهم، و نزل من القلعة إلى باب السّلسلة من الإسطبل السلطانى، و تناوش القوم بالسهام، و أرادوا المصافقة، فتكاثر عليهم السلطانية، و صدموهم صدمة واحدة بددوا شملهم، بل كانوا تشتتوا قبل الصدمة أيضا، و هجموا السلطانية فى الحال إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح، و أخذوا الأمراء المرسّم عليهم، و أخذوا فيمن أخذوا الخليفة معهم، و طلعوا بهم إلى السلطان.

فلما رأى السلطان الخليفة وبخه بالكلام الخشن، و أمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل، و خلعه من الخلافة بأخيه يوسف فى يوم الخميس ثالث شهر رجب المذكور، ثم سفّر الخليفة القائم بأمر اللّه المذكور فى يوم الاثنين سابع رجب إلى سجن الإسكندرية فسجن بها مدة سنين، ثم أطلق من السجن، و سكن بالإسكندرية إلى أن مات بها فى أواخر سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۱

و لما بلغ الأمير خشقدم أمر هذه الفتنة عاد من برّمنبابة، و طلع إلى القلعة، و معه رفيقه قرقماس رأس نوبة النوب فى يوم الأربعاء، و حضرا الموكب فى باكر يوم الخميس، ثم عادا إلى برّمنبابة بمخيّمهما، ثم فرّق السلطان الجمال على المماليك السلطانيّة، و سافروا صحبة الأميرين المذكورين إلى ما عيّنوا إليه، و تفرقت من يوم ذاك أجلاب السلطان فرقتين: فرقة و هم الذين اشتراهم من كتابية الظاهر جقمق و ابنه، و فرقة اشتراهم هو فى أيام سلطنته.

و قويت الفرقة الذين اشتراهم على الفرقة الظاهرية، و منعوهم من الطلوع إلى القلعة، و السكنى بالأطباق، و قالوا ما معناه: إنكم سوّدتم وجوهنا عند أستاذنا، و أظن ذلك كلّه زورا و بهتانا مع أن الأشرف كان هو لا يقطع فيهم قربته بهذا و لا بغيره، و هو مستمر على محبتهم كما كان أولا، فلعمرى إذا كان هذا فعلهم به و هو راض، فما عساه يرجعهم عن ظلم غيره؟! فهذا مستحيل.

و لما انتهت الوقعة و خلع السلطان الخليفة أمسك جماعة من المماليك الظاهرية و حبسهم بالبرج من قلعة الجبل، و نفى بعضهم و اختفى بعضهم، و أخرج قوزى السّاقى الظاهرى- و كان تأمر عشرة- و معه عشرين مملوكا من المماليك الظاهرية إلى البلاد الشامية، مع أن قوزى المذكور لا فى العير و لا فى النّفير، و سافروا فى يوم الجمعة تاسع شهر شعبان، و سكن الأمر كأنه لم يكن، لحسن سياسة السلطان فى تسكين أخلاط الفتن- انتهى.

و فى يوم الأربعاء حادى عشرين شعبان ورد الخبر على السلطان بمسك الأمير يشبك النّوروزى نائب طرابلس بأمر السلطان، لأن السلطان كان قبل تاريخه أرسل إينال الجلبّانى القجقى الخاصكى إلى طرابلس، و على يده ملطفات فى الباطن،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۲

بمسك يشبك المذكور و حبسه بالمرقب، و تولى عوضه نيابة طرابلس الأمير حاج إينال اليشبكى نائب حماة، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير يشبك الفقيه المؤيدى، و استقر فى نيابة حماة عوضه الأمير إياس المحمدى الناصرى نائب صفد، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير قانصوه المحمدى الأشرفى، و استقر فى نيابة صفد عوضا عن إياس الأمير جانبك التاجى المؤيدى نائب غزة، و حمل إليه التقليد تمرباى من حمزة المعروف بططر الناصرى، و استقر فى نيابة غزة عوضا عن جانبك التاجى خيربك النوروزى أحد أمراء صفد، و مسفّره سنقر قرق شبق الأشرفى الخاصكى.

ثم رسم السلطان أيضا بنقل الأمير آقبردى الساقى الظاهرى من أتابكية حلب إلى نيابة ملطية، بعد عزل قانى باى الناصرى، و استقر فى

أتابكية حلب عوضا عن آقبردى سودون من سيدى بك الناصرى القرمانى أتابك طرابلس، و صار مغلباى البجاسى أحد أمراء طرابلس و حاجب حجابها أتابك طرابلس عوضا عن سودون القرمانى المذكور، و ولى حجوبية طرابلس يشبك دوادار قانى باى البهلوان- و هو رجل من الأوباش، لم تسبق له رئاسة- بالبذل، انتقل إليها من نيابة المرقب، ثم أخرج السلطان سنطباى الظاهرى رأس نوبة الجمداريّة- كان- منفيّا إلى طرابلس فى أوائل شهر رمضان.

ثم فى يوم الأحد عاشر شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان من مكة بموت الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، فأقرّ السلطان ولده الشريف محمدا فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۳

إمرة مكة عوضه، بسفارة الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة بمكاتبته، ثم وصل نائب جدّة بعد ذلك إلى القاهرة، و تم أمر ولاية محمد بقدومه بخمسين ألف دينار، يحمل منها عاجلا عشرين ألف دينار، و ما بقى آجلا على نقدات متفرقة، هكذا حكى لى الأمير جانبك من لفظه، هذا غير ما يدفعه الشريف محمد المذكور لأرباب الدّولة بالدّيار المصرية و لولد السلطان و زوجته، فإن زوجة السلطان و ولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية و رشوة.

ثم رسم السلطان أيضا بعزل أبى السعادات قاضى مكّة، و ولاية الإمام محب الدين الطبرى إمام مقام إبراهيم عليه السلام بغير سعى.

و رسم أيضا باستقرار الشيخ برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة فى نظر حرم مكّة، بعد عزل الشيخ طوغان الأشرفى عنها، و خرج إليها الأمر صحبة الحاج فى الموسم.

و كان أمير حاج المحمل فى هذه السنة الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى، أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، و أمير الرّكب الأول الناصرى محمد ابن الأمير جرباش المحمدى الأمير آخور الكبير، و صحبته والدته خوند شقراء بنت الناصر فرج بن برقوق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۴

و سافر أيضا فى هذه السنة إلى الحجاز الأمير بيبرس الأشرفى- خال العزيز يوسف- باشا [ليكون مقدما] للمماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرفة.

و فى أوائل ذى القعدة رسم السلطان بهدم تربته التى كان أنشأها أيّام إمرته و إعادتها مدرسة، و خلع على الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش و الخاص بالنظر على عمارتها.

و فى عشر ذى الحجة- و هو يوم عيد الأضحى- صلى السلطان صلاة العيد بالجامع الناصرى بقلعة الجبل، ثم خرج من الجامع بسرعة، و ذهب إلى الحوش السلطانى، و نحر ضحاياه به.

و كانت العادة أن السلطان إذا خرج من صلاة العيد جلس بالإيوان و معه الأمراء و ذبح به، ثم يتوجّه من الإيوان إلى باب الستارة و ينحر به أيضا و يفرّق ما يذبحه ثم بعد ذلك يتوجه إلى الحوش و يذبح به، فلم يفعل السلطان شيئا من ذلك، خوفا من مماليكه الأجلاب، فإنهم رجموه فى العام الماضى و أخرقوا به و بأمرائه غاية الإخراق، و رجموه و هجموا عليه حيث كان ينحر الضحايا حتى إنه قام من مقامه فزعا بعد أن أصاب جماعة من الأعيان الرجم.

و فرغت هذه السنة و قد قوى أمر المماليك الأجلاب.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۰]

و استهلت سنة ستين و ثمانمائة.

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم نزلت المماليك الأجلاب من الأطباق، و قصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينهبوا ما فيه، و كأنه أحسّ بذلك و شال ما كان فى بيته،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۵

فلما دخلوا البیت لم یجدوا فیه ما یأخذونه، فمالوا علی من هو ساکن بجوار بیت فرج المذکور فنهبوهم بحیث إنهم أخذوا غالب متاع الناس، و لا قوة إلا بالله.

و فی یوم الأربعاء حادی عشرین المحرم ورد الخبر علی السلطان بموت الأمیر آقبردی الساقی نائب ملطیة بها، فرسم السلطان لجانبک الجکمی المعزول عن نیابة ملطیة قبل ذلک بنیابة ملطیة علی عادته أولا، و رسم بأن یستقرّ فی نیابة طرسوس عوضا عن جانبک الجکمی آقبای السیفی جار قطلو، و کان آقبای أیضا ولی نیابة طرسوس قبل ذلک.

و فی یوم الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستین المذکورة أخرق الممالیک الأجلاب بعظیم الدولة الصاحب جمال الدین ناظر الجیش و الخاص بغیر سبب أوجب ذلک، و شقّ ذلک علی کل أحد، و لم تنتطح فی ذلک شاتان.

و فی یوم السبت ثامن عشر جمادی الأولی من سنة ستین أیضا وصل قاصد السلطان محمد بن مراد بک بن عثمان متملّک بلاد الرّوم، و هو جمال الدین عبد اللّه القابونی، و طلع إلی السلطان فی یوم الثلاثاء و علی یده کتاب مرسله، یتضمن البشارة بفتح قسطنطینیّة، و الکتاب نظم و نثر، وقفت علیه و علی جوابه من السلطان من إنشاء القاضی معین الدین عبد اللطیف بن العجمی نائب کاتب السّرّ، و أثبتّ الکتاب الوارد و الجواب کلیهما فی تاریخنا «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور» إذ هو محل ضبط هذه الأشیاء.

و فی یوم الخمیس خامس عشر جمادی الآخرة من السنة أمسک السلطان الأمیر زین الدین الأستادار، و وضع فی عنقه الجنزیر، و حطّه إلی الأرض لیضربه، ثم رفع من علی الأرض بغیر ضرب، و حبس عند الطواشی فیروز الزّمّام

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۶

و الخازندار، و استقرّ عوضه فی الأستاداریة سعد الدین فرج بن النحّال الوزیر، و استقرّ علیّ بن الأهناسی البرددار وزیرا عوضا عن فرج المذکور، فلما سمعت الممالیک الأجلاب بهذا العزل و الولایة نزلوا من وقتهم غارة إلی بیت الأستادار لینهبوه، فمنعهم ممالیک زین الدین، و قاتلوهم و أغلقوا الدروب، فلما عجزوا عن نهب بیت زین الدین نهبوا بیوت الناس من عند بیت زین الدین إلی قنطرة أمیر حسین، فأخذوا ما لا یدخل تحت حصر کثرة.

و استمروا فی النهب من باکر النّهار إلی قریب العصر، و فعلوا بالمسلمین أفعالا لا تفعلها الکفرة و لا الخوارج مبالغة، و هذا أعظم مما کان وقع منهم من نهب جوار بیت الوزیر فرج، فکانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث الشنیعة التی لم نسمع بأقبح منها فی سالف الأعصار.

و من ثم دخل فی قلوب الناس من الممالیک الأجلاب من الرجیف و الرّعب أمر لا مزید علیه، لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم، و أن السلطان لا یقوم بناصر من قهر منهم.

و وقعت حادثة عجیبة مضحکة، و هی أنه لما عظم رجیف الناس و العامة من هذه الممالیک الأجلاب اتفق أن جهاز بنت الناصری محمد بن الثّلاج الأمیر آخور خرج من بیت أبیها إلی بیت زوجها الأمیر جانبک قرا الأشرفی، و حمل ذلک علی رءوس الحمّالین و البغال کما هی عادة المصریین، و سارت الحمالون بالمتاع فوقع من علی رأس بعضهم قطعة نحاس، فجفل من ذلک فرس بعض الأجناد، فحنق الجندی من فرسه و ضربه، ثم ساقه، فلم تشک العامة أن الممالیک نزلوا إلی نهب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۷

حوانیت القاهرة، فأغلقت القاهرة فی الحال، و ماجت الناس، و تعطلت المعایش، و حصل علی الرعیة من الانزعاج أمر کبیر من غیر موجب- انتهی.

و فی هذه الأیام کان الفراغ من مدرسة السلطان التی هدمها و بناها بالصحراء، و قرئ بها ختمة شریفة، و حضرت الأعیان من الأمراء و غیرهم ما خلا السلطان.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شهر رجب من سنة ستين المذكورة أفرج السلطان عن زين الدين [يحيى] الأستادار، و رسم له بأن ينزل إلى بيت الصّاحب جمال الدين ليحمل ما تقرّر عليه إلى الخزانة الشريفة- و هو مبلغ عشرة آلاف دينار- ثم ينفى بعد تغليقه المال إلى حيث يأمر به السلطان، و لما غلّق ما ألزم به من المال، سافر فى يوم الاثنين أول شعبان إلى المدينة الشريفة من على طريق الطّور.

ثم سافر قاصد ابن عثمان إلى جهة مرسله فى يوم الجمعة خامس شعبان، و تبعه قاصد السلطان إلى ابن عثمان المذكور، و هو السّيفى قانى باى اليوسفى المهمندار.

و فيه ورد الخبر على السلطان بأن السلطان إبراهيم بن قرمان صاحب لارندة و غيرها من بلاد الرّوم طرق معاملة السلطان، و استولى على مدينة طرسوس و أذنة و كولك، فغضب السلطان من ذلك، و أمر بخروج تجريدة من الدّيار المصريّة لقتال ابن قرمان المذكور، و عيّن جماعة من الأمراء و المماليك يأتى ذكرهم عند سفرهم من القاهرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۸

و فى يوم الأربعاء ثالث عشرين شهر رمضان نودى بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرّض المماليك الأجلاب إلى الناس و الباعة و التجار، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطنين ذباب، و استمرّوا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس و الظلم و العنف حتى غلت الأسعار فى سائر الأشياء من المأكول و الملبوس و الغلال و العلوفات، و صاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة، و يأخذون ما يجدون من الشّعير و التّبن و الدّريس بأبخس الأثمان إن أعطوا ثمنا، و إن شاءوا أخذوه بلا ثمن، و كلّ من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانيا إلى بيع ذلك الصنف إلا أن يكون محتاجا لبيعه، فعزّت لذلك هذه الأصناف بحيث إنها صارت أقل وجودا من أيّام الغلاء، فصار هذا هو الغلاء بعينه، و زيادة على الغلاء عدم الشيء.

ثم شرعوا فى نهب حواصل البطيخ الصيفى و غيره، ثم تزايد أمرهم، و شرعوا يفعلون ذلك مع تجار القماش و غيره، فغلت جميع الأسعار مع كثرتها عند أربابها، فضرّ ذلك بحال الناس قاطبة، رئيسها و خسيسها، و هذا أول أمرهم، و ما سيأتى فأهول.

و فى يوم الاثنين تاسع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من بركة الحاج، و هو الأمير قائم من صفر خجا أحد مقدّمى الألوف، و سار إلى البركة دفعة واحدة، فكان عادة أمراء المحمل النزول بالمحمل إلى الريدانية، فبطل ذلك، و صاروا يتوجهون إلى البركة فى مسير واحد، و أمير الرّكب الأوّل عبد العزيز بن محمد الصغير أحد الأجناد.

و فى هذه الأيّام كانت عافية الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص من مرض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۹۹

أشرف فيه على الموت، و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه و نزل إلى داره فى يوم مشهود لم ير مثله إلا نادرا.

و فى يوم الخميس سابع عشرين ذى القعدة استقرّ الأمير سودون النوروزى السلاح دار أحد أمراء الطبلخانات فى نيابة قلعة الجبل بعد موت قانى باى الأعمش النّاصرى، و أنعم السلطان بإقطاع قانى باى المذكور على ولده الصغير المقام الناصرى محمد، و الإقطاع إمرة عشرة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۱]

و استهلت سنة إحدى و ستين و ثمانمائة يوم الاثنين الموافق لثالث كيهك أحد شهور القبط.

فلما كان يوم السبت سادس المحرم ضرب السلطان والى القاهرة خيربك القصروى، و عزله عن ولاية القاهرة، و حبسه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار، فدام فى البرج إلى أن أطلق فى يوم عاشره، و استقر عوضه فى ولاية القاهرة على بن إسكندر، و استقرّ فى نقابة الجيش الأمير ناصر الدين بن أبى الفرج- على عادته أوّلا- عوضا عن على بن إسكندر المذكور.

و فى يوم السبت هذا نودى أيضا على الذّهب بأن يكون صرف الدّينار الذى هو وزن درهم و قيراطين ثلاثمائة درهم نقرة، و كان بلغ

صرفه قبل ذلک إلى ثلاثمائة و سبعين نقرة، و أضرّ ذلک بحال الناس زيادة على ما هم فيه من أمر المماليک الأجلاب.

و فى يوم الاثنين خامس عشر المحرم المذكور ورد الخبر على السلطان بموت يشبک حاجب حجّاب طرابلس، فرسم باستقرار شادبک الصارمى عوضه فى حجوبية الحجاب، و المتوفى و المولّى كلاهما ولى بالبذل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۰

و فى يوم الخميس ثالث صفر ثارت المماليک الأجلاب على السلطان، و أفحشوا فى أمره إلى الغاية. و خبر ذلک أن السلطان لما كان فى يوم الخميس المذكور و هو جالس بقاعة الدهيشة، و كانت الخدمة بطّالة فى هذا اليوم، و ذلک قبل أن يصلى السلطان الصبح، و إذا بصياح المماليک، فأرسل السلطان يسأل عن الخبر، فقيل له إن المماليک أمسكوا نوكار الزّردكاش و هددوه بالضرب، و طلبوا منه القرقلات التى وعدهم السلطان بها من الزّردخاناه السلطانية، فحلف لهم أنه يدفع لهم ذلک فى أوّل الشّهر، فتركوه و مضوا، فلقوا الشيخ عليا الخراسانى الطويل محتسب القاهرة، و هو داخل إلى السلطان فاستقبلوه بالضّرب المبرح المتلف، و أخذوا عمامته من على رأسه، فرمى بنفسه إلى باب الحريم السلطانى حتى نجا.

و أما السلطان لما فرغ من صلاة الصّبح نزل و قعد على الدّكة بالحوش على العادة، ثم قام بعد فراغ الخدمة و عاد إلى الدّهيشة، و إذا بالصّياح قد قوى ثانيا، فعلم أن ذلک صياح الأجلاب، فأرسل إليهم الأمير يونس الدّوادار، فسألهم يونس المذكور عن سبب هذه الحركة، فقالوا: نريد نقبض جوامكنا، كل واحد سبعة أشرفيّة ذهبا، و كانت جامكيّة الواحد منهم ألفين قبل تاريخه يأخذها ذهبا و فضة، بسعر الذهب تلک الأيام، فلما غلا سعر الذهب تحيّلوا على زيادة جوامكهم بهذه المندوحة، ثم قالوا:

و نريد أن تكون تفرقة الجامكية فى ثلاثة أيام، أى على ثلاث نفقات كما كانت قديما، و نريد أيضا أن يكون عليقنا السلطانى الذى نأخذه من الشّونة مغربلا، و يكون مرتبنا من اللحم سمينا، فعاد الأمير يونس إلى السلطان بهذا الجواب، و لم يتفوّه به إلى السلطان، و تربّص عن ردّ الجواب على السلطان حتى يفرغ السلطان من أكل السّماط، فأبطأ الخبر لذلک عن الأجلاب، فندبوا مرجانا مقدّم المماليک للدخول بتلک المقالة إلى السلطان، فدخل مرجان أيضا و لم يخبر السلطان بشيء حتى فرغ من أكل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۱

السّماط، فعند ذلک عرّفه الأمير يونس بما طلبوه، فقال السلطان: لا سبيل إلى ذلک، و أرسل إليهم مرجانا المقدّم يعرّفهم مقالة السلطان، فعاد مرجان ثانيا إلى السلطان بالكلام الأوّل، و صار يتردّد مرجان بين السّلطان و المماليک الأجلاب نحو سبعة مرار، و هم مصممون على مقالتهم، و السّلطان ممتنع من ذلک.

و امتنع الناس من الدّخول و الخروج إلى السلطان خوفا من المماليک لما فعلوه مع العجمى المحتسب، فلما طال الأمر على السّلطان خرج هو إليهم بنفسه، و معه جماعة من الأمراء و المباشرين، و توجّه إلى باب القلّة حيث يجلس مقدّم المماليک و الخدّام، فوجد المماليک قد اجتمعوا عند رحبة باب طبقة المقدّم، فلما علموا بمجيء السلطان أخذوا فى الرجم فجلس السلطان بباب القلّة مقدار نصف درجة، ثم استدرک أمره لمّا رأى شدّة الرّجم، و قصد العود إلى الدّهيشة، و رسم لمن معه من الأمراء أن ينزلوا إلى دورهم، فامتنعوا إلا أن يوصّلوه إلى باب الحريم، فعاد عليهم الأمر فنزلوا من وقتهم، و بقى السلطان فى خواصّه و جماعة المباشرين و ولده الكبير المقام الشهابى أحمد.

فلما سار السلطان إلى نحو باب الستارة، و وصل إلى باب الجامع أخذه الرّجم المفرط من كلّ جهة، فأسرع فى مشيته و الرّجم يأتيه من كل جانب، و سقط الخاصكى الذى كان حامل ترس السلطان من الرّجم، فأخذ التّرس خاصكىّ آخر فضرب الآخر فوقع و قام، و شجّ دوادار ابن السلطان فى وجهه و جماعة كثيرة، و سقطت فردة نعل السلطان من رجله فلم يلتفت إليها لأنه محمول من تحت إبطيه مع سرعة مشيهم إلى أن وصل إلى باب الستارة، و جلس على الباب قليلا، فقصدوه أيضا بالرّجم فقام و دخل من باب الحريم و توجّه إلى الدّهيشة.

و استمرّ وقوف المماليک على ما هم عليه إلى أذان المغرب، فبعد صلاة المغرب نزل الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص من باب الحريم إلى القصر، و توصل منه إلى الإسطبل السلطانی، و خرج من باب السّلسلة، و توجّه إلى داره، و نزل الأمير بردبک الدّوادار الثانی و صهر السلطان من الميدان ماشيا، فوجد فرسه تحت القلعة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۲

فركبه و توجّه إلى داره، و كذلک فعل جانبک المشدّ، و جانبک الخازندار و غيرهما، و بات القوم و هم على وجل، و المماليک يكثرون من الوعيد فی يوم السبت؛ فإنهم زعموا أن لا يتحركوا بحركة فی يوم الجمعة مراعاة لصلاة الجمعة.

و أصبح السلطان و صلى الجمعة مع الأمراء على العادة، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان فی أمرهم بما معناه إنه لا بد لهم من شیء يطيّب خواطرهم به، و وقع الاتفاق بينهم و بين السلطان على زيادة كسوتهم التی يأخذونها فی السّنة مرّة واحدة، و كانت قبل ذلک ألفين، فجعلوها يوم ذاک ثلاثة آلاف، و زادوهم أيضا فی الأضحية، فجعلوا لكل واحد ثلاثة من الغنم الضأن، فزيدوا رأسا واحدا على ما كانوا يأخذونه قبل ذلک، ثم رسم لهم أن تكون تفرقة الجامكية على ثلاث نفقات فی ثلاثة أيام من أيام المواكب، فرضوا بذلک و خمدت الفتنة، و قد انتفعت جميع المماليک السلطانية بهذه الزيادات؛ فإنها ليست بمختصة بالأجلاب فقط، و إنما هی لجميع مماليک السلطان كائنا من كان، فحمدت المماليک و الناس جميعا فعلهم لماجر إليهم من المنفعة.

قلت: هذا هو الاحتمال الذی يؤدی إلى قلة المروءة، فإنه لو أراد لفعل بهم ما شاء، غير أنه كما ورد: «حبّک للمرء يعمی و يصم» انتهى.

و فی هذه الأيام ترادفت الأخبار من الأمير جانم الأشرفی نائب حلب بحركة ابن قرمان، فلهج السلطان بخروج تجريدة لقتاله بعد انفصال فصل الشتاء.

ثم فی يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأوّل أبطل السلطان الخدمة من القصر، و جلس بالحوش السلطانی، و جمع القضاة و الأعيان و ناظر دار الضّرب، و سبكت الفضة المضروبة فی كل دولة، و قد حرّرنا وزن ضرب كلّ دولة، و ما نقص منها فی تاريخنا «حوادث الدهور» - انتهى.

و انفضّ الجمع و قد نودی فی يومه بشوارع القاهرة بأن أحدا لا يتعامل بالفضّة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۳

المضروبة بدمشق فی هذه الدّولة، فشقّ ذلک على الناس قاطبة؛ لكثرة معاملاتهم بهذه الفضة التی داخلها الغشّ، و لهجت العامة فی الحال فيما بينهم: «السلطان من عكسه أبطل نصفه» و «إذا كان نصفک إينالی لا تقف على دكانی» و أشياء من هذه المهملات التی لا وزن و لا قافية، و انطلقت الألسن بالوقيعة فی السلطان.

هذا و الصاحب جمال الدين عظيم الدّولة بلّغ السلطان من الغد أنّ المماليک تريد إثارة فتنة أخرى بسبب ذلک، فخشی السلطان من مساعدة العوامّ لهم، فأبطل ما كان نودی به.

قلت: و المصلحة ما كان فعله السلطان، غير أنک تعلم أن السّواد الأعظم من العامة ليس لهم ذوق و لا خبرة بعواقب الأمور، فإنهم احتاجوا بعد ذلک إلى أن سألوا فی إبطال ذلک، فلم يسمح لهم السلطان به إلّا بعد أمور و أشهر حسبما يأتی ذكره، و هو معذور فی ذلک.

و فی يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الأوّل المذكور من سنة إحدى و ستين عمل السلطان المولد النبویّ بالحوش من قلعة الجبل على العادة فی كل سنة، غير أنه فرّق الشّقق الحرير على القرّاء و المدّاح، كل شقّة طولها خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع و نصف، و لم يفرق على أحد شقة كاملة إلا نادرا.

قلت: كل ذلک من سوء تدبير أرباب وظائفه و حواشيه، و إلا فما هو هذا النزر اليسير حتى يشحّ به مثل هذا الملک الجليل، و نفرض

أنه عزم على ذلک فکان یمکنهم الکلام معه فی ذلک، فإن عجزوا عن مدافعته کان أحد من أولاده و خواصه یقوم بهذا الأمر عنه من ماله، و لیس فی ذلک کبیر أمر.

و فی یوم الأحد ثامن عشر شهر ربیع الأوّل المذکور وصل إلى القاهرة سنقر الأشرفی الدّوادار المعروف بقرق شبق، و کان توجّه قبل تاریخه إلى البلاد الحلبیّة لکشف أخبار ابن قرمان، و تجهیز العساکر الشّامیّة و الحلبیة، فوقع له هناک أمور و حوادث ذکرناها فی غیر هذا المحل، من قتل جماعة من ترکمان ابن قرمان و غیر ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۴

و کان سنقر المذکور من مساوىء الدّهر، و عنده طیش و خفة مع ظلم و جبروت، و ما سیأتی من أخباره عند عمارته لمراکب الغزاة فأعظم.

ثم فی یوم الأحد هذا نودی بالقاهرة من قبل السلطان بأن یکون سعر الدّرهم من الفضّة الشامیّة المقدم ذکرها التی داخلها الغش ثمانیة عشر درهما نقرة، فقامت قیامة العامّة من ذلک خوفا من الخسارة، و أکثروا من الوقیعة بالسلطان و أرباب دولته، و لا سیما فی الصاحب جمال الدین ناظر الجیش و الخاص، فأنهم نسبوا هذا کله إلیه- رحمه اللّه.

و کان السلطان خلع على ولده المقام الشهابی أحمد باستقراره أمیر حاجّ المحمل فلما نزل ابن السلطان و علیه الخلعة من القلعة إلى داره- و هی قصر بکتمر الساقی تجاه الکبش- و بین یدیه جمیع أعیان الدولة استغاثت إلیه العامة بلسان واحد، و قالوا: «نخسر بهذه المناداة ثلث أموالنا»، و سألوه فی إبطال ذلک، فوعدهم بإبطاله، و أرسل إلى والده یسأله فی إبطال ما نودی به، فأجابه السلطان، و نودی فی الحال مناداة ثانیة بإبطال ما نودی به.

قلت: و هذه فعلة العامة الثانیة من طلبهم عدم المناداة بإبطال هذه الفضّة المغشوشة خوفا من الخسارة، فاحتاجوا بعد ذلک إلى المناداة، و خسروا أکثر مما کانوا یخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضّة، و وصل صرف الدینار إلى أربعمائة درهم کما نذکره إن شاء اللّه تعالى.

و فی یوم السبت أول شهر ربیع الآخر نودی فی الممالیک السلطانیة المعینین إلى تجریدة البلاد الشامیة لقتال ابن قرمان- قبل تاریخه- بأنّ النفقة فیهم فی یوم الخمیس الآتی، فلما کان یوم الخمیس سادس ربیع الآخر المذکور جلس السلطان بالحوش السلطانی، و شرع فی تفرقة النّفقة على الممالیک المذکورین، لکل واحد منهم مائة دینار،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۵

و سعر الذهب یوم ذاک أربعمائة الدینار، فوصل لکل واحد منهم- أعنی الممالیک المعینین- أربعون ألفا، و هذا شیء لم نسمع بمثله، و أکثر ما فرّق الملوک السالفة فی معنى النفقة مائة دینار، و سعر الدینار فی ذلک الوقت ما بین مائتین و عشرین درهما الدینار إلى مائتین و ثمانین الدینار، لا بهذا السعر الزائد، فشکر کل أحد السّلطان على هذه الفعلة.

و کان عدة من أخذ النفقة من الممالیک المذکورین أربعمائة مملوک و ثلاثة ممالیک، ثم أرسل السلطان بالنفقة إلى الأمراء المجرّدین، فحمل إلى الأمیر خشقدم الناصری المؤیّدی أمیر سلاح- و هو مقدّم العسکر یوم ذاک- بأربعة آلاف دینار، ثم أرسل لکل من أمراء الألوف لکل واحد بثلاثة آلاف دینار، و هم: قرقماس الأشرفی رأس نوبة النّوب، و جانبک القرمانی الظاهری حاجب الحجّاب، و یونس العلائی الناصری، ثم حمل لکل من أمراء الطبلخانات بخمسمائة دینار، و لکل أمیر عشرة مائتی دینار. یأتی ذکر أسماء الجمیع عند خروجهم من الدیار المصریة إلى جهة ابن قرمان.

ثم فی یوم الخمیس العشرین من شهر ربیع الآخر المذکور عزل السلطان علیّ ابن إسکندر عن ولایة القاهرة، و أعاد خیربک القصروی لولایة القاهرة کما کان أوّلا.

ثم فی یوم الخمیس خامس جمادى الأولى برز الأمیر خشقدم أمیر سلاح و مقدّم العسکر بمن معه من الأمراء و العساکر من القاهرة

إلى الرّيدانيّة خارج القاهرة، و الأمراء هم:

الأربعة من مقدمى الألوف المقدم ذكرهم.

و الطبلخانات: جانبك الناصرى المرتدّ، و خيربك الأشقر المؤيّدى الأمير آخور الثانى، و بردبك البجمقدار الظاهرى رأس نوبة.

و من أمراء العشرات ستة أمراء و هم: تمرباى من حمزة الناصرى المعروف بططر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۶

و قانصوه المحمدى الأشرفى، و قلمطاى الإسحاقى الأشرفى رأس نوبة، و قانم طاز الأشرفى رأس نوبة، و جكم النورى المؤيدى رأس نوبة، و جانم المؤيدى المعروف بحرامى شكل.

و قد تقدّم ذكر عدة المماليك السلطانية فيما تقدم.

و أقاموا بالرّيدانيّة إلى ليلة الاثنين تاسعه فاستقلوا فيه بالمسير من الرّيدانيّة إلى جهة البلاد الشاميّة.

ثم فى يوم الخميس سادس عشرين جمادى الأولى المذكورة سافر الأمير نوكار الزّردكاش، و معه عدّة من الرّماة و النّفطيّة و آلات الحصار و هو مريض، و رسم له أن يأخذ من قلعة دمشق ما يحتاج إليه أيضا من أنواع [الآلات و غيرها] للحصار، و يلحق العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان.

ثم فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة استقرّ الأمير أسندمر الجقمقى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة أمير المماليك السلطانية المجاورين بمكّة المشرّفة عوضا عن الأمير بيبرس الأشرفى، خال الملك العزيز يوسف، و رسم بمجىء بيبرس المذكور عند توجه أسندمر الجقمقى فى موسم الحج.

ثم فى يوم الجمعة ثالث شهر رجب من سنة إحدى و ستين المذكورة ورد الخبر على السلطان بموت الأمير نوكار الزّردكاش بمدينة غزّة. فأنعم السلطان بإقطاعه- و هو إمرة عشرة- و وظيفة الزّردكاشيّة على سنقر الأشرفى الدوادار المعروف بقرق شبق.

و فى يوم الخميس تاسع رجب المذكور وقعت حادثة غريبة: و هى أن جماعة من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۷

العربان قطّاع الطريق جاءوا من جهة الشرقية حتى وصلوا إلى قرب باب الوزير، ثم عادوا من حيث جاءوا، و صاروا فى عودهم يسلبون من وقعوا به من الناس، فعرّوا جماعة كبيرة من بين فقهاء و أعيان و غيرهم، و كان الوقت بعد آذان العصر بدرجات وقت حضور الخوانق.

و فى يوم الأحد ثانى عشره، خلع السلطان على السيد الشريف حسام الدين محمد ابن حريز، باستقراره قاضى قضاة المالكية بعد موت القاضى ولى الدين السّنباطى.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بوصول العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان إلى حلب، و أنهم اجتمعوا فى حلب بالأمير قانى باى الحمزاوى نائب الشام هناك؛ لأن قانى باى المذكور كان خرج من دمشق قبل وصول العسكر إليها بثلاثة أيام، فتكلم الناس بأنه ظن أن سفر العساكر ما هو إلا بسبب القبض عليه فى الباطن، و التوجّه لابن قرمان فى الظاهر.

قلت: و للقائل بهذا القول عذر بين، و هو أن قانى باى المذكور من يوم تسلطن الملك الأشرف إينال هذا- و هو نائب حلب- لم يحضر إلى الديار المصرية و لا داس بساط السلطان، غير أنه يمتثل أوامر السلطان و مراسيمه حيث كان أولا بحلب، ثم بعد انتقاله إلى نيابة دمشق؛ فعلم بذلك كلّ أحد أن قانى باى المذكور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۸

يتخوّف من السلطان و لا يحضر إلى الدّيار المصرية، و متى طلبه السلطان أظهر العصيان.

و فطن الملك الأشرف إينال لذلك، فلم يطلبه البتة، و صار كل واحد منهما يعلم ما فى ضمير الآخر فى الباطن و يظهر خلاف ذلك؛

السلطان يخفى ذلک لتسکين الفتنة، و قانى باى لما هو فيه من النعمة بولاية نيابة دمشق، و كلّ منهما يترقب موت الآخر، فمات قانى باى قبل، حسبما يأتى ذكره فى الوفيات بعد فراغ الترجمة. و قد خرجنا عن المقصود و لنعد إلى ما نحن بصدده فنقول:

و أخبر المخبر أن العساكر اجتمعوا بالأمير قانى باى الحمزاوى بحلب، و أنه اجتمع رأى الجميع على السير من حلب إلى جهة ابن قرمان فى يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة، فسرّ السلطان بذلک؛ كون الذى أشيع عن قانى باى الحمزاوى من العصيان ليس بصحيح، بل هو قائم بالمهمّ السلطانى أحسن قيام.

و فى يوم الجمعة سابع عشره سافر الأمير جانبک الظاهرى نائب جدّة إلى جهة جدّة على عادته فى كل سنة، و سافر معه خلائق من الناس صفة الرّجبيّة.

و فى يوم السبت ثامن عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بأنه كان بين حسن الطويل بن على بک بن قرايلک صاحب آمد و بين عساكر جهان شاه بن قرا يوسف صاحب العراقين- عراق العرب و عراق العجم- وقعة هائلة، انكسر فيها عسكر جهان شاه و انتصر حسن المذكور، و أن حسن قتل من أعيان عساكر جهان شاه جماعة، مثل الأمير رستم، و ابن طرخان، و عربشاه، و غيرهم، فسرّ السلطان بذلک غاية السرور؛ كون أن حسنا المذكور ينتمى إليه، و يظهر له الصّداقة.

ثم فى يوم الاثنين رابع شعبان وصل الخبر من الأمير خشقدم أمير سلاح و من

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۰۹

رفقته النواب بالبلاد الشامية بأنهم وصلوا إلى بلاد ابن قرمان، و ملكوا قلعة دوالى، و نهبوها و أخربوها، و أنهم جهّزوا الأمير بردبک البجمقدار رأس نوبة و معه عدّة من المماليک السلطانية و الأمراء بالبلاد الشامية إلى جهة من جهات بلاد ابن قرمان، فصدفوا فى مسيرهم عسكرا من أصحاب ابن قرمان فواقعوهم و هزموهم، و أنه قتل من المماليک السلطانية أربعة فى غير المصاف، بل من الذين صدفوهم فى أثناء الطريق.

و فى يوم السبت أوّل شهر رمضان سافرت الأمراء المعينون إلى الجورن ببرّ التركية، لأجل قطع الأخشاب، و سافروا من بولاق، و مقدّم العسكر الأمير يشبک الفقيه المؤيّدى أحد أمراء الطبلخانات و رأس نوبة، و معه الأمير أزبک المؤيّدى أحد أمراء العشرات، و الأمير نوروز الأعمش الأشرفى، و جماعة أخر من الخاصكية.

ثم فى يوم الأحد تاسع شهر رمضان وصل نجّاب من خير بک نائب غزّة يخبر بمجىء سودون القصروى الدّوادار بكتاب مقدّمى العساكر الأمير خشقدم المؤيّدى أمير سلاح و غيره من الأمراء، و حضر سودون القصروى المذكور من الغد، و أخبر السلطان بأن العساكر المتوجهة إلى بلاد ابن قرمان قصدت العود إلى جهة حلب بعد أن أخذوا أربع قلاع من بلاد ابن قرمان، و أخربوا غالب قرى ممالكه، و أحرقوا بلاده و سبوا و نهبوا و أمعنوا فى ذلک، حتى أنهم أحرقوا عدّة مدارس و جوامع؛ و ذلک من أفعال أوباش العسكر، و أنهم لم يتعرضوا إلى مدينة قونية و لا مدينة قيصريّة لنفود زادهم، و لضجر العسكر من طول مدتهم بتلک البلاد، مع غلو الأسعار فى المأكول و غيره من سائر الأشياء، و لو لا هذا لا ستولوا على غالب بلاد ابن قرمان، و أن ابن

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۰

قرمان لم يقاتل العسكر السلطانى، بل إنه انحاز إلى جهة منيعة من جهاته و تحصّن بها هو و أعيان دولته، و ترک ما سوى ذلک من المتاع و المواشى و غيرها مأكلة لمن يأكله، فحصل له بما أخذ له وهن عظيم فى مملكته، فدقّت البشائر لهذا الخبر بالقاهرة أيّاما، و رسم السلطان من وقته بعود العسكر المذكور إلى الديار المصرية، و خرج النجّاب بهذا الأمر.

ثم فى يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان المذكور ركب المقام الشهابى أحمد بن السلطان من داره- قصر بكتمر تجاه الكبش- النّجب كما هى عادة أمراء الحج فى الركوب إلى المسايرة، و خرج من الصّليبة، و شقّ الرّميلة، و بين يديه هجّانة السلطان أمراء العرب، بالأكوار الذهب، و الكنابيش الزّركش المغشاة بالأطلس الأصفر، و ركب معه جماعة من الأمراء غير من يسافر معه، مثل: الأمير برد

بک الـدوادار الثانی، و سودون الإینالی المؤیّدی قراقاش ثانی رأس نوبة، و جماعة أخر، و لم یرکب معه أحد من أمراء الألوف، و لا أعیان مباشری الدّولة، حتی و لا کاتب السّرّ القاضی محب الدین ابن الأشقر، و هو ممن یسافر فی هذه السّنة إلی الحج.

و سار ابن السلطان فی موکبه المـذکور من تحت القلعـة إلی جهة خلیج الزّعفران خارج القاهرة، و وصل هناک قبیل المغرب، و أفطر هناک، ثم عاد بعد صلاة العشاء، و شقّ الرّمیلة ثانیا فی عوده فی زیّ بهیج إلی الغایة.

ثم فی یوم الجمعـة ثانی عشـر شوال وصـلت إلی القاهرة رمّة الأمیر جانبک القرمانی الظاهری حاجب الحجّاب، و قد مات بالقرب من منزلة الصالحیّة فی عوده من تجریدة ابن قرمان، ثم عقب الخبر بموت جماعة کبیرة أیضا من العسکر المذکور، من مرض فشا فیهم من مدینة الرّملة کالوباء، مات منه خلائق بمرض واحد، و لم یعلم أحد ما سبب هذا العارض.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۱

ثم فی یوم السبت ثالث عشره ورد الخبر بموت الأمیر جکم النّوری المؤیّدی- المعروف بقلقسیز- أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشـر شوال المذکور وصـلت العساکر المجرّدة لبلاد ابن قرمان علی أسوأ حال من الضّعف الذی حصل لهم فی أثناء الطریق، و طلع مقدّم العسکر الأمیر خشقدم المؤیّدی أمیر سلاح، و رفقته من الأمراء المقدّم ذکرهم عند توجههم و الممالیک السـلطانیة إلی القلعة، و قبّل الأرض فأکرمه السـلطان و خلع علیه و علی رفقته، فنزل الأمیر خشقدم إلی داره و بین یدیه أعیان الدّولة و قد نقص من رفقته اثنان من المقدمین: جانی بک القرمانی المتوفی، و یونس العلائی لضعف بدنه، و قد دخل إلی القاهرة فی محفّة.

ثم فی یوم الاثنین هـذا أنعم السـلطان علی الأمیر بایزیـد التمربغاوی أحـد أمراء الطبلخانات بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن جانبک القرمانی المقدم ذکره، و أنعم بطبلخانات بایزید علی الأمیر برسبای الإینالی المؤیّدی.

ثم فی یوم الخمیس ثامن عشـر شوال المذکور خرج المقام الشهابی أحمد بن السلطان- و هو یومئذ أمیر حاج المحمل- بالمحمل من القاهرة إلی برکـة الحاجّ دفعـة واحـدة- و قـد صار ذلک عادة- و ترک النّزول بالمحل فی الرّیدانیّـة خارج القاهرة، و سافرت معه أمّه خونـد الکبری زینب بنت البـدری حسن بن خـاص بک، و إخوته الجمیع الـذکور و الإناث، و الإخوة الجمیع ثلاثـة: ذکر واحـد و هو أصـغر منه- یسـمی محمدا- مراهق، و أخته الکبری زوجة الأمیر بردبک الدّوادار الثانی، و الصـغری و هی زوجة الأمیر یونس الدّوادار الکبیر، و رحل من البرکة فی لیلة الاثنین ثانی عشرین شوال بعد أن رحل قبله أسندمر الجقمقی رأس المجاورین، و أمیر الرکب الأول یشبک الأشقر الأشرفی، و قد استقرّ أمیر عشرة قبل تاریخه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۲

و وصل من الغـد فی یوم الثلاثاء الأمیر جانبک الظاهری نائب جـدّة من جدّة و قبّل الأرض، و حضـر معه من الحجاز الأمیر زین الدین الأستادار، و کان مقیما بمکة.

و فی یـوم الخمیس خـامس عشـرین شـوال المـذکور أنعم السـلطان بإقطـاع جکم النّوری المؤیّـدی علی الأـمیر جانبـک الإسـماعیلی المؤیّدی المعروف بکوهیة، و علی الأمیر یشبک الظاهری نصفین بالسویّة، لکل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم فی یوم الاثنین تاسع عشـرینه اسـتقرّ الأمیر برسـبای البجاسـی أحد مقدّمی الألوف حاجب الحجّاب بالدیار المصـریة بعد وفاة الأمیر جانبک القرمانی.

ثم فی یوم السـبت خامس عشـرین ذی القعدة ثارت الممالیک الأجلاب بالأطباق من قلعة الجبل، و منعوا الأمراء و مباشری الدّولة من النّزول من قلعة الجبل، فکلموهم بسـبب ذلک. فقالوا: «نرید أن تکون تفرقة الأضـحیة لکل واحد منا ثلاثة من الغنم». أعنی زیادة علی ما کانوا یأخـذونه قبل ذلک برأس واحـد، و کان وقع فی تلک المدّة هذا القول، و سـکت عنه، فتوقّف السـلطان فی الزیادة، ثم أذعن بعد أمور، و استمرّ ذلک إلی یومنا هذا.

و فی یوم الاثنین سابع عشـرین ذی القعدة اسـتقرّ القاضـی صـلاح الدین أمیر حاج بن برکوت المکینی فی حسـبة القاهرة بعد عزل یار

على الخراسانى العجمى الطويل بمال كثير بذله صلاح الدين فى ذلك.

و فى أوائل ذى الحجة ورد الخبر على السلطان من جهة مكّة أنه وقع فى الحاج عطشة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۳

فيما بين منزلة أكرة و الوجه، و مات بالعطش خلائق كثيرة.

و فى يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة- الموافق لثامن هاتور- لبس السلطان القماش الصوف الملوّن المعتدّ لأيام الشتاء، و ألبس الأمراء على العادة.

و فى يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة المذكور وصلت الأمراء المتوجهون إلى بلاد الجون ببرّ التركية، و مقدّمهم الأمير يشبك الفقيه، و رفقته المقدّم ذكرهم عند سفرهم، و خلع السلطان عليهم.

و فى يوم الخميس ثانى عشرينه وصل مبشر الحاج دمرداش الطويل الخاصكى بعد ما قاسى شدائد من العرب قطّاع الطريق، فضايقوه و أخذوا منه عدّة رواحل و غيرها، ثم أخبر دمرداش المذكور بسلامة ابن السلطان و والدته و إخوته، فدقّت البشائر لذلك ثلاثة أيام بالديار المصرية.

و فى يوم الاثنين سادس عشرين ذى الحجة المذكور أخرج السلطان إقطاع الأمير طوخ من تمراز الناصرى- المعروف بينى بازق - أمير مجلس؛ لمرض تمادى به مدّة طويلة، و أنعم بإقطاع المذكور على الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجّاب، و أنعم بإقطاع برسباى البجاسى المذكور على الأمير بيبرس الأشرفى خال الملك العزيز يوسف [بالحجاز]، و كلاهما تقدمة ألف، غير أن الواحد يزيد عن الآخر فى الخراج لا غير، و أنعم بإقطاع بيبرس على ولده الصغير محمد و هو فى الحجاز أيضا، و هذا أيضا تقدمة ألف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۴

ثم فى يوم الخميس تاسع عشرينه استقرّ الأمير جرباش المحمدى الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضا عن طوخ المقدم ذكره بحكم مرضه، و استقر عوضه فى الأمير آخورية يونس العلائى أحد مقدّمى الألوف.

و فى هذه السنة كان فراغ الرّبع و الحمامين الذين بناهم السلطان الملك الأشرف إينال هذا بخط بين القصرين.

و فرغت هذه السنة و قد انحلّ أمر حكّام الدّيار المصريّة أرباب الشرع الشريف و السياسة أيضا؛ لعظم شوكة المماليك الأجلاب، و صار من له حقّ عند كائن من كان من الناس قصد مملوكا من المماليك الأجلاب فى تخليص حقّه، فما هو إلا أن أعلم ذلك المملوك بقصده خلّص من غريمه فى الحال، فإن هؤلاء المماليك صاروا فى أبواب أعيانهم شكل رأس نوبة و نقباء، و لبعضهم دوادار، فيرسل خلف ذلك الرجل المطلوب، و يأمره بإعطاء حق ذلك المدّعى- حقّا كان أو باطلا- بعد أن يهدّده بالضرب و النّكل، فإن أجاب و إلا ضرب فى الحال و نكّل به، و علم بذلك كل أحد، فصار كلّ أحد يستعين بهم فى قضاء حوائجه، و ترك الناس الحكّام، فقوى أمر الأجلاب، و ضعفت شوكة الحكّام، و تلاشى أمرهم إلى الغاية و النهاية.

و فى هذه السنة كانت زلزلة عظيمة بمدينة أرزنكان، هدّمت معظمها.

و فى هذه السنة أيضا كان بالشرق فتن كبيرة بين جهان شاه بن قرا يوسف، و بين أولاد باى سنقر بن شاه رخّ بن تيمور لنك، أصحاب ممالك العجم

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۲]

ثم استهلت سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة.

ففى يوم الاثنين ثالث محرم من السنة المذكورة أنعم السلطان على قايتباى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۵

المحمودى الظاهرى الدّوادار بإمرة عشرة، و عيّن السلطان الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيدى المعروف بكوهية أن يتوجّه إلى حلب، و على يده تشريف تغرى يردى بن يونس حاجب حلب بنيابة ملطية، و تشريف جانبك الجكمى نائب ملطية إلى حجوبية حلب، كل منهما عن الآخر، و ذلك لكلام وقع بين تغرى بردى هذا و بين الأمير جانم الأشرفى نائب حلب.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرين المحرم وصل أمير حاج المحمل بالمحمل إلى القاهرة، و هو المقام الشهابى أحمد بن السلطان، و صحبته والدته و إخوته، و طلع إلى القلعة و معه أخوه محمد، و بين يديهما وجوه الدّولة، و خلع السلطان عليه و على أخيه محمد المذكور، و كانت خلعة المقام الشهابى أطلسين متمرّا، و على الأطلسين فوقانى حرير بوجهين بطرز زركش، ثم خلع السلطان على من له عادة بلبس الخلع فى عود الحاج إلى الدّيار المصرية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۱۱۵

فى يوم الاثنين سادس عشر صفر وصل الأمير أزبك من ططخ الظاهرى الخازندار- كان- من القدس الشريف بطلب من السلطان، و طلع إلى القلعة، و خلع السلطان عليه سلّاريّا من ملابيسه بفرو سنجاب، و وعده بكل خير، ثم رسم له بالمشى فى الخدمة السلطانية بعد أيام.

و فى أوّل شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين و ستين المذكورة نودى من قبل السلطان على الذّهب بأن يكون سعر الدينار الذهب بثلاثمائة درهم نقرة، بعد ما كان وصل سعر الدينار لأربعمائة و ستين درهما الدينار، و أن يكون سعر الفضة المغشوشة كل درهم بستة عشر درهما، و أن يكون سعر الدرهم من الفضة الطيبة التى رسم السلطان بضربها بدار الضرب بأربعة و عشرين درهم نقرة، و حكم السلطان بذلك، و نفذ حكمه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۶

القضاة، و سرّ الناس بهذا الأمر غاية السرور؛ فإنه كان حصل بتلك الفضّة المغشوشة غاية الضرر فى المعاملات و غيرها.

غير أنه ذهب للناس بهذا النقص فى سعر الفضة المغشوشة مال كثير، و صار كل أحد يخسر ثلث ما كان معه من المال من هذه الفضة المذكورة، فانحسر كل من كان عنده من هذه الفضة لوقوع النقص فى ماله، فرسم السلطان فى اليوم المذكور بالمناداة بنقص ثلث ثمن جميع البضائع فى المأكول و الملبوس كما نقص سعر الدرهم الثلث، و كذلك فى نقص الذهب، فهان عند ذلك على الناس ما وقع من خسارة الذهب و الفضة بهذه المناداة الثانية التى هى بنقص ثلث أثمان جميع الأشياء، و قال كل واحد فى نفسه: «كما نقص من مالى الثلث نقص من ثمن ما كنت أبتاعه الثلث»، فكأنه لم ينقص له شىء.

ثم فى يوم الخميس سابع عشره عمل السلطان المولد النبوى بالحوش من القلعة على العادة فى كل سنة.

ثم فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير أزبك من ططخ الظاهرى المقدّم ذكره بإمرة عشرة، عوضا عن الأمير جانم الأشرفى البهلوان، بحكم وفاته كما سيأتى ذكر وفاته و وفاة غيره فى ذكر الوفيات بعد فراغ الترجمة، على عادة هذا الكتاب.

و فى يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الآخر المذكور وجد السلطان نشاطا فى نفسه من مرض كان حصل له أياما، و خرج إلى قاعة الدّهيشة، و دقّت البشائر لذلك بقلعة الجبل و غيرها ثلاثة أيام.

ثم فى يوم الأحد سادس عشرين ربيع الآخر مات الأمير سودون السلحدار نائب قلعة الجبل، فأنعم السلطان من إقطاعه بنصف قرية كوم أشفين على شريكه الأمير يشبك الفقيه المؤيدى، ليكون من جملة أمراء الطبلخانات، و أنعم بباقى إقطاع سودون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۷

المذكور على الأمير أرغون شاه الأشرفى ليكون من جملة أمراء العشرات، و أنعم بإقطاع أرغون شاه المذكور على شريكه الأمير تنبك الأشرفى ليكون تنبك أيضا أمير عشرة، و استقر كسباى المؤيدى السمين نائب قلعة الجبل عوضا عن سودون المذكور على إمرة عشرة ضعيفة، و استقرّ الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيّدى المعروف بكوهية من جملة رؤوس النّوب عوضا عن كسباى المقدّم ذكره، و لبسا

الخلع بعد ذلک بأیام.

ثم فی سلخ شهر ربیع الآخر المذکور خلع السلطان علی الأمیر برسبای البجلسی حاجب الحجاب باستقراره أمیر حاج المحمل.

و فیه خلع السلطان علی الحکماء لعافیته من مرضه، و حضر السلطان موکب القصر مع الأمراء و الخاصکیة علی العادة.

ثم فی یوم الاثنین رابع جمادی الأولی استقر [الطواشی] مرجان [الحصنی] مقدّم الممالیک السلطانیة أمیر حاج الرّکب الأول، فحصل بتولیة مرجان هذا إمرة الحاج الأول علی أهل مکة مالا خیر فیه؛ لأنه کان فی نفسه وضیعا، لم تشمله تربیة مربّ، لأنه نشأ ببلاد الحصن، و خرج منها علی هیئة المکدّین من فقراء العجم، و دار البلاد علی تلک الهیئة سنین کثیرة، إلی أن اتصل بخدمة جماعة کثیرة من الأمراء، ثم آل أمره إلی بیت السلطان، و غلط الدهر بولایته النیابة ثم التّقدمة، ثم بولایته إمرة الرکب الأول فی هذه السنة، فلما سافر أخذ معه جماعة کبیرة من إنیاته الممالیک الأجلاب، ففعلوا فی أهل مکة أفعالا ما تفعلها الخوارج، من الظلم و أخذ أموال الناس له و لأنفسهم، کما سیأتی ذکر ذلک عند عوده من الحج إن شاء اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۸

و فی یوم الخمیس سابع جمادی الأولی استقرّ شمس الدین منصور بن الصّفّی ناظر دیوان المفرد.

و فی یوم الثلاثاء ثانی عشر رکب السلطان الملک الأشرف إینال من قلعة الجبل باکر النهار فی أمرائه و أرباب دولته، وشق خط الصّلیبة بغیر قماش الموکب، و توجّه إلی ساحل بولاق، و دام سیره بساحل بولاق إلی أن وصل إلی مدرسة السعدی إبراهیم ابن الجیعان التی أنشأها علی النیل، و رأی ما أنشئ بالجزیرة و ساحل بولاق من العمائر و البیوت، ثم عاد إلی جهة القاهرة، و مرّ من الشارع الأعظم إلی أن خرج من باب زویلة، و طلع إلی القلعة.

و أصبح من الغد فی یوم الأربعاء أمر بالمناداة بأن أحدا من الناس لا یعمّر عمارة بجزیرة أروی المعروفة بالوسطی، و لا بساحل بولاق؛ لما رأی من ضیق الطریق من کثرة العمائر و الأخصاص، و أمر أیضا بهدم أماکن کثیرة فهدمت فی الیوم المذکور، و استمر والی القاهرة بعد ذلک مستمرا للهدم أیاما کثیرة، و أما الأخصاص و الدکاکین التی بالطریق فهدمت عن آخرها، و کلّم السلطان فی الکفّ عن ذلک جماعة کثیرة فلم یسمع لأحد، و استمر علی ما رسم به من هدم الأماکن المذکورة، قلت: و لا بأس بهذه الفعلة؛ لأن کل أحد له فی الساحل حق کحق غیره، فلا یجوز استقلال أحد به دون غیره.

و فی یوم الأحد سابع عشر جمادی الأولی المذکور خاشنت الممالیک الأجلاب الصاحب جمال الدین ناظر الجیش و الخاص فی اللفظ بسبب غلو سعر أثواب البعلبکی، فأجابهم «بأن هذا لیس هو داخل فی حکمی و لا من تعلقاتی، بل ذلک راجع إلی محتسب القاهرة» و بلغ السلطان ذلک، فأصبح السلطان أمر بعزل صلاح الدین أمیر حاج بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۱۹

برکوت المکینی عن حسبة القاهرة، و استقرّ عوضه بالحاج خلیل المدعو قانی بای الیوسفی المهمندار، مضافا إلی المهمنداریّة.

ثم فی یوم الخمیس ثامن عشرینه وصل إلی القاهرة قصّاد الصارمی إبراهیم بن قرمان، صاحب قونیة و غیرها، و علی یدهم کتب ابن قرمان المذکور تتضمن الترقق و الاستعطاف، و أنه داخل تحت طاعة السلطان، و أنه إن کان وقع منه ما أوغر خواطر السلطنة، فقد جری علیه و علی بلاده من العساکر السلطانیة ما فیه کفایة من النهب و السّبی و الإحراق و غیر ذلک، و أنه یسأل الرّضی عنه، و أشیاء غیر ذلک مما ذکرناه بالمعنی، فعفا السلطان عنه بعد توقّف کبیر.

و فی یوم الجمعة تاسع عشرین جمادی الأولی المذکور سافر الأمیر بردبک الدّوادار الثانی صهر السلطان زوج ابنته إلی دمشق، لینظر جامعه الذی أنشأه بها.

ثم فی یوم الاثنین عاشر جمادی الآخرة خلع السلطان علی أیدکی الأشرفی الخاصکی لیسافر إلی ابن قرمان صحبة قصّاده، لتقریر الصلح بین السلطان و بینه.

و فى يوم الجمعة رابع عشره- الموافق لثالث بشنس أحد شهور القبطلبس السلطان القماش الأبيض البعلبكىّ، المعد لأيام الصيف على العادة فى كل سنة.

ثم فى يوم الخميس خامس شهر رجب من سنة اثنتين و ستين المذكورة شفع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص عند السلطان فى الأمير تمربغا أن يفرج عنه من حبس الصّبيبة، فسمح السلطان له بذلك، و رسم له أن يتوجّه من الصّبيبة إلى دمشق، و يقيم بها لعمل مصالحه لأيّام الحج، و يسافر إلى مكة و يقيم بها بطالا، فوقع ذلك.

ثم فى يوم الجمعة سادس شهر رجب المذكور كان الحريق العظيم بساحل بولاق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۰

الذى لم نسمع بمثله فى سالف الأعصار إلا قليلا، بحيث إنه أتى على غالب أملاك بولاق من ساحل النيل إلى خط البوصة التى هى محل دفن أموات أهل بولاق، و عجزت الأمراء و الحكام عن إخماده.

و كان أمر هذا الحريق أنه لما كان صبيحة يوم الجمعة سادس رجب من سنة اثنتين و ستين المذكورة هبّت ريح عظيمة مريسىّ، و عظمت حتى اقتلعت الأشجار و ألقت بعض مبان، و استمرت فى زيادة و نموّ إلى وقت صلاة الجمعة، فلما كان وقت الزّوال أو بعده بقليل احترق ربع الحاج عبيد البردار بساحل البحر، و ذهب الرّبع فى الحريق عن آخره و مات فيه جماعة من الناس، كلّ ذلك فى أقلّ من ساعة رمل، ثم انتقلت النار إلى ربع القاضى زين الدين أبى بكر بن مزهر و غيره، و هبّت الرّياح و انتشرت النيران على الأماكن يمينا و شمالا، هذا و حاجب الحجّاب و غيره من الأمراء و الأعيان و كلّ أحد من الناس فى غاية الاجتهاد فى تخميد النار بالطفى و الهدم، و هى لا تزداد إلا قوّة و انتشارا على الأماكن، إلى أن وصلت النار إلى ربع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش و الخاص، و إلى الحواصل التى تحته، و أحرقت أعلاه و أسفله، و ذهب فيه من بضائع الناس المخزونة فيه ما لا ينحصر كثرة، و سارت النار إلى الدّور و الأماكن من كل جهة.

هذا و قد حضر الحريق جميع أمراء الدولة بمماليكهم و حواشيهم، شيئا بعد شىء،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۱

و الأمر لا يزداد إلا شدّة، إلى أن صار الذى حضر من الناس لأجل طفى النار كالمتفرج من عظم النار و العجز عن إخمادها، و صارت النار إذا وقعت بمكان لا تزال به حتى يذهب جميعه، و يضمحل عن آخره، فعند ذلك فطن كل أحد أن النار تسير من دار إلى دار إلى أن تصل إلى القاهرة؛ لعظم ما شاهدوا من هولها، و الريح المريسى يتداول هبوبها من أول النهار إلى نصف الليل، و لشدة هبوب الريح صارت رياحا لأنها بقت تارة تهب مريسيّا، و هو الأكثر، و تارة شمالا، و تارة غير ذلك من سائر الجهات، فيئس كل من كان له دار تحت الرّيح، و تحقّق زوالها، و شرع فى نقل متاعه و أثاثه، و هو معذور فى ذلك، لأننا لم نشاهد فى عمرنا مثل هذا الحريق؛ لما اشتمل عليه من الأمور الغريبة، منها سرعة الإحراق، حتى إن الموضع العظيم من الأماكن الهائلة يذهب بالحريق فى أسرع وقت، و منها أن المكان العظيم كان يحترق و بجانبه مكان آخر لم تلحقه شرارة واحدة، و ربما احترق الذى كان بالبعد عن تلك الدار المحروقة من شرارها، و التى بالقرب سالمة، و وقع ذلك بعدة أماكن، أعجبها و أغربها مسجد كان بالقرب من ساحل البحر و به منارة من غرد قصيرة، و كان هذا المسجد فى وسط الحريق و الشرار يتطاير من أعلاه من الجهات الأربع من أوّل الحريق إلى آخره، لم تتعلق به شرارة واحدة، و فى المسجد المذكور قبر رجل صالح مدفون فيه قديما يعرف بالشيخ محمد المغربى.

و استمر الأمراء و الأعيان يشاهدون الحريق، و يطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة، و أمّا الحريق العظيم فلا يستجرئ أحد أن يقربه لعظمه بل يشاهدونه من بعد، و استمروا على ذلك إلى بعد أذان عشاء الآخرة، ثم ذهب كل واحد إلى داره و النار عمّالة إلى نصف الليل، فأخذ أمر الريح فى انحطاط.

فلما كان باكر نهار السبت سابع شهر رجب المذكور نزل المقام الشهابى أحمد بن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۲

السلطان من قلعة الجبل، و توجّه إلى بولاق لأجل الحريق، فوجد جميع أمراء الدّولة هناك كما كانوا فى أمسه، فلم يؤثر حضور الجميع فى النار شيئا، غير أن الريح كان سكن و أخذت النار حدّها فى الإحراق من كل مكان كانت به، فعند ذلک اجتهد كل أحد فى إخمادها، و هدم ما تعلق به النار من الأماكن، و أقاموا على ذلک أيّاما كثيرة، و النار موجودة فى الأماكن و الجدر و الحيطان، و الناس تأتى لبولاق أفواجا أفواجا للفرجة على هذا الحريق العظيم، حتى صارت تلک الأماكن كبعض المفترجات، و عملت الشعراء و الأدباء فى هذا الحريق عدّة قصائد و قطع، و قد أنشدنى الشيخ علم الدين الإسعردىّ الحصنى قصيدة من لفظه لنفسه فى هذا المعنى أولها: [البسيط]

أتتهم الذاريات ذروا و تلوها العاصفات عصفا

أثبتّ هذه القصيدة فى تاريخنا «الحوادث» كونه محل ذكر هذه الأشياء، و القصيدة المذكورة نظم عالم لا شاعر، و قد حرّرنا أيضا فى تاريخنا «الحوادث» ما ذهب فى هذا الحريق من الأماكن تخمينا، فكان عدة ما احترق فيه من الأرباع زيادة على ثلاثين ربعا، كلّ ربع يشتمل على مائة سكن و أكثر، أعنى أعاليه و أسفله، و ما به من الحوانيت و المخازن ذكرناها فى «الحوادث» بأسمائها، ماخلا الدور و الأماكن و الأفران و الحوانيت و غير ذلک.

و قد اختلف فى سبب هذا الحريق على أقوال كثيرة.

منهم من قال: إنها صاعقة نزلت من السماء و الخطيب على المنبر.

و منهم من قال: إنه نزلت من جهة السماء نوع شرارة فاحترق المكان الأول منها.

و منهم من قال: إن الأرض كأنّ النار تنبع منها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۳

و الأقوال كلّها على أن سبب هذه النار آفة سماوية.

ثم بعد ذلک بأيام أشيع أن الذى كان يفعل ذلک- أعنى يلقى النار فى الأماكن- هم جماعة من القرمانيّة ممن أحرق العسكر المصرى أمكنّهم لما توجهوا إلى تجريدة ابن قرمان، و شاع القول فى أفواه الناس.

ثم ظهر للناس بعد ذلک أن الذى صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة و غيرها بعد حريق بولاق إنما هو من فعل المماليک الجلبان؛ لينهبوا ما فى بيوت الناس عندما تحرق، فإنه تداول إحراق البيوت أشهرا- و اللّه أعلم.

و قد افتقر من هذا الحريق خلائق كثيرة، و على اللّه العوض.

و فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب المذكور وصل الأمير بردبک الدّوادار الثانى من الشّام.

و فيه أيضا نودى بزينة القاهرة لدوران المحمل، و نهى السلطان المماليک الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل.

و سببه أنهم فعلوا ذلک فى السنة الخالية و أفحشوا فى الطلب من الناس، و صاروا يدخلون إلى دور الأمراء و الأعيان، و يكلفونهم الكلفة الزائدة، و ما كفاهم ذلک حتى صار العفريت منهم إذا مرّ بالشارع على فرسه بتلک الهيئة المزعجة يجبى الدكاكين، و إذا صدف رئيسا من بياض الناس أمسكه و أخذ منه ما شاء غصبا، و إن لم يعطه أخرق به و رماه عن فرسه، حتى صار الرّجل إذا رأى واحدا من هؤلاء أسرع فى مشيه بالدخول فى زقاق من الأزقة، أو بيت من البيوت، فضرّ ذلک بحال الناس كثيرا، و تركوا فرجة المحمل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۴

بل صاروا يترقّبون فراغ المحمل، ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة.

فلما جاء أوان المحمل فى هذه السّنة دخل على قلوب الناس الرّجيف بسبب ما وقع من المماليک فى العام الماضى، فكلّم أعيان

الدّولة السلطان فى إبطال المحمل، أو نهى الجلبان عن تلك الفعلة القبيحة، فلهذا رسم السلطان فى هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكليّة.

ثم فى يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب هذا أدير المحمل على العادة فى كل سنة، و لم يقع من الأجلاب شيء مما وقع منهم فى السنة الماضية.

ثم تداول الحريق بعد ذلك بخط بولاق و القاهرة، و قوى عند الناس أن الذى يفعل ذلك إنما هو من تركمان ابن قرمان.

ثم وقع الحريق أيضا فى شعبان بأماكن كثيرة، و داخل الناس جميعا الرّعب من هذا الأمر.

فلما كان يوم السبت ثانى عشر شعبان نودى بشوارع القاهرة و مصر بتوجّه كل غريب إلى أهله، و كذلك فى يوم الأحد، فلم يخرج أحد لعدم التفات السلطان لإخراجهم.

ثم وقع حريق آخر و آخر، فنودى فى آخر شعبان بخروج الغرباء بسبب الحريق من الدّيار المصرية، فلم يخرج أحد.

و تداول وقوع الحريق بالقاهرة فى غير موضع.

ثم فى أول شهر رمضان مرض السلطان مرضا لزم منه الفراش، و أرجف بموته، و طلع إليه أكابر الأمراء، فتكلم معهم فى العهد لولده أحمد بالسلطنة من غير تصريح، بل فى نوع النكر من ولده، و يقول ما معناه: إن ولده ليس كمن مضى من أولاد الملوك الصغار، و إن هذا رجل كامل يعرف ما يراد منه، و ما أشبه هذا المعنى، فصار هو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٢۵

يتكلم و جميع الأمراء سكوت، لم يشاركه أحد فيما هو فيه إلى أن سكت، و انفضّ المجلس، ثم عوفى بعد ذلك، و دقّت البشائر بقلعة الجبل و غيرها أياما.

ثم فى يوم الاثنين سادس شهر رمضان أخرقت المماليك الأجلاب بالأمير قانم التاجر المؤيّدى أحد مقدمى الألوف، و هو نازل من الخدمة بغير قماش الموكب، و ضربه بعضهم على رأسه و ظهره، جاءوا بجموعهم إلى داره من الغد ليهجموا عليه، فمنعهم مماليكه من الدخول عليه، فوقع القتال بينهم، و جرح من الفريقين جماعة، فأخذ قانم المذكور يتلافى أمرهم بكل ما تصل القدرة إليه، فلم يفد ذلك إلا أنه صار يركب وحده من غير مماليك، و يطلع الخدمة و ينزل على تلك الهيئة، و استمرّ على ذلك نحو السنتين.

ثم فى هذه الأيام أيضا تداول الحريق بالقاهرة و ظواهرها، و ضرّ ذلك كثيرا بحال الناس، و قد قوى عندهم أن ذلك من فعل القرمانية و المماليك الأجلاب، يعنون بالقرمانية و الأجلاب أن القرمانية إذا فعلوا ذلك مرة و يقع الحريق، فتنهب المماليك الأقمشة و غيرها لما يطلعون الدور المحروقة للطفى، فلما حسن ببال المماليك ذلك صاروا يفعلون ذلك.

قلت: و لا أستبعد أنا ذلك لقلة دينهم و عظم جبروتهم، عليهم من اللّه ما يستحقونه من العذاب و النكال- انتهى.

ثم استهل شوال، أوّله الجمعة، فوقع فيه خطبتان، و تشاءم الناس بذلك على الملك، فلم يقع إلا الخير و السلامة، و كذبت العادة.

ثم فى يوم الجمعة خامس عشره ورد الخبر على السلطان بموت چاك الفرنجى صاحب قبرس، و أنهم ملّكوا عليهم ابنته مع وجود ولد ذكر، لأمر أجاز تقديم البنت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٢۶

على الصّبى، على مقتضى شريعتهم، و وقع بسبب ذلك أمور و غزوات يأتى ذكرها فى هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى، و قد حررنا ذلك كله فى «الحوادث».

و فى يوم الاثنين ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة، و هو الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجاب، و أمير الركب الأول [الطواشى] مرجان [الحصنى] مقدّم المماليك السلطانية.

ثم فى العشر الأخير من هذا الشهر ورد الخبر من الإسكندرية بموت الخليفة القائم بأمر اللّه حمزة بها، كما سيأتى ذكره فى الوفيات إن

شاء اللّه.

ثم فى يوم الخميس سابع عشرين ذى القعدة خلع السلطان على ولده المقام الشهابى أحمد باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية، عوضا عن الأمير الكبير تنبك البردبكى بحكم وفاته، و أنعم السلطان بإقطاع ولده أحمد على ولده الصغير المقام الناصرى محمد، و صار محمد أمير مائة و مقدّم ألف، و أنعم بإقطاع محمد المذكور- و هو إمرة طبلخاناه- على الأمير جانبك الصوفى الناصرى المرتد أحد أمراء الطبلخانات، زيادة على ما بيده؛ ليكون جانبك أيضا أمير مائة و مقدّم ألف.

ثم فى يوم الاثنين ثانى عشرين ذى الحجة خلع السلطان على القاضى شرف الدين التتائى الأنصارى باستقراره ناظر الجيوش المنصورة، عوضا عن الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم، بحكم وفاته فى يوم الخميس ثامن عشر ذى الحجة.

و خلع السلطان أيضا على الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، باستقراره ناظر الخاص الشريف، عوضا أيضا عن الصاحب جمال الدين يوسف المقدّم ذكره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۷

ثم فى يوم السبت سابع عشرين ذى الحجة أيضا استقرّ القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر جوالى دمشق، و أنه يتوجه إلى دمشق لضبط تعلقات الجمالى ناظر الخاص، ثم بطل ذلك قبل أن يلبس الخلعة.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۳]

و دخلت سنة ثلاث و ستين و ثمانمائة:

فى أولها كانت الزلزلة المهولة بمدينة الكرك، أخربت أماكن من قلعتها و دورها و أبراجها.

فكان أول المحرم الأربعاء.

فى يوم ثانيه استقر القاضى علاء الدين على بن مفلح قاضى الحنابلة بدمشق و كاتب سرّها، بعد عزل القاضى قطب الدين محمد الخيضرى، بمال كثير بذله فى الوظيفتين.

ثم فى يوم الثلاثاء استقر القاضى تاج الدين عبد اللّه بن المقسى ناظر الدولة كاتب المماليك السلطانية، بعد عزل سعد الدين بن عبد القادر.

و فى رابع صفر استقرّ على بن إسكندر محتسب القاهرة، بعد عزل بدر الدين ابن البوشى.

و فيه استقرّ إياس البجاسى نائب القدس، بعد عزل البدرى حسن بن أيوب، ثم عزل إياس المذكور فى يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الأوّل بشاه منصور بن شهرى

ثم فى يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول المذكور ورد الخبر بموت الأمير يشبك من جانبك المؤيدى الصوفى أتابك دمشق بها، فاستقر فى أتابكية دمشق عوضه الأمير علّان شلق المؤيدى أحد أمراء دمشق، بمال بذله فى ذلك نحو العشرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۸

آلاف دينار، و أنعم بتقدمة علّان المذكور على شادبك السّيفى جلبّان، مضافا إلى دوادارية السلطان بدمشق، و ذلك أيضا بالبذل.

و رسم بإقطاع شادبك المذكور للأمير قراجا الظاهرى، و هو بالقدس- بطالا- ليكون بيده و هو طرخان، ثم بطل ذلك.

ثم فى يوم الخميس حادى عشر شهر ربيع الآخر رسم السلطان بنقل الأمير جانم الأشرفى نائب حلب من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، بعد موت الأمير قانى باى الحمزاوى بحكم وفاته، و حمل إليه التقليد و التشريف الأمير جانبك من أمير الظريف الأشرفى أحد أمراء الطبلخانات و خازندار.

و رسم بانتقال الأمير حاج إينال اليشبكى من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، عوضا عن جانم الأشرفى المذكور، و صار مسفّره الأمير

سودون الإينالى المؤيدى قراقاش ثانى رأس نوبة.

و رسم باستقرار الأمير إياس المحمدى الناصرى الطويل نائب حماة فى نيابة طرابلس، عوضا عن حاج إينال، و مسفّره الأمير جانى بك الإينالى الأشرفى، المعروف بقلقسيز أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

و رسم باستقرار الأمير جانبك التاجى المؤيدى نائب صفد فى نيابة حماة، عوضا عن إياس المحمدى، و مسفّره جانم المؤيّدى المعروف بحرامى شكل، أحد العشرات و رأس نوبة.

و رسم باستقرار خيربك النّوروزىّ نائب غزّة فى نيابة صفد، عوضا عن جانبك التاجى، و مسفّره قانم طاز الأشرفى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة.

ثم استقرّ- بعد مدّة- الأمير بردبك العبد الرحمانى أحد أمراء الألوف بدمشق فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۲۹

نيابة غزة عوضا عن خيربك النّوروزى المقدّم ذكره، و صار مسفّره السّيفى خيربك من حديد الأجرود أحد الدّوادارية الخاصّكيّة.

قلت: و جميع ولاية هؤلاء النوّاب المذكورين بالبذل، ماخلا الأمير جانم نائب الشام.

ثم أنعم السلطان بتقدمة بردبك العبد الرحمانى الذى بدمشق على الأمير قراجا الظاهرىّ المقدّم ذكره.

ثم فى يوم الخميس عاشر جمادى الأولى استقرّ الأمير بردبك الأشرفى الدّوادار الثانى و صهر السلطان أمير حاج المحمل، و استقر الأمير كسباى الشّشمانى المؤيّدى أحد أمراء العشرات أمير الركب الأول.

و استقر الأمير يرشباى الإينالى المؤيّدى الأمير آخور الثانى كان، و أحد أمراء الطبلخانات الآن أمير المماليك المجاورين بمكة، و رسم لأسندمر الجقمقى بالمجىء من مكة إلى مصر.

ثم فى يوم السبت ثانى عشر جمادى الأولى المذكور استقر القاضى محب الدين ابن الشحنة الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية، بعد عزل القاضى محب الدين بن الأشقر.

ثم فى يوم الثلاثاء خامس شهر رجب أمسك السلطان القاضى شرف الدين موسى الأنصارى ناظر الجيش، و سلّمه إلى الطواشى فيروز النوروزى الزمام و الخازندار، فدام عنده إلى أن صودر و أخذ منه جمل من الأموال بغير استحقاق، بعد أن عزل عن وظيفة نظر الجيش كما سيأتى ذكره.

ثم ورد الخبر على السلطان من حلب أن الطاعون فشابها و كثر.

ثم فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب استقرّ القاضى برهان الدين إبراهيم ابن الدّيرى ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن الأنصارى المقدّم ذكره، بمال كثير بذله فى ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۰

ثم فى يوم السبت سادس عشر رجب تعرّض جماعة من المماليك الأجلاب للأمير زين الدين الأستادار، فهرب منهم، فضربوا الوزير و بهدلوه إلى الغاية، و لم ينتطح فى ذلك عنزان؛ لقوة شوكة الأجلاب فى هذه الأيام، حتى تجاوزت الحدّ، و بطل أمر حكام الدّيار المصرية قاطبة، و صار من كان له حق أو شبه حق لا يشتكى غريمه إلا عند الأجلاب، ففى الحال يخلص حقه من غريمه، إمّا على وجه الحق أو غيره، فخافهم كلّ أحد، لا سيما التّجار و البيعة من كل صنف، و ترك غالب الناس معايشهم؛ خوفا على رأس مالهم، فعزّ بسبب ذلك وجود أشياء كثيرة، و وقع الغلاء فى جميع الأشياء، لا سيما فى الأصناف المتعلقة بالأجناد، مثل الشعير و التبن و الدريس، و ما أشبه ذلك من أنواع أقمشة الخيل و البغال و المتعلقة بذلك، حتى صار لا يوجد بالكليّة إلا بعد عسر كبير، و صار من له ضيانة من تبن أو دريس أو شعير من الأجناد يسافر من القاهرة و يلاقيه و يمشى معه حتى يصل إلى بيته إن قدر على ذلك، و إن كان أميرا أرسل إلى ملاقاته بعض مماليكه، و ربما أخذوا ممن استضعفوه من الأجناد أو مماليك الأمراء، و زاد هذا الأمر حتى أضرّ

بجميع الناس قاطبة، و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم الأحد سابع عشر شهر رجب تعرّض بعض المماليك الأجلاب للقاضى محب الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ، و هو طالع إلى الخدمة السلطانية، و ضربه من غير أمر يوجب ضربه أو الكلام معه.

و فى يوم الثلاثاء تاسع عشره استقرّ الأمير ناصر الدين بن محمد القسّاسى، المعروف بمخلع، دوادار السلطان بحلب.

و فى يوم الخميس حادى عشرين رجب أيضا استقر البدرى حسن بن أيوب فى نيابة القدس بعد عزل [شاه] منصور بن شهرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۱

و فيه رسم السلطان بطلب أبى الخير النّحاس من البلاد الشامية على يد ساع.

و فى يوم السّبت أوّل شعبان وقع حريق عظيم ببندر جدّة بالحجاز.

و ف يه توفى خيربك المؤيّدى الأشقر الأمير آخور الثانى، و أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بردبك المحمدى الظاهرى المعروف بالهجين الأمير آخور الثالث، و أنعم باقطاع بردبك المذكور على تغرى بردى الأشرفى، و أنعم باقطاع تغرى بردى على قراجا الأشرفى [الطويل] الأعرج، و تغرى بردى و قراجا كلاهما من مماليك السلطان القديمة أيام إمرته.

ثم فى يوم الاثنين ثالث شعبان المذكور استقرّ الأمير يلباى الإينالى المؤيّدى أحد أمراء الطبلخانات أمير آخور ثانيا عوضا عن خيربك الأشقر المقدم ذكره.

و فيه استقر دولات باى الظاهرى نائب رأس نوبة الجمداريّة رأس نوبة الجمدارية عوضا عن قراجا الطويل الأعرج الذى تأمّر.

و استقرّ فى نيابة رأس نوبة الجمداريّة شخص يسمى قايتباى الأشرفى، فوثب شخص من الخاصّكيّة الأجلاب يسمى برسباى، و جذب سيفه بالقصر السلطانى، بسبب ولاية هذين لهاتين الوظيفتين، و لكونه لم لا ولى هو إحداهما، ثم وقع منه أمور أضربنا عن ذكرها، خوفا على ناموس ملك مصر.

ثم فى يوم السبت ثامن شعبان رسم بإطلاق القاضى شرف الدين الأنصارى من مكانه بقلعة الجبل بعد أن أخذ منه جملة مستكثرة من الذّهب العين و غيره.

ثم فى يوم الأحد تاسعة ضرب السلطان مملوكين من مماليكه الأجلاب و حبسهما، لأجل قتلهما نانق الظاهرى، و لم يقتلهما به كما أمر اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۲

ثم فى يوم ثانى شهر رمضان وصل أبو الخير النحاس من البلاد الشامية إلى القاهرة و خلع السلطان عليه كامليّة بمقلب سمّور.

و فى يوم الثلاثاء تاسعه قدّم أبو الخير النحاس إلى السلطان اثنين و سبعين فرسا، و ثلاثين بغلا.

و فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمضان المذكور نهبت العبيد و المماليك الأجلاب النسوة اللاتى حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص- رضى اللّه عنه- بمصر القديمة، و أفحشوا فى ذلك إلى الغاية، و كل مفعول جائز.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر، استقر أبو الخير النّحاس ناظر الذخيرة السلطانية و وكيل بيت المال.

و فى يوم الأحد حادى عشرينه أغلقت المماليك الأجلاب باب القلعة، و منعوا الأمراء و المباشرين من النزول إلى دورهم بسبب تعويق عليق خيولهم، و فعلوا ذلك أيضا من الغد إلى أن رسم لهم- عوضا عن كل عليقة- مائتا درهم.

ثم فى يوم الخميس خامس عشرين شهر رمضان المقدّم ذكره استقر خشقدم السّيفى أرنبغا الذى كان دوادار القانى باى الحمزاوى [نائب الشام] فى حجوبية طرابلس على سبعة آلاف دينار، بعد عزل شادبك الصارمى.

و فى يوم الأحد ثامن عشرينه وصل إلى الدّيار المصرية جاكم الفرنجى ابن جوان صاحب جزيرة قبرس، بطلب من السلطان، ليلى- عوضا عن أبيه- ملك قبرس، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۳

أهل قبرس ملّكوا عليهم أخته مع وجوده؛ كونه ابن زنا، أو غير ذلك، لأمر لا يجوّز ولايته فى ملتهم.

و فى هذا الشهر أخذ الطاعون فى انحطاط من مدينة حلب، و انتشر فيما حولها من البلدان و القرى بعد أن مات منها نحو من مائتى ألف إنسان.

ثم فى يوم الخميس ثالث شوال ضربت المماليك الأجلاب أبا الخير النحاس، و أخذوا عمامته من على رأسه، فتزايد ما كان به من الضعف، فإنه كان مستضعفا قبل ذلك بمدّة و أخذ أمره يومئذ فى انحطاط، و لزم الفراش، إلى أن مات حسبما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

و فى يوم السبت خامس شوال عمل السلطان الموكب بالحوش السلطانى من قلعة الجبل، و أحضر جاكم بن جوان الفرنجى، و خلع عليه كامليّة، و خلع على اثنين أخر من الفرنج الذين قدموا معه، و أعطاه السلطان فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش، و ركب الفرس المذكور و غيره مدّة إقامته بالديار المصرية، و ولّاه نيابة قبرس، و وعده بالقيام معه، و تخليص قبرس له.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل، و هو الأمير بردبک الدّوادار الثانى، و أمير الركب الأول الأمير كسباى من ششمان أحد أمراء العشرات.

و فى يوم الخميس أوّل ذى القعدة شرع السلطان فى عمارة مراكب برسم الجهاد، و إرسال جاكم صحبتهم إلى قبرس، و جعل المتحدث على عمارة المراكب المذكورة سنقر الأشرفى الزّردكاش، المعروف بقرق شبق، فباشر سنقر المذكور عمل المراكب أقبح مباشرة، من ظلم و عسف، و أخذ الأخشاب بأبخس الأثمان إن وزن ثمنا، و فعل هذا الشقىّ أفعالا لا يفعلها الخوارج، عليه من اللّه ما يستحق من الخزى و النكال، بحيث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۴

أنه جمع من هذا المال الخبيث جملة كبيرة خرجت منه بالمصادرة و النّهب و الحريق، و ما ربّک بظلام للعبيد.

ثم فى يوم الاثنين خامس ذى القعدة سافر تغرى بردى الطيّارى الخاصكى قاصدا قبرس، ليخبر أهلها أن السلطان يريد ولاية جاكم هذا على قبرس مكان والده، و عزل أخته، و يلومهم على عدم ولاية جاكم هذا و تقديم أخته عليه.

و فى يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة مات الأمير بايزيد التّمربغاوى أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، و أنعم السلطان بتقدمته و إقطاعه على الأمير سودون الإينالى المؤيدى [قراقاش] رأس نوبة ثان، بمال بذله سودون فى ذلک، و أنعم بإقطاع سودون المذكور و هو إمرة طبلخاناه على الأمير خشكلدى القوامى الناصرى.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۴]

و استهلت سنة أربع و ستين و ثمانمائة بيوم الأحد.

و فى يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم من السنة المذكورة وصلت الغزاة المتوجهة قبل تاريخه إلى بلاد الجون ببرّ التركيّة لإحضار الأخشاب، و كان مقدّم هذا العسكر أربعة من الأمراء العشرات، و هم:

قانى باى قراسقل المؤيّدى.

و الأمير جانبک الإسماعيلى المؤيدى المعروف بكوهية.

و الأمير معلباى طاز المؤيدى.

و الأمير بردبک اليشبكى المشطوب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۵

و فی یوم سابع عشرینه- الموافق لسادس عشر هاتور- لبس السلطان القماش الصوف الملون، و ألبس الأمراء علی العادة فی کل سنة.

و فی هذا الشهر عظم الطاعون بمدینة غزّة، و أباد الموت أهلها.

و فی یوم السبت ثانی عشر صفر خلع السلطان علی فارس مملوک الطواشی فیروز الرّکنی باستقراره وزیرا بعد تسحّب علی بن الأهناسی، فلم یحسن فارس المذکور المباشرة سوی یوم واحد، و عجز و کاد أن یهلک، و کان لولایته أسباب منها: أنه کان یبرق و یرعد و یوسع فی الکلام فی نوع المباشرة و غیرها، فحسب السامع أن فی السویداء رجالا، و استسمن و رمه فولّاه، فما هو إلا أن أرمی الخلعة علی أکتافه [حتی] ظهر علیه العجز الفاضح فی الحال، و ضاق علیه فضاء الدنیا، و خسر فی الیوم المذکور جملا مستکثرة، و استعفی، و ترامی علی أکابر الدّولة، و کاد أن یهلک لولا أعفی و عزل، بعد أن ألزم بشیء له جرم علی ما قیل، و ولی الصاحب شمس الدین منصور الوزر عنه.

قلت: ما أحسن الأشیاء فی محلها، و حینئذ أعطی القوس لرامیه.

و فی یوم الخمیس سابع عشر صفر ورد الخبر من الشام بموت الأمیر علّان شلق المؤیّدی أتابک دمشق.

و فی یوم ثامن شهر ربیع الأول استقرّ الحاج محمد الأهناسی البردار وزیرا بعد عزل الصاحب شمس الدین منصور من غیر عجز بل لمعنی من المعانی، و الحاج محمد هذا هو والد علی بن الأهناسی المقدم ذکره فی الوزر و الأستاداریة، و ولی الوزر قبل أن

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۶

تسبق له رئاسة فی نوع من الأنواع؛ لأن کلا الوالد و الولد عار عن الکتابة و معرفة قلم الدیونة، و لم یکن لهما صنعة غیر الرّسلیّة و البردداریّة لا غیر، فباشر الحاج محمد هذا الوزر أحد عشر یوما و عزل، و أعید الصاحب شمس الدین منصور للوزر ثانیا.

و فی یوم الاثنین ثانی عشر شهر ربیع الأول استقر الأمیر تغری بردی الأشرفی أحد أمراء العشرات نائب الکرک، و أنعم بإقطاعه علی ابن الأمیر بردبک الدّوادار الثانی و المنعم علیه هو ابن بنت السلطان.

ثم فی یوم الخمیس ثانی عشرینه استقر الأمیر تمربای ططر الناصری أحد أمراء العشرات أمیر حاج المحمل.

ثم فی یوم الأحد خامس عشرین شهر ربیع الأول المذکور عمل السلطان المولد النبوی بالحوش السلطانی علی العادة فی کل سنة، و أحضر السلطان جاکم الفرنجی ابن صاحب قبرس، و أجلسه عند أعیان مباشری الدّولة، فعظم ذلک علی الناس قاطبة.

قلت: و لعلّ السلطان ما أحضره فی هذا المجلس إلا لیریه عزّ الإسلام و ذلّ الکفر.

ثم فی أول شهر ربیع الآخر ظهر الطاعون بمدینة بلبیس و خانقاه سریاقوس من ضواحی القاهرة.

و کان أول الشهر یوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط. فتخوّف کلّ أحد من مجیء الطاعون إلی القاهرة، هذا مع ما الناس فیه من جهد البلاء من غلوّ الأسعار و ظلم الممالیک الأجلاب الذی خرج عن الحد، و عدم الأمن، و کثرة المخاوف فی الأزقّة و الشوارع، بحیث إن الشخص صار لا یقدر علی خروجه من داره بعد أذان عشاء الآخرة، حتی و لا لصلاة الجماعة، و لو کان جار المسجد، و إن أذّن مؤذن العشاء و الشخص خارج عن داره هرول فی مشیه و أسرع لئلا تغلق علیه الدروب التی عمرتها رؤساء کلّ حارة؛ خوفا علی بیوتهم من المناسر و الحرامیة، لأن والی القاهرة خیربک القصروی حطّ عنه أمور الناس، و انعکف علی ما هو علیه من المفاسد، و سببه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۷

أنه علم أن الذی یتعبث علی الناس أو یسرق إنما هو من الممالیک الأجلاب أو من أتباعهم، و علم مع ذلک میل السلطان إلی الأجلاب، و اتفق بعد ذلک کثرة السّراق، و فتح البیوت، و هجم المناسر علی الحارات، و کلّمه السلطان- فی ذلک- بکلام خشن، و وبّخه فی الملأ، و کاد أن یفتک به، فأوهم الوالی السلطان- بالتلویح فی کلامه- أن الذی یفعل ذلک إنما هو من الممالیک الأجلاب، و کان الذی لوّحه الوالی إلی السلطان قوله:

«يا مولانا السلطان أنا مالى شغل و لا حكم على من يلبس طاقية- يعنى المماليك- و ما حكمى إلا على العوام و الحرامية»، فسكت السلطان، و لم يكلمه بعد ذلک إلا فى غير هذا المعنى، فوجد الوالى بذلک مندوحة لسائر أغراضه، و حطّ عنه و استراح، و انحل النظام، و ضاعت حقوق الناس، و أخذ كل مفسد يتزيا بزى الجند، و يفعل ما أراده، و صار الوالى هو كبير الحراميّة، و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر اختفى الصاحب شمس الدين منصور، و تعطّل- بسبب غيابه- رواتب المماليک السلطانية، فاستغاثوا المماليک الأجلاب، و منعوا الأمراء يوم الأربعاء من طلوع القلعة، و امتنعوا من طلوع الخدمة يوم الخميس أيضا رابع عشره، و طلع الأمير يونس الدّوادار إلى القلعة بغير قماش الخدمة، فلما وصل إلى باب القلعة احتاطت به المماليک الأجلاب، و سألوه أن يكلم السلطان فى أمرهم، فدخل الأمير يونس المذكور إلى السلطان، و ذكر له ذلک، ثم ترددت الرّسل بين السلطان و بينهم إلى أن آل الأمر إلى طلب سعد الدين فرج بن النحّال، و استقرّ وزيرا على عادته أولا على شروط، و نزل من وقته، و باشر الوزر، و سكن الأمر، و قد ذكر لى الصاحب شمس الدين: أنه لم يختف إلا بإذن السلطان.

و فى هذه الأيام فشا الطاعون بالقاهرة، و كان عدّة من ورد اسمه الديوان من الأموات فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر المذكور- الموافق لسابع عشر أمشير، و هو يوم تنتقل الشمس إلى برج الحوت- خمسة و ثلاثين نفرا، و لها تفصيل، و ذلک خارج عن البيمارستان المنصورى و الأوقاف و القرافتين و الصحراء و بولاق و مصر القديمة.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۸

و أمّا ضواحى القاهرة و إقليم الشرقية و الغربية من الوجه البحرى فقد تزايد الطاعون فيها حتى خرج عن الحد، و هو إلى الآن فى زيادة.

و كان أمر الطاعون فى القرى أنه إذا وقع بقرية يفنى غالب من بها، ثم ينتقل إلى غيرها و ربما اجتاز ببعض القرى و لم يدخلها، فسبحانه يفعل فى ملكه ما يريد.

و فى يوم الخميس حادى عشرينه ضرب المماليک الأجلاب الأمير زين الدين الأستادار بسبب عليق الخيول ضربا مبرحا، و انقطع بسبب ذلک عن الخدمة أياما كثيرة.

و فى يوم السبت ثالث عشرينه وقع من بعض المماليک الأجلاب إخراق فى حق الأمير يونس الدّوادار، و الشخص المذكور يسمى قانصوه، و كان ذلک فى الملأ من الناس، و نزل الأمير يونس إلى داره و هو فى غاية ما يكون من الغضب، فما كفى قانصوه المذكور ما وقع منه فى القلعة فى حق الأمير يونس، حتى نزل إليه بداره و أساء عليه ثانيا بحضرة مماليكه و حواشيه، فلم يسع الأمير يونس المذكور إلا أن قام من مجلسه و عزل نفسه عن الدّوادارية، و دخل إلى داره من وقته، و أقام بها من يومه.

ثم فى الغد لم يقع من السلطان على قانصوه المذكور- بسبب ما وقع منه فى حق الأمير يونس- كبير أمر، و لا كلّمه الكلام العرفى، غير أن ابن السلطان الشهابى أحمد أرسل سأل الأمير يونس فى الطلوع إلى القلعة و حضور الخدمة.

ثم إنّ بعض الأمراء أخذ قانصوه المذكور و أتى به إلى الأمير يونس حتى قبّل يده، و لا زال ذلک الأمير و غيره بالأمير يونس حتى رضى عنه بعد أن أوسعه سبّا و توبيخا، و ذلک حيث لم يجد يونس له ناصرا و لا معينا.

و أغرب من هذا أنه بلغنى أن قانصوه لما أفحش فى أمر الأمير يونس أولا- ربما أضاف إليه السلطان فى بعض الإساءة، و السلطان يسمع كلامه.

قلت: إن صح هذا فهو مما يهوّن على الأمير يونس ما وقع فى حقه من قانصوه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۳۹

و فى يوم الاثنين خامس عشرينه عجز الأمير زين الدين الأستادار عن القيام بجامكية المماليک السلطانية، فقام إلى السلطان شخص من الخاصكية الأجلاب يسمى جانبيه المجنون، و قال للسلطان:

«الملوک التى کانت قبلک کانوا ينفقون الجوامک، لأى شيء أنت ما تعطى مثلهم؟».

فغضب السلطان من کلامه، و طلب العصى ليضربه، فخرج جماعة من الأجلاب من خچداشيته، و جذبوه من بين يدى السلطان، و توجهوا به إلى الطبقة، و لم يتکلم السلطان بکلمة واحدة.

هذا و الطاعون أمره فى زيادة، فلما استهلّ جمادى الأولى الموافق لتاسع عشرين أمشير کان فيه التعريف: أعنى عدة من يرد اسمه الديوان من الأموات ستين نفرا، و هذا خلاف الأماکن المقدم ذکرها من البيمارستان و الطرحى و القرافتين و الصحراء و مصر و بولاق، و أما نواحى أرياف الوجه البحرى ففى زيادة، حتى قيل إنه کان يموت من خانقاه سريا قوس فى اليوم ما يزيد على مائتى نفر، و وصل فى هذه الأيام عدة من يموت بالمحلة الکبرى- إحدى قرى القاهرة - کل يوم زيادة على مائتين و خمسين إنسانا، و هذا أمر کبير؛ کون أن المحلة و إن کانت مدينة هى قرية من القرى، و مثلها کثير من أعمال الديار المصرية.

غير أن ذلک کان نهاية الطاعون بها و ابتداءه بالقاهرة؛ فإن الطاعون کان وقع بالأرياف قبل القاهرة بمدّة، فلما أخذ الطاعون فى انحطاط من الأرياف أخذ فى الزيادة بالقاهرة و مصر و ضواحيها، کما هى عادة الطاعون و انتقاله من بلد إلى أخرى.

و فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة أربع و ستين المذکورة أنعم السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۰

على سودون الأفرم الظاهرى الواصل قبل تاريخه من البلاد الشامية بإمرة عشرة بعد موت الأمير أسندمر الجقمقى.

و فى هذا اليوم أيضا کان عدة من ورد التعريف بهم من الأموات بالقاهرة فقط مائة و عشرة نفر و لها تفصيل- ما بين رجال و نساء و صبيان و موال- و ليس لذکر التفصيل هنا محل.

و کان من شأن هذا الطاعون أنه ينقص فى اليوم نقصا قليلا عن أمسه، ثم يزيد فى الغد کثيرا إلى أن انتهى و نقص و هو على هذه الصفة.

و فى هذه الأيام بلغ عدة من يموت فى اليوم بخانقاه سرياقوس أکثر من ثلاثمائة نفر، و يقول المکثر أربعمائة، و بالمحلة ثلاثمائة، و فى مدينة منف فى يوم واحد نحوا من مائتين، و قس على هذا فى سائر القرى، و هذا نهاية النهاية الآن.

و فى يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى- يوم تنتقل الشمس فيه إلى برج الحمل- کان فيه عدة من ورد اسمه التعريف مائة و سبعين نفرا، و جاء فى هذا اليوم عدة من صلى عليه من الأموات بمصلاة باب النصر على حدتها مائة نفر، فکيف يکون التعريف کله مائة و سبعين، و بالقاهرة مصلوات کثيرة نذکرها بعد ذلک فى محلها.

و أبلغ من هذا أن الأمير زين الدين الأستادار ندب جماعة من الناس بأجرة معينة إلى ضبط جميع مصلوات القاهرة و ظواهرها، و کان ما حرروه ممن صلى عليه فى اليوم ستمائة إنسان، فعلى هذا لا عبرة بذکر التعريف المکتتب من ديوان المواريث، غير أن فائدة ذکر التعريف تکون لمعرفة زيادة الوباء و نقصه لا غير، ففى ذکره فائدة ما.

و فى يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى کان فيه التعريف مائتين و تسعة نفر.

ثم فى يوم السبت حادى عشرينه أنعم السلطان على قانى باى الأشرفى المعروف بأخى قانصوه النّوروزى بإمرة عشرة بعد موت الأمير يشبک الظاهرى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۱

ثم فى يوم الخميس سادس عشرينه استقر الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجاب أمير آخور کبيرا بعد موت يونس العلائى بالطاعون، و استقر سودون الإينالى المؤيدى المعروف بقراقاش فى حجوبية الحجاب عوضا عن برسباى البجاسى المقدم ذکره.

و فيه أيضا أنعم السلطان بإقطاع يونس العلائى على الأمير جرباش المحمدى أمير مجلس، و أنعم بإقطاع جرباش المذکور على الأمير جانبک الظاهرى نائب بندر جدّة، و صار جانبک من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، و ذلک زيادة على ما بيده من التحدث

على بنـدر جدّة، بل على جميع الأقطار الحجازيـة، و الإقطاع الذى استولى عليه الأمير جرباش، و الذى خرج عنه كلاهما تقدمة ألف، لكن متحصل خراجهما يتفاوت.

و فى يوم الخميس هـذا كان عـدة من ورد اسمه الـديوان من الأموات نحوا من مائتين و خمسـة و ثلاثين نفرا، و كان عـدة المضـبوط بالمصـلاة ألفـا و مائـة و ثلاثـة و خمسـين نفرا، و ذلك خارج عما ذكرنا من مصـر و بولاق و القرافتين و الصـحراء و الأوقاف و زاوية الخدّام خارج الحسينية.

و فى يوم السبت ثامن عشـرين جمادى الأولى المقـدم ذكرها أستقرّ الشـهابى أحمـد بن قليب أسـتادار السـلطان بمدينـة طرابلس فى حجوبيـة حجاب طرابلس، زيادة على ما بيـده من الأسـتادارية و غيرها، و كانت ولايته للحجوبيـة بعد موت خشـقدم الأرنبغاوى دوادار قانى باى الحمزاوى:

ثم استهل جمـادى الآخرة- أولها يوم الثلاثاء- و قـد كثر الوباء بالـديار المصـرية، و انتشـر بها و بظواهرها، هـذا مع الغلاء المفرط فى الأسـعار و ظلم المماليك الأجلاب، فصارت الناس بين ثلاثـة أمور عظيمة: الطاعون، و الغلاء، و الظلم، و هذا من النوادر- وقوع الوباء و الغلاء معا فى وقت واحد- فوقع ذلك و زيد ظلم الأجلاب، و للّه الأمر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۲

و كان التعريف فى هـذا اليوم ثلاثمائة و سـتة عشـر نفرا، و كان الذى حرروه فى السـبع عشـرة مصـلاة ألف إنسان و تسـعمائة إنسان و عشـرة، و أنكر ذلك غير واحـد من الناس اسـتقلالا، بل قال بعضـهم و بالغ: بأن عدة من يموت فى اليوم بالقاهرة أكثر من ثلاثة آلاف نفر، و اعتل بقوله إن الذين ندبوا لضبط المصلوات اشتغل كل منهم بنفسه و بمن عنده و بغلمانه،

قلت: الصواب بل الأصح مقالة الثانى لما شاهدناه من كثرة الجنائز، و ازدحام الناس بكل مصلاة- و اللّه أعلم.

و أما أمر الغلاء ففى هـذا الشـهر أبيع فيه القمـح كل إردب بسـتمائة درهم، و البطـة من الدقيق العلامة بمائة و سـبعين درهما، و الرطل الخبز بأربعة دراهم، و هو عزيز الوجود بالحوانيت فى كثير من الأوقات، و الشعير و الفول و كلاهما بأربعمائة درهم الإردب، و هما فى قلـة إلى الغاية و النهاية، و الحمل التبن بأربعمائة درهم و لا بدّ له من حارس من الأجناد يحرسه من المماليك الأجلاب، هذا و الموت فيهم بالجريف - و صـلوات اللّه على سيدنا عزرائيل- و ما سوى ذلك من المأكل فسـعره متحسن، لا كسـعر الشعير و التبن و القمح و الفول؛ كون هـذه الأشـياء يحتاج إليها الأجلاب، فيأخذونها بأبخس الأثمان، فترك الناس بيع هذه الأصـناف إلا المحتاج، فعز وجودها لذلك.

و وقع للأجلاب فى هـذا الوبـاء أمور عجيبـة؛ فـإنهم لما فرغوا من أخـذ بضائع الناس ظهر منهم فى أيام الوباء أخـذ إقطاعات الأجناد، فصاروا إذا رأوا شخصا على حانوت عطار أخذوه، و قالوا له: لعل الضعيف يكون له إقطاع، فإن كان له إقطاع عرفهم به؛ و إن لم يكن للضعيف إقطاع طال أمره معهم إلّا أن يخلصه منهم أحد من الأعيان.

ثم بـدا لهم بعـد ذلـك أن كـل من سـمعوا له إقطاعـا من أولاـد الناس أو الأجناد القرانيص أخـذوا إقطاعه، فإن كان صـحيحا يرتجون مرضه، و إن كان ضعيفا ينتظرون

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۳

موته، فعلى هذا الحكم خرج إقطاع غالب الناس- الحى و الميت- حتى إنهم فعلوا ذلك بعضـهم مع بعض، فصار السلطان و الناس فى شغل شاغل، لأن الأجلاب صاروا يزدحمون عليه لأخذهم إقطاعات الناس، و عند ما يتفرغ من المماليك الأجلاب يتظلم كل أحد إليه ممن خرج إقطاعه و هو فى قيـد الحياة، فلم يسعه إلا ردّه عليه، فصار الإقطاع يخرج اليوم و يردّ إلى صاحبه فى الغـد، فصار يكتب فى اليوم الواحد عدة مناشير ما بين إخراج و ردّ، و استمر الناس على ذلك من أوّل الفصل إلى آخره.

و أغرب من هـذا أن بعض الأجلاب اجتاز فى عظم أيّام الوباء بالصـحراء، فحازى جنازة امرأة على نعشـها طرحـة زركش، فاختطفها و

ساق فرسه فلم يوقف له على أثر.

و وقع لبعض الأجلاب أيضا أنه صـدف فى بعض الطرقات جنازة و هو سكران، فأمره المـدير بالوقوف لتمر الجنازة عليه، فحنق منه، و أراد ضرب المدير، فهرب منه، فضرب الميت على رأسه، و قد شاهد ذلك جماعة كثيرة من الناس.

و فيما حكيناه كفاية عن فعل هؤلاء الظّلمة- ألا لعنة اللّه على الظالمين.

و فى يوم الثلاثـاء مسـتهل جمـادى الآخرة وصل إلى القاهرة تغرى بردى الطيّارى الخاصـكى المتوجه فى الرّسـلية إلى جزيرة قبرس، و صحبته جماعة كثيرة من ملوك الفرنج و أهل قبرس.

و القادمون من الفرنج على قسمين: فرقة تسأل إيقاء ملك قبرس على الملكة المتولية، و فرقة تسأل عزلها و تولية أخيها جاكم الفرنجى الذى قدم إلى القاهرة قبل تاريخه، فلم يبت السلطان الأمر من ولاية و لا عزل فى هذا اليوم، و أحال الأمر إلى ما سيأتى ذكره.

و فى يوم الخميس ثـالث جمـادى الآـخرة المـذكورة عظم الطاعون بالقاهرة و ظواهرها، و اختلفت كلمـة الحسّاب؛ لاشتغال كل أحد بنفسه و بمن عنده، فمنهم من قال: يموت فى اليوم أربعة آلاف إنسان، و منهم من قال: ثلاثة آلاف و خمسمائة، وقاس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١۴۴

صاحب القول الثانى على عدّة من صـلّى عليه فى هذا اليوم المذكور بمصـلاة باب النصـر، و قال: إن كل مائة ميت بمصلاة باب النصر بثلاثمائة و ستين ميتا، و جاءت مصلاة المؤمنى فى هذا اليوم أربعمائة و سبعة عشر ميتا، و هذا كله تقريبا لا تحريرا على الأوضاع.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة عمل السلطان الموكب بالحوش السلطانى لأجل قصّاد الفرنج، و حضرت الفرنج و قبلوا الأرض و نزلوا أيضا على غير طائل.

و فى يوم الجمعة حادى عشره كان فيه التعريف مائتين و ثمانين، و جاءت مصلاة باب النصر على حدتها خمسمائة و سبعين.

و فيه ضربت المماليك الأجلاب الوزير سعد الدين فرج بن النحّال ضربا مبرحا؛ لكونه لم يزد راتب لحمهم.

و فى يوم الاـثنين رابع عشـر جمـادى الآـخرة كـان فيه التعريف نحو ثلاثمائة إنسـان، منهم مماليك خمسـة و سـبعون، منهم خمسـة و ثلاـثون من مماليك الأمراء و غيرهم، و من بقى سـلطانية، و أما الـذى ضـبط فى هـذا اليوم ممن صـلى عليه من الأموات باثنتى عشـرة مصـلاة أربعة آلاف إنسان، و فى ذلك نظر؛ لأن مصـلاة باب النصر وحدها جاءت فى هذا اليوم خمسمائة و سبعين، و مصلاة البياطرة أربعمائة و سبعين، و جامع الأزهر ثلاثمائة و ستة و تسعين، فمجموع هذه المصليات الثلاث من جملة سبع عشرة مصلاة أو أكثر ألف و أربعمائـة و سـتة نفر، فعلى هـذا كيف يكون جميع من مـات فى هـذا اليوم أربعـة آلاـف؟! فهـذا محـال، و هـذا خارج عن القرافتين و الحسينية و الصحراء و بولاق و مصر القديمة، إلا أن غالب من يموت صغار و عبيد و جوار.

غير أن هذا الطاعون كان أمره غريبا، و هو أن الذى يطعن فيه قلّ أن يسـلم، حتى قال بعضهم: لعل إن من كل مائة مريض يسلم واحد، فأنكر ذلك غيره و قال: و لا كل ألف- مبالغة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١۴۵

و فى يوم الأربعاء سادس عشـره- الموافق لرابع عشـر برمودة- ارتفع الوباء من بولاق، و كان الـذى مات بها فى اليوم ثلاثـة نفر، و قيل سبعة و قيل عشرة.

هذا بعد أن كان يموت فى اليوم ثلاثمائة و أربعمائة، و يقول المكثر خمسمائة- فسبحانه و تعالى فاعلا مختارا يفعل فى ملكه ما يشاء.

و أخذ الطاعون فى هذه الأيّام يخف من ظواهر القاهرة، مثل الحسـينيّة و غيرها، و عظم فى القاهرة و ما حولها من جهة الصّليبة و القلعة و قنـاطر السّـباع، و كـان الـذى مـات من المماليك الأجلاب الإينالىّـة فى هـذا الطاعون- إلى يوم الجمعـة تاسع عشـر جمادى الآخرة- ستمائة مملوك و ثلاثين مملوكا. إلى لعنة اللّه و سقر، إلى حيث ألقت.

و مما وقع لى من أوائل هذا الفصل قولى على سبيل المجاز: [السريع]

قد جاءنا الفصل علی بغتة مستجلبا حلّ مجدّ الطلب

من کثرة البغی و ظلم بدا یخصه اللّه بمن کان جلب

و فی یوم الاثنین حادی عشرین جمادی الآخرة- الموافق لتاسع عشر برمودة، و هو أول خمسین النصاری- فیه ظهر نقص الطاعون بالقاهرة، و کان ابتداء النقص من یومی الخمیس و الجمعة.

و فی یوم الاثنین هذا کان عدة من صلی علیه بمصلاة باب النصر ثلاثمائة و خمسین إنسانا، و بجامع الأزهر ستمائة إنسان، و هو أکثر ما وصل إلیه العدة بالجامع المذکور، لأن غالب الطاعون الآن هو بالقاهرة، و کان عدّة من صلی علیه بمصلاة البیاطرة مائتین و أربعة، و هو بحکم النصف مما کان صلی علیه بها قبل ذلک، و کان عدّة من صلی علیه بمصلاة المؤمنی مائتین و ثمانین نفرا، و هو أقل من النصف أولا، و نحن نذکر- إن شاء اللّه تعالی- عدة هذه المصلوات فی یوم الاثنین القابل؛ لیعلم الناظر فی هذا الکتاب کیفیة انحطاط الطاعون عند زواله من الیوم إلی مثله.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۶

فلما کان یوم الخمیس ثامن عشرینه الموعود بذکره کان فیه عدّة من صلی علیه بمصلاة باب النصر مائة و تسعین، و بالجامع الأزهر زیادة علی مائة و ثلاثین، و بمصلاة البیاطرة مائة و أربعة عشر، و بمصلاة المؤمنی مائة و سبعة و ثلاثین، و نذکر- إن شاء اللّه تعالی- فی یوم الاثنین الآتی عدّة ذلک أیضا.

و فی یوم الأربعاء تاسع شهر رجب فیه فشا نقص الطاعون، و انحط سعر الغلال، و ظهر الشعیر و التین و الدریس لموت تلک الجبابرة الأجلاب.

و فیه طعن جامعه، ثمّ منّ اللّه تعالی بالعافیة بعد أمور، و للّه الحمد علی المهلة.

و فی یوم الجمعة ثالث شهر رجب المذکور- الموافق لسلخ برمودة- لبس السلطان القماش الأبیض البعلبکی المعتد لبسه لأیام الصیف.

ثم فی یوم الاثنین سادسه کان فیه عدّة من صلی علیه من الأموات بمصلاة باب النصر مائة، و قیل تسعین، و بمصلاة البیاطرة زیادة علی الخمسین، و بمصلاة المؤمنی زیادة علی التسعین:

ثم فی یوم السبت حادی عشره استقر الأمیر أرغون شاه الأشرفی أحد أمراء العشرات و رأس نوبة أستادار الصحبة السلطانیة، بعد موت یشبک الأشرفی الأشقر.

ثم فی یوم الاثنین ثالث عشر شهر رجب کان فیه عدّة من صلی علیه من الأموات بمصلاة باب النصر نحوا من خمسة و عشرین نفرا، و بمصلاة البیاطرة ثلاثة و عشرین، و بالجامع الأزهر خمسة نفر، و بمصلاة المؤمنی نیفا و ثلاثین نفرا، هذا و العلة موجودة فی الأکابر و الأعیان إلی آخر رجب.

ثم فی یوم الثلاثاء رابع عشره استقر القاضی تقی الدین بن نصر اللّه ناظر دیوان المفرد عوضا عن الصاحب شمس الدین منصور [بن الصفی].

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۷

و فیه استقر الشیخ سراج الدین [عمر] العبادی الشافعی ناظر الأحباس بعد موت القاضی زین الدین عبد الرحیم العینیّ:

و استهل شعبان یوم الخمیس و قد خفّ الطاعون من الدیار المصریة بالکلیة، فکان عدّة من مات فی هذا الطاعون من الممالیک الأجلاب الإینالیة فقط ألفا و أربعمائة نفر- فاللّه یلحق بهم من بقی منهم- و هذا خلاف من مات فی هذا الطاعون من الممالیک السلطانیة الذین هم من سائر الطوائف.

ثم فی یوم الثلاثاء سادس شعبان المذکور من سنة أربع و ستین وقع فی المملکة أمر شنیع؛ و هو أن السلطان جمع أعیان الفرنج

القبارسة فى الملأ بالحوش السلطانى، و أراد بقاء الملكة صاحبة قبرس على عادتها، و خلع على قصادها أعيان الفرنج، و استقر تغرى بردى الطيّارىّ مسفرها، و على يده تقليدها و خلعتها.

و كان الفرنجى جاكم أخوها حاضر الموكب، و قد جلس تحت مقدمى الألوف، فعزّ عليه ولاية أخته و إبقاؤها على ملك الأقفسية من جزيرة قبرس مع وجوده، فقام على قدميه و استغاث، و تكلم بكلام معناه أنه قد جاء إلى مصر، و التجأ إلى السلطان، و دخل تحت كنفه، و له عنده هذه المدّة الطويلة، و أنه أحقّ بالملك من أخته و بكى، فلم يسمع السلطان له و صمم على ولاية أخته، و أمره بالنزول إلى حيث هو سكنه، فما هو إلا أن قام جاكم المذكور و خرج من باب الحوش الأوسط ثم خرج بعده أخصامه حواشى أخته، و عليهم الخلع السلطانية مدّت الأجلاب أيديها إلى أخصام جاكم من الفرنج، و تناولوهم بالضرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۸

و الإخراق، و تمزيق الخلع، و استغاثوا بكلمة واحدة، أنهم لا يريدون إلا تولية جاكم هذا مكان والده، و عظمت الغوغاء، فلم يسع السلطان إلا أن أذعن فى الحال بعزل الملكة و تولية جاكم، فتولى جاكم على رغم السلطان بعد أن أمعنوا المماليك الأجلاب فى سب الأمير بردبك الدّوادار الثانى، و قالوا له: «أنت إفرنجى و تحامى للفرنج» فاستغاث بردبك المذكور، و رمى وظيفة الدّوادارية، و طلب الإقالة من المشى فى الخدمة السلطانية، فلم يسمع له السلطان، و فى الحال خلع على جاكم، و رسم بخروج تجريدة من الأمراء إلى غزو قبرس، تتوجّه مع جاكم المذكور إلى قبرس، حسبما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى وقته.

و فى يوم الاثنين ثانى عشره رسم السلطان باستقرار الأمير قراجا الظاهرى الخازندار حاجب الحجّاب- كان- أتابك عساكر دمشق بعد موت الأمير علّان المؤيّدى بمال وعد به نحو عشرة آلاف دينار.

و فى يوم السبت سابع عشره استقرّ القاضى ولى الدين أحمد ابن القاضى تقى الدين محمد البلقينى قاضى قضاة دمشق الشّافعيّة بعد عزل القاضى جمال الدين يوسف الباعونى.

و فيه استقرّ القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر الجيوش المنصورة بعد عزل القاضى برهان الدين إبراهيم الدّيرى.

و فى يوم الأحد ثامن عشره عرض السلطان المماليك السلطانية بالحوش، و عيّن منهم جماعة للجهاد: أعنى للسفر صحبة جاكم الفرنجى إلى قبرس، و قد تعيّن من يسافر إلى قبرس من الأمراء قبل ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۴۹

و فيه ورد الخبر من مكّة المشرّفة بموت الأمير برشباى الإينالى المؤيدى رأس المماليك المجاورين بها، فأنعم السلطان بإقطاعه فى يوم الثلاثاء على دولات باى الأشرفى السّاقى، و على خيربك من حديد الأشرفى الدّوادار، نصفين بالسّويّة، لكل منهما إمرة عشرة.

و استهلّ شهر رمضان- أوله الجمعة- فى يوم السبت ثانيه خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهرى أحد أمراء مقدمى الألوف بسفره إلى بندر جدّة على عادته فى كل سنة، و خرج من الغد متوجها إلى جدّة فى غاية التجمل و الحرمة.

و فى يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان المذكور عيّن السلطان الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى أمير سلاح إلى سفر الوجه القبلى؛ لقتال العرب الخارجة عن الطاعة، و عيّن معه مائتى مملوك، و سافروا يوم الثلاثاء ثانى عشره.

و فى هذا الشهر قوى الاهتمام بسفر المجاهدين، و قاست الناس من أعوان سنقر الزّردكاش شدائد يطول الشرح فى ذكرها، حتى قال بعض الشعراء الموالة بلّيقا، تعرّض فيه لظلم سنقر الزّردكاش و حواشيه، بقوله:

قبل الغزا جاهد فى الناس فصار الظلم أنواع و أجناس

من طلب هذا الغزا و احتاج لواس

و وقع بسبب عمارة هذه المراكب مظالم لا تحصى، من قطع أشجار الناس عسفا، و أخذهم ما يحتاجون إليه ظلما، و زاد ظلم سنقر هذا على الناس حتى جاوز الحد، فلاـ جرم أن اللّه تعالى عامله بعد ذلك من جنس فعله فى الدنيا، بما قاساه من النفى و الحبس و أخذ

المال، مع الـذل و الهوان و الصـغار، و حلّ به كل مصـيبة، حتى أحرقت داره بجميع ما فيها، ثم نهب ما فضل من الحريق، و تشتّت فى البلاد على أقبح وجه، هذا فى الدنيا و أما الأخرى فأمره إلى اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۰

و فى يوم الأحد أول شوال عيّن السلطان الأمير كزل السودونى المعلّم، و الأمير برسباى الأشرفى الأمير آخور للتوجّه إلى الإسكندرية و صحبتهما مائـة و خمسون مملوكا من المماليك السـلطانية، لأخذ ما هناك من المراكب، و التوجّه بها إلى ثغر دمياط من البحر الملح، ليكون سفر جميع المجاهدين من مينة واحدة، و هى مينة دمياط.

ثم فى يوم الأربعاء رابع شوال أنفق السـلطان فى المجاهدين من المماليك السـلطانية، للفارس و الراجل سواء، لكل واحد مبلغ خمسـة عشر دينارا، و أنفق على كل مملوك من المماليك الذين يتوجّهون مع كزل و برسباى المقدم ذكرهما عشرة دنانير الواحد.

ثم فى يوم الاـثنين تاسعه نزل السـلطان الملك الأشـرف إينال فى موكب هائل من قلعـة الجبل بأمرائه و خاصـكيته و أعيان دولته إلى جزيرة أروى المعروفـة بالوسـطى بساحـل النّيل؛ لينظر ما عمّر من المراكب، فسار إلى هناك فى موكب عظيم، و نظر المراكب، و خلع على سنقر قرق شبق الزّردكاش المقدّم ذكره، و على جماعة أخر ممن باشر عمل المراكب، ثم عاد من حيث جاء من قناطر السباع، فلم يبتهـج الناس لنزوله، لعظم ما قاسوه من الظلم فى عمل هؤلاء المراكب، من قلة الإنصاف و الجور فى حقّ العمال من أرباب الصـنائع و غيرهم، و لولا أن الأمر منسوب إلى نوع من أنواع الجهاد لذكرنا من فعل سنقر هذا ما هو أقبح من أن نذكره.

ثم فى يوم الثلاثـاء سـابع عشـر شوال سـافر المجاهـدون فى بحر النيل إلى ثغر دمياط، و مقـدم العساكر يوم ذاك فى البر الأمير يونس الأقبـائى الـدوادار الكبير، و فى البحر الأمير قائم من صـفر خجا المؤيـدى التاجر أحـد مقـدمى الألوف بالـديار المصـرية، و معهما بقية الأـمراء، و هـم: الأـمير سـودون الإينـالى المؤيـدى المعروف بقراقـاش حـاجب الحجـاب و غيره، و خلـع السـلطان على هؤلاـء الثلاـثة المذكورين، و خلع أيضا على جاكم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۱

الفرنجى خلعـة نـخّ بقاقم، و نزل جميع الغزاة فى خدمتهم إلى بحر النيل، و سافر هؤلاء الأمراء الثلاثة إلى دمياط من يومهم، و بقى من عداهم يسافرون أرسالا فى كل يوم، إلى يوم الثلاثاء القابل؛ لكثرة عدة العساكر.

و أما مقدار عدد من سافر فى هذه الغزوة من الأمراء و الجند فعدّة كبيرة.

فأولهم أمراء الألوف الثلاثة المقدم ذكرهم.

ثم من أمراء الطبلخانات ثلاثـة أيضا، و هم: الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى ثانى رأس نوبة، و جانبك من أمير الخازندار الأشـرفى، و يشبك من سلمان شاه الفقيه المؤيّدى رأس نوبة.

و من أمراء العشـرات جماعة، و هم: جكم الأشـرفى خال الملك العزيز يوسف، و دقماق اليشـبكى، و كسـباى الشّشـمانى المؤيدى، و طوخ الأبوبكرىّ المؤيـدى رأس نوبـة، و قانم نعجة الأشـرفى رأس نوبة، و سـنقر قرق شـبق الأشـرفى الزردكاش المقدم ذكره، و قراجا الأعرج الطويل أحد مماليك السلطان القديمة.

و أما المماليك السلطانية فعدتهم تزيد على خمسمائة نفر تخمينا.

و هذا خلا المطوّعة و غيرهم من الخدم و المراكبية و أنواعهم.

و فى يوم الخميس تـاسع عشـر شوال خرج أمير حـاج المحمـل بالمحمل، و هو الأمير تمرباى من حمزة الناصـرى المعروف بططر أحد أمراء العشرات، و أمير الركـب الأوّل تنم الحسينى الأشرفى رأس نوبة.

و فى يوم الجمعة سابع عشـرينه أمسك السلطان زين الدين الأستادار، و جنزره و حبسه بالبحرة من الحوش السلطانى، و ندب الصاحب شمس الدين منصور [بن الصفى] لمحاسبته فقامت المماليك الأجلاب على منصور حمية لزين الدين، فراج أمر زين الدين

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۲

لذلک، لعلم الناس أن السلطان مسلوب الاختیار مع ممالیکه الأجلاب، و استمر زین الدین بالبحرة إلی یوم الأحد، فأخرجه السلطان و استقرّ به أستادارا علی عادته، و لبس خلعة الأستاداریة من الغد فی یوم الاثنین أول ذی القعدة.

ثم فی یوم الأربعاء ثالث ذی القعدة وصل الأمیر خشقدم أمیر سلاح من الوجه القبلی بمن معه من الممالیک السلطانیة.

و فی یوم الأربعاء سابع عشره قتل ابن غریب البدوی.

و فی یوم الاثنین هرب زین الدین الأستادار و اختفی بحیث إنه لم یعرف له مکان، و استقرّ الصاحب شمس الدین فی الأستاداریّة عوضه.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

ثم استهلت سنة خمس و ستین و ثمانمائة

فکان أول المحرم الخمیس.

ثم فی یوم السبت ثالثه وصل الأمیر جانبک الظاهریّ أحد مقدّمی الألوف من بندر جدّة إلی الدیار المصریة، بعد أن حجّ و حضر الموسم بمکة، و بات بتربة الملک الأشرف إینال بالصحراء، و طلع إلی القلعة من الغد فی یوم الأحد، و خلع السلطان علیه و نزل إلی داره فی موکب عظیم.

و فی یوم الخمیس ثانی عشرین المحرّم وصل أمیر الرّکب الأوّل الأمیر تنم الحسینی الأشرفی، و خلع علیه السلطان، و أصبح فی یوم الجمعة وصل أمیر حاج المحمل تمر بای ططر بالمحمل، و خلع السلطان علیه أیضا.

و فی یوم الجمعة سلخ المحرم وصل إلی القاهرة جماعة من الغزاة و أخبروا أن العساکر الإسلامیة بأجمعها خرجوا من جزیرة قبرس فی یوم الجمعة ثالث عشرین المحرم و ساروا علی ظهر البحر الملح یریدون السواحل الإسلامیة، فهبّت علیهم ریح عظیمة شتّتت شملهم و توجهوا إلی عدّة جهات بغیر إرادة، و کانت مرکب هؤلاء وصلت إلی ساحل الطینة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۳

و أخبروا أیضا بموت الأمیر سودون قراقاش حاجب الحجاب، ثم وصل من الغد بردبک عرب الأشرفی الخاصکی، و أخبر بنحو ما أخبر به هؤلاء الممالیک، و أعلم السلطان أیضا أن الأمیر یونس الدّوادار ترک بجزیرة قبرس جماعة من الممالیک السلطانیة و ممالیک الأمراء قوة لجاکم صاحب قبرس، و جعل مقدمهم جانبک الأبلق الظاهری الخاصکی، و أن جماعة کبیرة توفوا إلی رحمة اللّه تعالی من عظم الوخم.

و استهل صفر یوم السبت.

ثم فی یوم الأربعاء خامسه استقر الأمیر کسبای المؤیدی السمین نائب القلعة فی نیابة الإسکندریة بعد الأمیر جانبک- نائب بعلبک- النّوروزی، فاستقر خیر بک القصروی والی القاهرة نائب القلعة عوضا عن کسبای المذکور، بمال بذله فی ذلک.

ثم فی یوم الخمیس سادس صفر استقرّ علی بن إسکندر والی القاهرة، و استقر تنم من نخشبای الظاهری الخاصکی المعروف برصاص فی حسبة القاهرة، عوضا عن علی بن إسکندر، و کلاهما ولی بالبذل، و تنم هذا هو أوّل ترکی ولی الحسبة بالبذل، و لم نسمع ذلک قبل تاریخه، لا قدیما و لا حدیثا.

و فی یوم الجمعة سابعه- الموافق لخامس عشرین هاتور- لبس السلطان القماش الصّوف الملوّن، المعتد لبسه لأیام الشتاء، و ألبس الأمراء علی العادة.

ثم فی یوم السبت خامس عشره وصل المجاهدون جمیعا إلی ساحل بولاق، و باتوا بالمیدان الکبیر عند برکة الناصریة، و طلعوا إلی

القلعة من الغد فی یوم الأحد، و قبلوا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۴

الأرض، و خلع السلطان علی الأمیر یونس الدّوادار أطلسین متمرّا، و فوقانیا بطرز زرکش، کما هی عادة خلعة الأتابکیة، فتعجّب الناس من ذلک، و قیّد له فرسا بسرج ذهب، و کنبوش زرکش.

ثم خلع علی الأمیر قانم المؤیدی أحد مقدمی الألوف فوقانیا بطرز زرکش.

و کذلک خلع علی جمیع الباشات من الأمراء.

و نزل الجمیع فی خدمة الأمیر یونس الدّوادار إلی بیته تجاه الکبش، ثم عاد کل واحد إلی داره.

ثم فی یوم الاثنین رابع عشرین صفر أنعم السلطان علی الأمیر یلبای الإینالی المؤیدی الأمیر آخور الثانی بإمرة مائة و تقدمة ألف، بعد موت سودون قراقاش بقبرس، و أنعم بإقطاع یلبای المذکور- و هو إمرة طبلخاناه- علی الأمیر تمربای من حمزة المعروف بططر، و أنعم بإقطاع تمربای ططر علی جانبک الأشرفی قلفسیز، فلم یقبله جانبک المذکور، و أنعم به علی الأمیر قانی بک السیفی یشبک بن أزدمر، و أنعم بإقطاع قانی بک المذکور- و هو إمرة عشرة أیضا- علی دولات بای الخاصکی الأشرفی المعروف بدولات بای سکسن، أعنی ثمانین، و لم یکن دولات هذا أهلا لذلک، و إنما هی أرزاق مقسومة إلی البرّ و الفاجر.

و فی یوم الخمیس سابع عشرین صفر استقر الأمیر بیبرس الأشرفی خال الملک العزیز یوسف حاجب الحجاب بالدیار المصریة، عوضا عن سودون قراقاش بحکم وفاته بقبرس، و استقر الامیر بردبک المحمدی الظاهری الهجین الأمیر آخور الثالث أمیر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۵

آخور ثانیا عوضا عن الأمیر یلبای المقدم ذکره، و استقر قراجا الطویل الأعرج الأشرفی أمیر آخور ثالثا عوضا عن بردبک الهجین.

ثم فی یوم الخمیس رابع شهر ربیع الأول أستقر الأمیر مغلبای طاز الأبوبکری المؤیدی أمیر حاج المحمل، و استقر تنبک البوّاب الأشرفی الخاصکی أمیر الرّکب الأوّل.

ثم فی یوم الأحد سابع شهر ربیع الأوّل المذکور عمل السلطان المولد النبوی علی العادة فی کل سنة بالحوش السلطانی.

ثم سافر المقام الشهابی أحمد بن السلطان إلی السّرحة، و معه أخوه محمد من الغد فی یوم الاثنین ثامنه إلی جهة الوجه البحری شرقا و غربا، و سافر معه جماعة من الأعیان و أمراء العشرات.

ثم فی یوم الخمیس سادس عشره استقرّ علی بن الأهناسی وزیرا بعد استعفاء الصاحب فرج بن النحّال.

ثم فی یوم السبت حادی عشرینه حبس السلطان القاضی صلاح الدین أمیر حاج المکینی بحبس الرحبة، و سبب ذلک أنه کان استبدل وقفا فشکی علیه بسبب ذلک الوقف، فرسم السلطان بحبسه فحبس إلی آخر النهار، ثم أطلق من یومه بعد أن قرّر علیه بلغ من الذهب.

ثم فی یوم السبت رابع عشر شهر ربیع الآخر نودی بزینة القاهرة لقدوم أولاد السلطان من السّرحة، و وصلا فی یوم الثلاثاء ثامن عشر ربیع الآخر المذکور، و شقّا القاهرة فی موکب هائل، و طلعا إلی القلعة، و خلع علیهما والدهما السلطان الملک الأشرف إینال، ثم نزلا فی وجوه الدّولة إلی بیت المقام الشهابی أحمد، و هو الأخ الأکبر، و أتابک العساکر بالدیار المصریة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۶

و فی یوم الاثنین خامس عشرینه استقرّ إینال الأشقر الظاهری الخاصکی والی القاهرة بعد عزل علی بن إسکندر.

و استهل جمادی الأولی یوم الخمیس.

فی ثالثه یوم السبت مرض السلطان الملک الأشرف إینال مرض الموت، و لزم الفراش.

فلما کان یوم الاثنین خامسه وصل الأمیر بردبک الدّوادار الثانی، و الأمیر ناصر الدین نقیب الجیش من الطّینة، و کان توجها قبل تاریخه لینظرا مکان البرج الذی یریدون عمارته هناک.

ثم فی یوم الاثنین ثانی عشره أرجف بموت السلطان، و لم یصح ذلک، و أصبح الناس فی هرج، و ماجوا و وقف جماعة من العامة عند باب المدرّج- أحد أبواب القلعة- فنزل إلیهم الوالی و بدّد شملهم.

ثمّ نودی فی الحال بالأمان و البیع و الشراء، و أن أحدا لا یتکلم بما لا یعنیه، فسکن الأمر إلی یوم الأربعاء رابع عشر.

فلما کان ضحوة یوم الأربعاء المذکور طلب الخلیفة و القضاة الأربعة إلی القلعة، و طلعت الأمراء و الأعیان، و اجتمعوا الجمیع بالدهیشة، فلم یشک أحد فی موت السلطان، فلم یکن کذلک، بل کان الطلب لسلطنة المقام الشهابی أحمد قبل موته.

فلما تکامل الجمع خلع السلطان نفسه من السلطنة بالمعنی؛ لأنه ما کان إذ ذاک یستطیع الکلام، بل کلمهم بما معناه أن الأمر یکون من بعده لولده، فعلموا من ذلک أنه یرید خلع نفسه و سلطنة ولده، ففعلوا ذلک کما سیأتی ذکره فی محله، فی أوّل ترجمة الملک المؤید أحمد إن شاء اللّه تعالی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۷

و مات الأشرف إینال فی الغد حسبما نذکره.

و کانت مدة تحکم الملک الأشرف إینال هذا- من یوم تسلطن بعد خلع الملک المنصور عثمان إلی هذا الیوم، و هو یوم خلع نفسه من السلطنة- ثمانی سنین و شهرین و ستة أیام.

و مات فی یوم الخمیس خامس عشر جمادی الأولی بعد خلعه بیوم واحد بین الظهر و العصر، فجهّز من وقته، و غسّل و کفن، و صلی علیه بباب القلة من قلعة الجبل، و دفن من یومه بتربته التی عمّرها بالصحراء، و قد ناهز الثمانین من العمر، و کان چارکسی الجنس، و قد تقدّم الکلام علی أصله، و جالبه إلی القاهرة، و کیفیة ترقیه إلی أن تسلطن فی أول ترجمته من هذا الکتاب.

و کانت صفته- رحمه اللّه- أخضر اللون للسمرة أقرب، طوالا، غالب طوله من وسطه و نازل، قصیر البشت، رقیق الوجه نحیف الید؛ لحیته فی حنکه، و هی شعرات بیض، و لهذا کان لا یعرف إلا بإینال الأجرود، و فی کلامه رخو مع خنث کان فی لهجته، و لهذا لما لبس السّواد خلعة السلطنة کان فیها غیر مقبول الشکل، لکونه أسمر اللون، و الخلعة سوداء، فلم تبتهج الناس برؤیته، و لذلک أسباب: السبب الأول. ما ذکرناه من صفته و سواد الخلعة، و السبب الثانی و هو الأغلب لقرب عهد الناس من شکل الملک المنصور عثمان الشکل الظریف البهی، و الفرق واضح لأن المنصور کان سنه دون العشرین سنة من غیر لحیة، و هو فی غایة الحسن و الجمال- أحسن اللّه عونه- و الأشرف إینال هذا سنه فوق السبعین، و قد علمت صفته مما ذکرناه، فلا لوم علی من لا یعجبه شکل الأشرف إینال و لا عتب، و کان له محاسن و مساوی، و الأول أکثر.

فأما محاسنه، فکان ملکا جلیلا، عاقلا رئیسا سیوسا، کثیر الاحتمال، عدیم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۸

الشّر، غیر سبّاب و لا فحّاش فی حال غضبه و رضاه، و کان عارفا بالأمور و الوقائع و الحروب، شجاعا مقداما، کثیر التجارب للخطوب و القتال، عظیم التروی فی أفعاله، ثابتا فی حرکاته و مهماته، له معرفة تامة بملوک الأقطار فی البلاد الداخلة فی حکمه، و فی الخارجة عن حکمه أیضا، عارفا بجهات ممالکه شرقا و غربا، فهما بفنون الفروسیة و أنواعها، لا یحبّ تحرک ساکن و لا إثارة فتنة، و عنده تؤدة فی کلامه و احتمال زائد، یؤدیه ذلک إلی عدم المروءة عند من لا یعرف طباعه، و من محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحدا من الأمراء و لا من الأجناد الأعیان، علی قاعدة من تقدمه من الملوک، إلا من وجب علیه القتل بالشرع أو بالسیاسة، و أیضا أنه کان قلیلا ما یحبس أحدا و لا ینفیه، سوی من حبس فی أوائل دولته من أعیان الأمراء کما هی عوائد أوائل الدولة، ثم بعد ذلک لم یتعرض لأحد بسوء، إلا أنه نفی جماعة عندما رکبوا علیه ثانیا فی حدود سنة ستین، و خلع الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة بسبب موافقته لهم علی قتاله، ثم حبسه بالإسکندریة، و هو معذور فی ذلک، و لو کان غیره من الملوک لفعل أضعاف ذلک، بل و قتل منهم جماعة کثیرة، و بالجملة فکانت أیّامه سکونا و هدوءا و رباقة و حضور بال، لو لا ما شان سؤدده [من] ممالیکه الأجلاب، و فسدت أحوال الدیار

المصـریة بأفعالهم القبیحة، و لولا أن اللّه تعالی لطف بموته، لکان حصل الخلل بها، و ربما خربت و تلاشـی أمرها، هذا ما أوردناه من محاسنه، بحسب القوة و الباعثة.

و أما مساوئه، فکان بخیلا شـحیحا مسـیکا، یبخل و یشح حتی علی نفسه، و کان عاریا من العلوم و الفنون المتعلقة بالفضائل، کان أمیّا لا یعرف القراءة و الکتابة حتی کان لا یحسن العلامة علی المناشیر و المراسیم إلا برسم الموقع له بالنقط علی المناشیر، فیعید هو علی النقط بالقلم.

هذا مع طول مکثه فی السعادة و الریاسة و الولایات الجلیلة ثم السلطنة، و مع هذا لم یهتد إلی معرفة الکتابة علی المناشیر و لا غیرها، فهذا دلیل علی بلادة ذهنه و جمود

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۵۹

فکره، و لعله کان لا یحسن قراءة الفاتحة و لا غیرها من القرآن العزیز فیما أظن، و کانت صـلاته للمکتوبات صـلاة عجیبة، نقرات ینقر بهـا، لا یعبأ اللّه بها، و کان مع هـذه الصـلاة العجیبـة لا یحب التملق، و لا إطالـة الـدّعاء بعـد الصـلاة، بل ربما نهی الـداعی عن تطویل الـدعاء، و لم یکن بـالعفیف عن الفروج، بـل ربمـا اتهمه بعض النـاس بحب الوجوه الملاـح و الصـباح من الغلمان- و اللّه تعالی أعلم بحاله- إلا أنه کان یعف عن تعاطی المنکرات المسکرات.

و کان- فی الغالب- أموره و أحکامه مناقضة للشـریعة، لا سیما لما أنشئت ممالیکه الأجلاب، فإنهم قلبوا أحکام الشریعة ظهرا لبطن، و هو راض لهم بـذلک، و کان یمکنه إرداعهم بکل ممکن، و من قال غیر ذلک فهو مردود علیه، و أحد أقوال الردّ علیه قول من یقول: فکیف سـطوة السلطنة مع عدم قوته لرد هؤلاء الشرذمة القلیلة مع بغض العالم لهم، و ضعفهم عن ملاقاة بعض العوام؟! فکیف أنت بهم و قـد نـدب لهم طائفـة من طوائف الممالیک؟! و مثل هذا القول فکثیر، و أیضا رضاه بما فعله سـنقر قرق شـبق الزردکاش عند عمارته لمراکب الغزاة، لأـن سـنقر فعل أفعالا لا یرتضـیها من له حظ فی الإسـلام، و کان یمکنه ردّه عن ذلک بکل طریق، بل کان یخلع علیه فی کـل قلیل، و یشـکر أفعاله، فرضاه بفعل ممالیکه الأجلاب، و بفعل سـنقر هـذا و أشـباه ذلک هو أعظم ذنوبه، و ما ساء منه النّاس و أبغضـته الخلائق و تمنوا زوال ملکه إلا لهـذا المعنی، و معنی آخر و هو لیس بالقوی و هو ثقل وطأة ولـده و زوجته و مملوکه بردبک الدوادار.

قلت: و الأصح عندی هو الذنب الأوّل، و أما هؤلاء فکان ثقلهم علی مباشـری الدولة أو علی من یسـعی عندهم فی وظیفة من ولایة أو عزل، أو أمر من الأمور، فعلی هذا کان ضررهم خصوصا لا عموما، و أیضا لا یشمل ضررهم إلا لمن جاء إلی بابهم

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۰

أو قصدهم فی حاجة دنیویّة، فهو أحق بما یحل به، لأنه هو الساعی فی إیذاء نفسه، و المثل یقول: «من قتلته یدیه لا بکاء علیه».

نعم و کان من مساوئه مخافة السبل فی أیامه بالقاهرة و الأریاف، حتی تجاوز الحدّ، و عمّرت الناس علی بیوتهم الدروب لعظم خوفهم من دقّ المناسـر و قطّاع الطریق بالأریاف، مع أنه کان قاطعا للمفسـدین، غیر أن الحمایات کانت کثیرة فی أیامه، و هـذا أکبر أسـباب خراب الدّیار المصریة و قراها، و من یوم تجددت هذه الحمایات فسدت أحوال الأریاف قبلیها و بحریها، و هذا البلاء ما کثر و فشا فی الدّولـة إلا بعد الدّولة المؤیّدیّة شـیخ، و اسـتمرت هذه السـنة القبیحة إلی یومنا هذا، و العجب أنه لیس لها نفع علی السـلطان و لا علی بلاـده، و إنمـا هی ضـرر محض علی السـلطان و النـاس قاطبـة، و الملـک لا یلتفت إلی إزالتها، مع أنه لو منع ذلک لم یضـر أحـد من النـاس، و انتفع الناس جمیعا بمنعها، و عمرت غالب البلاد، و تساوت الناس، و بالمساواة تعمر جمیع الممالک، غیر أن الفهم و العقل و التدبیر منح إلاهیة، فلا یفید الکلام فی ذلک، و للّه در القائل:

[الوافر]

.لقد أسمعت لو نادیت حیّا و لکن لا حیاة لمن تنادی

و نار لو نفخت بها أضاءت و لكن أنت تنفخ فى الرماد

و قد خرجنا عن المقصود.

و لما كثر فساد المماليك الأجلاب عمل بعض الظرفاء بلّيقا، ذكر فيه أفعال الأجلاب و مساوئهم، و استطرد إلى إلى أن قال فى آخره:

حاشا للّه دوام هذى النقمه و نحن أفضل برية من أمه

نبينا ما حدّ مثلو

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۱

أزاح عنا كيد الكفار و قد رمينا بيد الأشرار

فكل حد ماسك ديلو

متى يزيح عنا هذى الدولة و يحكم الناس من لوصوله

و ترتاح البرية فى عدلو

فاللّه بجاه سيد عدنان عوّض لنا منک بإحسان

هذا الجميل إننا أهلو

فو اللّه العظيم لم تمض عليه سنة بعد ذلک، بل و لا ستة أشهر حتى مرض و مات، فهذا ما ذكرناه من محاسن الملک الأشرف إينال و مساوئه، و نرجو اللّه تعالى أن يكون ذلک على الإنصاف لا على التحامل.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۷]

السنة الأولى من سلطنة الملک الأشرف إينال على مصر و هى سنة سبع و خمسين و ثمانمائة.

على أن الملک المنصور عثمان حكم منها إلى ثامن شهر ربيع الأول.

و فيها- أعنى سنة سبع و خمسين المذكورة- توفّى الشهابى أحمد ابن الأمير فخر الدين عبد الغنى بن عبد الرّزّاق بن أبى الفرج متولى قطيا، فى أوائل المحرم، و هو فى الكهولية.

و توفّى السلطان الملک الظاهر أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى فى ليلة الثلاثاء، ثالث صفر، و دفن من يومه حسبما تقدم ذكره فى ترجمته مستوفاة فى هذا الكتاب، فلتنظر فى محله.

و توفّى الأمير أسنبغا بن عبد اللّه الناصرى الطيّارى رأس نوبة النوب فى ليلة السبت سادس شهر ربيع الأول، فى أيام الفتنة، و هو فى بيت الأمير قوصون، و عليه آلة السلاح، شبه الفجاءة، و كانت مدة مرضه يوما واحدا، و صلّى عليه الأتابک إينال العلائى بدار قوصون المذكورة، و جميع الأمراء و عليهم آلة السلاح، ثم حمل و دفن من يومه فى الصحراء، و مات و هو فى عشر الثمانين تخمينا، و كان من محاسن الدّنيا كرما و عقلا و شجاعة و تواضعا و معرفة، كان كامل الأدوات، قلّ أن ترى العيون مثله- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۳

و توفّى الأمير جانبک بن عبد اللّه اليشبكى والى القاهرة، ثم الزردكاش، فى ليلة الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، و هو فى أوائل الكهولية، و دفن من الغد، و كان أصله من مماليک الأمير يشبک الجكمى الأمير آخور، ثم اتصل بعد موته بخدمة السلطان، ثم صار خاصّكيا فى الدولة الأشرفية برسباى، و صحب الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم ناظر الخواص، فروّجه فى المملكة، حتى صار ساقيا فى الدولة الظاهرية جقمق، ثم تأمر عشرة بعد مدة طويلة، و صار من جملة رءوس النوب، ثم استقر والى القاهرة، ثم أضيف إليه حسبة القاهرة فى سنة أربع و خمسين، ثم انفصل من الحسبة، و استمر فى الولاية سنين كثيرة، إلى أن نقل إلى وظيفة الزّردكاشيّة

فی الدولـة المنصوریـة عثمان، بعـد انتقال الأمیر لاجین الظاهری إلی شـد الشـراب خاناه، و تولی عوضه ولایـة القاهرة یشبـک القرمی الظاهری، فلم تطل أیّامه زردکاشا، و مات فی أوائل الدولـة الأشـرفیة إینال، حسـبما تقـدم وفاته؛ و کان ملیـح الشـکل متجملا، حسـن المحاضرة – رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سـیف الدین أرنبغا الیونسیّ الناصری أحد مقدمی الألوف بالدّیار المصریّة فی لیلة الجمعة تاسع عشر شهر ربیع الأوّل، و سنّه زیادة علی السـبعین، و أنعم السلطان بتقدمته علی الأمیر دولات بای المحمودی الدّوادار بعد مجیئه من السّجن بمدّة، و کان أرنبغا هذا تتریّ الجنس من ممالیک الملک الناصـر فرج، و هو أخو سونجبغا الناصـری، و أرنبغا هذا هو الأکبر، و تنقلت بأرنبغا هذا الأحوال إلی أن تأمّر فی دولة الملک الأشـرف برسـبای عشـرة، و صار من جملة رءوس النّوب، و طالت أیّامه، و حجّ و جاور فی مکّة غیر مرّة، ثم نقل فی الدّولـة الظاهریّـة جقمق إلی إمرة طبلخاناه، ثم صار فی أوائل دولة الأشـرف إینال أمیر مائة و مقدّم ألف، فلم تطل مدّته، و مات فی التاریخ المقدم ذکره، و کان أمیرا شجاعا مقداما عارفا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۴

بالحروب و أنواعها، إلا أنه کان مسرفا علی نفسه مع قلّة تجمّل فی ملبسه و ممالیکه و خدمه– رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سـیف الدین سـمام الحسنی الظاهری الحاجب الثانی، و أحد العشرات فی لیلة الاثنین سادس شهر ربیع الآخر، و دفن من الغد، و سنه نیّف علی السبعین، و کان رجلا ساکنا قلیل الخیر و الشر، لا للسیف و لا للضیف.

و توفّی الشیخ الإمام المعتقد الواعظ شهاب الدین أحمد ابن الشیخ الإمام العارف بالله محمد وفاء الشاذلی المالکی المعروف بابن أبی الوفاء، فی یوم الأربعاء ثامن شهر ربیع الآخر، و دفن بتربتهم بالقرافة الصغری، و کان جلس للوعظ و التذکیر علی عادتهم، و صار علی وعظه أنس و قبول من الناس إلی أن مات– رحمه اللّه تعالی.

و توفّی قاضـی القضاة بدر الدین محمد ابن القاضـی ناصـر الدّین محمد ابن العلّامة شـرف الدین عبد المنعم البغدادی الحنبلی، قاضی الـدیار المصـریة و رئیسـها، فی لیلـة الخمیس سابع جمادی الأولی، و دفن من الغد، و حضـر الخلیفة القائم بأمر اللّه حمزة الصـلاة علیه بمصـلّاة باب النصـر، و دفن بالتّربـة الصوفیة، و کانت جنازته مشـهودة، کثر أسف الناس علیه، لحسن سـیرته و لعفتة عما یرمی به قضاة السوء، و مـات و هو فی أوائل الکهولیـة، و کان له اشـتغال و معرفـة تامـة بصـناعة القضاء و الشـروط و الأحکام، و أما سـیاسة الناس و محبته لأصـحابه و کرمه و سؤدده فکـان إلیه المنتهی فی ذلـک، و کـان قامعا لشـهود الزور و المناحیس، و بالجملـة فکان بوجوده نفع للمسلمین– رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر الوزیر سـیف الدین تغری بردی القلاوی الظاهری قتیلا فی واقعة کانت بینه و بین سونجبغا الناصری، و هی واقعة عجیبة، لأنهما تماسکا علی الفرسین، فقتل الواحد الآخر، ثم قتل الآخر فی الحال، کلاهما مات علی فرسه، و ذلک فی یوم السبت سادس عشر جمادی الأولی، و قـد ذکرنا واقعتهما فی تاریخنا «حوادث الـدهور» مفصـلا، فلینظر هناک، و کانت نسـبته بالقلاوی إلی ناحیة قلا، لما کانت إقطاعا لأستاذه الملک الظاهر جقمق

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۵

لما کان أمیرا، و لم یکن تغری بردی هذا مشکور السّیرة فی ولایته– عفا اللّه تعالی عنا و عنه.

و توفّی الأمیر سونجبغا الیونسی الناصری ببلاد الصعید فی وقعته مع تغری بردی القلاوی فی یوم واحد حسبما تقدم ذکره، و سنه زیادة علی الستین، و هو أخو أرنبغا المقدم ذکره، غیر أن أرنبغا کان مشهورا بالشجاعة و الإقدام، و سونجبغا هذا لا شجاعة و لا کرما.

و توفّی الشـیخ عز الـدین محمـد الکتبی، المعروف بالعز التّکروری، فی یوم الأربعاء سابع عشـر بن جمادی الأولی، و کان معدودا من بیاض الناس، له حانوت یبیع فیه الکتب بسوق الکتبیین، و کانت له فضیلة بحسب الحال.

و توفّی الأمیر سـیف الـدین دولات بای المحمودی المؤیـدی الـدوادار کان، و هو أحـد مقـدّمی الألوف فی یوم السـبت أوّل جمادی

الآخرة، و دفن بالصحراء خارج القاهرة من يومه، و سنه أزيد عن خمسين سنة، و كان چاركسى الجنس جلبه خواجا محمد إلى الإسكندرية، فاشتراه منه نائبها الأمير آقبردى المنقار، و بلغ الملك المؤيّد شيخا ذلك، فبعث طلبه منه، فأرسله إليه، فأعتقه المؤيد- أن كان آقبردى ما كان أعتقه- و جعله خاصكيا ثم ساقيا فى أواخر دولته، فلما تسلطن الملك الأشرف برسباى عزله عن السّقاية، و دام خاصكيا دهرا طويلا، إلى أن صحب الأمير جانم الأشرفى قريب الملك الأشرف برسباى، ثم صاهره فتحرك سعده بصهارة جانم المذكور، و لا زال جانم به إلى أن نفعه بأن توجّه بتقليد نائب صفد و خلعته بعد أن كان خلص له إمرة عشرة من الملك الأشرف، مع بغض الأشرف فى دولات باى هذا، فلما أمسك جانم مع من أمسك من أمراء الأشرفية لم ينفعه دولات باى المذكور بكلمة واحدة، هذا إن لم يكن حط عليه فى الباطن، و لا أستبعد أنا ذلك لقرائن دلّت على ذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۶

و لما تسلطن الملك الظاهر جقمق استقر بدولات باى هذا أمير آخور ثانيا، بعد مسك الأمير نخشباى الأشرفى و حبسه. ثم نقل [دولات باى] بعد أيام إلى الدوادارية الثانية، بعد الأمير أسنبغا الطّيّارى، بحكم انتقاله إلى إمرة مائة و تقدمة ألف، كلّ ذلك فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة.

فباشر [دولات باى] الدّواداريّة بحرمة وافرة، و نالته السعادة، و أثرى و جمع الأموال الكثيرة، و عمّر الأملاك الهائلة، إلى أن أنعم عليه السلطان بإمرة مائة و تقدمة ألف فى صفر سنة ثلاث و خمسين، بعد موت الأمير تمراز القرمشى الظاهرى، فلم تطل أيامه فى التقدمة.

و ولى [دولات باى] الدّواداريّة الكبرى- بمال بذله، نحو العشرة آلاف دينار- عوضا عن قانى باى الچركسى، بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد موت الأمير قراخجا الحسنى.

و لما ولى الدّواداريّة الكبرى خمدت ريحه، و انحطت حرمته، بالنسبة إلى ما كانت عليه أيام دواداريّته الثانية، و السببية واضحة؛ و هى أنه كان أوّلا مطلوبا، و الآن صار طالبا.

ثم سافر [دولات باى] أمير حاج المحمل بعد مدّة، و كان وليها مرّة أولى فى سنة تسع و أربعين، فهذه المرّة الثانية فى سنة ست و خمسين، و عاد فى سنة سبع و خمسين، و قد خلع الملك الظاهر جقمق نفسه من الملك و سلطن ولده الملك المنصور عثمان، فأقام فى دولة المنصور دوادارا على حاله، و قد خاف من صفير الصافر، فلم يكن بعد أيام إلا و قبض عليه فى يوم الخميس ثانى عشر صفر من السنة المذكورة، و حمل إلى الإسكندرية، فحبس بها شهرا و أياما، و أطلقه الملك الأشرف إينال، و أحضره إلى القاهرة، ثم أنعم عليه بعد مدة بإقطاع الأمير أرنبغا اليونسى، فلم تطل أيّامه إلا نحو الشهر، و مرض و مات فى التاريخ المقدّم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۷

و لقد قال لى بعض الحذّاق إن سبب موته إنما كانت طربة يوم أمسك، و دامت الطّربة إلى أن قتلته. قلت: و أنا لا أستبعد هذا، لما كان عنده من الجبن و الحذر، و عدم الإقدام، على أنه كان مليح الشكل، متجملا فى ملبسه و مركبه، و قورا فى الدول، إلا أنه لم يشهر بشجاعة و لا كرم فى عمره.

و توفّى الأمير سيف الدين قانصوه بن عبد اللّه النّوروزى أحد أمراء دمشق بها فى أواخر جمادى الأولى، و له من العمر نحو الستين سنة تخمينا، و كان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظىّ نائب الشّام، و صار خاصّكيّا بعد موته فى الدولة المؤيّديّة شيخ، ثم تأمّر عشرة بعد موت المؤيّد، ثم صار أمير طبلخاناه فى دولة الظاهر ططر، و دام على ذلك سنينا كثيرة إلى أن أخرجه الملك الأشرف برسباى إلى نيابة طرسوس، ثم نقله إلى حجوبية حلب، ثم تقدمة ألف بدمشق، ثم خرج على الملك الظاهر جقمق، و وافق الأمير إينال الجكمى على العصيان، فلما كسر الجكمى اختفى قانصوه مدة، ثم ظهر و تنقّل أيضا فى عدة أماكن، و هو فى جميع ما يتحرّك فيه مخمول الحركات إلى أن مات، و كان مليح الشكل، و عنده شجاعة و معرفة برمى النشّاب، إلا أنه كان خاملا، ما أظنه ملك فى عمره ألف دينار، و لولا الحياء لقلت و لا سلّاريّا ثانيا، و فى هذا كفاية.

و توفّى الأمير سيف الدين قشتم بن عبد اللّه المحمودى الناصرى نائب البحيرة قتيلا فى واقعة كانت بينه و بين العربان الخارجة عن الطاعة فى أواخر شهر رجب، و قد ناهز الستين من العمر، و كان أميرا جليلا عاقلا حشما وقورا شجاعا مقداما كريما

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۸

متواضعا مليح الشكل، و هو ممن جمع بين الشجاعة و الكرم و التواضع- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين بيغوت بن عبد اللّه من صفر خجا المؤيّدى الأعرج نائب صفد بها فى أواخر شعبان، و قد جاوز الستين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ فى أيام إمرته، و صار خاصّكيا بعد موته، إلى أن نفاه الملك الأشرف برسباى إلى الشام، ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق، ثم ولى نيابة حمص فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق مدّة، ثم نقل إلى نيابة صفد دفعة واحدة، بعد الأمير قانى باى الأبوبكرى الناصرى البهلوان، بحكم توجهه إلى نيابة حماة، ثم نقل بيغوت هذا إلى نيابة حماة، و وقع له مع أهل حماة أمور و شكاو آلت إلى تسحّبه من حماة و توجّهه إلى ديار بكر، بعد أن أمسك ولده إبراهيم بالقاهرة و حبس، و وقع له أيضا بديار بكر أمور و محن، و أمسك و حبس بقلعة الرّها، ثم أطلق و عاد طائعا إلى السلطان الملك الظاهر جقمق، و قدم القاهرة، ثم عاد إلى دمشق بطالا، إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بها، بعد موت الأمير بردبك العجمى الجكمى، فدام على ذلك إلى أن نقله الظاهر إلى نيابة صفد ثانيا، بعد موت يشبك الحمزاوى، فدام بصفد إلى أن مات- رحمه اللّه- فى التاريخ المقدّم ذكره، و كان رجلا ديّنا مشهورا بالشجاعة و الإقدام، وقورا فى الدّول، و تولّى نيابة صفد بعده إياس المحمدى الناصرى الطويل.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح درويش- و قيل محمد، و قيل غيبى- الرومى، بظاهر خانقاه سرياقوس، فى يوم الاثنين ثالث ذى القعدة، و دفن شرقى الخانقاه المذكورة، و كان أصله من آقصراى، و كان مليح الشكل، منوّر الشّيبة، لا يدّخر شيئا،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۶۹

و حجّ غير مرة من غير زاد و لا راحلة، و هو أحد من أدركناه من الفقهاء الصلحاء- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين حطط بن عبد اللّه الناصرى أتابك طرابلس بها فى أوائل ذى الحجة، و كان ولى نيابة قلعة حلب، ثم نيابة غزّة، كل ذلك بالبذل، فإنه كان لا للسيف و لا للضيف.

و توفّى الأمير سيف الدين على باى بن طراباى العجمى المؤيّدى أتابك حلب بها فى أواخر ذى الحجة، و هو فى عشر الستين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ، و بقى خاصّكيا أيام المؤيّد، و دام خاصّكيا عدّة دول إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق فى أوائل دولته بإمرة عشرة، و جعله من جملة رءوس النوب، و صار له كلمة فى الدولة، و توجّه فى الرّسليّة من السلطان إلى أصبهان بن قرايوسف صاحب بغداد، ثم بعد عوده إلى القاهرة بمدّة نفاه الملك الظاهر إلى حلب على إمرة مائة و تقدمة ألف، ثم نقل إلى أتابكيّة حلب بعد سودون الأبوبكرىّ المؤيّدى لما ولى نيابة حماة، فدام على باى على ذلك إلى أن توفّى، و كان مليح الشكل، فصيح العبارة، عارفا بأنواع الفروسية، كريما جوادا إلا أنه كان مجازفا كذوبا مسرفا على نفسه- عفا اللّه عنه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم- أعنى القاعدة- ثمانية أذرع و خمسة أصابع- مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و اثنان و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۸]

السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر و هى سنة ثمان و خمسين و ثمانمائة

فيها توفّى الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد اللّه الجاركسى، أحد أمراء الطبلخانات- بطّالا- بعد مرض طويل فى يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر، و كان تركى الجنس أصله من مماليك جاركس القاسمى المصارع، ثم صار بعد موت أستاذه خاصكيا، و دام على ذلك

سنين طويلة لا يلتفت إليه فى الدولة، و قد شاخ و صار يخضب لحيته بالسواد، إلى أن تحرّك سعده و سعد خچداشه قانى باى الچاركسى بسلطنة الملك الظاهر جقمق، فإنه كان أخا چاركس أستاذ هؤلاء المخاميل.

فلما تسلطن جقمق أمّر يلبغا هذا إمرة عشرة، و جعله رأس نوبة لولده المقام الناصرى محمد.

ثم ولّاه نيابة دمياط، ثم عزله و جعله أمير طبلخاناه، فدام على ذلك إلى أن أخرج الملك الأشرف إينال إقطاعه- فنعم ما فعل- فاستمرّ بطّالا إلى أن مات كما تقدّم ذكره، و كان من مساوئ الدهر- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى ناصر الدين محمد ابن قاضى القضاة فخر الدين أحمد بن عبد اللّه الشهير بابن المخلّطة، أحد أعيان فقهاء المالكية و نوّاب الحكم، و ناظر البيمارستان المنصورى، فى يوم الأحد تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۱

فقيها عالما بمذهبه، عارفا بصناعة القضاء و الشروط و الأحكام، ناب فى الحكم من سنة سبع عشرة و ثمانمائة إلى أن مات، و حمدت سيرته- رحمه اللّه تعالى.

و توفى المقام الغرسى خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق بن الأمير آنص الچاركسى الأصل، بثغر دمياط فى يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى، و مولده بقلعة الجبل فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و أمه أم ولد تسمى «لا أفلح من ظلم» مولّدة، و بقى بقلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المؤيد شيخ مع أخيه محمد ابن الناصر فرج إلى الإسكندرية فحبسا بها إلى أن سألت عمتهما خوند زينب بنت الملك الظاهر برقوق زوجها الملك المؤيد شيخا فى إحضارهما من الإسكندرية إلى قلعة الجبل لتختهما فحضرا إلى الديار المصرية، و ختنا بقلعة الجبل، ثم أعيدا إلى الإسكندرية، و داما بها بسجنها إلى أن مات أخوه محمد فى طاعون سنة ثلاث و ثلاثين، فأخرج خليل هذا من السجن، و رسم له بأن يسكن حيث شاء بثغر الإسكندرية، و أن يركب لصلاة الجمعة لا غير، فبقى على ذلك إلى أن رسم له الملك الظاهر جقمق- بعد أن تأهل بكريمتى- أن يركب إلى جهة باب البحر، و يسير.

ثم أذن له بعد ذلك بالحج، و قدم القاهرة فى شوال سنة ست و خمسين، و حج فى موسم السنة المذكورة.

ثم عاد و قد خلع الملك الظاهر نفسه، و تسلطن ولده الملك المنصور عثمان، فرسم له المنصور فى يوم دخوله من الحج بالتوجه إلى الإسكندرية، فطلب هو دمياط، فرسم له بها.

و خرج إليها من يومه قبل أن يحل عن أحماله، فلم تطل مدّته بثغر دمياط و مات فى التاريخ المذكور، و دفن بدمياط أيّاما، ثم نقل إلى بولاق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۲

ثم نقل إلى القاهرة، و دفن عند جدّه الملك الظاهر برقوق بالصحراء، و كان فى نفسه أمور توفاه اللّه قبل أن ينالها، و أنا أعرف بحاله من غيرى، غير أننى لا أشكر و لا أذم، و فى هذا كفاية.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن عامر قاضى قضاة المالكية بصفد، فى أوائل جمادى الآخرة، و كان معدودا من فقهاء المالكية، و ناب فى الحكم بالقاهرة سنين كثيرة، و ولى قضاء الإسكندرية غير مرة- رحمه اللّه تعالى

و توفّى الشريف معز [ابن هجار بن وبير] أمير ألينبع فى أواخر جمادى الآخرة و توفى بعده ابن أخيه مقبل

و توفّى الأمير جانبك بن عبد اللّه الزّينى عبد الباسط بالقاهرة فى يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر رجب، و كان من مماليك الزّينى عبد الباسط بن خليل، و ولى الأستادارية فى أيام أستاذه حسّا، و معناه أستاذه، و لولا أنه فى الجملة ولى الأستادارية لما ذكرناه فى هذا المحل.

و توفّى قاضى القضاة الحنابلة بحلب، مجد الدين سالم بن سلامة الحنبلى خنقا بقلعة حلب بالشرع فى الظاهر، لكونه قتل رجلا بيده

ممن اتهم بالزندقة، و القتل من قبل الحكم- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب ابلستين بها فى باكر يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان، و تولى أبلستين بعده ابنه ملك أصلان.

و توفّى الأمير سودون بن عبد اللّه الجكمى، أحد أمراء العشرات، بطّالا بالقاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۳

فى يوم السبت رابع ذى القعدة، و هو أخو إينال الجكمى نائب الشام، و هو الأصغر، و بسببه تخومل حتى مات، و كان من أعيان الدّولة، و ممّن له ذكر و سمعة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة الحنفية بدمشق قوام الدين محمد الدمشقى المولد و الوفاة، الحنفى المذهب، بدمشق فى ثامن ذى القعدة، و مولده فى ثامن ذى القعدة، و مولده فى ثامن ذى القعدة سنة ثمانمائة، و كان فقيها فاضلا ديّنا خيّرا مشكور السيرة، و هو من القضاة الذين ولوا من غير بذل، و مات غير قاض- رحمه اللّه.

و توفّى المعلم ناصر الدين محمد الصغير القازانى، المعروف بمحمد الصغير، معلم رمى النشاب، فى ليلة الجمعة ثالث عشرين ذى الحجة، و قد زاد سنه على الثمانين، و مات و لم يخلف بعده مثله فى حسن الرمى و تعليمه و علومه، و هو أحد الأفراد الذين أدركناهم من أرباب الكمالات- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أحد عشر إصبعا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۵۹]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر و هى سنة تسع و خمسين و ثمانمائة.

فيها توفى الأمير سيف الدين مغلباى بن عبد اللّه الشهابى، أحد أمراء العشرات- بطالا بالقاهرة- فى ليلة الخميس عاشر المحرم، و كان أصله من مماليك الشهابى أحمد بن جمال الدين الأستادار، ثم أعتقه الملك الناصر فرج، ثم صار خاصّكيّا فى الدولة الأشرفية برسباى، ثم تأمر فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من حزب ولده الملك المنصور فى الفتنة مع الأشرف إينال، فأخرج إينال إقطاعه بهذا المقتضى و دام بطّالا إلى أن مات، و كان عاقلا ساكنا لا بأس به- رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين جلبّان بن عبد اللّه الأمير آخور نائب الشام بها فى يوم الثلاثاء سادس عشر صفر، و قد ناهز الثمانين من العمر تخمينا، و فى معتقه و جنسه أقوال كثيرة، أما معتقه فقيل إنه من عتقاء الأمير تنبك الأمير آخور الظاهرى، و قيل سودون طاز، و قيل إينال حطب، و أما جنسه فالمشهور أنه چاركسى الجنس، و قيل غير ذلك، ثم خدم جلبّان المذكور عند الأمير چاركس القاسمى المصارع، ثم عند الوالد، ثم عند الملك المؤيّد شيخ أيام إمرته، فلما تسلطن المؤيد جعله أمير آخور ثالثا، ثم أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدّيار المصريّة، ثم خرج إلى البلاد الشّاميّة مجرّدا إليها مع من خرج من الأمراء، صحبة الأتابك ألطنبغا القرمشى، و قبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء المؤيّدية، و حبس بالبلاد الشّامية إلى أن أطلقه الملك الأشرف برسباى، و جعله أمير مائة و مقدّم ألف بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۵

ثم نقله إلى نيابة حماة بعد الأمير جارقطلوا بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد الأمير تنبك البجاسى المنتقل إلى نيابة الشّام، بعد موت الأمير تنبك ميق العلائى، فى رجب سنة ست و ثلاثين و ثمانمائة، و دام جلبّان على نيابة حماة سنين كثيرة إلى أن نقله الملك الأشرف برسباى إلى نيابة طرابلس بعد موت الأمير طرباى فى شعبان سنة ثمان و ثلاثين و ثمانمائة و تولّى بعده الأمير قانى باى

الحمزاوی.

ثم نقله الملک الظاهر جقمق إلی نیابة حلب بعد عصیان الأمیر تغری برمش الترکمانی فی سلخ شهر رمضان سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة.

و تولی بعده طرابلس قانی بای الحمزاوی أیضا فلم تطل مدته بحلب، و نقل إلی نیابة دمشق بعد موت الأتابک آقبغا التّمرازی فی شهر ربیع الآخر سنة ثلاث و أربعین، و تولی بعده حلب الأمیر قانی بای الحمزاوی.

فدام فی نیابة دمشق عدّة سنین إلی أن مات فی التاریخ المذکور، و تولی بعده نیابة دمشق قانی بای الحمزاوی، و کانت مدة نیابته علی دمشق خمس عشرة سنة، و هذا شیء لم یقع لغیره من نواب دمشق بعد الأمیر تنکز الناصری.

و فی ترجمته غریبة أخری، و هی أنه لم ینتقل من نیابة إلی الأخری فی هذه المدة التی تزید علی ثلاثین سنة إلا و یستقر بعده قانی بای الحمزاوی و مع أن قانی بای الحمزاوی لم تطل مدته فی الولایات، و حضر إلی الدیار المصریة أمیرا، و أقام بها سنین، ثم عاد إلی نیابة حلب بعد أن ولیها غیر واحد بعده، فلما تولّی قانی بای الحمزاوی حلب ثانیا مات جلبّان هذا بعد مدّة، فنقل قانی بای إلی نیابة دمشق بعده علی العادة. فهذا اتفاق غریب لعله لم یقع لغیرهما فی هذه السنین الطویلة و الولایات الکثیرة، و کان جلبّان المذکور من أجلّ الملوک، طالت أیامه فی السعادة، و تنقل فی ولایات جلیلة، إلی أن مات- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الصاحب أمین الدین إبراهیم ابن الرئس مجد الدین عبد الغنی بن الهیصم- بطّالا- فی لیلة الخمیس مستهل شهر ربیع الآخر، و قد قارب الستین من العمر، و کان معدودا من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۶

رؤساء الدّیار المصریة، من بیت رئاسة و کتابة، و جدّهم الهیصم ینسب إلی المقوقس صاحب مصر، و قد ولی الصاحب أمین الدین هذا الوزر غیر مرة، و حج و تفقّه علی مذهب الحنفیة، و کان محبا للفقراء و أهل الخیر محبة زائدة، و کان مشهورا بالصلاح، و کان یتجنّب النصاری، و لا یتزوج إلا من المسلمات، و بالجملة فإنه نادرة فی أبناء جنسه، و له محاسن کثیرة- رحمه اللّه تعالی.

و توفی الأمیر یشبک بن عبد اللّه الناصری أحد أمراء الطّبلخانات و رأس نوبة ثان، فی یوم الأحد ثامن عشر صفر، و قد ناهز السبعین، و کان من ممالیک الناصر فرج، و خدم فی أبواب الأمراء بعد موت أستاذه، و انحط قدره إلی أن عاد إلی خدمة السلطان بعد موت الملک المؤیّد شیخ، و صار خاصّکیا إلی أن تأمر عشرة فی أوائل سلطنة الملک الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النّوب، و دام علی ذلک إلی أن نقله الملک المنصور عثمان إلی إمرة طبلخاناه بعد انتقال جانبک القرمانی إلی طبلخاناه الأمیر یونس الأقبائی المشد بحکم انتقال یونس إلی تقدمة ألف.

ثم صار فی دولة الملک الأشرف إینال ثانی رأس نوبة النّوب، فدام علی ذلک إلی أن مات فی التاریخ المقدم ذکره، و کان یشبک المذکور من مساوئ الدهر، لا دنیا و لا دینا، و لا ذاتا و لا أدوات- عفا اللّه عنا و عنه.

و توفی الأمیر سیف الدین خیر بک بن عبد اللّه المؤیدی الأجرود، أحد مقدمی الألوف بالدیار المصریة فی یوم الاثنین تاسع عشرین شهر ربیع الآخر، و هو فی حدود الستین، و حضر المقام الشهابی أحمد بن السلطان الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی، و کان أصله من ممالیک الملک المؤیّد شیخ، و ترقی بعده حتی صار خاصّکیا فی دولة الملک الأشرف برسبای.

ثم نفاه الأشرف إلی الشّام، و أنعم علیه بإمرة طبلخاناه، ثم صار أمیر مائة و مقدّم ألف بدمشق، ثم صار أتابکا بها، ثم أمسک و حبس إلی أن أطلقه الأشرف إینال، فقدم القاهرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۷۷

ثم صار أمیر مائة و مقدّم ألف بها إلی أن مات، و استریح منه، لأنه کان أیضا من مقولة یشبک المقدّم ذکره، بل یزیده سوء الخلق و الجنون.

و توفّى شاعر العصر الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان الشافعى الفقيه النّواجى، الشاعر المشهور فى يوم الأربعاء سادس عشرين جمادى الأولى، و مولده بالقاهرة فى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، و أصله من نواج- قرية بالغربية، من عمل الوجه البحرى من القاهرة- و نشأ بالقاهرة، و قرأ و اشتغل إلى أن مهر و برع فى عدة علوم و فنون، و غلب عليه نظم القريض، حتى قال منه أحسنه، و أنشدنى كثيرا من شعره، و مما أنشدنى من لفظه لنفسه- رحمه اللّه تعالى قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج‌۱۶؛ ص۱۷۷

[الوافر]

طلبت وصاله، فدنا لحربى يهزّ من القوام اللّدن رمحا

و سلّ من اللواحظ مشرفيّا ليضرب، قلت: لا بالله صفحا

و مما أنشدنى لنفسه أيضا:

[الطويل]

خليلىّ: هذا ربع عزّة، فاسعيا إليه و إن سالت به أدمعى طوفان

فجفنى جفا طيب المنام و جفنها جفانى، فياللّه من شرك الأجفان

و قد استوعبنا من لفظه و شعره قطعة جيدة فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، و أيضا فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» إذ هما محل الإطناب- انتهى.

و توفّى الشيخ المعتقد المجذوب محمد المغربى فى صبيحة يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة، و دفن من يومه قبل صلاة الجمعة بتربة السلطان الملك الأشرف إينال التى أنشأها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌۱۶، ص: ۱۷۸

بالصحراء، و كان يجلس داخل باب النصر على باب قاعة البغاددة تحت الساباط، تجاه الرّبع المعروف قديما بدار الجاولى، بالقرب من باب جامع الحاكم، و أقام بالموضع سنين كثيرة، لا يقوم منه صيفا و لا شتاء و هو جالس على مكان عال، و تحته حجارة، و تأتيه الناس بالمأكل و المشرب، و لهم فيه اعتقاد حسن، و كنت أزوره من بعد، خوفا مما كان حوله من النجاسة، و كانت جذبته مطبقة، و الغريب أنه وجد له بعد موته فى المكان الذى كان يجلس عليه جملة كبيرة من الذهب و الفضة، و هذا من الغريب العجيب، فإنه لم يكن فى جذبته شكّ، فكيف يهتدى لجمع المال، و أنا أقول شيئا، و هو أن المغاربة فى الغالب يميلون لجمع المال، فلعله كان هو أيضا يميل لجمع المال بالطبع على قاعدة المغاربة، و اللّه أعلم.

و توفّى القاضى الرئيس صلاح الدين محمد المعروف بابن السابق الحموى الشافعى، كاتب سر حلب ثم دمشق، و بها مات بطّالا بعد مرض طويل فى يوم الأحد ثامن عشرين جمادى الآخرة عن أربع و ثمانين سنة، و مولده بحماة، و بها نشأ، و تنقل لعدّة وظائف سنية، و كان مشكور السيرة فى ولايته مع الدين و التقوى و الأدب و الحشمة و الرياسة- رحمه اللّه تعالى.

و توفى القاضى محبّ الدين محمد ابن الشيخ الإمام زين الدين أبى بكر القمنى الشافعى، فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب- رحمه اللّه.

و توفيت خوند شاه زاده بنت الأمير أرخن بك بن محمد بك كرشجى بن عثمان ملك الروم، فلما كبرت تزوجت الملك الأشرف برسباى، ثم تزوجها بعده الملك الظاهر جقمق، ثم تزوجها بعده الأمير برسباى البجاسى، فماتت تحته- رحمها اللّه تعالى.

و توفى السيد الشريف زين الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة ابن منجد بن أبى نمى‌محمد بن أبى سعيد حسن بن على بن أبى غرير قتادة بن إدريس ابن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد اللّه بن محمد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج‌۱۶، ص: ۱۷۹

ابن موسى بن عبد اللّه المحض بن موسى بن الحسن بن على بن أبى طالب المكى الحسنى أمير مكّة فى بطن مرّ خارج مكة، فى يوم الاثنين تاسع شعبان، و حمل إلى مكة فصلى عليه بالحرم، و طيف به على النعش أسبوعا على عادة أشراف مكة، و دفن بالمعلاة و ولى إمرة مكة بعده ابنه الشريف محمد.

و كان مولد بركات بمكة سنة إحدى و ثمانمائة، و أمّه أم كامل بنت النصيح من ذوى عمر، و ولى إمرة مكة شريكا لأبيه و أخيه أحمد سنة عشر و ثمانمائة، ثم استقل بإمرة مكة فى سنة تسع و عشرين من قبل الملك الأشرف برسباى، فدام على إمرة مكة إلى أن عزله الملك الظاهر جقمق بأخيه على بن حسن فى سنة خمس و أربعين.

و خرج بركات هذا إلى البر من جهة اليمن، و وقع له أمور ذكرناها فى «الحوادث»، ثم عزل على عن إمرة مكة بأخيه أبى القاسم بن حسن بن عجلان- كل ذلك و بركات مخرج- إلى أن قدم بركات الديار المصرية، و ولّاه الملك الظاهر جقمق إمرة مكة على عادته.

و كان لقدومه القاهرة يوم مشهود، و أقام بالقاهرة مدة ثم عاد إلى مكة، فدام بها إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان رجلا عاقلا ساكنا شجاعا مشكور السيرة، أهلا للإمرة- إن لم يكن زيديا على عادة أشراف مكة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الشمسى المؤيدى أحد أمراء دمشق، فى أواخر ذى القعدة أو أوائل ذى الحجة، و كان أصله من مماليك المؤيد شيخ، اشتراه قبل سلطنته و أعتقه، و صار بعد موت أستاذه من جملة أمراء طرابلس، ثم نقل إلى حجوبية حجاب حلب، ثم عزل، و صار من أمراء الطبلخانات بدمشق إلى أن مات.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلامة محب الدين محمد ابن العلامة زادة- و اسم زادة أحمد- بن أبى يزيد محمد السيرامى الحنفى المصرى سبط الأقصرائى المعروف بابن مولانا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٨٠

زادة، إمام السلطان، و شيخ المدرسة الأيتمشية بمكة المشرفة، فى يوم الجمعة ثالث ذى الحجة، و مولده بالقاهرة فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة- هكذا ذكر لى، و كتب بخطه.

قلت: و نشأ بالقاهرة، و قرأ القرآن الكريم و عدة مختصرات فى فنون كثيرة، و تفقه بجماعة من علماء عصره، مثل الشيخ عز الدين بن جماعة و غيره، ذكرنا غالبهم فى تاريخنا «الحوادث» و برع فى عدة علوم، و أفتى و درّس، و تولى الوظائف الدينية، ثم ولى [وظيفة] إمام السلطان الملك الأشرف برسباى، فدام على ذلك مدة سنين و أمّ بعدة ملوك إلى أن رغب هو عن ذلك و تركه، و قعد بداره ملازما الأشغال و الاشتغال إلى أن قصد المجاورة فى هذه السنة بمكة المشرفة، و كانت منيته بها بمرض البطن- رحمه اللّه تعالى- و هو ابن أخت العلامة فريد عصره أمين الدين الأقصرائى الحنفى.

و توفّى الأمير سيف الدين آقبردى بن عبد اللّه الساقى الظاهرى نائب ملطية بها فى يوم الخميس خامس عشرى ذى الحجة، و حمل من ملطية إلى حلب، و دفن بتربته التى عمّرها، و مات و له من العمر نحو ثلاثين سنة، و أصله من مماليك الملك الظاهر جقمق الصّغار، و صار ساقيا فى أيّامه، ثم نائب قلعة حلب دفعة واحدة، فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى أتابكيّة حلب فى سنة ثمان و خمسين، ثم نقل إلى نيابة ملطية، فمات بها فى التاريخ المقدم ذكره، و كان لا بأس به، و لم تطل أيّامه لتشكر أفعاله أو تذمّ- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و خمسة أصابع، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و أربعة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ١٨١

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۶٠]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى القاضـى شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى قاضى الإسكندرية بقرية إدكو بالمزاحمتين فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، و دفن برشيد، و هو فى عشر السبعين، و كان كثير المال قليل العلم- رحمه اللّه.

و توفّى القاضـى ظهير الـدين محمـد ابن قاضـى القضاة أمين الـدين عبـد الوهاب ابن قاضـى القضاة شـمس الـدين محمد بن أبى بكر الطرابلسـى الحنفى أحد نوّاب الحكم بمصر- معزولا- بعد مرض طويل، فى يوم الجمعة سادس عشرين شعبان، و دفن من الغد، و كان مشكور السيرة فى أحكامه، محبا لأصحابه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير أسنباى بن عبد اللّه الجمالى الظاهرى الدّوادار الثانى كان، بطّالا بالقدس فى شعبان، و سنّه دون الأربعين، و كان الملك الظاهر جقمق اشتراه فى أيام سـلطنته، و جعله خاصـكيا، ثم سـلاحدارا، ثم ساقيا، ثم أمّره عشـرة، ثم صار فى الدولـة المنصورية عثمان دوادارا ثانيـا عوضا عن تمربغا الظاهرى، فلم تطل مـدته غير أيام، و وقعت الفتنـة بين المنصور و بين الأتابك إينال، و هرب أسـنباى و اختفى، ثم ظهر و رسم له بـالتوجّه إلى القـدس، فـدام بالقـدس بطالا إلى أن مات، و هو من مقولـة آقبردى المقـدّم ذكره- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير قانى باى بن عبد اللّه الناصرى الأعمش نائب قلعة الجبل بها فى ليلة الخميس سابع عشرى ذى القعدة، و عمره زيادة على الستين، و كان أصله من مماليك

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۲

الناصر فرج، و صار خاصّكيّا بعد موت المؤيّد شيخ، ثم تأمّر عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، إلى أن ولّاه الملك الأشـرف إينال نيابـة القلعـة بعـد توجّه يونس العلائى الناصـرى إلى نيابة الإسـكندرية فى شـهر ربيع الأوّل سـنة سـبع و خمسين، فدام فى نيابة القلعة إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان من المهملين المرزوقين.

و توفّى الأمير سـيف الـدين جانبك بن عبـد اللّه المحمودى المؤيّدى، أحد أمراء طرابلس بها فى أواخر ذى القعدة و قد قارب الستين من العمر، و هو أخو قانى بك المحمودى المؤيّدى، كان من عتقاء الملك المؤيّد شيخ، و صار خاصّكيّا فى دولة المظفر أحمد أو فى دولـة الظاهر ططر، ثم تأمّر عشـرة فى أوائل دولـة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملـة رءوس النوب، و بقى له كلمـة فى الدّولة، و زادت حرمته إلى أن كان منها زوال نعمته، و أمسك و حبس بقلعـة الجبل، ثم أخرج أميرا بحلب، ثم حبس أيضا بحلب ثانيا مـدّة، ثم أطلق و أعطى إمرة طبلخاناه بطرابلس، فـدام بطرابلس إلى أن مات، و أحواله و أخلاقه مشـهورة لا حاجة لنا فى ذكر شـىء من ذلك- عفا اللّه عنا و عنه.

و فى هذه السـنة زالت دولة بنى رسول ملوك اليمن من اليمن بعد ما حكموا ممالك اليمن نحوا من مائتين و ثلاثين سـنة، و قد ذكرنا أسـماء جميع ملوك اليمن منهم، من أولهم الملك المنصور أبى الفتـح عمر بن على بن رسول إلى آخر من ملك منهم، و هو الملك المسعود، و قد ملك اليمن جميعه الآن شخص من العرب يسمى عبد الوهاب بن طاهر، و استوثق أمره بها.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ستة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و اثنا عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۱]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة إحدى و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير سـيف الـدين جانم بن عبـد اللّه المؤيّـدى أحد أمراء العشـرات و رأس نوبة فى يوم الخميس رابع المحرم، و قد جاوز السـبعين من العمر، و كان أصـله من مماليك الملك المؤيّد شـيخ قبل سـلطنته، و صار رأس نوبة السـقاة بعد موت أسـتاذه المؤيّد، ثم تـأمّر عشـرة فى دولـة الملك الأشـرف إينال، ثم صار من جملـة رءوس النوب، فـدام على ذلك إلى أن مات، و كان هينا لينا حشـما-

رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جرباش بن عبد اللّه الكريمى الظاهرى أمير سلاح بطالا بداره بسويقة الصاحب داخل القاهرة فى ليلة السبت ثالث عشر المحرم، و قد شاخ و كبر سنّه حتى عجز عن الحركة إلا بعسر، و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و كان يعرف بقاشق، و كان أصله من مماليك الظاهر برقوق، أعتقه قبل واقعة الناصرى و منطاش فى سلطنته الأولى، هكذا ذكر لى من لفظه.

ثم صار سلاحدارا فى دولة الناصر فرج، ثم أمير عشرة و رأس نوبة، ثم صار أمير طبلخاناه فى دولة الملك المؤيّد شيخ، ثم أمير مائة و مقدّم ألف، ثم صار فى دولة الأشرف برسباى حاجب الحجاب بالديار المصرية، بعد انتقال الأمير جقمق العلائى إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجه قصروه من تمراز إلى نيابة طرابلس، بعد عزل إينال النّوروزى و قدومه إلى القاهرة أمير مائة و مقدّم ألف، كل ذلك فى سنة ست و عشرين و ثمانمائة، ثم نقله الأشرف إلى إمرة مجلس فى يوم الاثنين خامس عشر شوال سنة تسع و عشرين، عوضا عن الأمير إينال الجكمى، و قد انتقل الجكمى إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأتابك يشبك الساقى الأعرج إلى أتابكية العساكر، بعد موت الأتابك قجق، و استقرّ الأمير قرقماس الشّعبانى حاجب الحجاب بعد موت جرباش هذا، ثم ولى جرباش هذا نيابة طرابلس، بعد انتقال قصروه إلى نيابة حلب،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۴

بعد عزل الأمير جارقطلو و قدومه إلى مصر أمير مائة و مقدّم ألف و أمير مجلس عوضا عن جرباش المذكور، فلم تطل مدة جرباش بطرابلس، و عزل عنها بالأمير طراباى الظاهرى، و قدم إلى القاهرة فى سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة أمير مجلس على عادته أولا.

و قد انتقل جارقطلو عن إمرة مجلس إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأتابك يشبك الساقى الأعرج، فلم تطل مدّة جرباش بالقاهرة، و قبض عليه، و نفى إلى ثغر دمياط بطّالا، فدام بالثغر دهرا طويلا- إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق فى أوائل سلطنته، و جعله أمير مجلس ثالث مرّة، عوضا عن الأمير يشبك السودونى المنتقل إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير آقبغا التمرازى إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد عصيان قرقماس الشّعبانى و القبض عليه و سجنه بالإسكندرية، و ذلک فى سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فدام على إمرة مجلس إلى سنة ثلاث و خمسين، فنقل إلى إمرة سلاح بعد موت الأمير تمراز القرمشى.

و تولّى بعده إمرة مجلس تنم من عبد الرزّاق المؤيدى المعزول عن نيابة حلب، فلم يزل على ذلک إلى أن أخرج الملک المنصور عثمان إقطاعه إلى الأمير قراجا الخازندار الظاهرى- و وظيفته إمرة سلاح- إلى الأمير تنم المقدم ذكره، فلزم جرباش من يوم ذلک داره إلى أن مات، و كان رحمه اللّه تعالى وقورا فى الدول، طالت أيامه فى السعادة، و دام أميرا أكثر من خمسين سنة، بما فيها من العطلة، و كان منهمكا فى اللذات التى تهواها النفوس مع عدم شهرته بالشجاعة، و ذلک خرج الملوک لطلب الراحة- انتهى.

و توفّى الأمير سيف الدين يشبک بن عبد اللّه حاجب حجّاب طرابلس فى يوم الأربعاء ثالث المحرم، و كان من مماليک الأمير قانى باى البهلوان، و سعى بعد موت

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۵

أستاذه إلى أن ولى حجوبيّة طرابلس بالبذل، فلم تطل أيامه، و مات و لم تكن فيه أهلية لتشكر أفعاله أو تذمّ.

و توفّى الأمير الطواشى الرومى زين الدين عبد اللطيف المنجکى ثم العثمانى، مقدّم المماليک السلطانية- كان- بطالا، فى ليلة الجمعة رابع عشرين صفر و قد أسنّ، و كان من خدّام الست فاطمة بنت الأمير منجک اليوسفى و عتيقها، ثم اتّصل بخدمة الأتابک ألطنبغا العثمانى، و به عرف بالعثمانى، ثم صار من جمدارية السلطان الخاص، إلى أن ولّاه الملک الظاهر جقمق تقدمة المماليک السلطانية بعد القبض على الأمير الطواشى خشقدم اليشبکى، فدام على ذلک عدّة سنين، و حجّ مرتين أمير الركب الأوّل، و لما عاد من الثانية فى سنة اثنتين و خمسين عزله السلطان بنائبه الأمير جوهر النّوروزى الحبشى، فدام بطالا إلى أن مات، و كان ديّنا خيّرا لا بأس به، رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضـى القضاة سـراج الدين عمر بن موسى الحمصى الشافعى فى صفر بطالا، و قد أناف على الثمانين، و كان مولده بحمص و بهـا نشأ و طلب العلم، و قـدم القـاهرة و حضـر دروس السّراج البلقينى، و نـاب فى الحكم عن ولـده قاضـى القضاة جلال الـدين عبد الرحمن سـنين كثيرة، ثم ولى القضـاء بـالوجه القبلى، ثم نقل إلى قضاء طرابلس، ثم قضاء حلب، ثم قضاء دمشق غير مرّة، و رشّح هو نفسه لقضاء الديار المصـرية و كتابة السـرّ بها فلم يقع له ذلك، ثم ولى فى أواخر عمره تدريس مقام الإمام الشافعى، ثم عزل و أخرج إلى البلاد الشاميّة فمات بها، و كان يستحضر من فروع مذهبه طرفا، و له نظم بحسب الحال، و هو الذى كان نظم صداق كريمتى على قاضى القضاة جلال الدين البلقينى أكثر من ثلاثمائة بيت- رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۶

و توفّى قاضـى قضاة مكة و عالمها جلال الدين أبو السعادات محمد بن أبى البركات محمد بن أبى السعود محمد بن الحسين بن على بن أبى أحمد بن عطية بن ظهيرة المكى المخزومى الشافعى بمكة، و هو قاض، فى تاسع صفر، و دفن من الغد.

و تولّى قضاء مكة بعده ابنه محب الدين محمد، و كان مولده فى سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس و تسعين و سبعمائة بمكة، و بها نشأ و تفقه بعلماء عصـره، إلى أن برع فى عدة علوم، و شارك فى عدة فنون، و نعت بعالم الحجاز، و تولى قضاء مكة غير مرة، و قد ذكرنا مشـايخه و عـدة وقائعه فى تاريخنا «حوادث الـدهور»، و ذكرنا أيضا مصـنفاته، و كان له نظم جيـد، و مما أنشـدنى من لفظه لنفسه فى القاضى كمال الدين ابن البارزى كاتب السّرّ الشريف بالديار المصرية: [السريع]

أبرزه اللّه بلا حاجب يحجبه عنا و لا حاجز

فكلّ فضل من جميع الورى مكتسب من ذلك البارزى

و توفّى الأمير سيف الدين إينال بن عبد اللّه الأشـرفى الطويل أحد أمراء الخمسات، فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين نوكار بن عبد اللّه الناصرى، أحد أمراء العشرات، و الزّردكاش، فى أواخر جمادى الآخرة- مجردا إلى بلاد ابن قرمان- بمدينة غزة، و كان من مماليك الناصـر فرج و تخومل من بعده، و احتاج إلى أن خدم فى أبواب الأمراء، و قاسـى خطوب الدهر ألوانا، إلى أن عاد إلى باب السـلطان بعد موت الملك المؤيد شـيخ و صار خاصكيا، و أقام على ذلك سنين كثيرة إلى أن أنعم عليه الملـك الظـاهر جقمق بـإمرة عشـرة بعـد سؤال كثير، ثم صـار حاجبـا ثانيا، فـدام على ذلك لا يلتفت إليه فى الـدول إلى أن ولّاه الملك الأشرف إينال الزردكاشية بعد موت جانبك الوالى، فاستمر على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۷

ذلك إلى أن مات، و كان مهملا يعيش بين الأكابر بالدعابـة و المضـحكة، و ليس فيه أهليـة لحرب و لا ضـرب، و لا لنوع من الأنواع سوى ما ذكرناه- رحمه اللّه.

و توفّى قاضـى القضاة ولى الدين محمد السـنباطى المالكى قاضـى قضاة الديار المصـرية فى يوم الجمعة عاشـر شهر رجب، و دفن من يومه، و قد زاد سـنه على السـبعين، و كانت لديه فضـيلة مع لين جانب و تدين، و مع هذا لم تشـكر سـيرته فى القضاء؛ لسلامة باطنه، و لحواشيه - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى شـيخ الإسـلام، علّامـة زمانه كمال الـدين محمـد ابن الشـيخ همام الدين عبد الواحد ابن القاضـى حميد الدين عبد الحميد ابن القاضـى سعد الدين مسعود الحنفى السيرامى الأصل المصرى المولد و الدار و الوفاة، العالم المشهور بابن الهمام، فى يوم الجمعة سابع شهر رمضـان، و دفن من يـومه، و كـانت جنـازته مشـهودة، و مـات و لم يخلف بعـده مثله فى الجمع بين علمى المنقول و المعقول، و الـدين و الورع و العفـة و الوقار فى سائر الـدول، و مولده فى سـنة ثمان أو تسع و ثمانين و سـبعمائة بالقاهرة، و بها نشأ، و اشـتغل على علماء عصـره إلى أن برع، و صار أعجوبة زمانه فى علوم كثيرة بلا مدافعة، و ولى مشـيخة المدرسة الأشـرفية برسـباى من الأشرف قبل

سنة ثلاثين و ثمانمائة، ثم تركها رغبة منه، و دام ملازما للأشغال، و حج و جاور غير مرة، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جقمق مشيخة خانقاه شيخون، و استمر بها مدة طويلة من السنين، ثم تركها أيضا و سافر إلى مكة، و قد قصد المقام بها إلى أن يموت، فلما حصل له ضعف فى بدنه عاد إلى مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۸

و لزم الفراش إلى أن مات، و قد ذكرنا من مصنفاته و أحواله ما هو أطول من هذا فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» إذ هو محل الإطناب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه القرمانى الظاهرى حاجب الحجاب بالديار المصرية، بعد عوده من تجريدة ابن قرمان بالقرب من منزلة الصالحية، فحمل إلى القاهرة و دفن بالقرافة الصغرى، فى يوم الجمعة ثانى عشر شوال، و قد أناف على الثمانين، و كان من عتقاء الملك الظاهر برقوق؛ و وقع له محن فى الدولة الناصرية فرج إلى أن تأمر بعد الملك المؤيد شيخ عشرة، و صار من جملة معلمى أرمح؛ إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة طبلخاناه، و صار بعد ذلك رأس نوبة ثانيا، و استمر على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى إمرة مائة و تقدمه ألف، ثم ولّاه حجوبية الحجاب، ثم تجرّد من جملة من تجرد من الأمراء إلى بلاد ابن قرمان، فمات فى عوده حسبما تقدم، و كان ساكنا عاقلا إلا أنه كان لا يتجمل فى نفسه و لا فى مركبه- رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير سيف الدين جكم بن عبد اللّه النّورى المؤيدى، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة بمدينة غزة، و هو عائد من تجريدة ابن قرمان فى يوم الاثنين ثامن شوال، و قد قارب الستين، و كان من مماليك المؤيد شيخ، و تأمر فى دولة الأشرف إينال عشرة و صار من جملة رءوس النوب، و كان من المهملين يعيش تحت ظلّ خچداشيته.

و توفّى القاضى زين الدين أبو العدل قاسم ابن قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى فى يوم الأحد حادى عشرين شوال، و هو فى عشر السبعين، و كان نشأ تحت كنف والده، غير أن اشتغاله كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۸۹

بالفقيرى، و ناب فى الحكم سنين، و تولّى نظر الجوالى، و كان فيه كرم أفقره فى أواخر عمره، و احتاج منه إلى تحمل ديون و الحاجة للناس، فكان حاله كقول القائل:

كم من فتى أفقره جوده و عاش فى الناس عيش الذليل

فاشدد عرى مالك و استبقه فالبخل خير من سؤال البخيل

و توفّى الأمير سيف الدين أزبك بن عبد اللّه الشّشمانى المؤيّدى أحد أمراء الخمسات فى يوم السبت رابع عشرين ذى الحجة، و سنه نحو الثمانين، و كان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ قبل سلطنته، و طالت أيامه فى الجندية إلى أن تأمّر خمسة فى دولة الملك الأشرف إينال، و مات بعد سنين، و كان مكفوفا عن الناس إمّا لخيره أو لشره- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى خشكلدى الزينى عبد الرحمن بن الكويز أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، و كان أصله من مماليك صاحبنا الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، ثم صار من جملة دواداريّة السلطان، ثم سعى فى دوادارية السلطان بدمشق حتى وليها بمال بذله فى ذلك، فلم تطل مدته، فعزل و قدم القاهرة، و سعى ثانيا إلى أن أعطى إمرة بدمشق، فتوجه إليها و دام بها إلى أن مات، و كانت لديه فضيلة فى الفقه على قدر حاله- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة عشرون ذراعا و إصبع واحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۲]

السنة السادسة من سلطنة الملک الأشرف إينال العلائى على مصر و هى سنة اثنتين و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى القاضى شهاب الدين أحمد بن يوسف الشيرجى الشافعى أحد نوّاب الحكم بالدّيار المصرية فى يوم الجمعة رابع عشر المحرم، و دفن من يومه بعد صلاة الجمعة، و قد أناف عن الثمانين، و كان حضر دروس السّراج البلقينى، و له إلمام بعلم الفرائض، و ناب فى الحكم سنين، و أفتى و درّس، و كان غير محبب إلى أصحابه.

و توفّى الأمير سيف الدين أزبک بن عبد اللّه الأشرفى البواب، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، فى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم، و أصله من مماليک الأشرف برسباى، ثم امتحن بعد موت أستاذه و حبس، ثم أطلق، و قدم القاهرة و تأمّر فى أول دولة الأشرف إينال خمسة، شريكا لأزبک الشّشمانى المقدم ذكر وفاته فى السنة الخالية، فلما مات أزبک المذكور أنعم بنصيبه من الإقطاع على شريكه أزبک هذا لتتمّة إقطاعه إمرة عشرة، فعاش أزبک هذا بعد ذلک دون الشهر و مات، فكان حاله كالمثل السائر: «إلى أن يسعد المعثر فرغ عمره».

و توفّى القاضى علاء الدين على بن محمد بن آقبرس الشافعى أحد نواب الحكم، فى يوم الأحد خامس عشر صفر بطالا، و هو فى عشر السبعين، و كان مولده بالقاهرة، و بها نشأ، و تكسّب بعمل العنبر فى حانوت بالعنبريين مدة سنين، ثم اشتغل بالعلم، و ناب فى الحكم، و صحب الملک الظاهر جقمق قبل سلطنته، فلما تسلطن قرّبه، أو هو قرّب نفسه، و ولى نظر الأوقاف، ثم حسبة القاهرة، ثم نظر الأحباس، و تحرک له بعيض سعد،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۱

إلا أنه تبهدل غير مرّة من السلطان لسوء سيرته، فإنه لما ولى ما ولى ما عفّ و لا كفّ، بل مدّ يدا للأخذ، إلى أن ساءت القالة فيه، و انحط قدره لذلک كثيرا، فلما مات الملک الظاهر امتحن و صودر، و تخومل، و لزم داره إلى أن مات، و كان له نظم أحسنه فى الهجو، و مما هجا به عبد الرحمن ابن الدّيرى ناظر القدس [الطويل]

أقول لمن وافى إلى القدس زائرا وصلت إلى الأقصى من الفضل و الخير

تقرّب إلى مولاک فيه عبادة و بع بيع الرهبان و ابعد عن الدّيرى

و توفّى عبد الكريم شيخ مقام الشيخ أحمد البدوى بظاهر القاهرة فى صبيحة ثامن عشر صفر، وجد ميتا، و قد اختلفت الأقوال فى موته، فمنهم من قال: تردّى من سطح و هو ثمل، و منهم من قال: دسّ عليه شيخ العرب حسن بن بغداد من قتله، و هو الأشهر، و أنا أقول: قتله سرّ الشيخ أحمد البدوى لانهماكه على المعاصى و سوء سيرته، فأراح اللّه الشيخ أحمد البدوى منه و للّه الحمد- و تولى عوضه شيخ المقام صبىّ أقاربه دون البلوغ.

و توفّى الشيخ العارف بالله القدوة المسلک مدين الصوفى المالكى بزاويته بخط المقس بظاهر القاهرة، فى يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع الأول بزاويته، و كان له شهرة عظيمة، و للناس فيه اعتقاد و محبة، لم يتفق لى مجالسته، غير أننى رأيته غير مرّة- رحمه اللّه و نفعنا ببركته.

و توفّى الأمير جانم بن عبد اللّه الأشرفى البهلوان، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فى يوم الاثنين سادس شهر ربيع الآخر، و دفن من يومه، و هو فى الكهولية، و كان من مماليک الملک الأشرف برسباى و خاصكيته، و تأمر بعد أمور فى الدّولة الأشرفية إينال، و كان مليح الشكل مشهورا بالشجاعة و الإقدام- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه من تمراز الناصرى أمير مجلس بطّالا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۲

بعد مرض طويل، فى ليلة الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد، و كان من مماليک الناصر فرج، و تأمر فى أوّل الدولة الأشرفية برسباى عشرة، و صار من جملة رءوس النّوب، و كان يعرف بينى بازق، أى غليظ الرّقبة، و كان قليل الخير و الشرّ مكفوفا عن

الناس، ليس له كلمة فى الدّولة، و كان السلطان أنعم بإقطاعه قبل موته على الأمير برسباى البجاسى حاجب الحجاب- و وظيفته إمرة مجلس- على الأمير جرباش المحمدى المعروف بكرد الأمير آخور.

و توفّى القاضى شهاب الدين أحمد الدماصى الحنفى قاضى بولاق، و كان يعرف بقرقماس، فى يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه النّوروزى المعروف بالسلاحدار، نائب قلعة الجبل بها، فى ليلة الأحد سادس عشرين شهر ربيع الآخر، و دفن من الغد، و له نحو سبعين سنه، و كان من مماليك نوروز الحافظى نائب الشام، و صار بعد موته سلاحدارا فى الدولة الأشرفية برسباى، ثم تأمر عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، ثم جعله الملك الأشرف إينال نائب قلعة الجبل بعد موت قانى باى الناصرى الأعمش، فدام فى نيابة القلعة إلى أن مات، و كان لا بأس به، لو لا إسراف كان فيه على نفسه- عفا اللّه عنه.

و توفّى الأستاذ المادح المغنى ناصر الدين محمد المازونى الأصل، المصرى، أحد الأفراد فى إنشاد القصيد و عمل السماع، فى ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى، بعد أن ابتلى بمرض الفالج، و بطل نصفه و سكت حسه، و كان من عجائب الدنيا فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۳

فنونه، كان صوته صوتا كاملا أوازاوئما، مع شجاوة و نداوة و حلاوة، كان رأسا فى إنشاد القصيد على الضروب و الحدود، سافر غير مرة إلى الحجاز حاديا فى خدمة الأكابر، و كان له تسبيح هائل على المآذن؛ ففى هذه الثلاثة كان إليه المنتهى، و كان يشارك فى الموسيقى جيدا، و يعظ فى عقود الأنكحة، و ليس فيه بالماهر، و فى الجملة إنه لم يخلف بعد مثله، و فى شهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره.

و توفّى الشرفى موسى ابن الجمالى يوسف بن الصفى الكركى ناظر جيش طرابلس بها، فى ليلة الأحد ثامن شهر رجب، و خلف مالا كثيرا وعدة أولاد، و كان من مساوئ الدهر دميم الخلق مذموم الخلق.

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة شرف الدين يحيى [ابن صالح بن على بن محمد ابن عقيل] العجيسى المغربى الأصل و المولد و المنشأ، المصرى الدار و الوفاة، المالكى، فى يوم الأحد سابع عشرين شعبان، و مولده فى سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة، و كان إماما فى النحو و العربية و معرفة تاريخ الصحابة، و له مشاركة فى فنون كثيرة، مع حدة كانت فيه و سوء خلق- رحمه اللّه.

و توفّى الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر اللّه أبو البقاء حمزة ابن المتوكل على اللّه أبى عبد اللّه محمد العباسى المصرى بثغر الإسكندرية مخلوعا من الخلافة، فى سابع عشر شوال، و قد مرّ ذكر نسبه فى تراجم أسلافه فى عدة مواطن من مصنفاتنا، مثل «مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة و الخلافة» و غيره، و كان القائم بأمر اللّه هذا ولى الخلافة بعد موت أخيه المستكفى سليمان بغير عهد- اختاره الملك الظاهر جقمق- فدام فى الخلافة إلى أن خرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۴

الأتابك إينال العلائى صاحب الترجمة على الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق، فقام الخليفة هذا مع إينال على الملك المنصور عثمان أشد قيام، فلما تسلطن إينال عرف له ذلك، و رفع قدره و محله إلى الغاية، و نال فى أيامه من الحرمة و الوجاهة ما لا يقاربه أحد الخلفاء من أسلافه، فاتفق بعد ذلك ركوب جماعة من صغار المماليك الظاهرية على الأشرف إينال، و طلبوه فحضر عندهم، و وافاهم أفضل موافاة، فلم ينتج أمرهم، و سكنت الفتنة فى الحال، و قد ذكرناها فى أصل هذه الترجمة مفصلة، فلما سكن الأمر طلبه السلطان إلى القلعة، و وبخه على فعله و حبسه بالبحرة بقلعة الجبل، و خلعه من الخلافة بأخيه المستنجد يوسف، ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية فحبس به مدة ثم أطلق من السجن، و رسم له بأن يسكن حيث شاء من الثغر، فسكن به إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّی الحاج خلیل المدعو قانی بای الیوسفی المهمندار محتسب القاهرة بها، فی عشرین شوال، و هو مناهز السبعین، و کان أصله من ممالیک قرایوسف بن قرامحمد، صاحب بغداد علی ما زعم، ثم قدم القاهرة فی دولة الأشرف برسبای، و سأله الأشرف عن أصله و جنسه فقال: أنا من ممالیک قرایوسف، جنسی چارکسی، و اسمی الأصلی قانی بای، فمشی ما قاله علی الأشرف؛ لضعف نقده، و عدم معرفته، و سماه قانی بای الیوسفی، و جعله خاصکیا؛ ثم امتحن بعد موت الأشرف برسبای، و حبس إلی أن عاد إلی رتبته فی الدولة الأشرفیة إینال، و جعله مهمندارا، ثم محتسبا إلی أن مات.

و توفّی یار علی بن نصر اللّه العجمی الخراسانی الطویل، محتسب القاهرة بطالا، بعد مرض طویل، فی سادس عشرین ذی القعدة، و دفن من الغد، و سنه نیف علی الثمانین، و کان هو یدّعی أکثر من ذلک، و لیس بصحیح، و کان أصله فقیرا مکدیا علی عادة فقراء العجم، و خدم الأمیر سودون من عبد الرحمن نائب الشام لما کان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۵

هاربا من الملک المؤیّد شیخ بالعراق، فلما عاد سودون إلی رتبته بالدیار المصریة، و صار دوادارا کبیرا فی دولة الأشرف برسبای، قدم علیه یار علیه هذا ماشیا علی قدمیه من بلاد العجم، فأحسن إلیه سودون، و لما عمّر مدرسته بخانقاه سریاقوس جعله شیخا، و دام علی ذلک و قد حسنت حاله، و رکب فرسا بحسب الحال، إلی أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، فتحرک سعده لا لأمر أوجب ذلک بل هی حظوظ و أرزاق، تصل لکل أحد.

و لا زال جقمق یرقّیه حتی ولّاه حسبة القاهرة غیر مرّة، ثم نکبه و صادره، و أمر بنفیه؛ لسوء سیرته، و لقبیح سریرته، فإنه لما ولی حسبة القاهرة سار فیها أقبح سیرة، و فتح له أبواب الظلم و الأخذ، فما عفّ و لا کفّ، و جدّد فی الحسبة مظالم تذکر به، و إثمها و إثم من یعلم بها علیه إلی یوم القیامة، و صار یأخذ من هذه المظالم و یخدم الملوک بها، فانظر إلی حال هذا المسکین الذی ظلم نفسه، و ظلم الناس لغیره، فلا قوّة إلا بالله، اللهم اغننا بحلالک عن حرامک، و بفضلک عن سواک.

و توفّی الشیخ المعتقد المجذوب إبراهیم الزیات بحیث هو إقامته بقنطرة قدیدار، و دفن من یومه، و هو الیوم الذی مات فیه الشیخ علی المحتسب المقدّم ذکره، و کان للناس فیه اعتقاد، و یقصد للزیارة، و کانت جذبته مطبقة، لا یصحو، و یکثر من أکل الموز- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر الکبیر سیف الدین تنبک [بن عبد اللّه] البردبکی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۶

[الظاهری] أتابک العساکر بالدیار المصریة، فی یوم الاثنین رابع عشرین ذی القعدة، و دفن من الغد، و قد ناهز التسعین من العمر، لأنه کان من ممالیک الظاهر برقوق، و تزوج فی أیامه، و کان من إنیات الوالد، و ترقّی فی أوائل دولة الأشرف برسبای إلی أن صار أمیر عشرة- أو فی أیام دولة الملک المظفر أحمد- و من جملة رءوس النوب، ثم صار فی سنة سبع و عشرین نائب قلعة الجبل بعد تغری برمش البهسنی الترکمانی، بحکم انتقاله إلی إمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، و أنعم علی تنبک بإمرة طبلخاناه عوضا عن تغری برمش المذکور أیضا، فدام علی ذلک مدة طویلة إلی أن نقل إلی إمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة فی أواخر الدولة الأشرفیة.

ثم ولی نیابة قلعة الجبل ثانیا فی أوائل دولة الملک الظاهر جقمق، و هو أمیر مائة و مقدم ألف، ثم صار أمیر حاج المحمل، ثم ولی حجوبیة الحجاب بالدیار المصریة، و دام علی ذلک سنین کثیرة، و حجّ أمیر حاج المحمل غیر مرّة، إلی أن أمسکه السلطان الظاهر و نفاه إلی ثغر دمیاط، و أنعم بإقطاعه و حجوبیته علی الأمیر خشقدم الناصری المؤیّدی، أحد أمراء الألوف بدمشق، فأقام بدمیاط مدّة.

ثم طلبه الملک الظاهر إلی الدیار المصریة، و رسم له بالمشی فی الخدمة السلطانیة، فمشی فی الخدمة أیاما کثیرة من غیر إقطاع، إلی أن مات الشهابی أحمد بن علی بن إینال أحد مقدمی الألوف بالدیار المصریة، فأنعم بإقطاعه علی تنبک هذا، ثم صار أمیر مجلس فی

دولة الملك المنصور عثمان بعد انتقال تنم المؤيدى إلى إمرة سلاح، بعد جرباش الكريمى بحكم لزومه بيته لكبر سنه و ضعف بدنه، فلم تطل أيامه.

و استقرّ أمير سلاح فى ثانى يوم من سلطنة الملك الأشرف إينال، عوضا عن تنم المذكور، بحكم القبض عليه و حبسه بسجن الإسكندرية، فلم يتمّ له ذلك غير يوم واحد و أصبح استقر أتابك العساكر لما كثرت القالة فى تولية الشهابى أحمد ابن الملك الأشرف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۷

إينال أتابك العساكر عوضا عن أبيه، فعزله و جعله من جملة أمراء الألوف و استقر تنبك هذا عوضه؛ فدام فى الأتابكية مدة طويلة إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و تولّى المقام الشهابى أحمد عنه الأتابكية ثانيا.

و كان أمر تنبك هذا فى ولايته الأتابكية غريبة، و هو أن الذى أخذ عنه ولّى عنه، و لعل هذا لم يقع لأحد أبدا، و كان تنبك المذكور رجلا ديّنا خيرا، هيّنا ليّنا، سليم الفطرة، شحيحا، لا يتجمل فى بركه و لا حواشيه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى عظيم الدّولة الصاحب جمال الدين أبو المحاسن يوسف- مدبر المملكة، و صاحب وظيفتى نظر الجيش و الخاص معا- ابن الرئيس كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص ابن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، فى ليلة الخميس- وقت التسبيح- الثامن عشر من ذى الحجة، و دفن من الغد بالصحراء فى تربته التى أنشأها، و كانت جنازته مشهودة إلى الغاية، و حضر المقام الشهابى أحمد أتابك العساكر الصلاة عليه بمصلاة باب النصر، و حضر دفنه أيضا، و مات و سنه زيادة على أربعين سنة؛ لأن مولده فى سنة تسع عشرة و ثمانمائة، هكذا كتب لى بخطه- رحمه اللّه.

و مات و لم يخلف بعده مثله رئاسة و سؤددا بلا مدافعة، و هو آخر من أدركنا من رؤساء الديار المصرية؛ لأنه كان فردا فى معناه، لعظم ما ناله من السعادة و الوجاهة و وفور الحرمة، و نفوذ الكلمة و العظمة الزائدة، و كثرة ترداد الناس إليه، و أعيان الدولة و أكابرها إلى بابه، بل الوقوف فى خدمته، و هذا شىء لم ينله غيره فى الدولة التركية، مع علمى بمنزلة كريم الدين الكبير عند الناصر محمد بن قلاوون، و بما ناله سعد الدين إبراهيم بن غراب فى الدولة الناصرية فرج، ثم بعظمة جمال الدين يوسف البيرى الأستادار فى دولة الناصر فرج أيضا، ثم بخصوصية عبد الباسط بن خليل الدمشقى فى دولة الأشرف برسباى، و مع هذا كله ليس فيهم أحد وصل إلى ما وصل إليه جمال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۸

الدين هذا، و قد برهنّا عما قلناه فى تاريخنا «حوادث الدهور»، و أيضا فى تاريخنا «المنهل الصافى»، فلينظر هناك، و ليس هذا الموطن محل إطناب- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و ثمانية أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۱۹۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۳]

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف على مصر و هى سنة ثلاث و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير يشبك بن عبد اللّه النّوروزى نائب طرابلس- كان- بطالا- بالقدس، فى يوم الاثنين تاسع المحرم، و هو فى عشر السبعين تخمينا، و هو من عتقاء الأمير نوروز الحافظى.

و تنقّل بعد موت أستاذه فى خدم الأمراء، و قاسى خطوب الدهر ألوانا، إلى أن صار فى أواخر دولة الأشرف برسباى من صغار أمراء دمشق، ثم تنقل فى دولة الملك الظاهر جقمق إلى أن صار حاجب حجاب طرابلس بالبذل، ثم نقل إلى حجوبية دمشق، ثم إلى نيابة

طرابلس بعد عزل یشبک الصوفی عنها؛ کل ذلک ببذل المال، فدام علی نیابة طرابلس إلی أن أمسکه الملک الأشرف إینال فی حدود سنة ستین، و حبسه بقلعة المرقب إلی أن أطلقه فی سنة اثنتین و ستین و ثمانمائة، و رسم له بالتوجه إلی القدس بطالا، فاستمر بالقدس إلی أن مات فی التاریخ المقدم ذکره.

و کان وضیعا فی الدول، لم تسبق له رئاسة بالدولة المصریة، حتی إنه لم یخدم فی باب سلطان أبدا، بل کان یخدم بأبواب الأمراء، إلی کان من أمره ما کان، و کان مع ذلک عنده طیش و خفة و تکبر، و لم أدر لأی معنی من المعانی- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الشیخ الإمام العالم العامل المحقق الفقیه الصوفی شمس الدین أبو عبد اللّه محمد ابن عبد اللّه بن خلیل البلاطنسی الشافعی؛ نزیل دمشق بها فی لیلة سابع عشرین صفر، و دفن فی صبیحة یوم الأربعاء، و کانت جنازته مشهودة، و کثر أسف الناس علیه، و مولده ببلاطنس من أعمال طرابلس، بعد سنة تسعین و سبعمائة، و نشأ بها، و قرأ العربیة و اشتغل، ثم قدم طرابلس، و لازم الشیخ محمد بن زهرة و به تفقّه، و أخذ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۰

الأصول عن الشیخ سراج الدین، و قرأ الحدیث أیضا بطرابلس علی ابن البدر، ثم رحل إلی دمشق قبل سنة عشرین، و اشتغل بها علی العلماء، ثم عاد إلی طرابلس.

ثم قدم إلی دمشق ثانیا بأهله و استوطنها و لازم علّامة زمانه و وحید دهره الشیخ علاء الدین محمد البخاری الحنفی، و أخذ عنه فنونا کثیرة، إلی أن برع فی الفقه و التصوف، و جلس للإفادة و التدریس و الأشغال إلی أن مات، و کان قوّالا- بالحق، قائما فی أمر الملهوفین، لا تأخذه فی اللّه لومة لائم، و قد استوعبنا من أحواله نبذة کبیرة فی تاریخنا «الحوادث» و غیره- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین یشبک بن عبد اللّه من جانبک المؤیدی الصوفی أتابک دمشق بها، فی یوم الثلاثاء سابع عشرین صفر و هو الیوم الذی مات فیه البلاطنسی المقدم ذکره، و قد ناهز الستین من العمر، کان من صغار ممالیک الملک المؤیّد شیخ، و صار خاصکیا بعد موت أستاذه، و امتحن فی دولة الملک الأشرف برسبای بالضرب و العصر و النفی؛ بسبب الأتابک جانبک الصوفی.

ثم عاد بعد سنین إلی رتبته، و صار خاصکیا علی عادته إلی أن تأمّر عشرة فی دولة الملک الظاهر جقمق، و صار من جملة رءوس النوب، و سافر إلی مکة مقدّم الممالیک السلطانیة بمکة، ثم عاد إلی القاهرة، و دام بها مدّة، ثم نفی إلی حلب بعد سنة خمسین و ثمانمائة، ثم نقله الملک الظاهر جقمق إلی إمرة مائة و تقدمة ألف بحلب، ثم نقله بعد ذلک إلی نیابة حماة ببذل المال، ثم إلی نیابة طرابلس کذلک، بعد انتقال الأمیر برسبای الناصری إلی نیابة حلب فی سنة اثنتین و خمسین، فدام علی نیابة طرابلس إلی سنة أربع و خمسین، فطلب إلی القاهرة، فلما حضر أمسکه السلطان الملک الظاهر، و أرسله إلی دمیاط بطالا، ثم نقل بعد مدّة من دمیاط إلی سجن الإسکندریة؛ لأمر بلغ السلطان عنه، فلم تظل مدّته بسجن الإسکندریة و أطلق و أرسل إلی دمیاط ثانیا، ثم نقل إلی القدس، ثم طلب إلی الدیار المصریة، فأنعم علیه بأتابکیة العساکر بدمشق، بعد القبض علی الأتابک خیربک المؤیدی الأجرود.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۱

فدام یشبک هذا علی أتابکیة دمشق إلی أن حجّ أمیر حاج المحمل الشامی فی سنة اثنتین و ستین، و عاد إلی دمشق، و مات بعد أیّام، و کان رجلا- طوالا- حسن الشکل، حلو اللسان، بعید الإحسان، عادلا فی الظاهر، ظالما فی الباطن، متواضعا لمن کانت حاجته إلیه، مترفّعا علی من احتاج إلیه، کثیر الخدع و التّملّق لأصحاب الشّوکة، بألف وجه و ألف لسان، مع کثرة أیمان اللّه و الطلاق، و شحّ و بخل.

و توفّی الشیخ بهاء الدین أحمد بن علی التّتائی الأنصاری الشافعی نزیل مکّة بها فی لیلة الثلاثاء سابع عشرین صفر، و حضرت أنا الصلاة علیه بالحرم بعد صلاة الصّبح، و دفن بالمعلاة، و هو أخو القاضی شرف الدین موسی الأنصاری الأکبر.

کان مولده بتتا- قریة بالمنوفیة بالوجه البحری من أعمال القاهرة- فی سنة ثمان و ثمانمائة، و کان فیه محاسن و مکارم أخلاق، و خط

منسوب، و فضیلة- رحمه اللّه تعالی. قلت: و کانت وفاة بهاء الدین هذا و یشبک الصوفی و البلاطنسی المقدّم ذکرهما فی لیلة واحدة، و هذا من النوادر- رحمهم اللّه.

و تتا بتاء مثناة مکسورة و تاء مثناة أیضا مفتوحة، و بعدهما ألف ممدودة.

و توفّی الأمیر سیف الدین قانی بای بن عبد اللّه الحمزاوی نائب دمشق بها فی یوم الأربعاء ثالث شهر ربیع الآخر، و قد قارب الثمانین، و دفن من الغد فی یوم الخمیس، و کان أصله من ممالیک سودون الحمزاوی الظاهری الدّوادار، ثم خدم بعد موته عند الوالد هو و جماعة کثیرة من خچداشیته مدّة طویلة، ثم صار فی خدمة الملک المؤیّد شیخ المحمودی قبل سلطنته، فلما تسلطن أمّره عشرة، ثم صار أمیر طبلخاناه، ثم صار أمیر مائة و مقدّم ألف بعد موت الملک المؤیّد شیخ، و تولّی نیابة الغیبة بالدّیار المصریّة للملک المظفر أحمد بن شیخ لما سافر مع الأتابک ططر إلی دمشق، ثم قبض علیه الملک الظاهر ططر لمّا عاد من دمشق و حبسه مدّة، إلی أن أطلقه الملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۲

برسبای، و جعله أتابک دمشق، ثم طلبه بعد سنین إلی الدّیار المصریّة، و جعله بها أمیر مائة و مقدّم ألف.

و استقرّ الأمیر تغری بردی المحمودی بعده أتابک دمشق، فدام قانی بای بالقاهرة إلی أن ولّاه الأشرف نیابة حماة بعد انتقال الأمیر جلبّان إلی نیابة طرابلس، بعد موت الأتابک طربای فی سنة سبع و ثلاثین، ثم نقل بعد مدّة إلی نیابة طرابلس بعد الأمیر جلبّان أیضا، بحکم انتقاله إلی نیابة حلب بعد عصیان تغری برمش [الترکمانی البهسنی] و خروجه عن الطاعة فی سنة اثنتین و أربعین و ثمانمائة، فلم تطل مدته بها.

و نقل إلی نیابة حلب بعد انتقال جلبّان أیضا إلی نیابة دمشق بعد موت الأتابک آقبغا التّمرازی فی سنة ثلاث و أربعین و ثمانمائة، فدام فی نیابة حلب إلی سنة ثمان و أربعین و ثمانمائة، فطلبه الملک الظاهر جقمق إلی الدیار المصریة، و عزله عن نیابة حلب بالأمیر قانی بای البهلوان الناصری، و أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، عوضا عن الأمیر شادبک الجکمی المتولی نیابة حماة بعد انتقال قانی بای البهلوان المقدّم ذکره إلی نیابة حلب.

فاستمرّ قانی بای الحمزاوی من أمراء الدّیار المصریّة إلی أن أعاده الملک الظاهر جقمق ثانیا إلی نیابة حلب، بعد عزل الأمیر تنم من عبد الرزّاق المؤیّدی و قدومه إلی مصر علی إقطاع قانی بای هذا، فدام فی نیابته هذه علی حلب إلی أن نقله الملک الأشرف إینال إلی نیابة دمشق بعد موت الأمیر جلبّان فی سنة ستین و ثمانمائة.

فاستمرّ علی نیابة دمشق إلی أن مات بها، و هو عاص علی السلطنة فی الباطن، مقیم علی الطاعة فی الظاهر.

و قد وقع فی أمر قانی بای هذا غرائب منها: أنه من یوم خرج من مصر إلی ولایة حلب ثانیا فی دولة الملک الظاهر جقمق عصی علی السّلطان فی الباطن، و عزم علی أنّه لا یعود إلی مصر أبدا، فلما مات الظاهر و تسلطن ابنه المنصور عثمان، ثم الأشرف

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۳

إینال قوی أمر قانی بای هذا بحلب، و فشا أمره عند کل أحد، فلم یکشف الأشرف إینال ستر التغافل بینه و بین قانی بای المذکور، بل صار کل منهما یتجاهل علی الآخر، فذاک یظهر الطاعة و امتثال المراسیم من غیر أن یطأ بساط السلطان، أو یحضر إلی القاهرة، و هذا یرضی منه بذلک، و یقول: هذا داخل فی طاعتی، و لا یرسل خلفه أبدا، بل یغالطه، حتی لو أراد قانی بای الحضور إلی القاهرة مامکنه إینال؛ لمعرفته منه أن ذلک امتحان، و صار کل منهما یترقب موت الآخر إلی أن مات قانی بای قبل، و ولّی الأشرف إینال عوضه فی نیابة دمشق الأمیر جانم الأشرفی.

و من الغرائب التی وقعت له أیضا أن قانی بای هذا لم یل ولایة بلد مثل حماة و طرابلس حلب و الشام إلا بعد الأمیر جلبّان، مع طول مدّة جلبّان فی نیاباته الشّامیّة أزید من ثلاثین سنة، فهذا من النوادر الغریبة، کون أن قانی بای یعزل عن نیابة حلب و یصیر أمیرا بمصر

مـدّة سـنين و بلى حلب بعـده غير واحـد، ثم يعود إلى نيابـة حلب، و يقيم بها إلى أن ينتقل منها إلى نيابـة الشام بعد موت جلبّان، كما انتقل قبل ذلک بعده فى كل بلد، فهذا هو الاتفاق العجيب.

و توفّى الأمير شـرف الدين عيسى بن عمر الهوارى أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد فى ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر، بعد عوده من الحـج، و ولى بعـده ابنه، ثم عزل بعـد أمور، و كان عيسـى هـذا مليح الشـكل، ديّنا خيرا بالنسـبة إلى أبناء جنسه، و له مشاركة بحسـب الحال، و يتفقه على مذهب الإمام مالک- رضى اللّه عنه.

و توفّى الشيـخ الإمام الفقيه العالم أبو عبد اللّه محمد بن سليمان بن داود الجزولى المغربى المالكى نزيل مكة، بها فى يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الآخر، و حضرت الصلاة عليه بحرم مكة، و دفن بالمعلاة، و كان مولده فى سنة سبع و ثمانمائة بجزولة من بلاد

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۴

المغرب، و كان فقيها عالما بفروع مذهبه، عارفا بالنحو، مشاركا فى التفسير و الحديث، و سمع ببلاده أشياء كثيرة، و حدّث ببعضها فى مكة، و درّس و أفتى، و انتفع أهل مكة بدروسه، و كان كريم النفس بخلاف المغاربة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضـى محبّ الدين أبو البركات محمد بن عبد الرحيم الهيتمى الشافعى، أحد نوّاب الحكم الشافعية بالديار المصرية، فى يوم الثلاثـاء ثـامن جمـادى الأولى، و حضـرت الصـلاة عليه بحرم مكـة، و دفن بالمعلاـة، و قـد زاد عمره على الستين، و كان فقيها نحويا، مشاركـا فى فنون كثيرة، كـان يحفـظ التوضيـح لاـبن هشام فى النحو، و كان مسـتقيم الـذهن، جيـد الـذكاء، ناب فى الحكم [بالـديار المصرية] أزيد من ثلاثين سنة، و درّس و خطب، و جاور بمكة غير مرّة إلى أن مات فى مجاورته هذه الأخيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضـى ناصـر الـدين محمـد بن النبراوى الحنفى أحـد نواب الحكم بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء تاسع عشـرين جمادى الأولى، و كان عاريا من العلم، عارفا بصناعة القضاء.

و توفّى القاضـى محبّ الدين محمد ابن الإمام شـرف الدين عثمان بن سليمان بن رسول ابن أمير يوسف بن خليل بن نوح الكرادى - بفتح الراء المهملة- القرمشـى الأصل، الحنفى، المعروف بابن الأشقر، شيخ شيوخ خانقاه سرياقوس، ثم ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصـرية، ثم كاتب السّـر بها، فى يوم الثلاثاء ثانى عشـر شـهر رجب بالقاهرة بطّالا، و دفن من الغـد بتربته بالصـحراء خارج القاهرة، و كانت وفاته بعد عزله من كتابة السّر بشهرين، و بعد وفاة ولده إبراهيم بدون الشهر.

و كان مولده بالقاهرة قبل سنة ثمانين، و نشأ بها و اشتغل فى مبدأ أمره قليلا، ثم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۵

ولى مشـيخة خانقاه سـرياقوس فى سـنة أربع عشـرة و ثمانمائـة، ثم بعـد سـنين كثيرة ولى كتابة السّـرّ بمصـر فى دولة الملك الأشـرف برسـباى، عوضـا عن القاضـى كمـال الـدين بن البـارزى، بحكم عزله فى رجب سـنة تسع و ثلاثين، و باشـر الوظيفـة إلى أن عزل عنها بالقاضـى صـلاح الـدين بن نصـر اللّه فى ذى الحجة من سـنة أربعين، فلزم داره بطالا، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جقمق ناظر الجيوش المنصورة عوضـا عن الزينى عبـد الباسـط بحكم القبض عليه و مصادرته فى سـنة اثنتين و أربعين، ثم عزل عن وظيفـة نظر الجيش غير مرّة، ثم ولى كتابـة السـر ثانيـا بعـد وفـاة القاضـى كمال الـدين بن البارزى فى سـنة ست و خمسـين، فباشـر الوظيفـة إلى أن عزل عنها بالقاضـى محب الـدين بن الشّـحنة، ثم أعيد إليها بعد أشـهر، و دام بها مدّة طويلة إلى أن عزل عنها ثانيا بابن الشّحنة فى سـنة ثلاث و ستين و ثمانمائـة، و مات بعـد ذلك بشـهرين حسب ما تقـدم ذكره، و كان معـدودا من رؤساء الديار المصـرية، و كان عنده حشـمة و أدب و تواضع و محاضرة حسنة، إلا أنه كان رأسا فى البخل- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضـى محب الـدين محمـد ابن القاضـى ناصـر الـدين محمد الفاقوسـى أحد أعيان موقعى الدّست بالديار المصـرية، فى ليلة الاثنين خامس عشرين شهر رجب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين خيربك بن عبد اللّه المؤيّدى الأشقر الأمير آخور الثانى، فى يوم السبت مستهل شعبان [و قد جاوز السبعين]

و کان من ممالیک المؤیّد شیخ، صار خاصّکیا فی دولة الملک الظاهر جقمق، و من جملة الدّوادارية الصّغار، إلی أن أنعم علیه بإمرة عشرة، بعد مسک جانبک المحمودی المؤیّدی، و جعله جقمق من جملة رءوس النوب، و حجّ أمیر الرکب الأول، ثم نقل إلی الأمیر آخوریّة الثانیة فی أوائل دولة الملک الأشرف إینال، عوضا عن سنقر العائق الظاهری، فباشر الوظیفة بغیر حرمة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٠۶

و صار فیها کل شیء إلی أن مات، و تولیّ الأمیر یلبای الإینالی المؤیّدی الأمیر آخوریة الثانیة من بعده.

و کان خیربک هذا کثیر الفتن بین الطوائف، و لیس عنده همّة لإثارة الحرب إلا بالکلام.

و توفّی الإمام شهاب الدین أحمد الإخمیمی أحد أئمة السلطان فی یوم السبت تاسع عشرین شعبان - رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر زین الدین قاسم بن جمعة القساسی الحلبی نائب قلعة حلب بها فی شهر رمضان، و کان ولی قبل ذلک حجوبیة حلب و غیرها، الجمیع بالبذل.

و توفّی القاضی معین الدین عبد اللطیف بن أبی بکر [بن سلیمان سبط] ابن العجمی نائب کاتب السر بالدیار المصریة، یوم الجمعة رابع شوال و عمره نیف عن خمسین سنة، و کان ولی فی الدولة الأشرفیة کتابة سر حلب، ثم ولی نیابة کتابة السرّ بمصر بعد وفاة أبیه القاضی شرف الدین إلی أن مات، و کان هو القائم بأعباء دیوان الإنشاء.

لمعرفته بصناعة الإنشاء، و لما فیه من الفضیلة- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه من سیدی بک الناصری القرمانی أتابک حلب بطریق الحج فی شوال، و کان من ممالیک الناصر فرج، و انحط قدره، و خدم فی أبواب الأمراء إلی أن صار خاصکیا فی دولة الملک الظاهر ططر، ثم صار ساقیا فی دولة الملک الظاهر جقمق، ثم تأمّر عشرة، ثم نقل إلی تقدمه ألف بحلب، ثم صار أتابکا فی دولة الأشرف إینال، ثم نقل إلی أتابکیة طرابلس، ثم أعید بعد مدة إلی أتابکیة حلب إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٠٧

أن مات، و کان مهملا مسرفا علی نفسه، و عنده فشار کبیر و مجازفات فی کلامه- رحمه اللّه.

و توفّی الشیخ الإمام الفقیه الواعظ الصوفی شمس الدین محمد الحموی الأصل الحلبی الشافعی المعروف بابن الشماع، فی ذی القعدة بالمدینة الشریفة قاصدا الحج، و دفن بالمدینة یوم دخول الحاج الشامی إلیها، و کان حلو اللسان، ملیح الشکل، طلق العبارة و المحاضرة، و لکلامه طلاوة و رونق و موقع فی النفوس- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین قانی بای المؤیدی المعروف بقراسقل أحد أمراء العشرات بمدینة طرابلس فی توجهه من الدیار المصریة فی البحر إلی الجون صحبة الأمراء المصریین و قد ناهز الستین من العمر أوجاوزها بیسیر، و کان من ممالیک الملک المؤید شیخ، ممن صار خاصکیا فی دولة الظاهر جقمق و ساقیا، ثم تأمّر عشرة إلی أن مات، و کان ساکنا مهملا مع إسراف علی نفسه- عفا اللّه عنا و عنه.

و توفّی الأمیر سیف الدین بایزید بن عبد اللّه التمربغاوی أحد مقدمی الألوف بالدیار المصریة، فی یوم الثلاثاء ثامن عشر ذی القعدة، و دفن من یومه، و قد ناهز السبعین، و کان من ممالیک الأمیر تمربغا المشطوب الظاهری [برقوق] و خدم بعده عند جماعة من الأمراء [و تشتت فی البلاد] إلی أن اتصل بخدمة الملک الظاهر ططر قبل سلطنته، فلما تسلطن جعله خاصکیا، ثم ساقیا فی أوائل دولة الأشرف برسبای، و دام علی ذلک دهرا طویلا، إلی أن أمّره الأشرف [عشرة] فی أواخر دولته، فدام علی تلک العشرة أیضا دهرا طویلا إلی أن أنعم علیه الملک الأشرف إینال بإمرة طبلخاناه، ثم نقله إلی تقدمة ألف فی حدود سنة ستین؛ للین جانبة لا لمحله الرفیع، و لا لعظم شوکته، فدام علی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٠٨

ذلک سـتيّات و مـات، و كان رجلا ساكنا عاقلا، لم يشـهر فى عمره بشـجاعة و لا كرم، و كان إذا توجّه فى مهم إلى السـلطان مع من سـافر من الأمراء و وقع الحرب يـدعونه فى الوطاق ليحرس الخيم، و كـذلک جعله الأشـرف إينال فى يوم الواقعـة مع الملک المنصور عثمان يجلس على الباب- رحمه اللّه تعالى.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم لم يحرر لغيابى بمكة المشرفة، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۰۹

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۴]

السنة الثامنة من سلطنة الملک الأشرف إينال على مصر و هى سنة أربع و ستين و ثمانمائة.

فيها توفى الشيخ الإمام المحقق الفقيه العلامـة جمال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعى المصـرى بالقاهرة فى يوم الأحد مسـتهل المحرم، و سـنه نحو السـبعين تخمينا، و كان إماما علامـة متبحرا فى العلوم، كان بارعا فى الفقه و الأصـلين و العربية و علمى المعانى و البيان، و أفتى و درس عدة سنين، و انتفعت الطلبة به، و له عدّة مصنفات، و لم يكمل بعضها، و رشح لقضاء الديار المصرية غير مرة، و كان فى طباعه حـدّة، مع عـدم التكلف فى ملبسه و مركبه إلى الغاية، بحيث إنه كان إذا رآه من لا يعرفه يظنه من جملة العوام- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأـمير سـيف الـدين قيز طوغـان العلائـى الأسـتادار، ثم نـائب ملطيـة، ثم أتابـک حلب، ثم أحـد أمراء دمشق- بطالا- بدمشـق بالطاعون و قد شاخ، فى العشـر الأوسط من محرم، و كان من عتقاء الأمير علّان شلق الظاهرى، و خدم بعده عند الملوک إلى أن اتصل بخدمـة السـلطان، و صار فى دولة المؤيد شـيخ رأس نوبة الجمدارية دهرا طويلا، إلى أن تأمر عشـرة فى دولة الملک الظاهر جقمق، و صار أمير آخور ثالثا، ثم ولى الأسـتادارية بعد عزل الناصـرى محمد بن أبى الفرج، فباشر أشهرا، ثم عزل و أخرج إلى البلاد الشامية، و تنقـل فيهـا إلى مـا أشـرنا إليه، ثم حـجّ [و سافر أمير] حاج المحمل الشامى، فوقع منه بالمدينـة الشـريفة ما أوغر خاطر السـلطان عليه، و أمسک بعد عوده و حبس مدة بقلعة دمشق أو غيرها، ثم أطلق و دام بطالا إلى أن مات.

و كان أميرا جليلا عارفا شجاعا مقداما، و فيه حشمة و أدب و مكارم - رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۰

و توفّى الشـيخ المقرئ إمام جامع الأزهر فى يوم الأحد خامس عشر المحرم، و كان دينا خيرا من بيت قراءة و فضل و دين- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى زين الدين أبو الخير محمد ابن المعلّم شمس الدين محمد ابن المعلم أحمد، المعروف بالنحّاس، شهرة و صناعة و مكسبا، فى يوم الجمعـة العشـرين من المحرّم، و دفن من يومه بالصـحراء، و قـد تقـدّم من ذكره فى أصل هذا الكتاب ما يغنى عن التعريف به فى هـذا المحـل ثانيـا، و سـقنا أمره محرّرا من ابتـداء أمره إلى آخره بـاليوم و الشـهر فى تاريخنـا «المنهـل الصـافى»، ثم فى مصـنفنا أيضـا «حوادث الـدهور»، و ذكرنـا كيفيته، و كيف كـان تقرّبه إلى الملک الظاهر جقمق، و عرّفنا بحاله و تكسّـبه فى دكان النحاسـين، ثم ما وقع له مع أبى العباس الوفائى، ثم ترقّيه و تولّيه الوظائف السـنّية شـيئا بعد شـىء، ثم انحطاط قدره، و نكبته و مصادرته، و ضربه و نفيه بعد حبسه بحبس الرّحبة مدّة طويلة، و الإخراق به من العوامّ و المماليک السلطانية، ثم خروجه من الديار المصرية على أقبح وجه، بعد أن ادّعى عليه عند القاضـى المالكى بالكفر، و أشـيع ضرب رقبته، و وضع الجنزير فى رقبته، ثم ما وقع له من الإخراق بمدينة طرسوس فى مدّة طويلة، ثم حضوره إلى الدّيار المصـرية بغير إذن الملک الظاهر جقمق خفية، ثم طلوعه إلى السلطان، و ضرب السلطان له ثانيا بالحوش فى الملأ العام ذلک الضـرب المبرّح، ثم إخراجه ثانيا من القاهرة على أقبح وجه [منفيا] إلى طرابلس، ثم إقامته بطرابلس إلى أن مات الصاحب جمال الـدين يوسف بن كاتب جكم، ثم طلبه الحضور إلى الدّيار المصـريّة غير مرّة إلى أن حضـر، و ظن المخمول

أن الـذى مضـى سيعود، و قـدّم عـدة كبيرة من الخيول، و ولّى الـذخيرة و وظائف أخرى، فلم يتحرك له سعد و لانتج أمره، بل صار كلما قام أقعده الدهر، و كلما أراد القوة ضعف، و زاد به القهر إلى أن مرض و اشتد مرضه، و ترادفت رسل السلطان إليه بطلب المال، فعظم ما به من المرض من الخالق و من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢١١

المخلوق، إلى أن مات و استراح و أراح بعد أن قاسى أهوالا فى مرضه، و حمل على قفص حمال على رأس رجل للمحاسبة لما ثقل فى الضعف، و قد حثّه الطلب، كل ذلک تأديبا من اللّه عز و جل. لتعلم أن اللّه على كل شىء قدير.

و كانت صـفته رجلا طوالا، أسـمر جسيما عامّيا، كانت صـفته مشبهة لصناعته و أهلها فى الكثافة، إلا أنه كان يكتب المنسوب بحسب الحـال، ليس فيه بالمـاهر، و يحفظ القرآن على طريق قراء الأجواق من مواظبته لليالى جمع الإمام الليث، لا يحفظه على طريق القراء، و بالجملة فإن ابتداء ترقّية كان عجيبا، و انحطاطه كان أعجب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين علّان بن عبد اللّه المؤيّدى أتابک دمشق المعروف بعلّان جلّق بدمشق، فى يوم الأربعاء تاسع صفر و قد زاد سنه على السّبعين تخمينا، و كان أصله من مماليک الملک المؤيّد شيخ، و صار فى أيّامه من جملة الأمير آخورية الأجناد، ثم صار بعد موت أسـتاذه من جملة أمراء دمشق، ثم بعد مدّة نقل إلى نيابة ألبيرة، ثم إلى حجوبيّة حلب الكبرى، ثم عزل من حلب بسبب شـكوى نائبها قـانى باى الحمزاوى عليه، و توجّه إلى طرابلس بطالا، ثم أنعم عليه بإمرة مائـة و تقدمـة ألف بـدمشق بعـد انتقال الأمير خشـقدم الناصـرى المؤيدى عنها إلى حجوبيّة الحجاب بالدّيار المصريّة، ثم نقل إلى أتابكيّة دمشق بعد موت يشبک الصّوفى المؤيّدى فى سنة ثلاث و ستين، فلم تطل مدّته و مات، و كان مشهورا بالشجاعة و الإقدام- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوغان من سقلسيز التركمانى أمير التركمان، فى شهر ربيع الأول، و استقرّ ولده فى إمرة التّركمان من بعده.

و توفّى القاضى سعد الدين إبراهيم ابن فخر الدين عبد الغنى ابن علم الدين شاكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢١٢

ابن رشـيد الدين خطير الدّمياطى المصـرى القبطى المعروف بابن الجيعان ناظر الخزانة الشريفة، فى ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأول، و سـنه نيف عن خمسـين سـنة، و كان حشـما و قورا، وجيها عنـد الملوک، و هو بانى الجامع على بحر بولاق بالقرب من منظرة الحجازية- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى عبد اللّه التركمانى البهسـنى كاشف الشرقيّة بالوجه البحرى من أعمال القاهرة - بطالا- فى يوم الأحد ثالث شهر ربيع الآخر، و قد كبر سـنه و شاخ، و كان فى أوّل قدومه إلى الديار المصـرية يخدم شادّا فى قرى القاهرة إلى أن اتصل بخدمة الملک الظاهر جقمق قبـل سـلطنته، فلما تسـلطن ولّاه كشف الشـرقية، فلما ولّى ما كفّ عن قبيـح و لا عفّ عن حرام إلا فعلهما، فساءت سيرته فى ولايته، و حصل للناس منه شدائد، لا سـيما أهل بلبيس و فلاحى الشـرقية؛ فإنه كان عليهم أشدّ من إبليس، و شـكاه غير واحد مرّات عديدة إلى الملک الظاهر، فلم يسمع فيه كلاما، و بالجملة فإنه كان من أوحاش الظّلمة- ألا لعنة اللّه على الظالمين.

و توفّى الشـيخ أبو الفتـح [محمـد] الكـاتب المجوّد صاحب الخط المنسوب و أحـد نواب الحكم الشافعيـة و إمام الشـهابى أحمـد ابن الملک الأشرف إينال فى يوم الأحد عاشر شهر ربيع الآخر- رحمه اللّه.

و توفّى الأـمير أسـندمر بن عبـد اللّه الجقمقى أحـد أمراء العشـرات و رأس نوبـة بعـد عوده من مجـاورته بمكـة بمرض البطن، فى يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى و قد ناهز الستين من العمر، و كان روميّ الجنس، و كان أصله من مماليک جقمق الأرغون شاوى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢١٣

الدّوادار نائب الشام، و كان أسندمر هذا يجيد الرّمى بالنشاب، و فيه إسراف على نفسه- سامحه اللّه تعالى بفضله.

و توفّى سيف الدين خشقدم بن عبد اللّه الأرنبغاوى حاجب حجّاب طرابلس فى جمادى الأولى، و كان أصله من مماليک أردبغا نائب

قلعة صفد، ثم خدم عند قانی بای الحمزاوی و صار فی اواخر عمره دوادارا، ثم سعی بعد الحمزاوی فی حجوبیّة طرابلس حتی ولیها، فلم تطل مدّته، و مات فی التاریخ المذکور، و کان من الأوباش الذین لا أعرف لهم حالا.

و توفی الأمیر سیف الدین یشبک بن عبد اللّه الظاهری أحد أمراء العشرات بالطاعون فی یوم السبت حادی عشرین جمادی الأولی، و أخرج هو و ولده معا فی جنازة واحدة، و کان أصله من ممالیک الملک الظاهر جقمق، اشتراه فی سلطنته، و تأمر فی أیامه عشرة ثم نکب، ثم تأمر ثانیا فی دولة الملک الأشرف عشرة إلی أن مات، و کان لا بأس به- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین یونس بن عبد اللّه العلائی الناصری الأمیر آخور الکبیر بالطاعون فی باکر یوم الاثنین ثالث عشرین جمادی الأولی، و قد جاوز السبعین من العمر، و دفن بتربته التی أنشأها بالصحراء، و کان أصله من ممالیک الظاهر برقوق الکتابیة، ثم ملکه الملک الناصر فرج و أعتقه، و دام من جملة الممالیک السلطانیة سنین کثیرة لا یلتفت إلیه فی الدول إلی أن تأمر عشرة فی أوائل دولة الملک الظاهر جقمق، مراعاة لخاطر الأمیر إینال العلائی الأجرود، أعنی عن الأشرف هذا صاحب التّرجمة؛ لکونه کان خچداشه من تاجر واحد، و دام من جملة أمراء العشرات أیاما کثیرة، إلی أن نقله الملک الظاهر إلی نیابة قلعة الجبل بعد عزل تغری برمش الفقیه و إخراجه إلی القدس فی سنة تسع و أربعین.

قلت: و بئس البدیل، و هذا من عدم الإنصاف، کیف یکون هذا المهمل العاری

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۴

من کل علم و فن موضع ذلک العالم الفاضل الذکی العارف بغالب فنون الفروسیة مع ماحواه من العلوم، و قد أذکرتنی هذه الواقعة قول بعض الأدباء الموّالة، حیث قال:

شاباش یا فلک شاباش تحط عالی و ترفع فی الهوا أوباش

و تجعل الحرّ الذکی الوشواش یحکم علیه ردیء الأصل یبقی لاش

و استمر یونس هذا فی نیابة القلعة إلی أن تسلطن خچداشه الملک الأشرف إینال صاحب الترجمة، و خلع علیه فی صبیحة یوم السلطنة بنیابة الإسکندریة، فتوجه إلیها و أقام بها مدة، ثم عزل و قدم إلی القاهرة علی إمرته، ثم بعد مدة من قدومه، صار أمیر مائة و مقدّم ألف بالدیار المصریة بعد خروج الأمیر جانم الأشرفی إلی نیابة حلب و ذلک فی أواخر صفر سنة تسع و خمسین، و توجه لتقلید الأمیر قانی بای الحمزاوی نائب حلب بنیابة دمشق بعد موت الأمیر جلبّان فقلده و عاد، و قد استغنی یونس بما أعطاه قانی بای الحمزاوی فی حقّ طریقه من الذهب اثنی عشر ألف دینار، و من القماش و الخیول نحو خمسة آلاف دینار، ثم نقل بعد ذلک إلی الأمیر آخوریة الکبری بعد انتقال الأمیر جرباش المحمدی إلی إمرة مجلس، بعد تعطّل الأمیر طوخ من تمراز و لزومه داره من مرض تمادی به، و ذلک فی أوائل ذی الحجة سنة إحدی و ستین و ثمانمائة.

و عظم یونس عند خچداشه الملک الأشرف، لکونه کان خچداشه، و أنا أقول:

ما کانت محبته له إلا لجنسیة کانت بینهما فی الإهمال؛ لأن الجنسیة علة الضم، فلم یزل یونس المذکور فی وظیفته إلی أن مات فی التاریخ المقدم ذکره، قلت: و ما عسی أذکر من أمره، و السکوت و الإضراب عن الذکر أجمل، و فی التلویح ما یغنی عن التصریح.

و توفی الأمیر زین الدین هلال بن عبد اللّه الرومی الطواشی الظاهری الزمام بطالا بالطاعون، فی یوم الأحد تاسع عشرین جمادی الأولی، و قد شاخ و ناهز عشر المائة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۵

من العمر، لکونه کان من خدّام الملک الظاهر برقوق و من أعیان طواشیته، ثم صار شادّ الحوش السلطانی مدّة طویلة، إلی أن بدا له أن یبذل المال فی وظیفة الزّمامیّة، فولیها بعد موت الأمیر جوهر القنقبائی، فباشر الوظیفة بقلّة حرمة، فلم ینتج أمره، و عزل و تخومل إلی أن مات، و هو مجتهد فی الزراعة و الدولاب لتحصیل المال، فلم ینل من ذلک شیئا، و مات فقیرا- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی القاضی زین الدین عبد الرحیم ابن قاضی القضاة بدر الدین محمود ابن القاضی شهاب الدین أحمد العینی الحنفی ناظر الأحباس، فی یوم الثلاثاء ثانی عشرین جمادی الآخرة بالطاعون، و هو فی الکهولیة، و کان من بیت علم و رئاسة.

و توفیت خوند زینب بنت الأمیر جرباش الکریمی المعروف بقاشق، فی یوم السبت سادس عشرین جمادی الآخرة، بالطاعون، و سنّها فوق الثلاثین، و کان الملک الظاهر جقمق تزوّجها فی أوائل سلطنته، فی حدود سنة اثنتین و أربعین أو التی بعدها، و مات عنها فتزوجها القاضی شرف الدین موسی الأنصاری ناظر الجیوش المنصورة، فماتت عنده – رحمها اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر قرم خجا بن عبد اللّه الظاهری، أحد أمراء العشرات بطالا فی العشر الأول من شهر رجب، و هو فی عشر المائة من العمر، کان من ممالیک الظاهر برقوق و خاصکیته، و کان فقیها دیّنا خیّرا ترکیّ الجنس– رحمه اللّه تعالی.

و توفّی السیفی یشبک بن عبد اللّه الأشرفی الأشقر أستادار الصّحبة و أحد الخاصکیة بالطاعون، فی یوم الثلاثاء سابع شهر رجب، و مستراح منه؛ لأنه کان مهملا مسرفا علی نفسه، لا یرتجی لدین و لا لدنیا – عفا اللّه عنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۶

و توفّی الأمیر سیف الدین یشبک بن عبد اللّه الساقی الظاهری بالطاعون، فی یوم الأحد تاسع عشر شهر رجب بعد أن تأمر بأیام، و کان مشهورا بالشجاعة و الإقدام، قلعت عینه فی واقعة الملک المنصور عثمان مع الأشرف إینال، و کان من حزب ابن أستاذه الملک المنصور– رحمه اللّه و عفا عنه.

و توفّی الأمیر سیف الدین یرشبای بن عبد اللّه الإینالی المؤیدی الأمیر آخور الثانی– کان– و أحد أمراء الطبلخانات الآن، و هو مجاور بمکّة المشرفة، فی شهر رجب، و قد ناهز الستین من العمر، و کان من ممالیک الملک المؤیّد شیخ، اشتراه بعد سلطنته، و صار خاصکیا بعد موته إلی أن تأمر عشرة فی دولة الملک الظاهر جقمق، و صار أمیر آخور ثالثا، ثم نقل بعد مدّة إلی الأمیر آخوریّة الثانیة و إمّرة طبلخاناه بعد موت خچداشه سودون المحمدی المعروف بأتمکجی، فدام علی ذلک إلی أن قبض علیه الملک المنصور عثمان مع دولات بای الدّوادار و یلبای الإینالی المؤیّدیّین، و حبس یرشبای هذا بسجن الإسکندریة إلی أن أطلقه الملک الأشرف، و أرسله مع خچداشه یلبای إلی دمیاط، ثم استقدمهما بعد أیّام یسیرة إلی القاهرة، و أنعم علی یرشبای المذکور بإمرة عشرة، ثم بإمرة طبلخاناه بعد انتقال الأمیر بایزید التّمربغاوی إلی تقدمة ألف، ثم سافر إلی مکّة رأسا علی الممالیک السلطانیة بها فی سنة ثلاث و ستین فمات بمکة– رحمه اللّه تعالی.

و کان رجلا طوالا ملیح الشکل و الهیئة، حشما و قورا، مع إسراف علی نفسه– عفا اللّه عنه بمنّه و کرمه.

و توفّی القاضی کمال الدین أبو الفضل محمد بن ظهیرة المکی المخزومی الشافعی، قاضی جدّة، و هو معزول عنها بعد مرض طویل بالمدینة الشریفة، و کان من خیار

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۷

أقاربه، ولدیه فضیلة و مشارکة حسنة و محاضرة جیّدة بالشعر و أیام الناس، و کان محبوبا فی قومه و أهل بلده– رحمه اللّه تعالی– و لقد عزّ علینا فراقه.

و توفّی الأمیر سیف الدین یشبک بن عبد اللّه المؤیّدی أتابک دمشق بها فی شعبان، و قد جاوز الستین، و کان یعرف بیشبک طاز، و کان مشکور السیرة، لا بأس به– رحمه اللّه.

و توفّی الشیخ الإمام العالم الفقیه زین الدین عبد الرحمن بن عنبر الأبوتیجی الشافعی، أحد فقهاء الشافعیة فی صبیحة یوم الاثنین ثالث عشرین شوال، و قد زاد سنه عن التسعین، و کان عالما، و له الید الطولی فی علمی الفرائض و الحساب، و تصدّر للإقراء بجامع الأزهر مدة طویلة، و کان یعجبنی حاله، إلا أنه ما حجّ حجة الإسلام– عفا اللّه تعالی عنه.

و توفیت خوند آسیة بنت الملک الناصر فرج ابن الملک الظاهر برقوق فی أوائل ذی الحجة، و أمها أم ولد حبشیة تسمی ثریّا.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع سواء، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و خمسة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

اشارة

ذكر سلطنة الملك المؤيد أبى الفتح أحمد [بن إينال] على مصر هو السلطان السابع و الثلاثون من ملوك الترّك و أولادهم بالديار المصرية، و الثالث عشر من الجراكسة و أولادهم.

تسلطن فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس و ستين و ثمانمائة الموافق لأول برمهات، فلما كان ضحوة النهار المذكور نزل الزينى خشقدم الأحمدى الطواشى الساقى الظاهرى بطلب القضاة الأربعة إلى القلعة، و نزل غيره إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف، فبادر كلّ منهم بالطلوع إلى القلعة، حتى تكامل طلوع الجميع، و جلس الكل بقاعة دهليز الدهيشة من قلعة الجبل، و جلس الخليفة و المقام الأتابكى أحمد المذكور فى صدر المجلس، و جلس كلّ من القضاة فى مراتبهم، و دار الكلام بينهم فى سلطنة الملك المؤيد هذا؛ لكون أن والده الملك الأشرف إينال ما كان عهد إليه قبل ذلك بالسلطنة، فتكلم القاضى كاتب السر محب الدين بن الشّحنة فى أن تكون ولايته فى السلطنة نيابة عن والده مدة حياته، ثم استقلالا بعد وفاته، أو معناه، فلم يحسن ذلك ببال من حضر، و قام الجميع و دخلوا إلى قاعة الدهيشة، و بها الملك الأشرف إينال مستلق على خطة ليسمعوا كلامه بالعهد لولده أحمد هذا، فكلّمه الأمير يونس الدوادار غير مرة فى معنى العهد، و هو لا- يستطيع الرد، و طال وقوف الجميع عنده و هو لا يتكلّم، فخرجوا إلى ولده المؤيد هذا و هو جالس بدهليز الدهيشة عند الشباك و عرفوه الحال، ثم رجعوا إلى الملك الأشرف ثانيا، و كرروا عليه السؤال، و هو ساكت، إلى أن تكلم بعد حين، و قال باللغة التركية: «أغلم، أغلم»، يعنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۱۹

«إبنى، إبنى»، فقال من حضر: «هذا إشارة بالعهد لولده»، فإنه لا يستطيع من الكلام أكثر من هذا، و خرجوا من وقتهم إلى الدهيشة، و انتدب كاتب السّرّ لتحليف الأمراء، فحلف من حضر من الأمراء الأيمان المؤكدة، و لم ينهض أحد منهم أن يورّى فى يمينه و لا يدلس، لأنهم أجانب من معرفة ذلك، و أيضا المحلف له فطن و كاتب سرّه رجل عالم، و كان من جملة اليمين: المشى إلى الحاج كذا كذا مرة، و الطلاق و العتق و غير ذلك.

فلما انقضى التّحليف و تمّت البيعة قام كل أحد من الأمراء و الخاصكية و الأعيان و بادر إلى لبس الكلفتاة و التترى الأبيض، كما هى العادة، و أحضرت خلعة السلطنة الخليفتية السوداء، و لفت له عمامة سوداء حرير، و قام المقام الشهابى المذكور و لبس الخلعة و العمامة على الفور، و ركب من باب الدهيشة فرس النوبة بسرج ذهب و كنبوش زركش، و مشت الأمراء و الأعيان بين يديه من باب الحوش إلى أن اجتاز بباب الدور السلطانية فتلقته الجاووشية و الزردكاش و معه القبة و الطير و أبهة السلطنة، فتناول الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى أمير سلاح القبة و الطير بإذن السلطان و حملها على رأسه و هو ماش، و سار فى موكب الملك بعظمة زائدة خارجة عن الحد، و صار جميع الأمراء و القضاة مشاة بين يديه إلا- الخليفة المستنجد بالله فإنه ركب فرسا من خيل السلطان، و مشى بها خطوات، ثم نزل عنها لقوتها عليه، و لا زال على تلك الهيئة، حتى نزل على باب القصر السلطانى من قلعة الجبل، و دخل و جلس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۰

على سرير الملك، فلم تر العيون فيما رأت أحسن و لا أجمل منه فى الخلعة السوداء، لأنه كان أبيض اللون، و الخلعة سوداء، مع حسن سمته، و طول قامته، حتى إنه لعله لم يكن أحد فى العسكر يوم ذاك يدانيه فى طول القامة.

و لما جلس على تخت الملك قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و دقّت الكئوسات، و نودى فى الحال بالدعاء للملك المؤيد أبى الفتح أحمد بشوارع القاهرة.

ثم فى الوقت خلع على الخليفة فوقانى حرير بوجهين أبيض و أخضر بطرز زركش، و أنعم عليه بفرس بسرج ذهب، و كنبوش زركش، و أنعم عليه بقرية منبابة بالجيزة.

ثم خلع على الأمير خشقدم أمير سلاح أطلسين متمّرا، و فوقانيا بطرز زركش، بسرج ذهب و كنبوش زركش.

و أقام الملك المؤيّد يومه و ليلته بالقصر، و أصبح حضر الخدمة حسبما يأتى ذكره، بعد أن نذكر وقت سلطنته.

و كان الطالع وقت مبايعته و لبسه خلعة السلطنة و جلوسه على سرير الملك السرطان، و صاحب الطالع بالسنبلة- و هو القمر- قطع اثنتين و عشرين درجة و خمسين دقيقة، و الرأس بالسرطان أيضا ست عشرة درجة و ثلاثين دقيقة راجعا، و المشترى بالقوس صفرا و سبعا و عشرين دقيقة، و زحل بالجدى أيضا ثمانيا و عشرين درجة و ستا و أربعين دقيقة، و الذنب بالجدى أيضا ست عشرة درجة و ثلاثين دقيقة، و الزّهرة فى الدلو ثلاث درجات و تسع عشرة دقيقة، و الليلة بالدلو أيضا ثمانى درج و ثمانيا و خمسين دقيقة، و عطارد أيضا بالدلو اثنتين و عشرين درجة و خمسين دقيقة، و الشمس فى الحوت خمس عشرة درجة و أربعا و خمسين دقيقة، و الساعة السادسة، و هى للزّهرة- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢١

و لما كان صبيحة نهار الخميس المقدّم ذكره، و هو ثانى يوم من يوم سلطنته، و هو عشر جمادى الأولى، و قد عمل السلطان فيه الخدمة السلطانية، و خلع على جماعة كثيرة من الأمراء بعدة وظائف، فاستقرّ بالأمير خشقدم أمير سلاح أتابك العساكر عوضا عن نفسه، و لكن لم يجد له فى ذلك اليوم خلعة الأتابكية، لكونه كان لبسها فى أمسه، لما حمل القبة و الطير على رأس السلطان، فجددت له أخرى لم يفرغ عملها فى هذا اليوم.

ثم أنعم السلطان على الأمير خشقدم المذكور بإقطاع نفسه، و هو إقطاع الأتابكيّة.

ثم خلع على الأمير جرباش المحمدى أمير مجلسه باستقراره فى إمرة سلاح عوضا عن الأمير خشقدم بحكم استقراره أتابك العساكر.

و استقر الأمير قرقماس الأشرفى رأس نوبة النّوب أمير مجلس عوضا عن جرباش المقدّم ذكره.

و استقرّ الأمير قانم من صفرخجا المؤيّدى التاجر رأس نوبة النّوب عوضا عن قرقماس المذكور.

و أنعم السلطان بإقطاع الأتابك خشقدم على الأمير بيبرس الأشرفى خال الملك العزيز يوسف حاجب الحجاب، لكون متحصل هذا الإقطاع يزيد عن متحصل الإقطاع الذى كان بيده أولا، و طلب الأمير جانبك من أمير الأشرفى الخازندار إقطاع بيبرس، فتوقّف السلطان فيه، و وقع- بسبب توقّف السلطان فى الإنعام على جانبك به- بين جانبك المذكور و بين الأمير يونس الدّوادار الكبير كلام، فأفحش الدّوادار فى الرّدّ على جانبك، و دام الإقطاع موقوفا لم ينعم به على أحد، و انفض الموكب، و قام السلطان الملك المؤيد أحمد من القصر، و توجه إلى الدهيشة، و جلس بالشباك المطل على الحوش، و أمر المنادى فنادى بين يديه بالحوش، بأن النفقة فى المماليك السلطانية تكون لكل واحد مائة دينار، و تكون أول التفرقة يوم الثلاثاء عشرين الشهر، فضج الناس له بالدعاء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢٢

ثم قام و دخل إلى عند أبيه و هو فى السياق، فمات فى اليوم، و هو يوم الخميس المقدم ذكره بين الظهر و العصر، فجهز من وقته، و صلى عليه بباب القلّة من قلعة الجبل، ثم حمل حتى دفن من يومه بتربته التى أنشأها بالصحراء خارج القاهرة- حسبما تقدم ذكر ذلك كله فى ترجمته.

ثم أصبح الملك المؤيد يوم الجمعة صلى الجمعة بجامع الناصرى بالقلعة مع الأمراء على العادة، و خلع بعد انقضاء الصلاة على الأمير خشقدم الناصرى المؤيدى خلعة الأتابكية على العادة، و استمر السلطان إلى يوم الأحد ثامن عشره- أعنى جمادى الأولى- فأنفق على

الأمراء نفقة السلطنة، فحمل إلى الأمير الكبير أربعة آلاف دينار، تفصيلها: ألف دينار بسبب حمله القبة و الطير على رأس السلطان يوم سلطنته، و البقية نفقة السلطنة، و حمل إلى أمير سلاح جرباش و غيره من أمراء الألوف من أصحاب الوظائف لكلّ واحد ألفين و خمسمائة دينار، و إلى غير أرباب الوظائف من مقدمى الألوف لكلّ ألفى دينار فقط، و حمل لكل أمير من أمراء الطبلخانات خمسمائة دينار، و لكل أمير من أمراء العشرات مائتى دينار.

ثم فى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى خلع السلطان على الأتابك خشقدم، و على قانم رأس نوبة النوب خلع الأنظار المتعلقة بوظائفهما على العادة، و أنعم السلطان على الأمير يشبك البجاسى الأشرفى إينال أحد مقدمى الألوف بحلب بإمرة مائة و تقدمة ألف بالديار المصرية، و هو إقطاع بيبرس الذى وقع بين يونس الدوادار و بين جانبك [الظريف] الخازندار بسببه، و أنعم بتقدمة يشبك المذكور التى بحلب على الأمير تمراز [الأشرفى] الدّوادار، [- كان-] و أنعم بإقطاع تمراز، و هو إمرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۳

طبلخاناه بطرابلس، على الأمير لاچين الظاهرى، و يشبك هذا المنعم عليه بالتقدمة كان أصله من مماليك الأمير تنبك البجاسى نائب الشام، و ملكه بعد موت تنبك الأشرف إينال، و هو من جملة الأمراء، و أعتقه و رقّاه حتى صار دواداره، ثم أخذ له من الملك الظاهر جقمق إمرة بصفد، فلما تسلطن رفع قدره إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بحلب، و اتفق مجيئه إلى مصر لينظر أستاذه، فاتفق فى مجيئه ضعف أستاذه ثم موته.

و فيه أيضا خلع السلطان على جماعة من الأمراء و الخاصكية لتوجههم بحمل تقاليد نوّاب البلاد الشّاميّة.

فكان الأمير مغلباى الأبوبكرى المؤيّدى المعروف بطاز، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، يتوجّه إلى نائب الشام الأمير جانم الأشرفى.

و الأمير بيبرس الأشرفى الأشقر أحد أمراء العشرات و رأس نوبة يتوجّه إلى الأمير حاج إينال اليشبكى نائب حلب.

و السيفى برقوق الناصرى الظاهرى الساقى [يتوجه] إلى إياس المحمدى الناصرى نائب طرابلس.

و السيفى آقبردى الساقى الأشرفى [يتوجه] لجانبك التاجى المؤيّدى نائب حماة.

و تنم الفقيه الأبوبكرى المؤيّدى [يتوجه] لخيربك النّوروزى نائب صفد، و لبردبك العبد الرحمانى نائب غزّة معا.

و خلع على جماعة أخر من الخاصكية بتوجههم إلى جماعة أخر إلى البلاد الشامية، و الجميع خاصّكيّة ما عدا مغلباى طاز و بيبرس الأشقر.

ثم فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى المذكورة ابتدأ السلطان بالنفقة فى المماليك السلطانية من غير تسوية، فأعلى من أخذ مائة دينار، و أدنى من أخذ ثلاثين دينارا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۴

و أعطى لكل مملوك من الكتابية عشرة دنانير، فاستمرت النفقة على المماليك السلطانية فى كل يوم سبت و ثلاثاء إلى ما يأتى ذكره.

ثم بعد أيام وصل القاهرة كتاب جانبك الأبلق الظاهرى من قبرس أنه هو و من معه من المماليك السلطانية و غيرهم من الفرنج واقعوا أهل شرينة فى عاشر شهر ربيع الآخر، و حصروا قلعتها، و قتلوا من الفرنج بشرينة ثمانية نفر، و أسروا مثلهم، ثم ذكر أيضا أنه واقع ثانيا أهل شرينة، و قتل صاحب الشرطة بقلعتها، و آخر من عظمائها أرمى نفسه إلى البحر فغرق، قلت: «مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا نارا»

ثم ذكر جانبك أيضا: أنه قبض على خمسة منهم، و أن الملكة صاحبة شرينة أخت جاكم صاحب قبرس قد توجّهت من شرينة إلى رودس تستنجد بهم، ثم ذكر أيضا أنه ظفر بعدة مراكب ممن كان قدم من الفرنج نجدة للملكة المذكورة، و أنه أسر منهم خلائق تزيد عدتهم على مائة نفر، و أنه أخذ بالحصار عدّة أبراج من أبراج قلعة باف بعد أن قاسوا منه شدائد، و أنه يستحث السلطان فى إرسال عسكر بسرعة قبل مجىء نجدة لهم من الفرنج أهل الماغوصة الجنوية، و إلى أهل شرينة من غير الجنوية- انتهى.

و فى يوم الأربعاء ثامن عشرينه استقر عميرة بن جميل بن يوسف شيخ عربان السخاوة بالغربية بعد موت أبيه.

قلت: و الشيء بالشيء يذكر، و قد أذكرنى ولاية عميرة هذا حال أرياف الديار المصرية الآن، فإنه من يوم تسلطن الملك المؤيد أحمد هذا حصل الأمن فى جميع الأعمال برّا و بحرا، شرقا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢٥

و غربا، من غير أمر يوجب ذلك، و وقع رعب السلطان فى قلوب المفسدين حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يخرج من داره فكيف يقطع الطريق، فانطلقت الألسن بالدعاء للملك المؤيد هذا، و تبارك كل أحد بقدومه و استيلائه على الأمر، و مالت النفوس إلى محبته ميلا زائدا خارجا عن الحد؛ فإنه أول ما تسلطن قمع مماليك أبيه الأجلاب عن تلك الأفعال التى كانوا يفعلونها أيام أبيه، و هدّدهم بأنواع النكال إن لم يرجعوا، فرجع الغالب منهم عن أشياء كثيرة مما تقدم ذكرها، و علم الناس من السلطان ذلك، فطمع كل أحد فى الأجلاب فانحطّ قدرهم، حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غلامه و لا خدمه، فزاد حبّ الناس للملك المؤيّد لذلك، فكل من أحبه فهو معذور؛ لما قاست الناس منهم أيام أبيه من تلك الأفعال القبيحة، على أن الملك المؤيّد أيضا كان له فى أيام والده مساوئ كثيرة من جهة حماياته البلاد و المراكب بساحل النيل، و أشياء أخر غير ذلك، فقاست الناس من حماياته أهوالا، فلما تسلطن ترك ذلك كله كأنه لم يكن، و أقبل على العدل و إرداع المفسدين، فبدّل فى أيامه الجور بالعدل، و الخوف بالأمن، و الراحة بعد التعب- و للّه الحمد.

و فيه عزل السلطان الصاحب شمس الدين منصورا عن الأستادارية، و خلع من الغد على مجد الدين أبى الفضل البقرى كامليّة بمقلب سمّور، باستقراره فى الأستادارية، عوضا عن الشمسى منصور، و وعد بأنه يلبس خلعة وظيفة الأستادارية فى يوم السبت أول جمادى الآخرة، فوقع ذلك.

ثم فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة خلع السلطان على الصفوى جوهر النّوروزىّ الطواشى الحبشى بإعادته إلى تقدمة المماليك السلطانية، بعد موت الطواشى مرجان الحصنى الحبشى.

و فى هذه الأيام أشيع بين الناس بركوب المماليك السلطانية على السلطان بعد النفقة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٢۶

و لم يعلم أحد من هو القائم بالفتنة، فلم يلتفت السلطان لهذا الكلام.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة قرئ تقليد السلطان الملك المؤيد بين يديه بالقصر الأبلق، تولى قراءته القاضى محبّ الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ، و هو من إنشائه، و حضر الخليفة المستنجد القراءة و القضاة الأربعة، و غالب أركان الدّولة و أمرائها، فلما تمت القراءة خلع السلطان على الخليفة فوقانى حرير [بوجهين] أخضر و أبيض بطرز زركش، و قيّد له فرسا بسرج ذهب، و كنبوش زركش، ثم خلع على القضاة كوامل بمقالب سمور، و انفضّ الموكب.

و فى يوم السبت خامس عشر وصل إلى القاهرة قاصد الأمير جانم الأشرفى نائب الشام، و على يده كتاب مرسله يتضمن أنه حصل له سرور زائد بسلطنة الملك المؤيد، و أنه مستمرّ على طاعته، ممتثل أوامره.

و فيه أيضا ورد الخبر بأن عرب لبيد العصاة نزلوا البحيرة، و نهبوا الأموال، [وشنوا الغارات]، فعيّن السلطان تجريدة من الأمراء، و أمرهم بالتجهيز و السفر إلى البحيرة.

ثم فى يوم الأربعاء رابع شهر رجب وصل الأمير تمراز الإينالى الأشرفى الدوادار- كان- من طرابلس إلى الديار المصرية بغير إذن السلطان، و لم يجتز بمدينة قطيا، و نزل عند الأتابك خشقدم، و أرسل دواداره إلى الملك المؤيد، أعلمه بمجئ تمراز المذكور، فقامت قيامة السلطان لمجيئه على هذه الصورة، و غضب غضبا شديدا، و رسم بإخراجه من القاهرة لوقته، فأخذ تمراز فى أسباب الردود و الخروج إلى خانقاه سرياقوس، فشفعت الأمراء فيه فى عصر يومه بالقصر، فقبل السلطان شفاعتهم على أنه يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام لعمل مصالحه، ثم يسافر إلى حيث جاء منه، فعاد تمراز من جهة الخانقاه إلى القاهرة، فترقّب كلّ أحد وقوع فتنة، لأن تمراز هذا

شرّ مكانا، و دأبه الفتنة و إثارة الفتن، و هو

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۷

من أوخاش بنى آدم، فقام تمراز إلى يوم الجمعة سادسه فطلع إلى القلعة، و قبّل الأرض بين يدى السلطان، و أخذ فى الاعتذار الزائد لمجيئه بغير إذن، فقبل السلطان عذره، و خلع عليه كاملية بمقلب سمّور، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و رسم له أن يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام من يومه هذا و يسافر، فنزل إلى داره، و الناس على ما هم عليه من أن تمراز هذا لا بد له من إثارة فتنة و تحريك ساكن، هذا و الأمراء تكرر الشفاعة فيه ليقيم بالديار المصرية، و خچداشيته الأشرفية فى غاية ما يكون من الاجتهاد فى ذلك، و السلطان مصمم على سفره، إلى أن سافر حسبما يأتى ذكره.

و فى يوم الجمعة هذا- الموافق لثانى عشرين برمودة- لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكى، أعنى كشفا من غير لبس صوف كما هى العادة أيام الصيف.

و فى يوم الثلاثاء عاشر شهر رجب المذكور خلع السلطان الملك المؤيد على تمراز المذكور خلعة السفر، و سافر من يومه إلى دمشق، بعد أن أنعم السلطان عليه بخمسمائة دينار و عدة خيول و بغال، و توجّه تمراز و لم يتحرك ساكن.

و فى يوم الخميس ثانى عشره استقر القاضى شرف الدين الأنصارى ناظر الجوالى بعد عزل [ناصر الدين] بن أصيل.

و فيه وصل الأمير مغلباى طاز الأبوبكرى المؤيدى بعد أن بشّر الأمير جانم نائب الشام بسلطنة المؤيد و عاد.

و فيه وصل السّيفى شاهين الطواشى الساقى الظاهرى المتوجّه قبل تاريخه لإحضار تركة زوجة الأمير قانى باى الحمزاوى من دمشق، و أحضر شيئا كثيرا جدا من الجواهر و اللآلئ و الأقمشة و غير ذلك، حتى إنه أبيع فى أيام كثيرة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۸

ثم فى يوم الجمعة العشرين من شهر رجب المذكور نزل السلطان الملك المؤيد أحمد من قلعة الجبل إلى جهة العارض خلف القلعة، و عاد بسرعة إلى القلعة، و هذا أول نزوله من يوم تسلطن، قلت: و آخر نزوله؛ فإنه لم ينزل بعدها إلا بعد خلعه إلى الإسكندرية.

و فيه أمطرت السماء بردا، كل واحد مقدار بيضة الحمام، فأتلفت غالب الزرع، و أهلكت كثيرا من ذوات الجناح، و كان معظم هذا المطر بقرى الشرقية من أعمال القاهرة، و ببعض بلاد من المنوفية و الغربية، و قليلا بإقليم البحيرة.

و فى يوم الخميس سادس عشرينه رسم السلطان بنفى سنطباى قرا الظاهرى إلى البلاد الشامية، و سببه أن سنطباى هذا كان من المنفيين إلى طرابلس فى دولة الملك الأشرف إينال، فلما سمع بموت الأشرف قدم القاهرة بغير إذن و اختفى بها نحو الشهر عند بعض خچداشيته، ففطن السلطان به فرسم بنفيه، فاجتهدت خچداشيته الظاهريّة فى إقامته، فلم تقبل فيه شفاعة، فخرج من يومه، و عظم ذلك على خچداشيته الظاهرية فى الباطن، قلت: و لا بأس بما فعله السلطان فى إخراج سنطباى المذكور على هذه الهيئة، فإنه أخرج قبله تمراز من الأشرفية، ثم أخرج هذا من الظاهرية، فكأنه ساوى بين الطائفتين، هذا و الناس فى رجيف من كثرة الإشاعة بوقوع فتنة.

ثم فى يوم الاثنين سابع شعبان استقر شادبك الصارمى- أحد أمراء الألوف بدمشق- أتابكا بحلب، على مال بذله فى ذلك، نحو العشرة آلاف دينار.

و فيه وصلت رسل السلطان إبراهيم بن قرمان إلى القاهرة بهديّة إلى السلطان، و قبل هديّة مرسلهم، و رحّب بهم.

ثم فى يوم الخميس سابع عشر شعبان وصل إلى القاهرة الشرفى يحيى ابن الأمير جانم نائب الشام، و طلع إلى السلطان من الغد، و قبّل الأرض نيابة عن أبيه، و سأل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۲۹

السلطان فى إطلاق الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى أمير سلاح- كان- و الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور- كان- من سجن الإسكندرية، فلم يقبل السلطان شفاعته، و سوّف به إلى وقت غير معلوم، و علم السلطان أن مجىء ابن جانم هذا ليس هو بصدد

الشفاعة فقط، و إنما هو لتجسس الأخبار و عمل مصلحة والده مع خچداشیته الأشرفیة، و غیرهم من الظاهریة و المؤیدیة، و کذا کان، و لم یظهر الملک المؤید لأحد، و إنما أخذ فی حساب جانم نائب الشام فی الباطن، و التدبیر علیه بکل ما تصل القدرة إلیه، و لم یسعه یوم ذلک إلا أن تجاهل علیهم.

و هذا الأمر أحد أسباب حضور جانم إلی الدیار المصریة حسبما یأتی ذکره مفصلا- إن شاء اللّه تعالی- فی ترجمة الملک الظاهر خشقدم، لأن یحیی ولد جانم لما حضر هذه الأیام إلی الدیار المصریة اتفق مع أعیان الممالیک الظاهریة بعد أن اصطلحوا مع الممالیک الأشرفیة- علی عداوة کانت بینهم قدیما و حدیثا- و رضوا الظاهریة بسلطنة جانم علیهم، و هم أکره البریة فیه، حیث لم یجدوا بدا من ذلک؛ و ما ذاک إلا خوفا من الملک المؤید هذا، فکان أمرهم فی هذا کقول القائل:

[الوافر]

و ما من حبّه أحنو علیه و لکن بغض قوم آخرین

و سافر الشرفی یحیی بن مصر إلی جهة أبیه فی یوم الجمعة خامس عشرین شعبان، بعد أن خلع علیه السلطان، و أنعم علیه بخمسمائة دینار، و قد مهّد لأبیه الأمور بالدّیار المصریة مع الظاهریة، و أما الأشرفیة خچداشیته فهم من باب أولی لا یختلف علی جانم منهم اثنان، و ما کان قصد جانم إلا رضاء الظاهریّة، و قد رضوا.

و سار یحیی و هو یظن أن أمر أبیه قد تم فی سلطنة مصر، و لم یفطن إلی تقلبات الدهر، فلما أن وصل یحیی إلی والده حدّثه بما وقع له بمصر مع زید و عمرو، و کان عند جانم- رحمه اللّه تعالی- خفّة لما کان أوحی إلیه الکذابون من أقوال الفقراء، و رؤیة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۰

المنامات، و عبارات المنجمین، فتحقّق المسکین أنه لا بد له من السلطنة، و وافق ذلک صغر سن ولده یحیی، و عدم معرفته بالمکاید و التجارب، و حاله کقول من قال:

[الطویل]

و یا دارها بالخیف إنّ مزارها قریب، و لکن دون ذلک أهوال

و قوّی أمر یحیی و خفة جانم اجتماع تمراز الأشرفی الدّوادار المقدم ذکره بجانم فی دمشق، و قد صدق هذا الخبر لما فی نفسه من الملک المؤید هذا، و من أبیه الأشرف إینال لما عزله من الدّواداریة الثانیة، و أخرجه من مصر بطالا إلی القدس، ثم وقع له معه ما حکیناه، هذا مع کثرة فتن تمراز، و قلة عقله، و سوء خلقه، و شؤم طلعته، فوافق تمراز یحیی، و تسلطا معا علی جانم، و لا زالا به حتی وافقهما فی الباطن، و أخذ فی أسباب ذلک، فلم یمض إلا القلیل، و وقع لجانم ما سنذکره مع عوام دمشق من النهب و الفتک به، و إخراجه من دمشق علی أقبح وجه، حسبما هو مقول فی ترجمة الملک الظاهر خشقدم بعد خلع المؤیّد.

و أما أمر الملک المؤید هذا فإنه بعد خروج یحیی بن جانم، أخذ یوسع الحیلة و التدبیر فی أخذ جانم بکل طریق، فلم یر أحسن من أن یرسل بکاتب أعیان دمشق بالقبض علی جانم المذکور إن أمکن، و هذا القول لم أذکره یقینا، و لکن علی قول من قال عنه ذلک، و لیس هو ببعید لأن أهل دمشق و حکامها ما فی قدرتهم القیام علی نائب الشام إلا بدسیسة من السلطان، و اللّه أعلم بحقیقة الأمر.

و استمر الملک المؤیّد علی ما هو علیه بالدیار المصریة، و أمره فی انحطاط من عدم تدبیره فی أواخر أمره، و أیضا من قلة المساعدة بالقول و الفعل، و إلا فتدبیره هو کان فی غایة الحسن فی أوائل أمره، غیر أنه کان لا یعرف مداخلة الأتراک، و لا رأی تقلب الدّول، و لا حوله من رأی؛ لأنه أبعد الناس عنه قاطبة، و قرّب الأمیر بردبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۱

الدوادار الثانی، لکونه صهره زوج أخته، مملوک أبیه، بل قیل إن تقریبه لبردبک أیضا ما کان علی جلیته، فعلی هذا ضعف الأمر من کل جهة، و نفرض أنّ أمر بردبک کان علی حقیقة، فما عساه کان یفعل، و هو أیضا أجنبیّ عن معرفة ما قلناه؟ فإنه ما ربّی إلا عند

أستاذه الأشرف إينال و هو أمير، فلا يعرف أحوال المملكة إلا بعد سلطنة أستاذه أيام الأمن و السعادة- انتهى.

و فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان خلع السلطان الملك المؤيد على شرف الدين البقرى باستقراره ناظر الإصطبلات السلطانية، بعد عزل محمود بن الديرى.

و فى يوم الجمعة عاشره أخذ قاع النيل، فجاءت القاعدة- أعنى الماء القديم- ستة أذرع و نصفا.

و فى ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان المذكور خسف جميع جرم القمر، و غاب فى الخسف تسعين درجة، و صارت النجوم فى السماء كليلة تسع و عشرين الشهر، و لعلّ ذلك يكون نادرا جدا، فإني لم أر فى عمرى مثل هذا الخسف.

هذا و أمر الملك المؤيد آخذ فى اضطراب من يوم عيّن تجريدة إلى البحيرة، و لم تخرج التجريدة و خالفه من كتب إليها من المماليك السلطانية، فإنه لما عين التجريدة إلى البحيرة لم يعين من المماليك السلطانية أحدا من مماليك أبيه الأجلاب، فعظم ذلك على من عين من غيرهم، و على من لم يعيّن أيضا، لمعرفتهم أنه كلموه فى أمر مماليك أبيه و استمالوه لهم؛ فإنه استفتح سلطنته بإبعادهم و مقتهم و إرداعهم، فأحبه كل أحد، فلما فطنوا الآن بميله إليهم، نفرت القلوب منه، و خافوا من أفعال الأجلاب القبيحة التى فعلوها فى أيام أبيه أن تعود، فصممت المماليك المعينة إلى البحيرة فى عدم الخروج إلا إن عين معهم جماعة من أجلاب أبيه، و ساعدهم فى ذلك المماليك السلطانية من كل طائفة؛ مخافة من تقريب الأجلاب، فأساء المؤيد التدبير من أنه لم يبت أمرا لا بقوة و لا بلين، بل سكت و سمع قول من أملاه المفسود من قوله: إذا أرسلت مماليك أبيك من يبقى حولك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۲

و إذا أبعدت مماليك والدك فمن تقرب؟ فكأنه مال لهذا القول الواهى و استحسنه، و هذا نوع مما كنا فيه أولا من أنه ما كان عنده من يرشده إلى الطريق.

ثم كلم الملك المؤيد المماليك أيضا فى السفر، فاعتلّوا بطلب الجمال، فأراد تفرقة الجمال، فلم يأخذوها، و استمروا على ذلك، و سكنت حركة السفر بسكات السلطان، و بذلك فشا انحطاط قدره و تلاشى أمره، بعد أن كان له حرمة عظيمة، و رعب فى القلوب.

فلقد رأيت فى تلك الأيام شخصا من أوباش المماليك الظاهرية يكلم الأمير بردبك الدوادار الثانى بكلام لو كلّمه لمن يكون فيه شهامة لحمل السلطان على شنقه فى الحال، و كان ذلك هو الحزم على قول بعض النّهابة: «إما إكديش، أو نشابة للريش»، و تلافى الأمور إما يكون بها أو عليها، و الحزم إنما هو الشد على من عين و سفرهم غصبا، فإن تم ذلك فقدها به كل أحد، و قد قيل «من هاب خاف» أو اللين و التلطف بمن كتب و الاعتذار لهم عن عدم كتابته لمماليك أبيه الأجلاب، بقوله: ما منعنى أن أكتب هؤلاء معكم إلا أنهم ليسوا بأهل لمرافقتكم، فحيثما أحببتموا ذلك فأنا أكتب منهم جماعة، ثم يكتب منهم عدة، فإن تم ذلك و مشى فالأمر إليك بعد سفرهم دبّر ما شئت، و إن لم يتم فبادر للفعل الأول بكل ما تصل قدرتك إليه و استعمل قول المتنبى فى قوله من قصيدته المشهورة: [الكامل]

لا يخدعنك من عدوّك دمعه و ارحم شبابك من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فلم يقع منه ذلك، و لا ما يشبهه، و لا أشار عليه أحد من أصدقائه بشيء يكون فيه مصلحة لثبات ملكه، بل سكت كل أحد عنه، و صار كالمتفرج، إما لبغض فيه، أو لقلة معرفة بالأمور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۳

ذكر نكبة الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف إينال و خلعه من الملك

لما كان آخر يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة خمس و ستين المذكورة رسم السلطان الملك المؤيد أحمد لنقيب الجيش

الأمير ناصر الدين محمد بن أبى الفرج أن يدور على الأمراء مقدمى الألوف، و يعلمهم أن السلطان رسم بطلوعهم من الغد فى يوم السبت إلى الحوش السلطانى من قلعة الجبل بغير قماش الموكب، و لم يعلمهم لأى معنى يكون طلوعهم و اجتماعهم فى هذا اليوم بالقلعة، و هو غير العادة، فدار دوادار نقيب الجيش على الأمراء و أعلمهم بما رسم به السلطان من طلوعهم إلى القلعة، و أخذ الأمراء من هذا الأمر أمر مريج، و خلا كل واحد بمن يثق به، و عرفه الخبر، و هو لا يشك أن السلطان يريد القبض عليه من الغد، و ماجت الناس و كثر الكلام بسبب ذلك، و ركبت الأعيان بعضها على بعض، و أما الأمراء فكل منهم تحقق أنه مقبوض عليه من الغد، و وجد لذلك من كان عنده كمين من الملك المؤيّد أو يريد إثارة فتنة فرصة، و حرّض بعضهم بعضا؛ إلى أن ثارت المماليك الظاهريّة فى تلك الليلة، و داروا على رفقتهم و إخوانهم و على من له غرض فى القيام على الملك المؤيّد، و داموا على ذلك ليلتهم كلها.

فلما كان صبح نهار السبت تفرّقوا على أكابر الدّولة و الأمراء فى بيت الأتابك خشقدم لعمل المصلحة، فداروا على الأمراء، و أمسكوا منهم جماعة كبيرة، و أحضروهم إلى بيت الأتابك خشقدم، على كره من خشقدم، و سارت فرقة فى باكر النهار إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۴

بيت الأمير بردبك الأشرفى الدّوادار الثانى الملاصق لمدرسة السلطان حسن، و أحضروه إلى بيت الأمير الكبير خشقدم، بعد أن أخرقوا به.

هذا و قد اجتمعت طوائف المماليك، مثل الناصريّة فرج، و المؤيدية شيخ، و الأشرفية برسباى، و الظاهرية جقمق، و السيفية، الجميع فى بيت الأمير الكبير، و لم يطلع إلى القلعة فى هذا اليوم أحد من الأمراء و الأعيان إلا جماعة يسيرة جدا.

فلما تكامل جمعهم فى بيت الأمير الكبير، و أكثر الطوائف يوم ذاك الأشرفية و الظاهرية، و كبير الأشرفية الأمير قرقماس أمير مجلس، و لا كلام له، بل الكلام لجانبك القجماسى الأشرفى المشدّ، و لجانبك من أمير الخازندار، و الظاهرية كبيرهم جانبك نائب جدّة، أحد مقدمى الألوف، و قد صارت خجداشيته يوم ذاك فى طوع يده و تحت أوامره؛ لحسن سياسته و جودة تدبيره، فانضمت كلمة الظاهريّة به، حتى صارت كلمة واحدة، وهم حسّ و هو المعنى، و هذا بخلاف الأشرفية، فإنهم و إن كانوا هم أيضا متفقين فالاختلاف بين أكابرهم موجود بالنسبة إلى هؤلاء، و عدم اكتراثهم بهذا الأمر المهم، و لتطلّعهم على مجىء خجداشهم الأمير جانم نائب الشام، و لو أنّ أمر المؤيد طرقهم على بغتة ما طاوعوا على الرّكوب فى مثل هذا اليوم قبل مجىء خجداشهم.

فأخذ الأمير جانبك نائب جدّة المذكور فى تأليف الأشرفية على الظاهرية بحسن تدبير، حتى تمّ له ذلك، و صاروا على كلمة واحدة، ثم شرعوا فى الكلام بحضرة الأمراء فى الاجتماع بسببه، فتكلم بعض من حضر من الأمراء بأن قال: «أيش المقصود بهذا الجمع؟» أو معنى هذا الكلام، فأجاب الجميع بلسان واحد: «نريد خلع الملك المؤيد أحمد من السلطنة، و سلطنة غيره».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۵

و كان الباعث لهذه الفتنة ما قدّمناه، و أيضا الظاهرية، فإن الملك المؤيد لما تسلطن لم يحرك ساكنا و لم يتغير أحد مما كان عليه، فشقّ ذلك على الظاهريّة، و قال كل منهم فى نفسه: كأنّ الملك الأشرف إينال مامات، فإن الغالب كل منهم كان أخذ ما بيده من الإقطاعات، و حبس و نفى فى أوّل سلطنة الأشرف إينال، كما هى عادة أوائل الدّول، و بقى منهم جماعة كثيرة بلا رزق و لا إمرة و لم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا و يسلطنوا غيره وحدهم، فكلموا الأشرفيّة فى هذا المعنى غير مرّة، و ترققوا لهم، فلم يقبلوا منهم ذلك، لنفرة كانت بين الطائفتين قديما و حديثا، و أيضا فلسان حال الأشرفية يقول عندما سألوهم الظاهريّة: نحن الآن فى كفاية من الأرزاق و الوظائف، فعلام نحرك ساكنا، و نخاطر بأنفسنا؟ فعجزوا فيهم الظاهرية و قد ثقل عليهم الملك المؤيد، و كثر خوفهم منه، فإنه أوّل ما تسلطن أبرق و أرعد، فانخزى كل أحد، و حسبوا أنّ فى السويداء رجالا، و لهذا قلت فيما تقدّم:

لو فعل ما فعل لمشى له ذلك، لمعرفتى بحال القوم و شجاعتهم.

و كان دخول المؤيد السلطنة بحرمة وافرة، لأن سنّه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن، و كان ولى الأتابكية فى أيّام أبيه، و أخذ و

أعطى، و سافر أمير حاج المحمل، و حجّ قبل ذلك أيضا و سافر البلاد، و مارس الأمور فى حياة والده و هذا كله بخلاف من تقدّمه من سلاطين أولاد الملوك، فإن الغالب منهم حدث السّنّ يريد له من يدبّره، فإنه ما يعرف ما يراد منه، فيصير فى حكم غيره من الأمراء فتتعلّق الآمال بذلك الأمير، و تتردّد الناس إليه، إلى أن يدبّر فى سلطنة نفسه، بخلاف المؤيّد هذا. فإنه ولى السلطنة و هو يقول فى نفسه: «إنه يدبر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر».

قلت: و كان كما زعم، فإنه تقدم أنه كان عارفا عاقلا مباشرا، حسن التدبير،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۶

عظيم التنفيذ شهما، و كان هو المتصرف فى الأمور أيّام أبيه فى غالب الولايات و العزل و أمور المملكة، فلما تسلطن ظنّ كل أحد أن لا سبيل فى دخول المكيدة على مثل هذا، لمعرفة الناس بحذقه و فطنته.

و كان مع هذه الأوصاف مليح الشكل، و عنده تؤدة فى كلامه، و عقل و سكوت خارج عن الحد، يؤديه ذلك إلى التكبر، و هذا كان أعظم الأسباب لنفور خواطر الناس عنه، فإنه كان فى أيام سلطنته لا يتكلم مع أحد حتى و لا أكابر الأمراء إلا نادرا، و لأمر من الأمور الضروريات، و فعل ذلك مع الكبير و الصغير، و ما كفى هذا حتى صار يبلغ الأمراء أنّه فى خلوته يسامر الأطراف الأوباش الذين يستحى من تسميتهم، فعظم ذلك على الناس، فلو كان عدم الكلام مع الناس قاطبة لهان على من صعب سكاته عليه، من كون الرفيع يكون مبعدا و الوضيع مقربا، فهذا أمر عظيم لا تحمله النفوس إلا غصبا، فلما وقع ذلك وجد من عنده حقد فرصة، و أشاع عنه هذا المعنى و أمثاله، و بشّع فى العبارة و شنّع، و قال هذا و غيره: إنه لا يلتفت إلى المماليك و يزدريهم، و هو مستعزّ بمماليك أبيه الأجلاب و أصهاره و حواشيه و خچداشية أبيه و بالمال الذى خلّفه أبوه، و منهم من قال أيضا: إنما هو مستعز بحسن تدبيره، فإنه قد عبّأ لكل سؤال جوابا، و لكل حرب ضربا، و كان مع هذا قد قمع مباشرى الدّولة و أبادهم، و ضيّق عليهم، و دقّق فى حسابهم كما هو فى الخاطر و زيادة، فما أحسن هذا لو كان دام و استمر!! فنفرت قلوب المباشرين أيضا منه، و حقّ لهم ذلك، و استمرت هذه الحرمة من يوم تسلطن إلى مجىء يحيى بن جانم نائب الشام إلى القاهرة، ثم إلى أن عيّن التجريدة إلى البحيرة، فأخذ أمره فى إدبار، لعدم مثابرته على سير طريقه الأوّل من سلطنته، فلو جسر لكسر، لكنه هاب فخاب، و لكلّ أجل كتاب- و لنعد إلى ذكر ما كنا بصدده:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۷

فلما تكامل الجمع فى بيت الأمير الكبير خشقدم الناصرى المؤيدى، و متكلم الأشرفية جانبك المشدّ، و جانبك الظريف الخازندار، و من معهم من خچداشيتهم الأعيان؛ و متكلم الظاهرية الأمير جانبك نائب جدّة أحد مقدّمى الألوف، و أعيان خچداشيته، مثل: الأمير أزبك من ططخ الظاهرى، و الأمير بردبك البجمقدار ثانى رأس نوبة جدّة، و قد وافقه الأشرفيّة، و هم يظنون أن الجمع ما هو إلا لسلطنة الأمير جانم نائب الشام؛ لأنهم كانوا اتفقوا على ذلك حسبما تقدم ذكره، و هو أن الظاهريّة كانوا إذا شرعوا فى الكلام مع الأشرفيّة فى معنى الركوب، يقولون بشرط أن لا يكون السلطان منا و لا منكم، و إنما يكون من غير الطائفتين، فيقع بذلك الخلف بينهم، و يتفرقون بغير طائل، إلى أن استرابت الظاهريّة من الملك المؤيّد أحمد هذا، و عظم تخوّفهم منه، فوافقوهم على سلطنة جانم لما جاء ولده يحيى كما تقدم ذكره.

ثم وقع هذا الأمر بغتة، و علم جانبك نائب جدة أن الأمر خرج عن جانم لغيابه، و لا بد من سلطنة غيره لأن الأمر ما فيه مهلة، فلم يبد للأشرفية شيئا من ذلك، و أخذ فيما هو بصدده إلى أن يتمّ الأمر لغير جانم، ثم يفعل له ما بدا له، و كذا وقع حسبما يأتى ذكره فى مجىء جانم، و فى سلطنة الملك الظاهر خشقدم.

هذا و قد جلس جميع الأمراء بمقعد الأمير الكبير خشقدم، فعندما تكامل جلوسهم قام الأمير جانبك نائب جدّة إلى مكان بالبيت المذكور، و معه الأمير جانبك الأشرفى المشدّ، و الأمير جانبك الأشرفى الظريف الخازندار، و الأمير أزبك من ططخ الظاهرى، و الأمير بردبك البجمقدار الظاهرى، و جماعة أخر من أعيان الطائفتين، و تكلموا فيمن يولونه السلطنة، و غرض جانبك نائب جدّة فى

سلطنة الأتابك خشقدم، لا فى سلطنة جانم نائب الشام، غير أنه لا يسعه الآن إظهار ما فى ضميره، خوفا من نفرة الأشرفية، و قال لهم ما معناه: «نحن قد كتبنا للأمير جانم بالحضور، و بايعناه بالسّلطنة، و أنتم تعلمون ذلك عن يقين، و قد دهمنا هذا الأمر على حين غفلة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۸

فما تكون الحيلة فى ذلك، و لا بدّ من قتال الملك المؤيّد فى يومنا، و السلطان ما يقاتل إلا بسلطان مثله، و متى تهاونّا فى ذلك ذهبت أرواحنا»، فعلم كلّ أحد ممن حضر أن كلام جانبك نائب جدّة صواب، و طاوعه كلّ من حضر على مقالته هذه، فلما وقع ذلك أجمع رأى الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء.

ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان، فدار الكلام بينهم فى هذا المعنى، إلى أن قال بعضهم: «سلطنوا الأمير جرباش المحمدى الناصرى أمير سلاح»، فلم تحسن هذه المقالة ببال الأمير جانبك، و لم يقدر على منعه تصريحا و قال: «جرباش أهل لذلك بلا مدافعة، غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره- يعنى بالأمير جانم- تلويحا- لأنه رجل عظيم، و من الجنس، و صهر خچداشنا بردبك البجمقدار، و صهر خچداشكم خيربك البهلوان الأشرفى و غيره، و قد قارب مجىء الأمير جانم من الشام، و الأمر إليكم، ما شئتم إفعلوا».

فكان هذا كله إبعادا لجرباش المذكور، و أخذا بخواطر الأشرفية، فمال كلّ أحد إلى كلامه، ثم قال جانبك: «الرأى عندى سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدى، فإنه من غير الجنس، يعنى كونه رومى الجنس، و أيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة، و متى أردتم خلعه أمكنكم ذلك، و حصل لكم ما تقصدونه من غير تعب».

فأعجب الجميع هذا الكلام، و هم لا يعلمون مقصوده و لا غرضه؛ فإن جلّ قصد جانبك كان سلطنة خشقدم، فإنه مؤيّدى، و خچداشيّته جماعة يسيرة، و أيضا يستريح من جانم نائب الشام و تحكّم أعدائه الأشرفيه فيه و فى خچداشيته الظاهريّة، و يعلم أيضا أنه متى تمّ سلطنة الأتابك خشقدم، و أقام أياما عسر خلعه، و بعدت السلطنة عن جانم و غيره، فدبّر هذه المكيدة على الأشرفية، فمشت عليهم أولا، إلى أن ملكوا القلعة، و خلع الملك المؤيّد بسرعة فتنبّهوا لها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۳۹

و كانت الأشرفية لما سمعوا كلام جانبك، و قالوا: «نعم نرضى بالأمير الكبير» كان فى ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيّد أيّاما كثيرة، كما وقع فى نوبة المنصور عثمان، و يأتيهم جانم و هم فى أشد القتال، فلا يعدلون عنه لخشقدم، فيتمّ لهم ما قصدوه، فاتفقت كل طائفة مع الأخرى فى الظاهر، و باطن كل طائفة لواحد، فساعد الدّهر الظاهريّة، و انهزم الملك المؤيّد فى يوم واحد حسبما نذكره الآن.

فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفيّة و الظاهريّة إلى الأمراء و هم جلوس بمقعد الأمير الكبير خشقدم، و الجميع جلوس بين يدى خشقدم، فافتتح الأمير جانبك نائب جدّة الكلام و قال:

«نحن- يعنى الظاهرية و الأشرفية- نريد رجلا نسلطنه، يكون لا يميّز طائفة على أخرى، بل تكون جميع الطوائف عنده سواء فى الأخذ و العطاء، و الولاية و العزل، و أن يطلق الأمراء المحبوسين من سائر الطوائف، و يرسم فى سلطنته بمجىء المنفيّين من البلاد الشّاميّة و غيرها إلى البلاد المصريّة، و يطلق الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى، و الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من برجى الإسكندرية، و يسكنا الإسكندرية فى أى دار شاءا، و يأذن لهما فى الرّكوب إلى الجامع و غيره بثغر الإسكندرية من غير تحفّظ بهما.

و كان كلام الأمير جانبك لجميع الأمراء لم يخص أحدا منهم بكلام دون غيره، فبادر الأتابك خشقدم بالكلام و قال: «نعم» ثم التفت جانبك إلى الجمع، و قال:

«فمن يكون السلطان على هذا الحكم؟» فبدأ سنقر قرق شبق الأشرفى الزّردكاش، و قال ما معناه: «ما نرضى إلا بالأمير جانم نائب

الشام، أنتم كتبتم له بالحضور، و أذعنتمو بسلطنته، فكيف تسلطنوا غيره؟ فنهره الأمير خيربک من جديد الأشرفى لنفس كان بينهما قديما، و قال:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۰

«لست بأهل الكلام فى مثل هذا المجلس» فعند ذلک قال الأمير قائم التاجر المؤيّدى أحد مقدمى الألوف ما معناه «يا جماعة إن كنتم كاتبتم الأمير جانم نائب الشام فلا تسلطنوا غيره إلى أن يحضر و سلطنوه، فإنه لا يسعكم من اللّه أن تسلطنوا غيره الآن ثم تخلعوه عند حضور جانم، فهذا شيء لا يكون» فلم يسمعوا كلامه، و سمع فى الغوغاء قول قائل لا يعرف:

«سلطنوا الأمير جرباش»:

فامتنع جرباش من ذلک و قال ما معناه: «إن هذا شيء راجع إلى الأمير الكبير»، و قبّل الأرض من وقته، فقام الأمير جانبک الأشرفى الظريف الخازندار و بادر بأن قال: «السلطان الأمير الكبير»، و قبّل الأرض، ثم فعل ذلک جميع من حضر من الأمراء، و نودى بالحال بسلطنته بشوارع القاهرة، ثم شرعوا بعد ذلک فى قتال الملک المؤيّد أحمد هذا.

كل ذلک و الملک المؤيّد فى القلعة فى أناس قليلة من مماليكه و مماليک أبيه الأجلاب، و لم يكن عنده من الأمراء أحد غير مملوک والده قراجا الطويل الأعرج، أحد أمراء العشرات، و هو كلا شيء، و الأمير آخور الكبير برسباى البجاسى، وليته لا كان عنده، و خيربک القصروى نائب قلعة الجبل و كان أضرّ عليه من كل أحد حسبما يأتى ذكر فعله، كلّ ذلک و الملک المؤيد لا يعلم حقيقة ما العزم فيه، غير أنه يعلم باجتماع المماليک و الأمراء فى بيت الأمير الكبير خشقدم، و أنهم فى أمر مريج، غير أنه لا يعرف نص ما هم فيه، و صار الملک المؤيّد يسأل عن أحوالهم، و ينتظر مجيء أحد من مماليک أبيه إليه، فلم يطلع إليه أحد منهم، بل العجب أن غالبهم كان مع القوم عند الأمير الكبير مساعدة على ابن أستاذهم، وليتهم كانوا من المقبولين، و إنما كانوا من المذبذبين

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۱

لا غير، على أن الملک الظاهر خشقدم لما تسلطن أبادهم، و شوّش عليهم بالمسک و إخراج أرزاقهم أكثر مما عمله مع الذين كانوا عند المؤيد- فلا شلّت يداه- و بقى الملک المؤيد كلما فحص عن أمر الفتنة لا يأتيه أحد بخبر شاف، بل صارت الأخبار عنده مضطربة، و آراؤه مفلوكة، و هو فى عدم حركة، و يظهر عدم الاكتراث بأمر هذا الجمع، إلى أن تزايد الأمر، و خرج عن الحد، و صار اللعب جدّا، فعند ذلک تأهّب من كان عنده من المماليک، و قام الملک المؤيّد من قاعة الدهيشة، و مضى إلى القصر السلطانى المطلّ على الرّميلة، ثم نزل بمن معه إلى باب السلسلة، و قبل أن يصل إلى الإسطبل جاءه الخبر بأن القوم أخذوا باب السلسلة، و ملكوا الإسطبل السلطانى، و أخذوا الأمير برسباى البجاسى الأمير آخور الكبير أسيرا إلى الأمير الكبير خشقدم، و كان أخذ باب السلسلة مكيدة من برسباى المذكور، فلما سمعت الأجلاب أخذ باب السلسلة نزل طائفة منهم و صدموا من بها من عساكر الأتابک خشقدم صدمة هزموهم فيها، و استولوا على باب السلسلة ثانيا، و هو بلا أمير آخور.

و جلس السلطان الملک المؤيد بمقعد الإسطبل المطل على الرّميلة، و كان عدم نزول المؤيّد إلى الإسطبل بسرعة له أسباب، منها: أنه كان مطمئن الخاطر على باب السلسلة؛ لكون الأمير آخور برسباى ليس هو من غرض أحد من الطائفتين، و أيضا كونه صهره زوج بنت أخته من الأمير بردبک الدّوادار الثانى، و قد صار بردبک من الممسوكين عند الأتابک خشقدم، و أيضا أن والده إينال هو الذى رقّاه و خوّله فى النعم، فلم يلتفت برسباى لشيء من ذلک، و أنشد قول من قال: [الوافر]

لعمرک و الأمور لها دواع لقد أبعدت ياعتب الفرارا

و منها: أنه صار ينتظر من يأتيه من أصحابه و حواشيه و خجداشية أبيه و مماليكه،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۲

فلم يأته أحد منهم، فلما يئس منهم قام من الدّهيشة بعد أن جاءه الخبر بأخذ باب السلسلة و استرجاعها بيد مماليک أبيه الأجلاب، و

لما جلس بالمقعد و رأى القوم قد تكاثف جمعهم و كثر عددهم، و هو فيما هو فيه من قلّة العساكر و المقاتلة، لم يكترث بذلك، و أخذ فى الدفع عن نفسه بمن عنده، غير أن الكثرة غلبت الشجاعة، و ما ثمّ شجاعة و لا دربة بمقاومة الحروب، و صار كذلك خذلانا من اللّه تعالى، فإنه لم يطلع إليه فى هذا اليوم واحد من مماليك أبيه القديمة و لا خچداشيته، و ما كان عنده من الأمراء غير قراجا المقدم ذكره، و من أعيان الخاصكية فارس البكتمرى أحد الدّوادارية الأجناد، و مقبل دواداره قديما قبل سلطنته، و هؤلاء الثلاثة كلا شيء، و لو لا ذكر أسماء من كان عنده علم خبر ما ذكرت مثل هؤلاء الأصاغر، و كان عنده مع هؤلاء أجلاب أبيه الذين بالأطباق، و هم عدة كبيرة نحو الألف أو دونها بيسير، أو أكثر منها بقليل، و هم الذين اشتراهم والده الأشرف بعد سلطنته من التجار، و أما الذين اشتراهم من تركة الظاهر جقمق و من مماليك ولده الملك المنصور عثمان- و عدتهم تزيد على المائتين، و هم أعيان مماليك الأشرف إينال و أصحاب الوظائف و الإقطاعات- فقد استمالهم الأمير جانبك نائب جدّة قبل ذلك، و قال لهم: «أنتم ظاهرية و شراء الأشرف لكم غير صحيح» فمالوا إلى كلامه و إحسانه و عطاياه الخارجة عن الحدّ فى الكرم، و صاروا من حزب الظاهرية، و ركبت الجميع معه فى هذا اليوم، و قاتلوا ابن أستاذهم أشدّ قتال، و صاروا هم يوم ذلك أعيان العسكر بالشبيبة و الإمكان و الكثرة، هذا مع من كان مع الأتابك خشقدم من الناصرية و المؤيديّة و الظاهرية و السيفية.

فلما رأى الملك المؤيّد كثرة هذه العساكر و ميل مماليك والده معهم تعجّب غاية العجب، و علم أن ذلك أمر ربّانىّ ليس فيه حيلة، و ما هو إلا بذنب سلف من دعوة مظلوم غفلوا عنها لم يغفل اللّه عنها، أو للمجازاة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، و قد ركب أبوه الملك الأشرف إينال على الملك المنصور عثمان بعد أن تخوّل فى نعم الظاهر جقمق، فإنه هو الذى رقّاه و ولّاه الأتابكية، فغدر به و خلعه من الملك، و تسلطن مكانه، و حبسه إلى أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۳

و أغرب من هذا كله أن الملك المؤيد هذا كان له أيام والده جماعة كبيرة من أعيان الظاهريّة و الأشرفيّة و السيفية يصحبونه و يمشون فى خدمته، و يتوجهون معه فى الرّمايات و الأسفار، و إحسانه متصل إليهم من الإنعام و المساعدة فى الأرزاق و الوظائف، فلم يطلع إليه واحد منهم، و أيضا فانضافوا الجميع للأتابك خشقدم و من معه قبل أن يستفحل أمر خشقدم و يضعف أمر المؤيد، فماذاك إلا عدم موافاة لا غير.

و أعجب من هذا أن أصحاب المؤيد و مماليك أبيه الذين تقدم ذكرهم ممّن انضاف مع الأتابك خشقدم كانوا يوم الواقعة من المقوتين لا من المتأهلين، و ذلّ الإبعاد لائح عليهم، و كان يمكنهم تلافى الأمر و الطلوع إلى الملك المؤيد و مساعدته، فلم يقع ذلك، فهذا هو السبب لقولى: إن هذا كله مجازاة لفعل والده السّابق، و قد ورد فى الإسرائيليات، يقول الرب: «يا داود، أنا الرّب الودود، أعامل الأبناء بما فعل الجدود»

ثم التحم القتال بين الطائفتين مناوشة لا مصافة، غير أن كلا من الطائفتين مصرّ على قتال الطائفة الأخرى، و الملك المؤيد فى قلة عظيمة من المقاتلة ممن يعرف مواقع الحرب و ليس معه إلا أجلاب، و هذا شيء لم يقع لأحد غيره من السلاطين أولاد السلاطين؛ فإن الناس لم تزل أغراضا، و وقع ذلك للعزيز مع الملك الظاهر جقمق، فكان عند العزيز جماعة كثيرة من الأمراء و الأعيان لا تدخل تحت حصر، و كذلك للمنصور عثمان مع الملك الأشرف إينال، و كان عنده خلائق من أعيان الأمراء، مثل الأمير تنم المؤيدى أمير سلاح، و مثل الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و غيرهما من أعيان أمراء أبيه، و لا زالت الدنيا بالغرض، فقوم مع هذا، و قوم مع هذا، غير أن الملك المؤيد هذا لم يكن عنده أحد البتة، فانقلب الموضوع فى شأنه؛ فإنه كان يمكن الذى وقع له يكون للعزيز و المنصور؛ فإنهما كانا حديثى سن، و الذى وقع لهما-

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۴

أعنى العزيز و المنصور- كان يكون للمؤيّد؛ لأنه كبير سن، و صاحب عقل و تدبير- فسبحان اللّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قلت: و لهذا لم تطل وقعة المؤيد هذا، فإنه علم بذلك زوال ملكه، و تركه برسباى البجاسى الأمير آخور، و خيربك القصروى نائب قلعة الجبل، و نزلا إلى الأتابك خشقدم، فإن العادة فى الحروب إذا كان كل من الطائفتين يقابل الأخرى فى القوة و الكثرة يقع القتال بين الطائفتين، و كلّ من الطائفتين يترجّى النّصرة، إلى أن يؤول النصر لإحدى الطائفتين، و تذهب الأخرى، إلّا هذه الوقعة لم يكن عند المؤيّد إلّا من ذكرناه. و أما عساكر الأتابك خشقدم فانتشرت على مفارق الطرق، فوقف الأمير جانبك الظاهرى نائب جدّة بجماعة كثيرة من خچداشيته و مماليكه برأس سويقة منعم، و تلقّى قتال الملك المؤيد بنفسه و بحواشيه المذكورين، و عظم أمر الأمير الكبير خشقدم به حتى تجاوز الحدّ، و اجتهد جانبك المذكور فى حرب المؤيد حتى أباده.

و كان الملك المؤيّد أولا يقرّب جانبك هذا فى ابتداء سلطنته تقريبا هيّنا مع عدم التفات إليه و لا إلى غيره؛ لأنه كان يقول فى نفسه: إن ابتداءه كانتهاء أبيه فى العظمة، و لما تسلطن أخذ فى الأمر و النهى أولا بغير حساب عواقب، استعزازا بكثرة ماله و بحواشيه و مماليك أبيه، فسار فى الناس بعدم استمالة خواطرهم، و سار على ذلك مدّة أيام، و جعل جانبك هذا فى أسوة من سلك معهم هذه الفعلة، فاستشارنى جانبك فى أن يداخله لعله يرقّع عليه أمره، فإنه ما كان حمولا للذّل، و إنما كان طبعه أن يبذل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۵

المال الجزيل فى القدر اليسير فى قيام الحرمة، فأشرت عليه بالمداخلة، فداخله، و كنت أنا قبل ذلك داخلته أياما، فإذا به جامد نفور بعيد الاستمالة إلا لمن ألفه، و حدّثته بما رأيته منه قبل أن أشير عليه بصحبته، فقال ما معناه: إنى أنا آخذ الشىء بعزة و تمهل، و هو يدور مع الدهر كيفما دار، ثم اجتمع بى بعد مدّة أيام فى يوم الجمعة بعد أن صلّى معه الجمعة، و قلع ما عليه من قماش الموكب، و دخل إليه فى الخلوة بقاعة الدهيشة، ثم خرج من عنده و هو غير منشرح الصدر، و قال لى: «القول ما قلته»، ثم شرعنا فيما نحن فى ذكره مجلسا طويلا، و قمنا على غير رضاء من الملك المؤيّد.

و وقع فى أثناء ذلك ما ذكرناه من أمر الوقعة و الفتنة، و وقوف جانبك و من معه برأس سويقة منعم، هذا مع ما كان بلغ المؤيد فى هذا اليوم و فى أمسه أن القائم بهذا الأمر كله جانبك نائب جدّة، و أنه هو أكبر الأسباب فى زوال ملكه، و فى اجتماع الناس على الأتابك خشقدم، ثم رأى فى هذا اليوم بعينه من قصر القلعة وقوف جانبك على تلك الهيئة، فعلم أن كل ما قيل عنه فى أمسه و يومه صحيح، فأخذ عند ذلك يعتذر و كتب كتابا للأمير جانبك بخطّه يعده فيه بأمور، منها: أنه يجعله إن دخل فى طاعته أتابك العساكر بالدّيار المصريّة، و أنه لا يخرج عن أوامره، و أنه يكون هو صاحب عقده و حلّه، و يترقّق له، و بسط الكلام فى معنى ما ذكرناه أسطرا كثيرة، و هو يكرّر السؤال فيه، و يحلف له فيما وعده به، و رأيت أنا الكتاب بعينى، و فيه لحن كثير، كأنه كان مامارس العربيّة، و لا له إلمام بالمكاتبات، على أنه كان حاذقا فطنا، غير أن الفضيلة نوع آخر، كما كانت رتبة المقام الناصرى محمد ابن الملك الظاهر جقمق- رحمهما اللّه تعالى- فلم يرث جانبك لما تضمن هذا الكتاب، و دام على ما هو عليه، و نهر قاصده الحامل لهذا الكتاب، و قال له: «إن عدت إلىّ مرّة أخرى أرسلتك إلى الأمير الكبير»، و استمر على ما هو عليه من الاجتهاد فى القتال، و صار أمر الملك المؤيد فى إدبار، و عساكر الأتابك خشقدم فى نموّ و زيادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۶

هذا و المناوشة بالقتال مستمرّة بين الطائفتين، و قد أفطر فى هذا اليوم خلائق من شدة الحر، و تعاطى القتال من الطائفتين؛ و جرح جماعة كثيرة من الفريقين، فلم ينقض النهار حتى آل أمر الملك إلى زوال، و هو مع ذلك ينتظر من يجىء إليه لمساعدته، و هو بين عسى و لعلّ، و كاتب جماعة من أصحابه ممن كان عند الأتابك خشقدم؛ فلم يلتفت إليه أحد لتحقق الناس زوال ملكه.

و بينما الناس فى ذلك و إذا بخير بك القصروى نائب قلعة الجبل ترك باب المدرّج، و نزل إلى الأمير الكبير خشقدم، و صار من حزبه، فعلم كلّ أحد أنه قد ذهب أمر الملك المؤيّد، و لو كان فيه بقية ما نزل نائب القلعة منها و انضاف إلى جهة الأمير الكبير، و بقى باب القلعة بغير ضابط، فأرسل الملك المؤيد فى الحال بعض أصحابه و جلس مكان خيربك هذا، فلم يشكر أحد خيربك

المذکور علی فعلته هذه.

کل ذلک و أمر المؤیّد فی انحطاط فاحش، و صارت العامة تسمعه المکروه من تحت القلعة: لا سیما لما دخل اللیل، فإنه بات بالقصر فی قلّة من الناس إلی الغایة؛ لأن غالب من کان عنده ترکه و نزل إلی تحت، و کانوا فی الأصل جمعا یسیرا، و بات من هو أسفل و قد استفحل أمرهم، و تأهبوا للقتال فی غد، و همتهم قد عظمت من کثرة عددهم، و تکاثف عساکرهم من کل طائفة، حتی من لیس له غرض عند أحد بعینه جاء إلی الأمیر الکبیر مخافة علی رزقه و نفسه؛ لما علم من قوّة شوکة الأمیر الکبیر و ما یؤول أمره إلیه.

هذا مع حضور الخلیفة و القضاة الأربعة عند الأمیر الکبیر و جمیع أعیان الدولة من المباشرین و أرباب الوظائف و غیرهم، و الملک المؤید فی أناس قلیلة جدا، و مضت لیلة الأحد المذکور، و الملک المؤید فی أقبح حال، هذا و قد عدم ترجّی من کان عنده بالقلعة من نصرته، و تقاعد غالب من کان عنده عن القتال، و هم الأجلاب من ممالیک أبیه لا غیر.

فلما أصبح نهار الأحد تاسع عشر شهر رمضان من سنة خمس و ستین و ثمانمائة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۷

ظهر ذلک علیهم، و بردت همتهم، و رکضت ریح عزائمهم، و أخذ کل واحد من أصحابه فی مصلحة نفسه، إما بالإذعان للأمیر الکبیر خشقدم، أو بالتّجهّز للهرب و الاختفاء، و ظهر ذلک للملک المؤید عیانا، فأراد أن یسلّم نفسه، ثم أمسک عن ذلک من وقته.

کلّ ذلک و أصحاب الأمیر الکبیر لا یعلمون بذلک، فقد أصبحوا فی أفحل أمر، و أقوی شوکة، و أکثر عدد، و قد تهیئوا فی هذا الیوم للقتال و محاصرة قلعة الجبل، زیادة علی ما کانوا علیه فی أمسه، و فی نفوسهم أن أمر القتال یطول بینهم أیّاما، و بیناهم فی ذلک ورد علیهم خبر الملک المؤید مفصلا، و حکی لهم انحلال برمه و انفلاک أمره، و ما هو فیه من أنه أراد غیر مرّة تسلیم نفسه، و زاد الحاکی و أمعن لغرض ما، فقوی بذلک قلوب من هو أسفل، و تشجّع کلّ جبان، فطلب المبارزة کلّ مولّ، و تقدّم کل من کان خاف هذا من هؤلاء، فکیف أنت بالشجاع المقدام؟!

فعند ذلک اجتمعوا علی القتال، و زحفوا علی القلعة بقلب رجل واحد، فقاتلهم عساکر الملک المؤید قتالا لیس بذاک ساعة هیّنة، فلما رأی الملک المؤید أن ذلک لا یفیده إلا شدّة و قسوة أمر عساکره و مقاتلته بالکفّ عن القتال، و قام من وقته و طلع القلعة بخواصه، و أمر أصحابه بالانصراف إلی حیث شاءوا.

ثم دخل هو إلی والدته خوند زینب بنت البدری حسن بن خاص بک، و ترک باب السّلسلة لمن یأخذه بالتسلیم، و تمزّقت عساکره فی الحال کأنها لم تکن، و زال ملکه فی أقلّ ما یکون، فسبحان من لا یزول ملکه و بقاؤه الدائم الأبدی.

فلما بلغ الأمیر الکبیر خشقدم الخبر قام من وقته بمن معه من أصحابه و عساکره، و طلع إلی باب السلسلة، و استولی علی الإسطبل السلطانی، و ملک قلعة الجبل أیضا فی الحال من غیر مقاتل و لا مدافع، و أمر الأمیر الکبیر فی الحال بقلع السّلاح و آلة الحرب و سکن الأمر، و خمدت الفتنة کأنها لم تکن، ثم أرسل الأتابک خشقدم فی الحال جماعة من أصحابه قبضوا علی الملک المؤید أحمد هذا من الدّور السلطانیة، فأمسک من غیر ممانعة، و سلم نفسه، و أخرج من الدّور إلی البحرة من الحوش السلطانی، و حبس

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۸

هناک بعد أن قیّد و احتفظ به، و أمسک أخوه محمد أیضا، و حبس معه بالبحرة، فخرجت والدتهما خوند زینب المقدّم ذکرها معهما، و أقامت عندهما بالبحرة المذکورة، و قد علمت و علم کلّ أحد أیضا بأن الذی وقع لهم من زوال ملکهم فی أسرع وقت إنما هو بدعوة مظلوم غفلوا عنها، لم یغفل اللّه عنها، و للّه در القائل: [الوافر]

أری الدّنیا تقول بملء فیها حذار حذار توبیخی و فتکی

و لا یغررکم منّی ابتسام فقولی مضحک، و الفعل مبکی

قلت: «علی قدر الصّعود یکون الهبوط، و کما تدین تدان، و ما ربّک بظلّام للعبید، و الجزاء من جنس العمل» و کأنّ لسان حال

إسكندرية قبل ذلك يقول: «كل ثان لا بدّ له من ثالث»، فالأوّل ممّن كان فيها من السّلاطين أولاد الملوك: الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى، و قد خلعه الملك الظاهر جقمق، و تسلطن مكانه، ثم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق، خلعه الملك الأشرف إينال، و تسلطن عوضه، و هو الثانى، فاحتاجت الإسكندرية إلى ثالث، ليجازى كلّ على فعله، فكان المؤيد هذا، خلعه الملك الظّاهر خشقدم، و تسلطن مكانه، و استولى على جميع حواصل الملك المؤيد و ذخائره، فلم يجدوا فيها ما كان فى ظنّهم، فطلبوا منه المال، فذكر أنّه أصرف جميع ما كان فى خزانة والده فى نفقة المماليك السّلطانية لما تسلطن، و لم يبق فى الخزانة إلا دون المائة ألف دينار.

ثم تتّبعوا حواصله و حواشيه بعد ذلك، فأخذوا منهم زيادة على مائة ألف دينار، و بعض متاع، وصينى و قماش. و استمرّ الملك المؤيّد محتفظا به بالبحرة إلى ما سنذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۴۹

و كانت مدّة تحكمه من يوم تسلطن إلى يوم خلع من السلطنة بالملك الظاهر خشقدم أربعة أشهر و ستة أيام بغير تحرير، و بتحرير الأوقات و الساعات:

و خمسة أيام.

و لما نكب الملك المؤيد و خلع من السلطنة على هذا الوجه كثر أسف الناس عليه إلى الغاية و النهاية، فإنه كان سار فى سلطنته سيرة حسنة جميلة، و قمع أهل الفساد و قطّاع الطريق بجميع إقليم مصر، و أمنت السّبل فى أيامه أمنا زائدا، و اطمأنّت النفوس من تلك المخاوف التى كانت فى أيام أبيه، و زالت أفعال الأجلاب بالكليّة مما أردعهم فى أوائل سلطنته بالإخراق و الوعيد و أبعدهم عنه، ثم سلك الطريق الجميلة فى الرعيّة فعظم حبّ الناس له، و انطلقت الألسن له بالدعاء و الابتهال سرّا و علانية، و سر بسلطنته كلّ أحد من الناس، و مالت القلوب إليه، لو لا تكبّر كان فيه و عدم التفات إلى الأكابر، حسبما تقدّم ذكره، و هذا كان أكبر الأسباب لتوغّر خواطر الأمراء منه، و إلا فكان أهلا للسلطنة بلا نزاع، فلو أنّه سار مع الأمراء سيرة والده الأشرف من الملق، و أخذ الخواطر مع إرادة اللّه تعالى، لدامت أيّامه مقدار المواهب الإلهية، لأنه كان ملكا عارفا سيوسا، فطنا عالى الهمة يقظا، لو لا ما شان سؤدده من التكبر، و مصاحبة الأحداث، و للّه در القائل:

[الطويل]

و من ذا الّذى ترضى سجاياه كلّها؟ كفى المرء فخرا أن تعدّ معايبه

و دام الملك المؤيد هذا بالبحرة من الحوش السلطانى بقلعة الجبل إلى يوم الثلاثاء حادى عشرين شهر رمضان فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بتوجّهه و توجّه أخيه محمد إلى سجن الإسكندرية، فأنزلا فى باكر النهار المذكور، و أخرج الملك المؤيد هذا مقيّدا، و حمل على فرس، و لم يركب خلفه أحد من الأوجاقية - كما هى عادة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۰

من يحمل من أعيان الأمراء إلى سجن الإسكندرية- فنزّهوا مقامه عن ذلك، و أنا أقول: لعل أنه ما قصدوا بذلك إجلاله، فإنه ليس فى القوم من هو أهل لهذه المعانى. و إنما الملك المنصور عثمان كان لما أنزل من القلعة إلى الإسكندرية على هذه الهيئة لم يركب خلفه أوجاقى، فظن القوم أن العادة لا يركب خلف السلطان أوجاقى ففعلوا بالمؤيد كذلك، و لقد سمعت هذا المعنى من جماعة من أكابر الجهلة المشهورين بالمعرفة، فلو قيل له: و أى سلطان أنزل من القلعة بعد خلعه من السلطنة إلى الإسكندرية على هذا الوجه، لما كان يسعه أن يقول رأيت ذلك فى بلاد الچاركس- انتهى.

و حمل أخوه محمد أيضا على فرس آخر بغير قيد فيما أظن، و نزل أمامه، و بين يديهما مملوك أبيهما قراجا الأشرفى الطويل الأعرج على بغل بقيد، و خلفه أوجاقى- على عادة الأمراء- بسكين، و أنا أقول: عظم قراجا بهذا النزول مع هؤلاء الملوك فى مثل هذا اليوم، و

الـذى أراه أنا أنه كان يتوجّه بين يـدى هؤلاء ماشيا إلى أن يصل إلى البحر، و إلا فهذا إجلال لقدر هذا الوضـيع، و إن كان فيه ما فيه من النكد، ففيه ثوع من رفع مقامه.

و سـار الجميع و العسـاكر محتفظـة بهم، و على أكثرهم السـلاح و آلـة الحرب، و جلست النـاس بالحوانيت و الطّرقات و البيوت لرؤية الملـك المؤيـد هـذا، كما هى عادة العوامّ و غيرهم من المصـريين، و توجهوا بهم من الصـليبة إلى أن اجتازوا بالملك المؤيـد و أخيه محمـد على تلـك الهيئـة بـدار أخته شـقيقته زوجـة الأمير يونس الـدّوادار الكبير، و هو فى حياض الموت، لمرض طال به أشـهرا تجاه الكبش، فلما وقع بصـر زوجـة الأمير يونس على أخويها و هما فى تلك الحالـة العجيبـة المهولة صاحت بأعلى صوتها هى و من حولها من الجوارى و النسوة، فقـامت عيطـة عظيمـة من الصّـياح و اللّطم و الرءوس المكشوفـة، فحصـل للناس من ذلك أمر عظيم من بكاء و حزن و عبرة على ما أصاب هؤلاء من النّكبة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٥١

و الهوان بعد الأمن و العزّ الذى لا مزيد عليه، و ما أحسن قول من قال فى هذا المعنى:

[البسيط]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج١۶؛ ص ٢٥١

جاد الزّمان بصفو ثمّ كدّره هذا بذاك، و لا عتب على الزمن

و دام سـيرهم على هـذه الصـفة إلى أن وصـلوا بهم إلى البحر بخـط بولاـق بساحـل النّيل، فأنزل الملك المؤيـد و أخوه و معهما قراجا المذكور فى مركب واحد، و سافروا من وقتهم على الفور إلى الإسكندرية، و قد كثر تأسّف الناس عليهم إلى الغاية، ما خلا المماليك الظاهريـة فـإنهم فرحوا به لمـا كـان فعل الملك الأشـرف إينال بابن أسـتاذهم الملك المنصور كـذلك، فجازوه بما فعلوه الآن مع ابنه الملك المؤيد هذا، قلت: هكذا فعل الدهر، يوم لك و يوم عليك.

و دام الملك المؤيد و من معه مسافرا فى البحر إلى ثغر رشـيد، فسافروا على البر إلى أن وصـلوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها، و استمر الملك المؤيد مسـجونا بقيده إلى أن اسـتهلّت سـنة ست و ستين فرسم السـلطان الملك الظاهر خشـقدم بكسـر قيده فكسر، و توجهت والـدته خونـد زينب إليه و سـكنت عنـده بالثغر و معها ابنتها زوجـة الأمير يونس بعد موته، ثم مرض ولدها محمد فى أثناء السّـنة أيّاما كثيرة، و مـات بـالثغر، و دفن به فى ذى الحجـة، و قبـل موته مـاتت ابنته بنت أشـهر، و لم يتهم أحـد لموته، لأن مرضه كان غير مرض المتهومين، و لما وقع ذلك أرسـلت والـدته خونـد زينب تسـتأذن السّـلطان فى حمل رمّـة ولدها محمد المذكور من الإسـكندرية إلى القاهرة لتدفنه عند أبيه الأشـرف إينال، فأذن لها فى ذلك، فحملته بعد أشـهر، و جاءت به إلى القاهرة فى شهر ربيع الأوّل من سنة سبع و ستين و ثمانمائة، و دفن محمد المذكور على أبيه فى فسـقية واحدة- رحمهما اللّه تعالى و المسـلمين- و لم تحضر والدته المذكورة مع رمّـة ولـدها محمـد، و إنما قامت عنـد ولـدها الملك المؤيـد أحمـد بالإسـكندرية، لمرض كان حصل للملك المؤيـد أبطل بعض أعضائه، ثم عوفى بعد ذلك بمدّة، و حضرت بعد ذلك إلى القاهرة بطلب من السلطان بسبب المال، و صادفت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٥٢

وفـاة الأـمير يونس المؤيـدى الـدوادار الكبير صـهره زوج أخته بعـد يوم، ثم تزوّجهـا الأمير كسـباى الخشـقدمى الـدّوادار الثانى، فقبل دخولها ماتت معه.

و كان عمره وقت سلطنته نيفا و ثلاثين سنة، فإن مولده و أبوه نائب بغزة.

و كانت مدة سـلطنة الملك المؤيّد أحمد على مصر أربعة أشهر و أربعة أيام، مرّت أيامه كالدقائق، لسرعتها و حسن أوقاتها، و دام فى الإسكندرية، و قد كمل له بها الآن مدّة عشر سنين سواء.

و لمـا مـات الظـاهر خشـقدم و تسـلطن الملـك الظـاهر تمربغـا الظاهرى، ففى أوّل يوم رسم بإطلاق الملك المؤيّـد أحمـد من سـجن

الإسكندرية، و رسم له بأن يسكن فى الإسكندرية فى أى بيت شاء، و أنه يحضر صلاة الجمعة راكبا، و أرسل إليه خلعة و فرسا بقماش ذهب، فاستمرّ يركب، و لما تسلطن صهره الملك الأشرف قايتماى زاد فى إكرامه، و بقى يسافر، و صاهره على ابنته الأمير يشبك من مهدى الظاهرى الدّوادار الكبير، و دام.

و هذه السنة و هى سنة خمس و ستين و ثمانمائة هى التى اتفق فيها أن حكم فيها ثلاثة ملوك؛ حكم الملك الأشرف إينال من أوّلها إلى نصف جمادى الأولى، و حكم ولده الملك المؤيّد هذا من نصف جمادى الأولى المذكورة إلى تاسع عشر شهر رمضان فقط، و حكم الملك الظاهر خشقدم من تاسع عشر شهر رمضان فقط إلى آخرها.

و سنذكر وفيات هذه السنة بتمامها فى محلها فى أول سنين سلطنة الملك الظاهر خشقدم- حسبما اصطلحنا عليه فى مصنفنا هذا- إن شاء اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۳

ذكر سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر

هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد اللّه الناصرى المؤيّدى، و هو السلطان الثامن و الثلاثون من ملوك التّرك و أولادهم بالديار المصرية، و الأوّل من الأروام بعد أن تسلطن من الچراكسة و أولادهم ثلاثة عشر ملكا، أعنى من أول دولة الظاهر برقوق و هو القائم بدولة الچراكسة ابتداء، و أما من سلف من ملوك التّرك الچراكسة و الأروام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى، و الذى تحرّر منهم من دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا، فأوّل الچراكسة برقوق، و أول الأروام خشقدم، هذا و بينهما إحدى و ثمانون سنة لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، لأن كلّا منهما تسلطن فى تاسع عشر شهر رمضان، فذاك- أعنى برقوقا- فى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و خشقدم هذا فى سنة خمس و ستين و ثمانمائة، تسلطن يوم خلع الملك المؤيّد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود، فى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس و ستين و ثمانمائة بعد الزوال، و هو يوم ملك القلعة من الملك المؤيّد أحمد.

فلما كان وقت الزّوال طلب الخليفة المستنجد بالله يوسف و القضاة و الأعيان، و قد حضر جميع الأمراء فى الإسطبل السلطانى بباب السّلسلة بالحرّاقة، و بويع بالسلطنة، و كان قد بويع بها من بكرة يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قبل قتال الملك المؤيّد أحمد حسبما تقدّم ذكره فى ترجمة الملك المؤيّد أحمد، و لقب بالملك الظاهر، و كنى بأبى سعيد.

و لما تمّ له الأمر لبس خلعة السلطنة السّواد من مبيت الحرّاقة و ركب فرس النوبة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۴

و طلع إلى القصر السلطانى بشعار الملك و الأمراء و العساكر مشاة بين يديه، ماخلا الخليفة فإنه راكب معه، و قد حمل القبّة و الطير على رأسه الأمير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد أمير سلاح، و جلس على تخت الملك، و قبّلت الأمراء و العساكر الأرض بين يديه، و دقّت البشائر فى الوقت، فازدحمت الناس لتهنئته و تقبيل يديه إلى أن انتهى كلّ أحد، و نودى فى الحال بسلطنته فى شوارع القاهرة، و خلع على الخليفة المستنجد بالله يوسف فوقانيا حريرا بوجهين أبيض و أخضر بطرز زركش، و قدّم له فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش، ثم خلع على الأمير جرباش المحمدى أطلسين متمّرا و فوقانيا بوجهين بطرز زركش، و أنعم عليه بفرس بقماش ذهب، و هذه الخلعة لحمله القبّة و الطير على رأس السلطان، و خلعة الأتابكيّة تكون بعد ذلك، غير أن جرباش المذكور علم أنه قد صار أتابكا لحمله القبّة و الطير على رأس السلطان.

ثم خلع السلطان على الأمير قرقماس الأشرفى أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضا عن جرباش.

و كانت سلطنة الملك الظاهر خشقدم و جلوسه على تخت الملك وقت الظهر من يوم الأحد المقدم ذكره، و كان الطالع وقت سلطنته

و جلوسه على تخت الملک.

و استمرّ جلوس السلطان الملک الظاهر خشقدم بالقصر السلطانى من قلعة الجبل إلى الخميس، و عنده جميع الأمراء على العادة، ثم أصبح السلطان فى يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان خلع على الأمير جرباش المحمدى خلعة الأتابكية، و هى كخلعته بالأمس.

و فيه رسم السلطان بإطلاق الأميرين من سجن الإسكندرية، الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيدى أمير سلاح كان، و الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير كان، و توجههما إلى ثغر دمياط بطّالين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۵

و فى يوم الثلاثاء حادى عشرينه الثانية من النهار حمل الملک المؤيّد أحمد و أخوه محمد من قلعة الجبل إلى جهة الإسكندرية ليحبسا بها.

قلت: و قبل أن نشرع فى ذكر الحوادث نبدأ بالتّعريف بأصل الملک الظاهر خشقدم هذا و سبب ترقّيه إلى السلطنة فنقول:

أصله رومىّ الجنس، جلبه خواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية فى حدود سنة خمس عشرة و ثمانمائة، أو فى أوائل سنة ست عشرة، هكذا أملى علىّ من لفظه بعد سلطنته، و سنّه يوم ذلک دون البلوغ، فاشتراه الملک المؤيّد شيخ، و جعله كتابيا سنين كثيرة، ثم أعتقه و جعله من جملة المماليک السلطانية، إلى أن مات الملک المؤيّد فصار خشقدم هذا خاصكيا فى دولة ولده الملک المظفر أحمد بن شيخ، بسفارة أغاته الأمير تغرى بردى قريب قصروه، و دام خاصكيا مدة طويلة إلى أن صار ساقيا فى أوائل دولة الملک الظاهر جقمق، ثم أمّره الملک الظاهر إمرة عشرة، و جعله من جملة رءوس النوب فى حدود سنة ست و أربعين، فدام على ذلک إلى سنة خمسين، فأنعم عليه الملک الظاهر أيضا بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و استمرّ بدمشق إلى أن تغيّر خاطر الملک الظاهر جقمق على الأمير تنبک البردبکى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى نعتوه الناس بالصلاح، و نفاه إلى ثغر دمياط بطّالا، فرسم السلطان الملک الظاهر جقمق بطلب خشقدم هذا من مدينة دمشق، ليكون عوضا عن تنبک المذكور فى حجوبية الحجاب، و على إقطاعه أيضا دفعة واحدة، و ذلک فى صفر سنة أربع و خمسين و ثمانمائة، و كان مجىء خشقدم هذا إلى الديار المصرية بسفارة الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الثانى، و قيل على البذل على يد أبى الخير النحاس، و أنعم السلطان بتقدمة خشقدم هذا التى بدمشق على الأمير علّان جلّق المؤيدى، فاستمرّ خشقدم المذكور على الحجوبية إلى أن تسلطن الملک الظاهر جقمق، فخلع عليه بإمرة سلاح عوضا عن الأمير تنبک البردبکى الذى كان أخذ عنه الحجوبية بعد أن وقع لتنبک المذكور دورات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۶

و تنقلات، فدام على وظيفة إمرة سلاح إلى أن سافر مقدم العساكر السلطانية إلى بلاد ابن قرمان، ثم عاد و استمرّ على حاله إلى أن تسلطن الملک المؤيّد أحمد ابن الأشرف إينال، فخلع عليه باستقراره أتابک العساكر عوضا عن نفسه، و ذلک فى يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس و ستين، فلم تطل أيّامه، و ثار القوم بالملک المؤيّد أحمد و قاتلوه حتى خلعوه حسبما ذكرنا أمر الوقعة فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور».

و تسلطن الملک الظاهر خشقدم هذا، و وقع فى سلطنته نادرة غريبة، و هى أن الملک الظاهر برقوقا كان أول ملوک الچراكسة بالديار المصرية- إن كان الملک المظفر بيبرس الجاشنكير غير چاركسى- و كانت سلطنة برقوق فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و لقب بالملک الظاهر؛ و كانت سلطنة الملک الظاهر خشقدم هذا فى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس و ستين و ثمانمائة، فتوافقا فى اللقب و الشهرة و التاريخ و الشهر، و ذلک أوّل ملوک الچراكسة، و هذا أول دولة الأروام، فبينهما إحدى و ثمانون سنة لا تزيد يوما و لا تنقص يوما، لأن كلا منهما تسلطن بعد أذان الظهر فى تاسع عشر شهر رمضان- انتهى.

ثم فى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان على الأمير جانبک الظاهرى نائب جدّة باستقراره دوادارا كبيرا بعد موت الأمير يونس.

و خلع على الأمير جانبک من أمير الظريف الخازندار باستقراره دوادارا ثانيا عوضا عن بردبک الأشرفى بحكم القبض عليه، و ولى

الدّوادارية الثانية على تقدمة ألف و لم يقع ذلك لغيره، و استقرّ قانم طاز الأشرفى خازندارا عوضا عن جانبك من أمير.

و فى يوم الجمعة رابع عشرينه تواترت الأخبار بوصول الأمير جانم الأشرفى نائب الشام إلى منزلة الصالحية، و أشيع هذا الخبر إلى وقت صلاة الجمعة، فتحقق السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۷

الإشاعة، فحصل عليه من هذا الخبر أمر كبير، و عظم مجىء جانم على السلطان إلى الغاية؛ لأن جانم كان رشّح لسلطنة مصر قبل ذلك عند مجىء ولده يحيى بن جانم إلى مصر فى دولة الملك المؤيد أحمد، و قد ذكرنا ذلك فى وقته.

و خارت طباع الملك الظاهر خشقدم، و ما ذلك إلا لعظم جانم فى النفوس، و أيضا لكثرة خچداشيته الأشرفية، و زيادة على ذلك من كان كاتبه و أذعن لطاعته من أعيان الظاهرية الجقمقية.

ثم طلب السلطان الأمير جانبك الدّوادار، و كلمه بما سمعه من مجىء جانم، و كان جانبك قد استحال عن جانم، و مال بكليته إلى الملك الظاهر خشقدم، و صار من جهته ظاهرا و باطنا، فهوّن جانبك مجيئه على السلطان، و أخذ فى التدبير و قام و خچداشيته بنصرة الملك الظاهر خشقدم، و وقع بسبب مجىء جانم أمور كثيرة و حكايات ذكرناها فى تاريخنا «حوادث الدهور»، ملخصها: أن جانم قام بالخانقاه أياما، و عاد إلى نيابة الشام ثانيا، بعد أن أمدّه السلطان بالأموال و الخيول و القماش، حسبما يأتى ذكره يوم سفره.

و فى يوم السبت خامس عشرينه نودى بنفقة المماليك السلطانية، فى يوم السبت الآتى.

و فيه أيضا، أنعم السلطان على عدة من الأمراء بتقادم ألوف، و هم:

الأمير أزبك من ططخ الظاهرى، و بردبك الظاهرى الرأس نوبة الثانى، و جانبك من قجماس الأشرفى المشد زيادة على إقطاعه الأول و وظيفته.

و أنعم السلطان أيضا على جماعة من الخاصكية، لكل واحد إمرة عشرة باستحقاق و غير استحقاق، كما هى عادة أوائل الدول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۵۸

و استقرّ الأمير قايتباى المحمودى الظاهرى أمير طبلخاناه و شاد الشراب خاناه، عوضا عن جانبك الأشرفى.

و أما ما جدّده الملك الظاهر خشقدم من الوظائف مثل الدّوادارية و السقاة و السلحدارية فكثير جدا لا يدخل تحت حصر لعسر تحريره.

و استقرّ الأمير دولات باى النجمى مسفّر الأمير جانم نائب الشام، و استقر تمراز الأشرفى أحد مقدمى الألوف بدمشق فى نيابة صفد بعد عزل خيربك النّوروزى عنها و توجهه إلى دمشق مقدّم ألف، و أنعم السلطان أيضا على تمراز المذكور بمبلغ كبير من المال و غيره.

و فى يوم الاثنين سابع عشرين رمضان استقرّ يشبك البجاسى أحد مقدّمى الألوف بمصر فى حجوبية حلب، و أنعم بتقدمته على الأمير جانبك الإينالى الأشرفى المعروف بقلقسيز، انتقل إليها من إمرة عشرة بسفارة الأمير جانبك الدّوادار.

و فى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه توجّه القاضى محب الدين بن الشّحنة كاتب السّرّ إلى خانقاه سرياقوس لتحليف جانم نائب الشام المقدّم ذكره.

و سافر جانم فى يوم الجمعة ثانى شوال إلى محل كفالته على أقبح وجه، و سافر بعده تمراز الذى استقرّ فى نيابة صفد، كل ذلك بتدبير عظيم الدولة جانبك الدوادار، و قد انتهت إليه يوم ذلك رئاسة المماليك الظاهريّة بديار مصر.

و أما الملك الظاهر فإنه لما سافر جانم أخذ فى مكافأة العسكر و استجلاب خواطرهم، و وجد عنده حاصلا كبيرا من الإقطاعات، ليس ذلك مما كان فى ديوان السلطان، و إنما هو إقطاعات الأجلاب مماليك الأشرف إينال، و أضاف إلى ذلك شيئا كثيرا من الذخيرة السلطانية، و من أوقاف الملك الأشرف إينال، و أوقاف حواشيه، حتى إنه صار يأخذ البلد العظيمة من ديوان المفرد و غيره و ينعم بها

على جماعة لكل واحد إمرة عشرة، و تارة ينعم بها على خمسين مملوكا من المماليك السلطانية، و أكثر و أقل، و قاسى الملك الظاهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢۵٩

من طلب المماليك أمورا عظيمة و أهوالا، و لما قلّ ما عنده من الضياع بالديار المصرية مدّ يده إلى ضياع البلاد الشّامية، ففرّق منها على أمراء مصر و أجنادهم ما شاء اللّه أن يفرّق.

فلما كان يوم السبت ثالث شوال شرع السلطان فى تفرقة نفقة المماليك السلطانية، ففرقت فى كل يوم طبقة واحدة- لقلة متحصل الخزانة الشريفة- لكل واحد مائة دينار، و لمن يستخفّون به خمسون دينارا، و بالجملة إنها فرّقت أقبح تفرقة، لعجز ظاهر، و قلة موجود، و مصادرات الناس.

و لما كان يوم الاثنين خامس شوال أنعم السلطان بالخلع على جميع أمراء الألوف، و أنعم على كل واحد بفرس بسرج ذهب و كنبوش زركش، و رسم لهم بالنّزول إلى دورهم، و كان لهم من يوم قدم جانم نائب الشام إلى خانقاه سرياقوس مقيمين بجامع القلعة، و كذلك القضاة، فنزل الجميع إلا الخليفة فإنه دام بقلعة الجبل إلى يوم تاريخه، و أظن ذلك صار عادة ممّن يلى الملك بعده.

و فى هذه الأيام استقرّ خيربك القصروى نائب قلعة الجبل فى نيابة غزّة بعد عزل بردبك السيفى سودون من عبد الرحمن، و رسم السلطان أن يفرج عن الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى، و عن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من محبسهما ببرج الإسكندرية، و رسم لهما أن يسكنا بأى مكان اختارا بالثغر المذكور، و رسم أيضا بكسر قيد الملك المؤيّد أحمد ابن الأشرف إينال.

و فى يوم الأربعاء سابعه ماجت مماليك الأمراء، و وقفوا فى جمع كبير بالرّميلة، يطلبون نفقات أستاذيهم، لينفق أستاذ كل واحد منهم فى مماليكه، و كان السلطان أخّر نفقات الأمراء إلى أن تنتهى نفقة المماليك السلطانية، و كانت العادة تفرقة النفقة على الأمراء قبل المماليك، فلما بلغ السلطان ذلك شرع فى إرسال النفقة إلى الأمراء، و قد ذكرنا قدر ما أرسل لكل واحد منهم فى تاريخنا «الحوادث».

ثم فى يوم الخميس ثامن شوال استقر الأمير قانم المؤيّدى أمير مجلس عوضا عن قرقماس الأشرفى، بحكم انتقاله إلى إمرة سلاح قبل تاريخه، و استقرّ الأمير بيبرس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢۶٠

خال العزيز رأس نوبة عوضا عن قانم، و استقرّ يلباى الإينالى المؤيّدى حاجب الحجاب عوضا عن بيبرس المذكور، و لبس الأمير جانبك الدوادار خلعة الأنظار المتعلقة بوظيفته، و نزل فى موكب هائل.

ثم فى يوم الأحد حادى عشره وصل الأمير تمربغا الظاهرى الدّوادار الكبير- كان- من مكة المشرفة بطلب إلى القاهرة، و أظنه كان خرج من مكة قبل أن يأتيه الطلب، و طلع إلى القلعة، و قبّل الأرض، و خلع السلطان عليه كامليّة بمقلب سمّور، و نزل إلى داره التى بناها و جدّدها المعروفة قديما بدار منجك، و كان الأمير جانبك الدّوادار قبل مجىء الأمير تمربغا عظيم المماليك الظاهرية، فلما حضر تمربغا هذا و جلس فوق الأمير جانبك، لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة أيام أستاذه، و لعظمته فى النفوس و سبقه للرئاسة، صار هو عظيم المماليك الظاهرية، و ركضت ريح جانبك قليلا، و استمر على ذلك.

و فى يوم الأربعاء رابع عشره تسحّب الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز ناظر الخاص الشريف بعد أن قام بالكلف السلطانية أتمّ قيام، أعنى بذلك عن الخلع التى خلعها السلطان فى أول سلطنته، و كانت خارجة عن الحد كثرة، ثم عقيب ذلك خلع عيد الفطر بتمامها و كمالها، و بينهما مسافة يسيرة من الأيام، و لم يظهر العجز فى ذلك جميعه يوما واحدا إلى أن طلب منه السلطان من ثمن البهار مائة ألف دينار لأجل النفقة السلطانية، فعجز حينئذ و هرب.

و استقرّ عوضه فى نظر الخاص القاضى شرف الدين الأنصارى، و باشر هو أيضا أحسن مباشرة، و قام بالنفقة السلطانية هو و الأمير

جانبک الدّوادار، و تنم رصاص أتمّ قیام، أعنی أنهم اجتهدوا فی تحصیل المال من وجوه کثیرة.

هذا ما وقع للملک الظاهر خشقدم من یوم تسلطن إلی یوم تاریخه محررا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۱

و من الآن نشرع فی ذکر نوادر الحوادث إلی أن تنتهی ترجمته خوفا من الإطالة و الملل فنقول:

و لما کان یوم الاثنین ثالث ذی القعدة استقرّ القاضی نجم الدین یحیی بن حجّی فی نظر الجیش بعد أن صرف القاضی زین الدین بن مزهر عنها.

و فی یوم خامس عشر ذی القعدة عیّن السلطان تجریدة إلی قبرس نجدة لمن بها من العساکر الإسلامیة، ثم بطل ذلک بعد أیام.

و فی یوم الخمیس سابع عشرینه استقرّ الصفوی جوهر الترکمانی زماما و خازندارا عوضا عن لؤلؤ الأشرفی الرومی.

و فی یوم الخمیس سادس عشرین ذی الحجة أمسک السلطان بالقصر السلطانی بالقلعة جماعة من أمراء الألوف و غیرهم من الأشرفیة، و هم: بیبرس خال العزیز رأس نوبة النوب، و جانبک من أمیر الظریف الدّوادار الثانی و أحد أمراء الألوف، و جانبک المشد أحد أمراء الألوف أیضا.

و أمسک من أمراء الطبلخانات و العشرات جماعة أیضا، مثل: قانم طاز الخازندار الکبیر، و نوروز الإسحاقی، و برسبای الأمیر آخور، و کرتبای، و دولات بای سکسن، و أبرک البجمقدار، و کلّهم عشرات إلا قانم طاز [فإنه] أمیر طبلخاناه.

فلما سمعت خچداشیتهم بذلک ثاروا، و وافقهم الممالیک الأشرفیة الإینالیة، و جماعة من الناصریة، و توجهوا الجمیع إلی الأمیر الکبیر جرباش المحمدی الناصری، و هو مقیم یوم ذاک بتربة الملک الظاهر برقوق التی بالصحراء، و کان فی التربة فی مأتم ابنته التی ماتت قبل تاریخه بأیّام، و اختفی جرباش المذکور منهم اختفاء لیس بذاک، فظفروا به و أخذوه، و مضوا به إلی بیت قوصون الذی سدّ بابه الآن من الرّمیلة تجاه باب السلسلة، و مروا به من باب النصر من شارع القاهرة، و بین یدیه جماعة من أمراء الأشرفیة و غیرهم، و علیهم آلة الحرب، و قد لقبوه بالملک الناصر علی لقب أستاذه الناصر فرج بن برقوق، و لما وصلوا إلی بیت قوصون أجلسوه بمقعد البیت.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۲

و عند ما جلس بالمقعد ظهر علی الأشرفیة و غیرهم اختلال أمرهم لاختلاف کلمتهم من سوء آرائهم المفلوکة، و لعدم تدبیرهم، فإن الصّواب کان جلوسه بالتربة المذکورة، إلی أن یستفحل أمرهم، و أیضا إنهم لما أوصلوه إلی بیت قوصون ذهب غالبهم لیتجهز للقتال، و بقی جرباش فی أناس قلیلة.

و أما الملک الظاهر خشقدم فإنه لما بلغ الملک الظاهر و الظاهریة أمرهم طلعوا بأجمعهم إلی القلعة، و انضم علیهم أیضا خلائق، لعظم شوکة السلطنة من خچداشیة السلطان المؤیدیة و غیرهم، و أخذوا السلطان و نزلوا به من القصر إلی مقعد الإسطبل السلطانی أعلی باب السلسلة، و علیهم السلاح، و دقت الکئوسات بالقلعة، و شرعوا فی القتال.

و بینما هم فی تناوش قتال جرباش، و قد رأی جرباش أن أمره لا ینتج منه شیء، تدارک فرطه، و قام من وقته، و رکب و طلع إلی القلعة طائعا إلی السلطان، و قبّل الأرض و اعتذر بالإکراه، فقبل السلطان منه عذره، و فی النفس من ذلک شیء، و انهزمت الأشرفیة الکبار.

و هذا ذنب ثان للأشرفیة عند السلطان- و الذنب الأول قصة خچداشهم جانم و الثانی هذا- و انهزم جمیع من کان انضم علی جرباش المذکور، و توجّه کلّ منهم إلی حال سبیله، فتجاهل السلطان علیهم، و زعم أنه قبل أعذارهم إلی أن تمّ أمره، فمدّ یده یمسک و ینفی، و یکتب إلی التجارید و السّخر، إلی أن أبادهم.

ثم فی یوم الجمعة سابع عشرین ذی الحجة المذکور أخذوا الأمراء الممسوکین، و نزلوا بهم إلی حبس الإسکندریة.

و فی یوم الاثنین سلخ ذی الحجة خلع السلطان علی جمیع أمراء الألوف، کل واحد کاملیة بمقلب سمّور، و أنعم علی الأمیر تمربغا

الظاهری القادم من مکّة بإمرة مائة و تقدمة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۳

ألف بالدیار المصریة، عوضا عن جانبک المشد، بحکم حبسه، و خلع علیه باستقراره رأس نوبة النوب، عوضا عن بیبرس خال العزیز، و أنعم بإقطاع بیبرس علی یلبای المؤیّدی الحاجب لکونه أکثر متحصلا من إقطاعه، و أنعم بإقطاع یلبای علی خچداشه قانی بک المحمودی المؤیدی، أحد أمراء دمشق الألوف کان.

و فیه أیضا استقرّ الأمیر جانبک الإسماعیلی المؤیدی المعروف بکوهیّة دوادارا ثانیا، عوضا عن جانبک الظریف علی إمرة عشرة، و کان جانبک الظریف ولیها علی تقدمة ألف.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۶]

ثم استهلت سنة ست و ستین و ثمانمائة ففی یوم الأربعاء ثانی المحرم وصل الخبر بأن الأمیر إیاسا المحمدی الناصری نائب طرابلس وصل من جزیرة قبرس إلی ثغر دمیاط بغیر إذن السلطان.

و فیه نفی السلطان خیربک البهلوان، و قانم الصغیر الأشرفیین إلی البلاد الشامیة، و کلاهما أمیر عشرة.

و فی یوم الخمیس ثالث المحرم عیّن السلطان مع سلیمان بن عمر الهوّاری تجریدة من الممالیک السلطانیة، و علیهم ثلاثة أمراء أشرفیة: جکم خال العزیز، و أیدکی، و مغلبای، فتأمل حال الأشرفیة من الآن.

ثم فی یوم الاثنین سابع المحرم استقرّ الأمیر طوخ الأبوبکری المؤیدی زردکاشا عوضا عن سنقرقرق شبق الأشرفی بحکم القبض علیه، و استقرّ سودون الظاهری الأفرم خازندارا کبیرا، عوضا عن قانم طاز، بحکم القبض علیه أیضا، و أنعم السلطان فی هذا الیوم علی جماعة کثیرة بأمریات و إقطاعات و وظائف باستحقاق و غیر استحقاق، کما هی عوائد أوائل الدول.

ثم فی لیلة الثلاثاء ثامن المحرم سافر الأمیر قانی بای المحمودی الظاهری المشد إلی ثغر دمیاط للقبض علی الأمیر إیاس الناصری نائب طرابلس و إیداعه السجن، لکونه حضر من قبرس، و ترک من بها من عساکر المسلمین.

ثم عین السلطان جماعة من الأشرفیة الکبار و الأشرفیة الصغار إلی سفر قبرس، و أمیرهم مغلبای البجاسی أتابک طرابلس، و کان مغلبای حضر مع إیاس.

و فی یوم الاثنین رابع عشر المحرم استقرّ قراجا العمری ثانی رأس نوبة و أمیر مائة و مقدم ألف بدمشق علی إقطاع هین، و قراجا هذا أیضا ممن کان انضم علی جرباش من خچداشیته، و استقرّ تنم الحسینی الأشرفی عوضه رأس نوبة ثانیا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۵

و فی یوم الخمیس سابع عشر المحرم استقرّ برسبای البجاسی الأمیر آخور الکبیر نائب طرابلس عوضا عن إیاس المقبوض علیه، و استقرّ عوضه فی الأمیر آخوریة الکبری یلبای المؤیدی حاجب الحجاب، و استقرّ فی حجوبیة الحجاب عوضه الأمیر بردبک الظاهری البجمقدار، و أنعم السلطان بإقطاع برسبای البجاسی علی قانی بک المحمودی، و أنعم بإقطاع قانی بک المحمودی علی تمربای ططر الناصری، و کلاهما تقدمة ألف لکن الزیادة فی المتحصل، و فرّق السلطان إقطاع تمربای ططر علی جماعة.

و فی یوم الاثنین حادی عشرین المحرم استقرّ الخواجا علاء الدین علی بن الصابونی ناظر الإسطبل السلطانی بعد عزل شرف الدین بن البقری و أضیف إلیه نظر الأوقاف.

و فی یوم الثلاثاء ثانی عشرینه وصل مغلبای طاز أمیر حاج المحمل بالمحمل و أمیر الرکب الأول تنبک الأشرفی.

و فی یوم الخمیس ثانی صفر أعید القاضی زین الدین بن مزهر إلی وظیفة نظر الجیش، بعد عزل القاضی نجم الدین یحیی بن حجی.

و فى يوم الثلاثاء سابع صفر وصل إلى القاهرة رأس نوبة الأمير جانم نائب الشام، و معه تقدمة إلى السلطان- تسعة مماليك لا غير- من عند مخدومه، و اعتذر عن مخدومه أنه ليس له علم بتسحّب الأمير تمراز نائب صفد، و أنه باق على طاعة السلطان، و كان السلطان أرسل قبل تاريخه بمسك تمراز المذكور، فهرب تمراز من صفد، و له قصة حكيناها فى «حوادث الدهور».

ثم فى يوم الثلاثاء رابع عشره وصل أيضا الزينى عبد القادر بن جانم نائب الشام، يستعطف خاطر السلطان على أبيه، و كان عبد القادر حديث السن، و قد حضر معه الأمير قراجا الظاهرى أتابك دمشق ليتلطف السلطان فى أمر نائب الشام، و لما وصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۶

قراجا المذكور إلى منزلة الصالحية رسم السلطان بعوده إلى دمشق، و منعه من الدخول إلى مصر، و رسم لعبد القادر المذكور بالمجىء، فجاء الصبى و ردّ قراجا إلى الشام.

و فى هذا اليوم رسم السلطان بإحضار الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدى أمير سلاح- كان- من ثغر دمياط، و قد رشّح لنيابة الشّام عوضا عن جانم المذكور.

ثم فى ليلة الخميس سادس عشر صفر المذكور سافر الأمير تنم من نخشايش الظاهرى المعروف برصاص محتسب القاهرة إلى دمشق على النجب و الخيل، و معه جماعة كثيرة من الخاصكية، مقدار ثلاثين نفرا، ليمسك الأمير جانم نائب الشام، قلت: [الطويل]

أيا دارها بالخيف إن مزارها قريب، و لكن دون ذلك أهوال

ثم فى يوم الأربعاء عشرينه وصل الأمير تنم من ثغر دمياط، و قبّل الأرض و أجلسه السلطان فوق الأمير قرقماس أمير سلاح، و خلع عليه.

ثم فى يوم الاثنين سابع عشرينه، خلع عليه بنيابة الشّام، و استقرّ مسفّره الأمير بردبك هجين الظاهرى الأمير آخور الثانى، و خلع السلطان على الأمير قانصوه اليحياوى الظاهرى بتوجهه إلى الأمير جانبك الناصرى المعزول قبل تاريخه عن حجوبيّة دمشق، و على يده تقليده و تشريفه بنيابة صفد عوضا عن تمراز الأشرفى.

و فى يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأول وصل إلى القاهرة الأمير أزدمر الإبراهيمى و خچداشه قرقماس، و قد كان مسافرا مع الأمير تنم رصاص المحتسب إلى دمشق، و أخبر أزدمر المذكور أن الأمير جانم نائب الشام خرج منها بمماليكه و حشمه بعد دخول تنم رصاص إلى دمشق و مراسلته، و لم يقدر تنم على مسكه، بل و لا على قتاله، و كان خروج جانم من دمشق قبيل العصر من يوم الأحد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۷

سادس عشرين صفر، و لم يكترث بأحد من الناس، و توجّه إلى جهة حسن بك ابن قرايلك.

ثم فى يوم الجمعة ثانى عشرين ربيع الأول ركب السلطان من قلعة الجبل ببعض أمرائه و خاصته، و نزل إلى بيت الأمير تنم المستقر فى نيابة الشّام و سلّم عليه، و هذا أوّل نزوله من قلعة الجبل من يوم تسلطن، ثم نزل السلطان بعد ذلك بقماش الموكب فى يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر، و سار إلى تربته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، و خلع على البدرى حسن بن الطولونى معلّم السلطان و غيره، ثم توجه إلى مطعم الطير، و جلس به و اصطاد أمير شكار بين يديه، ثم ركب و عاد إلى القلعة بعد أن شقّ القاهرة، و دخل فى عوده إلى بيت إنيّه الأمير تنبك الأشرفى المعلم.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشره استقرّ شرف الدين يحيى بن الصنيعة أحد الكتاب وزيرا بالديار المصرية، بعد عزل على بن الأهناسى.

و فى يوم الاثنين أول جمادى الأولى أنعم السلطان على الأمير بردبك هجين الظاهرى أمير آخورثان بإمرة مائة و تقدمة ألف بعد موت تمربغا ططر، و أنعم بإقطاع بردبك المذكور على مغلباى طاز المؤيدى، و أنعم بإقطاع مغلباى على سودون الأفرم الظاهرى الخازندار، و أنعم بإقطاع سودون الأفرم على سودون البردبكى المؤيّدى الفقيه.

و فى يوم السبت سادس جمادى الأولى وصل تنم رصاص.

ثم فی یوم السبت استقر إینال الأشقر الظاهری والی القاهرة فی نیابة ملطیة بعد موت قانی بای الجکمی.

و فی یوم الخمیس ثامن عشره استقرّ الصارمی إبراهیم بن بیغوت نائب قلعة دمشق بعد موت سودون قندوره الترکمانی الیشبکی بحکم انتقاله إلی تقدمة ألف بدمشق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۸

و فی یوم الاثنین ثانی عشرین جمادی الأولی المذکورة خرج الأمیر تنم نائب الشّام إلی محل کفالته.

و فی آخر هـذا الشـهر وصل قاصد حسن بک بن علی بک بن قرایلک [صاحب آمد] و أخبر السـلطان أن الأمیر جانم نائب الشام جاء إلیه و استشفع عند السلطان له.

و فی هـذا الشـهر ترادفت الأخبـار بـأن جـانم نائب الشام أرسل یـدعو ترکمان الطاعـة إلی موافقته، و أن حسن بک المقـدم ذکره دعا لجانم علی منابر دیار بکر.

ثم فی یوم الأربعاء سابع شهر رجب نودی بشوارع القاهرة بالزینة لدوران المحمل، و نودی أیضا بأن أحدا من الممالیک و لا غیرهم لا یحمـل سـلاحا و لاـ عصاة فی اللیل، فـدامت الزینـة إلی أن انتهی دوران المحمل فی یوم الاثنین ثانی عشـره، و لم یحـدث إلا الخیر و السـلامة، و کـان معلّم الرماحـة فی هـذه السـنة الأـمیر قایتبـای المحمودی الظـاهری المشـد، و الباشـات الأربعـة أمراء عشـرات: برقوق الناصری، ثم طومان بای الظاهری، ثم جانبک الأبلق الظاهری، ثم برسبای قرا الظاهری.

ثم فی یوم الخمیس خامس عشـره عیّن السلطان تجریدة إلی الوجه القبلی- أربعمائة مملوک من الممالیک السلطانیة- و مقدم العسکر الأمیر جانبک الدّوادار، و صـحبته من أمراء الألوف جانبک قلقسـیز الأشـرفی، و من أمراء الطبلخات و العشـرات نحو عشـرین أمیرا، و خرجوا بسرعة فی لیلة السبت سابع عشر رجب.

و فی یوم الجمعة سادس عشـره- الموافق لحادی عشـرین برمودة- لبس السلطان القماش الأبیض البعلبکی المعد لبسه لأیام الصیف، و ابتدأ فی یوم السبت سابع عشره یلعب الکرة علی العادة فی کل سنة.

و فی یوم الخمیس تاسع عشرینه عاد الأمیر جانبک الدّوادار بمن کان معه من بلاد

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۶۹

الصعید إلی الجیزة، و طلع إلی السلطان من الغد بغیر طائل و لا حرب، و خلع السلطان علیه.

و فی لیلـة الثلاثاء ثامن عشـر شـعبان سافرت خونـد الأحمدیـة زوجـة السـلطان فی محفة إلی ناحیة طندتا بالغربیة لزیارة سـیدی أحمد البدوی.

و فی یوم الجمعة ثامن عشرینه، سافرت الغزاة المعینون قبل تاریخه إلی قبرس- انتهی.

و فی یوم الأحد ثامن شـهر رمضان ورد الخبر بموت الحاج إینال الیشبکی نائب حلب، فخلع السلطان فی یوم الخمیس ثانی عشره علی الأمیر قایتبای شاد الشـراب خاناه بتوجهه إلی حماة، و علی یده تقلید جانبک التاجی المؤیدی نائب حماة و تشریفه بنیابة حلب، عوضا عن الحاج إینال.

و استقرّ مغلبای طاز مسفّر الأمیر جانبک النّاصری نائب صفد باستقراره فی نیابة حماة.

و استقرّ فی نیابة صفد خیربک القصروی نائب غزّة، و توجّه بتقلیده الأمیر تمربای الظاهری السلاحدار.

و استقر فی نیابة غزّة أتابک حلب شادبک الصّارمی و مسفّره طومان بای الظاهری.

و استقرّ یشبک البجاسی حاجب حجّاب حلب أتابکا بها عوضا عن شادبک الصّارمی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۰

و استقرّ تغری بردی بن یونس نائب قلعة حلب فی حجوبیة حلب عوضا عن یشبک البجاسی.

و استقرّ كمشبغا السيفى نخشباى أحد المماليك السلطانية بمصر فى نيابة قلعة حلب دفعة واحدة، من قبل أن تسبق له رئاسة، مع عدم أهلية أيضا، و كانت ولايته بالمال- و لا قوة إلا بالله.

و فى يوم الأربعاء تاسع شوال خرجت تجريدة إلى البحيرة و عليها ثلاثة أمراء من أمراء الألوف: قرقماس أمير سلاح، و يشبك الفقيه، و بردبك هجين الظاهرى، و من أمراء الطبلخانات: خشكلدى القوامى الناصرى، و تنم الحسينى الأشرفى ثانى رأس نوبة، و من أمراء العشرات: قانى باى السيفى يشبك بن أزدمر، و قلمطاى الإسحاقى، و قنبك الصغير الأشرفيان، و سنطباى قرا الظاهرى.

و فيه ورد الخبر بأن جانم نائب الشام كان عدّى الفرات فى جمع كثير من المماليك و تركمان حسن بك بن قرايلك، و سار بعساكره حتى وصل إلى تل باشر من أعمال حلب، و تجهّز جانبك نائب حلب لقتاله، ففى الحال عيّن السلطان تجريدة إلى حلب لقتال جانم: أربعمائة مملوك.

ثم أضاف إليهم مائتين، و عليهم أربعة أمراء من مقدمى الألوف، و هم:

جانبك الظاهرى الدّوادار الكبير، و يلباى المؤيدى الأمير آخور الكبير، و أزبك الظاهرى، و جانبك قلقسيز الأشرفى، و ثلاثة عشر أميرا من أمراء الطبلخانات و العشرات.

ثم نودى فى يوم الثلاثاء خامس عشر شوال بالنفقة فيمن عيّن إلى التجريدة المذكورة.

ثم أصبح من الغد فى يوم الأربعاء رسم بإبطال التجريدة، و سبب ذلك ورود الخبر من نائب حلب بعود جانم على أقبح وجه، و أن جماعة كثيرة من مماليكه فارقوه، و قدموا إلى مدينة حلب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۱

و أمر رجوع جانم أنه كان لما وصل إلى تلّ باشر وقع بينه و بين تركمان حسن بك الذين كانوا معه كلام طويل، ذكرناه فى «الحوادث»، فتركوه و عادوا، فتلاشى أمر جانم لذلك و عاد.

و فى يوم الخميس سابع عشر شوال خرج الأمير بردبك الظاهرى أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج دفعة واحدة، و كانت العادة قديما أن ينزل بالرّيدانية، ثم يرحل إلى بركة الحاج، و كان أمير الركب الأول فى هذه السنة الناصرى محمد ابن الأتابك جرباش المحمدى.

و فى يوم الاثنين حادى عشرينه استقرّ القاضى محب الدين بن الشّحنة قاضى قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد استعفاء شيخ الإسلام سعد الدين سعد بن الدّيرى، لضعف بدنه و كبر سنه، و استقرّ أخوه القاضى برهان الدين إبراهيم بن الدّيرى كاتب السّرّ الشريف عوضا عن قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة المقدم ذكره.

و فى يوم الخميس رابع عشرينه استقرّ القاضى نور الدين بن الإنبابى عين موقعى الدست الشريف فى نيابة كتابة السّرّ، بعد عزل لسان الدين حفيد القاضى محب الدين ابن الشّحنة، فحينئذ أعطى القوس لراميه، و القلم لباريه، فإنه حق لهذه الوظيفة و أهل لها.

ثم فى رابع ذى القعدة توفيت بنت خوند الأحمدية زوجة السّلطان، و هى بنت أيرك الجكمى، أحد أمراء دمشق، و قد تزوجها الزينى عبد الرحيم ابن قاضى القضاة بدر الدين العينى، فولدت منه الشهابى أحمد بن العينى الآتى ذكره فى محله.

و فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة عزل السلطان القاضى برهان الدين إبراهيم بن الديرى عن وظيفة كتابة السّر بعد أن باشرها خمسة عشر يوما، و كان سبب عزله أنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۲

لما ماتت بنت خوند المقدم ذكرها فى يوم السبت قال ابن الديرى: ورد فى الأخبار المنقولة عن الأفاضل أنه ما خرج من بيت ميّت فى يوم السبت إلا و تبعه اثنان من أكابر ذلك البيت، و شغرت كتابة السّرّ بعده مدّة، و باشر الوظيفة القاضى نور الدين الإنبابى نائب كاتب السّرّ.

و فى يوم الخميس سادس عشره ورد الخبر من البحيرة بأن العساكر واقع عرب لبيد و قتل من عسكر السلطان أميران: تنبك الصغير الأشرفى، و سنطباى قرا الظاهرى، و جماعة من المماليك، و سبب قتلهم أمر ذكرناه فى «الحوادث»، إذ هو محل إطناب فى الواقع، و حاصل الخبر أن الذين قتلوا هؤلاء هم عرب الطاعة فى الغوغاء لا عرب لبيد.

ثم فى يوم الاثنين عشرين من ذى القعدة خلع السلطان على القاضى زين الدين أبى بكر بن مزهر ناظر الجيش باستقراره فى وظيفة كتابة السّرّ مسئولا فى ذلك، مرغوبا فى ولايته، و استقرّ القاضى تاج الدين عبد اللّه بن المقسى فى وظيفة نظر الجيش عوضا عنه.

و فى يوم الخميس ثانى عشرين ذى الحجة توعّك السلطان فى بدنه من إسهال حصل له، و لم ينقطع عن صلاة الجمعة بجامع القلعة الناصرى مع الأمراء على العادة، و استمرّ به الإسهال إلى يوم سادس عشرينه خرج من الدهيشة إلى الحوش، و جلس على الدكة.

و حضرت أكابر الأمراء الخدمة بالحوش المذكور، و على وجه السلطان أثر الضعف، كل ذلك و هو ملازم للفراش غير أنه يتجلّد، و يجلس على الفرش بقاعة البيسريّة، و الناس تدخل إليه بها للخدمة على العادة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧٣

و فى هذا اليوم حضر إلى القاهرة مبشر الحاج، و هو غير تركى، رجل من العرب و هذا غير العادة، و ما ذاك إلا مخافة السبل، و عدم الأمن بالطريق، فأعاب الناس ذلك على أرباب المملكة.

و فى هذه السنة أخذ حسن بك بن على بك بن قرايلك مدينة حصن كيفا، ثم أخذ قلعتها فى ذى القعدة بعد ما حاصرها سبعة أشهر، و انقطع من الحصن ملك الأكراد الأيوبية، بعد ما ملكوها أكثر من مائتى سنة، و ذلك بعد قتل صاحبها الملك خلف بيد بعض أقاربه، فاختلف الأكراد فيما بينهم، فوجد حسن بك بذلك فرصة فى أخذها، فحاصرها حتى أخذها، و قوى أمر حسن بأخذها، فإنه أخذ بعد ذلك عدة قلاع و مدن من أعمال ديار بكر من تعلقات الحصن و غيره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧۴

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۶٧]

و استهلت سنة سبع و ستين و ثمانمائة و جميع نواب البلاد الشامية مقيمون بحلب مخافة هجوم جانم عليها، و السلطان ملازم الفراش، فلما كان أوّل المحرم دقّت البشائر لعافية السلطان ثلاثة أيام.

و فى يوم الخميس سادس المحرم خلع السلطان على الأطباء و على السّقاة و على من له عادة.

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشره وصل أمير الركب الأول الناصرى محمد ابن الأتابك جرباش، و دخل أمير حاج المحمل الأمير بردبك من الغد، و من غريب الاتفاق أنى سألت الناصريّ محمد ابن الأتابك جرباش: «متى بلغكم مرض السلطان؟» فقال:

«فى المدينة الشّريفة»، فحسبنا الأيام، فكان يوم سمعوا فيه خبر مرضه قبل أن يمرض بيوم أو يومين.

و فى يوم الخميس حادى عشر صفر استقرّ علىّ بن الأهناسى فى وظيفتى الوزر و الخاص، و لبس فى هذا اليوم وظيفة الخاص عوضا عن القاضى شرف الدين موسى الأنصارى، و الوزر عوضا عن شرف الدين يحيى بن صنيعة.

و فى يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل استقرّ القاضى علم الدين بن جلود كاتب المماليك السلطانية.

و فى يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوى بالحوش من قلعة الجبل، على العادة من كل سنة، و أصبح من الغد عمل مولدا آخر لزوجته خوند الأحمدية.

ثم فى يوم السبت سادس عشرينه، استقرّ الزينى قاسم الكاشف أستادارا، بعد أن اختفى الأمير زين الدين الأستادار.

ثم فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ورد الخبر من جانبك التّاجى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧۵

نائب حلب أن جانم نائب الشّام قتل بمدینة الرّها، و قد اختلف فی قتله علی أقاویل ذکرناها فی «الحوادث».

و فی یوم الاثنین ثالث جمادی الأولی استقرّ بلاط دوادار الحاج إینال فی نیابة صفد دفعة واحدة من غیر تدریج- ببذل المال- عوضا عن خیربک القصروی، و توجه خیربک علی إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق عوضا عن یشبک آس قلق المؤیّدی، بحکم استقرار یشبک المذکور فی نیابة غزّة بعد موت شادبک الصارمی، ثم تغیّر ذلک بعد أیام؛ لامتناع یشبک من نیابة غزّة، و استمرّ یشبک علی إمرته بدمشق، فصار خیربک بطّالا بالشام، ثم رسم السلطان أن یستقر شاد بک الجلبّانی فی نیابة غزّة بعشرة آلاف دینار، و إن امتنع شادبک من نیابة غزّة حمل إلی قلعة دمشق، و یؤخذ منه العشرة آلاف دینار.

و فیه استقرّ أزدمر الإبراهیمی مسفّر بلاط نائب صفد، و استقرّ سودون البردبکّی الفقیه المؤیّدی مسفّرا لمن یستقر فی نیابة غزّة.

ثم فی یوم الاثنین ثانی جمادی الآخرة استقرّ الصاحب شمس الدین منصور أستادارا عوضا عن قاسم الکاشف.

و فی یوم السبت رابع عشره رسم السلطان بعزل إینال الأشقر عن نیابة ملطیة بالأمیر یشبک البجاسی أتابک حلب، و استقرّ إینال الأشقر أتابک حلب عوضه.

و فی سلخ هذا الشهر سافرت خوند الأحمدیة زوجة السلطان إلی زیارة الشیخ أحمد البدوی.

و فی یوم الاثنین أول شهر رجب سافرت الغزاة فی بحر النیل إلی ثغر دمیاط، لیتوجهوا من الثغر إلی جزیرة قبرس، و کان علی هذه الغزاة الأمیر بردبک الظاهری

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۶

حاجب الحجاب، و الأمیر جانبک قلقسیز الأشرفی، و اثنا عشر أمیرا آخر، هم: بردبک التاجی، و قانصوه المحمدی، و قانصوه الساقی، و یشبک الأشقر، ثم خیربک من حدید، و قلطبای، و کلهم أشرفیة برسبائیة، ثم تنم الفقیه المؤیّدی، ثم یشبک القرمی و تمربای السلاح دار، و قانصوه، و هؤلاء الثلاثة ظاهریة جقمقیّة، ثم من السّیفیّة مغلبای الجقمقی، و تنبک السّیفی جانبک النور، و نحو خمسمائة مملوک من الممالیک السلطانیة و هذا خلاف المطوعة و الخدم، و أرباب الصنائع و غیرهم.

و فیه ظهر الأمیر زین الدین، و طلع إلی السلطان، و لبس کاملیّة، و استقرّ أستادارا علی عادته، بعد عزل منصور و التّرسیم علیه.

و فی یوم الاثنین خامس عشره أدیر المحمل علی العادة.

و فی یوم الثلاثاء سادس عشره استقرّ الأمیر جکم الأشرفی خال الملک العزیز فی نیابة غزّة، بعد ما شغرت مدة طویلة.

و فی یوم الاثنین تاسع عشرین رجب استقرّ بدر الدین حسین بن الصواف قاضی الحنفیة بالدیار المصریة، عوضا عن قاضی القضاة محب الدین بن الشحنة بحکم عزله.

و فیه جهّز السلطان تجریدة إلی البحیرة علیها أمیران من أمراء الألوف، و هما جانبک الناصری المرتد، و قانی بک المحمودی المؤیّدی، و جماعة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات.

و فیه ثارت ممالیک السلطان الأجلاب علیه، و منعوا أرباب الدّولة و الأمراء و غیرهم من الطلوع إلی القلعة للخدمة السلطانیة، و ضربوا الأمیر جوهرا مقدّم الممالیک، و هجموا علی سودون القصروی نائب القلعة، ثم بطلت الفتنة، لأمر حکیناه فی «الحوادث».

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۷۷

و فی یوم الخمیس خامس عشر شهر رمضان استقرّ الزّینی مثقال الظاهری المعروف بمثقال الحبشی، نائب مقدم الممالیک، بعد عزل صندل الظاهری بحکم عزله.

و فی لیلة السبت ثامن شوال تسحّب علی بن الأهناسی، و شغرت عنه وظیفتا الخاص و الوزر، فاستقرّ عوضه فی الوزر الصاحب مجد الدین بن البقری، و فی الخاص القاضی تاج الدین بن المقسی، مضافا للجیش.

و فی یوم الاثنین سابع عشره خرج الأمیر بردبک هجین الظاهری أمیر حاج المحمل بالمحمل إلی برکة الحاج، و أمیر الرکب الأول

الشهابی أحمد بن الأتابک تنبک.

و فی یوم الخمیس العشرین من ذی القعدة أعید قاضی القضاة علم الدین صالح البلقینی لمنصب القضاء، بعد عزل قاضی القضاة شرف الدین المناوی.

و فی لیلة الجمعة سادس عشرین ذی القعدة عمل عظیم الدولة الأمیر جانبک الظاهری الدّوادار ولیمة عظیمة بالقبّة التی بناها تجاه جزیرة الروضة، و قد احتفل لهذه الولیمة احتفالا عظیما و حضرها جمیع أعیان الدولة بأسرهم، ما خلا بعض أمراء الألوف، لعدم طلبهم، و قد حکینا أمر هذه الولیمة فی تاریخنا «حوادث الدهور فی مدی الأیام و الشهور» و من عظم هذه الولیمة لهج الناس بأنها تمام سعده، فلما کان یوم الثلاثاء أوّل ذی الحجة قتل الأمیر جانبک المذکور بقلعة الجبل، داخل باب القلّة، تجاه باب الجامع الناصری الشرقی فی الغلس قبل تباین الوجوه، و قتل معه خچداشه الأمیر تنم رصاص الظاهری محتسب القاهرة و أحد أمراء الطبلخانات، و کان قتلهما بید الممالیک الأجلاب الذین أنشأهم الملک الظاهر خشقدم.

و لما أن طلع النهار المذکور قبض السلطان فی الحال علی ستة أمراء من الظاهریة، و هم: سودون الشمسی [المعروف بالبرقی] الأمیر آخور الثانی، و قانصوه الیحیاوی، و أزدمر، و طومان بای، و دمرداش، و تغری بردی ططر، و الجمیع رءوس نوب،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧٨

فحمل سودون البرقی من الغد إلی سجن الإسکندریة، و أطلق طومان بای و أزدمر و دمرداش، و أخرج قانصوه و تغری بردی إلی البلاد الشامیة، و اضطرب لهذه الواقعة أمور المملکة، و تخوّف کلّ أحد علی نفسه، و یأبی اللّه إلا ما أراد.

و فی یوم الاثنین سابع ذی الحجة استقرّ یشبک من سلمان شاه المؤیّدی الفقیه دوادارا کبیرا، بعد قتل الأمیر جانبک، فولی یشبک وظیفته، و لم یل مجده و لا ثناءه و لا همته و لا حرمته و لا شهامته و لا عظمته، و لقد کان به تجمل فی الزمان، و لا قوة إلا باللّه.

و استقرّ سودون البردبکی المؤیّدی فی حسبة القاهرة، عوضا عن تنم رصاص بعد قتله أیضا، و استقرّ نانق الظاهری أمیر آخور ثانیا عوضا عن سودون الشمسی، بحکم حبسه.

و فی یوم السبت ثالث عشره استقرّ المعلم محمد البباوی- أحد معاملی اللحم- ناظر الدولة دفعة واحدة، و ترک زیّ الزّفوریة السوقة، و لبس زیّ المباشرین الکتاب، و لبس خفّا و مهمازا، و رکب فرسا، و هو أمیّ لا- یحسن القراءة و لا- الکتابة، فکانت ولایته لهذه الوظیفة من أقبح ما وقع فی الدولة الترکیة بالدیار المصریة، و قد استوعبنا من حال البباوی هذا نبذة کبیرة فی تاریخنا «الحوادث»، لا سیما لما ولی الوزارة، فکان ذلک أدهی و أمرّ، و بالجملة إن ولایة البباوی للوزر کان فیها عار علی مملکة مصر إلی یوم القیامة.

و فی صبیحة یوم الاثنین ثامن عشرین ذی الحجة أمسک السلطان أربعة أمراء من أکابر أمراء الظاهریة بالقصر السلطانی، و کان الذی تولی قبضهم جماعة أیضا من الممالیک الأجلاب، و حبسوا بالبرج من قلعة الجبل، و قیدوا إلی الرابعة من النهار المذکور،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٧٩

و حملوا علی البغال علی العادة إلی سجن الإسکندریة، و الأمراء المذکورون أعظمهم تمربغا الظاهری رأس نوبة النوب، و أزبک من ططخ الظاهری أحد مقدّمی الألوف، و برقوق الناصری ثم الظاهری أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و قانی بای الساقی الظاهری أیضا أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، و لما انفضّ الموکب منع السلطان الأمراء من النزول إلی دورهم، و رسم بإقامتهم بالحوش السلطانی مخافة أن یحدث منهم أمر لا سیما ممن بقی من أمراء الظاهریة، و لهج الناس بزوال الظاهریة، و تهیأ من بقی منهم و أوصی، و کثرت المقالة بمصر، و أرجف بالرکوب و الفتنة، و استمرّ الأمراء بالحوش جلوسا یومهم کله، إلی أن دخلت لیلة الثلاثاء تاسع عشرین ذی الحجة و لم یتحرک أحد بحرکة، و قد عمّ الخوف الناس جمیعا؛ لأن السلطان صار یخاف من و ثوب الظاهریة علیه، و الظاهریة تخاف من قبض السلطان علیهم، و الناس خائفون من الفتنة، هذا و الهرج موجود بین الناس.

فلما کان بعد صلاة عشاء الآخرة بلغ السلطان أن ممالیکه الأجلاب الذین ملکهم من ممالیک الملک الأشرف إینال، و أجری علیهم

العتق و قرّبهم و جعلهم خاصکیة، و هم الذین قتلوا جانبک الدّوادار و تنم رصاص، و هم أیضا الذین تولوا قبض الأمراء الأربعة، قد اتفقوا مع بقیة خچداشیتهم علی قتل السلطان فی هذه اللیلة، ثم علی قتل جمیع الأمراء بالحوش السلطانی، ما خلا واحدا منهم، یبقوه لیسلطنوه عوضا عن أستاذهم الملک الظاهر خشقدم، ثم یصیر بعد ذلک أمر المملکة بیدهم، فلم یکذب السلطان هذا الخبر، و حار فی نفسه کیف یفعل، و ضاق علیه فضاء الأرض؛ لکون الذی طرقه إنما هو من ممالیکه، و هم الذین یستعزّ بهم علی غیرهم من جنده، فلم یجد بدّا من الاعتذار مع الظاهریة، و أن یصطلح معهم، و یعتذر إلیهم فی اللیل، و یطیّب خاطرهم، فأرسل من طلب الأمیر قایتبای الظاهری شاد الشراب خاناه فی اللیلة المذکورة، فحضر هو و جماعة کثیرة من خچداشیته و أصحابه، و طلع من باب السلسلة إلی الحوش السلطانی راکبا، هو و جمیع من حضر معه، و کانوا خلائق، و دخل قایتبای إلی السلطان بقاعة الدهیشة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۰

فقام إلیه السلطان و عانقه و اعتذر إلیه؛ و أمر فی الحال بإحضار خچداشیته الذین أرسلهم إلی سجن الإسکندریة، و طلع النهار فخرج السلطان من القاعة إلی مقعد البحرة بالحوش السلطانی، و فعل ما أرضی به الظاهریة.

قلت: کان فی تدبیر الملک الظاهر فی إحضار الظاهریة علی الوجه المحکی و هم بالسلاح و الرجال، زوال ملکه لو قدر لغیره، فإنه لما أرسل إلی الأمیر قایتبای، و جاء الأمیر قایتبای و معه تلک الخلائق و علیهم السلاح، و لیس عند السلطان سوی الأمراء الذین کانوا بالحوش، و لیس عند الأمراء أحد من ممالیکهم و لا علیهم آلة الحرب، و لا عند السلطان أیضا بالقاعة من ممالیکه إلا جماعة قلیلة جدا، و جمیع من کان عند السلطان بأسرهم لا یقدرون علی دفع بعض من کان مع الأمیر قایتبای، بل لو أراد قایتبای المذکور الوثوب علی الأمر و الفتک بالسلطان لأمکنه ذلک، و لم أدر ما طرق السلطان من الأمر العظیم حتی فعل ذلک، و کان یمکنه أن یفعل ما شاء و لو کان ما طرقه أهم من ذلک و أعظم، و ما عسی أن تصل یدهم من الفعل به من شهامة السلطنة و عز الملک و عنده أمراؤه و أعیان مملکته، و لم یملک أحد منه الزردخاناه و لا- بابا من أبواب القلعة، و باب السلسلة و الإسطبل السلطانی بیده، و الممالیک السلطانیة ملء الدیار المصریة من سائر الطوائف، و لکن لیقضی اللّه أمرا کان مفعولا.

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۸]

ثم أرسل السلطان فی الحال بالإفراج عن الأمیر تمربغا الظاهری، و عن خچداشیته الذین أمسکوا معه، و مجیئهم إلی الدیار المصریة بعزّ و إکرام، فأفرج عنهم و حضروا إلی الدیار المصریة فی یوم الاثنین خامس المحرم من سنة ثمان و ستین و ثمانمائة، و باتوا تلک اللیلة فی بیت یشبک الدّوادار، و طلعوا إلی القلعة من الغد و قبّلوا الأرض، فخلع السلطان علی کل من تمربغا و أزبک کاملیة بمقلب سمّور، و رسم لهم باستقرارهم علی إقطاعاتهم و وظائفهم؛ لأن السلطان ما کان أخرج عن أحد منهم إقطاعه و لا وظیفته فإن غضبه علیهم کان یوما واحدا، و کذلک کان سجنهم بالإسکندریة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۱

و فی هذا الیوم استقرّ یونس بن عمر بن جربغا العمری دوادار الطواشی فیروز النّوروزی وزیرا، و کانت خلعته أطلسین بخلاف خلعة الوزر؛ لکونه یتزیا بزی الجندی.

و فی یوم الخمیس ثامن المحرم سنة ثمان و ستین أعید قاضی القضاة محب الدین بن الشّحنة إلی قضاء الحنفیة بالدیار المصریة، بعد موت بدر الدین حسن بن الصواف.

و فی یوم الاثنین ثانی عشره نودی بشوارع القاهرة: أن أحدا من الأعیان لا یستخدم ذمیّا فی دیوانه- أعنی من الکتبة و غیرهم- قلت: ما أحسن هذا لو دام أو استمرّ، فمنعت هذه المناداة أهل الذمّة قاطبة من التصرّف و المباشرة بقلم الدیونة بوجه من الوجوه بأعمال مصر، و کتب بذلک إلی سائر الأقطار، ثم عقد السلطان بالصالحیة [ببین القصرین] عقد مجلس بالقضاة الأربعة، و حضره الدوادار الکبیر، و

جماعة من الأعيان بسبب هذا المعنى، و قرئت العهود المكتتبة قديما على أهل الذّمة، فوجدوا فى بعضها أن أحدا من أهل الذمة لا يباشر بقلم الديونة عند أحد من الأعيان، و لا فى عمل من الأعمال، و أشياء من هذه المقولة، إلى أن قال فيها: و لا يلف على رأسه أكثر من عشرة أذرع، و أن نساءهم يتميزن من نساء المسلمين بالأزرق و الأصفر على رءوسهن فى مشيهن بالأسواق، و كذلك بشيء فى الحمامات، فحكم قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى بإلزام أهل الذمة بذلك جميعه، ما عدا الصرف و الطبّ بشروطه، و صمم السلطان على هذا الأمر، و فرح المسلمون بذلك قاطبة، فأسلم بسبب ذلك جماعة من أهل الذمة من المباشرين، و عظم ذلك على أقباط مصر، و دام ذلك نحو السنة، و عاد كلّ شيء على حاله أوّلا، و بلغ السلطان ذلك فلم يتكلم بكلمة واحدة، و لا حول و لا قوّة إلا بالله العلى العظيم، و أين هذا من همّة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير- رحمه اللّه- لما قام فى بطلان عيد شبرا، و لبس النصارى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۲

الأزرق و اليهود الأصفر، فلله درّه ما كان أعلى همته، و أغزر دينه- رحمه اللّه تعالى و رضى عنه.

و فى يوم السبت رابع عشرين المحرم نفى السلطان مملوكه أزبك، الذى كان من جملة مسفّرى الأمراء المتوجهين إلى الإسكندرية، و كان نفيه لأمر يعلمه السلطان.

و فيه طلب السلطان جماعة من أمراء الألوف إلى داخل قاعة الدهيشة، و حلّفهم على طاعته بأيمان مغلظة.

و فى يوم السبت ثانى صفر استقرّ أبو بكر بن صالح نائب ألبيرة فى حجوبية حجّاب حلب، بعد استقرار تغرى بردى بن يونس فى نيابة قلعة حلب، و استقرّ كمشبغا السيفى نخشباى نائب قلعة حلب فى نيابة ألبيرة.

و فى يوم الاثنين رابع صفر رسم السلطان أن يفرج عن الأمير سودون الشمسى المعروف بالبرقى من سجن الإسكندرية، و حضوره إلى القاهرة، بعد أن أنعم السلطان عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق.

ثم فى يوم السبت أمسك السلطان برسباى الخاصكى أحد المماليك الذين أخذهم من تركة الملك الأشرف إينال، و هو أحد من تولّى قتل جانبك الدّوادار، ثم ممن أراد قتل السلطان بعد ذلك فى تلك الليلة المقدم ذكرها، و ضربه بين يديه ضربا مبرحا، ثم أمر بتوسيطه، فوسّط بين يديه بالحوش، و كان السلطان وسّط قبله آخر من مماليكه يسمى قانم.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشره أعيد الصاحب مجد الدين بن البقرى إلى الوزر بعد تسحّب يونس بن جربغا.

و فى يوم الخميس استقرّ شرامرد العثمانى المؤيّدى أحد أمراء العشرات بالديار المصرية دوادار السلطان بدمشق، و أنعم عليه بإمرة طبلخاناه عوضا عن أزدمر الإبراهيمى بحكم القبض عليه.

و فى يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول أشيع بمجيء الغزاة من قبرس إلى سواحل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۳

البلاد الشامية و غيرها بغير إذن السلطان، فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا، و لم يسعه إلا السكات.

و فى يوم الأحد ثامنه عمل السلطان المولد النبوى على العادة، و عمل من الغد مولدا آخر لزوجته.

و فى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على الشهابى أحمد بن عبد الرحيم ابن العينى ابن بنت زوجة السلطان باستقراره أمير حاج المحمل، بسفارة جدته زوجة السلطان فى هذه السنة.

و فيه استقر الصاحب مجد الدين بن البقرى أستادارا بعد اختفاء الأمير زين الدين، و طلب السلطان المعلم محمدا البباوى اللّحام الذى كان استقرّ ناظر الدولة، و قرّره وزيرا بالدّيار المصرية، و لبس خلعة الوزر فى يوم الثلاثاء سابع عشره.

فيا نفس جدّى إنّ دهرك هازل

و قد ذكرنا أصل هذا البباوى، و سبب استقراره فى «الحوادث».

ثم فى يوم الجمعة سابع عشرينه وصلت الغزاة من سواحل متعددة، و خلع السلطان على الأمير بردبک، و على الأمير جانبک قلقسيز، و أنعم على كل واحد منهما بفرس بسرج ذهب و كنبوش زركش، و خلع على جميع من كان معهما من الأمراء، فأقام الأمير بردبک إلى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى، و خلع عليه باستقراره فى نيابة حلب، بعد عزل جانبک التاجى المؤيّدى، و مجيئه إلى القاهرة على إقطاع بردبک.

و فى يوم الخميس تاسعه استقرّ الأمير أزبک من ططخ الظاهرى حاجب الحجاب عوضا عن بردبک المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۴

و فى يوم سلخه ورد الخبر بموت الأمير تنم نائب الشام، و أحضر سيفه قانصوه الجلبّانى الحاجب الثانى بدمشق، فرسم السلطان للأمير جانبک التاجى المعزول عن نيابة حلب باستقراره فى نيابة دمشق، عوضا عن تنم، و تعيّن قانى باى الحسنى المؤيّدى مسفّره، و أنعم السلطان بإقطاع بردبک- الذى كان عيّن لجانبک التاجى - على الأمير يشبک الدّوادار، و أنعم بإقطاع يشبک على مغلباى طاز المؤيدى، و كلاهما تقدمة ألف، لكن التفاوت فى كثرة المتحصل، و أنعم بإقطاع مغلباى طاز على الأمير قايتباى شاد الشرابخاناه زيادة على إقطاعه، ليكون قايتباى أيضا من جملة مقدمى الألوف، فزيدت المقدمون تقدمة أخرى، و استقرّ نانق الظاهرى الأمير آخور الثانى شاد الشرابخاناه عوضا عن قايتباى، و استقرّ جانبک من ططخ الفقيه أمير آخور ثانيا عوضا عن نانق.

و فى يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة عيّن السلطان إلى البحيرة تجريدة عليها الأمير أزبک حاجب الحجّاب، و صحبته من أمراء الطبلخانات جانبک الإسماعيلى كوهية الدوادار الثانى، و كسباى الشّشمانى الناصرى ثم المؤيدى، و من العشرات أرغون شاه أستادار الصحبة، و قانم نعجة، و جانم أمير شكار، و تنبک الأشقر، و الجميع أشرفية، و تغرى بردى الطيّارى، و قانصوه، و قانى باى الساقى، و هما ظاهريان، و أربعمائة مملوک من المماليک السلطانية.

و فى يوم الأحد ثامن عشره ركب السلطان و نزل إلى بيت الأمير بردبک نائب حلب، ثم خرج من عند بردبک و دخل إلى برقوق الناصرى فلم يجده.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۵

و فى يوم الاثنين تاسع عشره وصل سيف الأمير جانبک التاجى المعزول عن نيابة حلب و المتولى نيابة الشام بحلب قبل أن يخرج منها، فلما كان يوم الثلاثاء العشرون من جمادى الآخرة المذكورة رسم السلطان لبرسباى البجاسى نائب طرابلس بنيابة دمشق عوضا عن جانبک التاجى، و صار قانى باى الحسنى مسفّره أيضا، فإنه وافى قانى باى الحسنى موت جانبک و هو بقطيا متوجها إليه بتقليد نيابة الشام و تشريفه، فقرره السلطان مسفّر برسباى هذا، كما كان مسفّر جانبک، ثم رسم السلطان بانتقال جانبک الناصرى نائب حماة إلى نيابة طرابلس عوضا عن برسباى البجاسى، و استقرّ مسفّره الأمير لاجين الظاهرى، و استقرّ بلاط نائب صفد فى نيابة حماة و مسفّره الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيّدى الزردكاش، و استقر يشبک أوش قلق المؤيّدى أحد أمراء الألوف بدمشق عوضا عن بلاط فى نيابة صفد، و استقر الأمير خشكلدى البيسقى مسفّر يشبک هذا، و أنعم بإقطاع هذا على خچداشه شرامرد العثمانى المؤيّدى دوادار السلطان بدمشق.

و فى يوم الجمعة ثالث عشرينه وصل قاصد صاحب قبرس جاكم، و أخبر أنه أخذ مدينة الماغوصة و قلعتها من يد الفرنج، و أنّه سلّمها للأمير جانبک الأبلق المقيم بجزيرة قبرس بمن بقى معه من المماليک السلطانية، فأساء جانبک المذكور السيرة فى أهل الماغوصة، و مدّ يده لأخذ الصبيان الحسان من آبائهم أعيان أهل الماغوصة فشقّ ذلک عليهم، و قالوا: نحن سلمناكم البلد بالأمان، و قد حلفتم لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلا كل خير، و أنتم مسلمون، فما هذا الحال؟ فلم يلتفت جانبک الأبلق إلى كلامهم، و استمرّ على ما هو عليه، فأرسل أهل الماغوصة إلى جاكم عرفوه الخبر، فأرسل جاكم إلى جانبک ينهاه عن هذه الفعلة، فضرب جانبک القاصد المذكور، بعد أن أوسعه سبّا،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۶

فأرسل إليه قاصدا آخر، فضربه جانبک بالنشّاب، فركب جاكم إليه من الأفقسية مدينة قبرس، و جاء إليه و كلّمه، فلم يلتفت إليه، و خشّن عليه الكلام، فكلمه جاكم ثانيا، فضربه بشىء كان فى يده، فسقط جاكم مغشيا عليه، فلما رأت الفرنج ذلك مدت أيديها إلى جانبك و من معه من المسلمين بالسيوف، فقتل جانبك و قتل معه خمسة و عشرون مملوكا من المماليك السلطانية، و هذا معنى ما حكاه يعقوب الفرنجى قاصد جاكم الذى حضر إلى القاهرة رسولا من عند جاكم- و اللّه أعلم- هذا مع اختلاف الروايات فى قتل جانبك و رفقته، و استولى جاكم على الماغوصة على أنه نائب بها عن السلطان، و على كل حال صارت الماغوصة بيد جاكم صاحب قبرس.

ثم عيّن السلطان سودون المنصورى الساقى إلى رواح قبرس مع يعقوب المذكور، فسافر سودون المذكور، و وقع له أمور ذكرناها فى موضعها من تاريخنا «الحوادث»

ثم فى يوم السبت ثامن شهر رجب أعيد قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى إلى منصب قضاء الشافعية بعد موت قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى.

ثم فى يوم الاثنين عاشر رجب أدير المحمل، فلعبت الرمّاحة على العادة.

و فى يوم السبت ثانى عشرينه عيّن السلطان تجريدة إلى البحيرة يردف بها الأمير قرقماس لأمر وقع له مع العرب، قتل فيه جماعة من المماليك السلطانية.

ثم فى يوم الأحد سابع شعبان وصل الأمير قرقماس بمن معه من البحيرة.

و فى هذا الشهر ورد الخبر بأخذ قلعة كركر، و قتل نائبها جكم بحيلة من الأكراد.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۷

و فى يوم الاثنين سادس شوال استقرّ الأمير بردبك هجين أمير جاندار، و كان لهذه الوظيفة مدة طويلة لا يليها إلا الأجناد، و كانت فى القديم أجل الوظائف.

ثم فى يوم الجمعة تاسع عشرين ذى القعدة الموافق لعاشر مسرى أو فى النيل، و نزل السلطان بنفسه، و خلّق المقياس و فتح خليج السد، ثم ركب و عاد إلى القلعة و بين يديه أربعة من أمراء الألوف، و عليهم الخلع التى خلعها السلطان عليهم، و قيد لكل واحد فرسا بسرج ذهب و كنبوش زركش، و هم: الأتابک جرباش، و قرقماس أمير سلاح، و قانم أمير مجلس، و تمربغا رأس نوبة النّوب، و باقى الأمراء عليهم الخلع لا غير، و تعجب الناس لنزول السلطان لكسر البحر، لبعد عهد الناس من نزول السلاطين إلى هذا المعنى، لأنه من سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة ما نزل سلطان، و كان الذى نزل فى سنة ثلاث و ثلاثين الملك الأشرف برسباى- رحمه اللّه.

و فرغت هذه السنة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۸۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۹]

و استهلت سنة تسع و ستين و ثمانمائة ففى يوم السبت العشرين من المحرم أنعم السلطان على الأمير قانصوه المحمدى الساقى الأشرفى أحد أمراء العشرات بإمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و أنعم ببعض إقطاع قانصوه هذا على الأمير قانصوه اليحياوى الظاهرى.

و فى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه وصل الشرفى يحيى بن يشبک الفقيه الدّوادار، و هو أمير الركب الأول إلى القاهرة، و أصبح من الغد وصل الشهابى أحمد بن العينى أمير حاج المحمل بالمحمل، و صحبته جدته خوند زوجة السلطان.

و فى يوم الاثنين تاسع عشرينه استقرّ شرامرد العثمانى حاجب حجاب دمشق.

و فى يوم الاثنين سابع عشرين صفر استقرّ الأمير منصور أستادارا عوضا عن الأمير زين الدين.

و فى يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الآخر استقر ألماس الأشرفى دوادار السلطان بحلب فى نيابهٔ ألبيرهٔ، بعد موت قانى باى طاز البكتمرى، و استقرّ على بن الشيبانى عوضه فى دواداريهٔ حلب.

و فى ثامن جمادى الأولى ورد الخبر بتسليم كركر إلى أعوان حسن بک ابن قرايلک.

و فى يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب أدير المحمل على العادهٔ، و قاست الناس من الأجلاب شدائد.

ثم فى يوم الخميس سلخ رجب قدم الخبر بموت الأمير جانبک الناصرى نائب طرابلس.

و فى يوم الخميس سابع شعبان استقر سودون الأفرم الخازندار مسفّر الناصرى محمد ابن المبارک من نيابهٔ حماهٔ إلى نيابهٔ طرابلس، و استقرّ الأمير كسباى الشّشمانى

النجوم الزاهرهٔ فى ملوک مصر و القاهرهٔ، ج١۶، ص: ٢٨٩

المؤيّدى مسفّر يشبک البجاسى أحد أمراء حلب باستقراره فى نيابهٔ حماهٔ، و كلاهما صولح و لم يسافر.

و فى يوم السبت ثالث عشرينه نفى السلطان يشبک الساقى أحد مماليكه الأجلاب إلى الشام.

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان رسم السلطان بنفى الأمير الكبير جرباش المحمدى الناصرى المعروف بكرد إلى ثغر دمياط بطّالا، فخرج من الغد.

و فى يوم الخميس العشرين من رمضان استقرّ الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى المعروف بالتاجر أمير مجلس أتابک العساكر عوضا عن جرباش المذكور.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشرينه استقر الأمير تمربغا رأس نوبهٔ النّوب أمير مجلس بعد الأتابک قانم، و استقرّ الأمير أزبک حاجب الحجاب عوضه رأس نوبهٔ النّوب، و استقرّ الأمير جانبک قلقسيز الأشرفى حاجب الحجاب عوضا عن أزبک، و أنعم السلطان بإقطاع الأتابک قانم على الشهابى أحمد بن العينى.

قلت: هنا نكتهٔ طريفهٔ، و هى أن يوم رابع عشرين من الأيام السبعهٔ المكروههٔ عند الناس، و هؤلاء الأربعهٔ الذين تولوا فيه لم يلقوا إلا كل خير، فإن الأمير تمربغا لا يزال أمره ينمو و يزداد فى هذه الوظيفهٔ إلى أن صار سلطانا، و أزبک إلى أن صار أتابک العساكر، و جانبک قلقسيز إلى أن صار أيضا أتابک العساكر، و ابن العينى إلى إمرهٔ مجلس، و العجب أنهم من يوم تاريخه صاروا فى خير و سلامهٔ إلى أن كان من أمرهم ما كان، فأى شؤم حصل بولايتهم فى هذا اليوم؟! و الحق هو ما أقوله: إن كل شيء لم يأت به كتاب اللّه و لا سنهٔ رسول اللّه فهو مردود على قائله، و السلام.

و دام جرباش كرد هذا بدمياط نحو سبع سنين.

ثم فى يوم الثلاثاء ثالث عشر ذى الحجهٔ أو فى النيل، و نزل السلطان خلّق المقياس، و فتح السّدّ كما السنهٔ الخاليهٔ.

النجوم الزاهرهٔ فى ملوک مصر و القاهرهٔ، ج١۶، ص: ٢٩٠

[ما وقع من الحوادث سنهٔ ٨٧٠]

و استهلت سنهٔ سبعين و ثمانمائهٔ ففى أولها رسم السلطان الظاهر خشقدم بتحويل السنهٔ الخراجيهٔ على العادهٔ.

و فى يوم السبت أول المحرم وصل نجّاب، و هو مبشر الحاج، و أخبر بالأمن و السلامهٔ.

و فى يوم الأربعاء ثانى عشره وصلت الأمراء الخمسهٔ بمن معهم من أمراء الطبلخانات و العشرات و المماليک السلطانيهٔ من البحيرهٔ.

و فيه استقرّ القاضى علاء الدين بن الصابونى قاضى قضاهٔ دمشق الشافعيهٔ، بعد عزل القاضى جمال الدين الباعونى، و أضيف إليه نظر جيش دمشق، عوضا عن البدرى حسن ابن المزلق، و باشر علاء الدين المذكور قضاء دمشق سنين كثيرهٔ، و هو مقيم بديار مصر، و

نوّابه تحکم بدمشق، و هذا شیء لم یقع لغیره فی دولة من الدول.

و فی یوم السبت ثانی عشرینه وصل الأمیر خشکلدی القوامی أمیر الرکب الأول، و وصل من الغد أمیر حاج المحمل جانبک قلقسیز بالمحمل، و کان وصل قبلهما الأمیر قانی بک المحمودی المؤیّدی أحد مقدّمی الألوف بالدیار و کان حج فی هذه السنة.

و فی هذه الأیام زاد فساد الممالیک الأجلاب، و عظم شرهم و ظلمهم.

فلما کان یوم السبت ثالث عشر صفر نودی بالقاهرة بأن أعیان التجار و السوقة تطلع من الغد إلی القلعة، و طلعوا و قد ظن کل أحد منهم أن السلطان ینظر فی أمرهم مع الممالیک الأجلاب، فعند طلوعهم رکب السلطان و نزل إلی جهة القرافة و غیرها، ثم طلع إلی القلعة، و جلس علی الدکة، و حضر التجار المطلوبون و غیرهم، فلما تمثلوا بین یدیه کلمهم السلطان بکلام معناه: أنهم لا یشترون شیئا من القماش بالجریدة، و أن یخبروا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۱

المشتری بالحق، و أشیاء من هذه المقولة، و لم یبد فی أمر الأجلاب بشیء، فراحوا مثل ما جاءوا.

و فی یوم الخمیس ثالث ربیع الأول استقر الأمیر خیربک الخازندار الظاهری أمیر حاج المحمل، و استقر الأمیر کسبای الشّشمانی المؤیّدی أمیر الرکب الأوّل.

و فی یوم الاثنین سابع شهر ربیع الأول استقر الأمیر خشکلدی البیسقی محتسب القاهرة بعد عزل سودون البردبکی المؤیّدی الفقیه.

و فی هذه الأیام عزل یشبک آس قلق المؤیّدی عن نیابة صفد بجکم الأشرفی خال الملک العزیز یوسف نقلا من نیابة غزّة، و توجه یشبک المذکور علی إمرة مائة و تقدمة ألف بدمشق، و استقرّ فی نیابة غزّة الأمیر إینال الأشقر الظاهری أتابک حلب، و استقر فی أتابکیة حلب بعده ألماس الأشرفی نائب ألبیرة، و استقر فی نیابة ألبیرة شادبک الصغیر الجلبّانی، و هو رجل من الأحداث قدّمه المال.

و فی یوم الجمعة حادی عشره ثارت الممالیک الجلبان علی السلطان، و أفحشوا فی طلب تریات صوف المعدة للأسفار و الصید، و لهم حکایة طویلة ذکرناها فی «الحوادث»، و کان السلطان عزم علی التوجّه إلی الصید، فما وسعه إلا أنه أبطل الرّواح إلی الصید.

و فی یوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوی بالحوش علی العادة.

و فی یوم الخمیس سابع عشره استقر الأمیر برسبای قرا الظاهری مسفّر جکم نائب صفد، و استقرّ کسبای الظاهری خشقدم أحد الدواداریة الصغار مسفّر نائب غزّة.

و فی یوم الاثنین ثامن عشرینه أمسک السلطان منصورا الأستادار و حبسه بقلعة الجبل، و أمسک عن سداد لا عن عجز، و أعید الأمیر زین الدین إلی الأستاداریة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۲

و دام منصور فی الحبس و العقوبة إلی أن آل أمره إلی ضرب الرقبة بالشّرع علی ما زعموا.

و فی یوم السبت وصل سیف ملک أصلان بن سلیمان بن ناصر الدین بک بن دلغادر نائب أبلستین، و ذکروا أنه قتله فداویّ، و لا یلزمنی ذکر اسم من أرسل إلیه الفداوی.

و فی یوم الخمیس تاسع عشرینه عزل السلطان الأمیر جوهرا النّوروزیّ مقدّم الممالیک السلطانیّة بنائبه الأمیر مثقال الظاهری الحبشی، و استقرّ عوضه فی نیابة المقدم خادم أسود دکروری من أصاغر الخدّام لا أعرفه قبل ذلک، یسمی خالصا.

و فی یوم السبت ثامن جمادی الآخرة عقد السلطان عقده علی جاریته سواربای الچارکسیة أم ابنته، و جعلها خوند الکبری صاحبة القاعة، و ذلک بعد موت زوجته خوند شکربای الأحمدیة الناصریة فرج بن برقوق، و کان العاقد القاضی الحنفی محب الدین ابن الشّحنة.

و فی یوم الخمیس ثالث عشره ولی القاضی صلاح الدین المکینی قضاء الشافعیة بالدیار المصریة بعد عزل قاضی القضاة شرف الدین

یحیی المناوی.

و فیه أیضا استقرّ القاضی برهان الدین إبراهیم بن الدّیری قاضی قضاة الحنفیة أیضا بالدیار المصریة بعد عزل قاضی القضاة محب الدین بن الشّحنة الحنفی.

و فیه استقر الأمیر أرغون شاه الأشرفی أستادار الصحبة أمیر حاج الرّکب الأوّل بعد موت الأمیر کسبای المؤیّدی- رحمه اللّه تعالی.

و فی یوم الخمیس ثالث عشره استقرّ قاسم صیرفی اللحم المعروف بجغیتة وزیرا بالدّیار المصریّة، و قلع لبس العوام و السّوقة، و تزیّا بزی الکتاب، و رکب فرسا.

و استقرّ فی نظر الدّولة شخص آخر من مقولة قاسم جغیتة، اسمه عبد القادر، لم أعرفهما قبل تاریخه، و کان لبسهما لهاتین الوظیفتین عارا کبیرا علی ملوک مصر إلی یوم القیامة، ولی علی من ولّاهما حجج لا یقوم أحد بجوابها، و لیس لأحد فی ولایتهما عذر مقبول، و آفة هذا کلّه عدم المعرفة و قلّة التدبیر، و إلا ما ضیّق اللّه علی ملک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۳

مصر حتی یکون له وزیر مثل هذا، و مثل أستاذه محمد البباوی المقدّم ذکره، و قد تکلمنا فی ولایة البباوی للوزر کلاما طویلا فیه کفایة عن الإعادة هنا، و ذلک فی تاریخنا «حوادث الدهور»، و قد أنشدنی بعض رؤساء دیار مصر فی یوم ولایة قاسم للوزر أبیات الطّغرائی من قصیدته لامیة العجم- رحمه اللّه تعالی: [البسیط].

ما کنت أوثر أن یمتدّ بی زمنی حتی أری دولة الأوغاد و السّفل

هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا من قبله، فتمنی فسحة الأجل

و فی هذه الأیّام عیّن السلطان تجریدة إلی البلاد الحلبیة نجدة لشاه بضع بن دلغادر نائب أبلستین، لیعینوه علی قتال أخیه شاه سوار بن دلغادر، و فی التجریدة سبعة أمراء من أمراء الألوف، و هم: الأتابک قانم، و تمربغا أمیر مجلس، و یلبای الأمیر آخور الکبیر، و قانی بک المحمودی المؤیّدی، و بردبک هجین أمیر جاندار، و قایتبای المحمودی الظاهری، و جماعة کبیرة أخر من أمراء الطبلخانات و العشرات یأتی ذکر أسمائهم عند سفرهم إن تم ذلک، ثم بطلت التجریدة بعد أیام.

و فی یوم الثلاثاء أول شعبان استقرّ الکاتب شرف الدین بن کاتب غریب أستادارا عوضا عن الأمیر زین الدین یحیی الأستادار.

و فی یوم الجمعة أول شوال خطب فیه خطبتان بالقاهرة و غیرها، و تشاءم الناس بذلک علی الملک فلم یقع إلا خیر.

و فی یوم السبت سادس عشر شوال استقرّ الأمیر جانبک الإسماعیلی المعروف بکوهیّة الدوادار الثانی أمیر مائة و مقدّم ألف، عوضا عن الأمیر جانبک الناصری المعروف بالمرتد، بحکم کبر سنه و عجزه عن الحرکة، و خلع السلطان علی مملوکه الأمیر خیربک الخازندار باستقراره دوادارا ثانیا، عوضا عن جانبک کوهیّة، و خیربک هذا هو أمیر حاج المحمل فی هذه السنة، و سافر خیربک المذکور بالمحمل فی یوم الاثنین ثامن عشره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۴

و فی یوم الأربعاء العشرین منه ضربت رقبة الأمیر منصور الأستادار بسیف الشرع، و کانت هذه الفعلة من غلطات الملک الظاهر خشقدم؛ فإنه کان فی بقائه له خاصة منفعة کبیرة من وجوه عدیدة، و لعله ندم علی قتله بعد ذلک.

ثم فی یوم الاثنین خامس عشرینه استقر الأمیر رستم بن ناصر الدین بک بن دلغادر فی نیابة الأبلستین، عوضا عن ابن أخیه شاه بضع، بحکم ضعف شاه بضع عن دفع أخیه سوار، و أظن أن رستم هذا أضعف من شاه بضع فی دفع شاه سوار.

و فی یوم الخمیس العشرین من ذی القعدة استقرّ الأمیر قانی بای الحسنی المؤیدی أحد أمراء الطبلخانات فی نیابة طرابلس دفعة واحدة، بعد عزل الناصری محمد بن المبارک، و کانت ولایة قانی بای هذا لطرابلس أیضا من الأمور المنکرة الخارجة عن العادة، لأننا لا نعلم أن أحدا ولی نیابة طرابلس غیر مقدّم ألف بالدیار المصریة، بل غالب من یلی نیابة طرابلس ینتقل إلیها من وظیفة عظیمة

جلیلة، إما أمیر مجلس، أو أمیر آخور کبیر أو رأس نوبة النّوب، أو ینتقل إلیها من نیابة حماة، بل إن الأتابک طرباى الظاهرى ولیها بعد الأتابکیة، و مع هذا کله لیته أهل لذلک، بل هو من کبار المهملین- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٩٥

[ما وقع من الحوادث سنة ٨٧١]

و استهلت سنة إحدی و سبعین و ثمانمائة بیوم الأربعاء و یوافقه عشرون مسری.

فیه أوفی النیل، و فتح الخلیج، و خلّق المقیاس الأتابک قانم بإذن السلطان.

و فی یوم الاثنین سادسه أعید قاضی القضاة محب الدین بن الشّحنة إلی قضاء الحنفیة بعد عزل قاضی القضاة برهان الدین إبراهیم بن الدّیری.

و فی یوم السبت حادی عشره استقرّ القاضی أبو السعادات البلقینی قاضی قضاة الشافعیة بالدیار المصریة، بعد عزل صهره صلاح الدین المکینی.

و فی یوم الخمیس سابع صفر استقرّ القاضی کمال الدین محمد ابن الصاحب جمال الدین یوسف بن کاتب جکم ناظر الجیوش المنصورة، عوضا عن القاضی تاج الدین عبد اللّه ابن المقسی، و أبقی علی ابن المقسی وظیفة نظر الخاص.

و فیه استقرّ الأمیر زین الدین یحیی أستادارا علی عادته.

و فی یوم الاثنین ثامن عشر صفر استقر الأمیر یلبای الإینالی المؤیّدی الأمیر آخور الکبیر أتابک العساکر بالدیار المصریة، بعد موت الأتابک قانم المؤیدی الآتی ذکره فی الوفیات- إن شاء اللّه تعالی، و أنعم السلطان بإقطاع یلبای علی الأمیر بردبک هجین أمیر جاندار، و أنعم بإقطاع بردبک هجین علی الأمیر نانق شاد الشراب خاناه.

و فی یوم الخمیس حادی عشرین صفر استقر الشهابی أحمد بن العینی أمیر آخور کبیرا بعد الأتابک یلبای.

و فیه استقر الأمیر خشکلدی البیسقی أحد أمراء العشرات شاد الشراب خاناه بعد نانق المحمدی المقدّم ذکره، قلت: و علی کل حال خشکلدی ألیق لهذه الوظیفة من نانق.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٢٩۶

و فی یوم الأحد رابع عشرینه ورد الخبر بموت الأمیر برسبای البجاسی نائب الشام الآتی ذکره فی الوفیات.

و فی یوم الخمیس ثامن عشرینه رسم السلطان بانتقال الأمیر بردبک الظاهری نائب حلب من نیابة حلب إلی نیابة الشّام، عوضا عن برسبای البجاسی، و استقرّ نانق الظاهری أحد المقدمین مسفّره.

و استقرّ فی نیابة حلب عوضا عن بردبک یشبک البجاسی نائب حماة، و استقرّ مسفّره الشرفی یحیی بن یشبک الفقیه الدّوادار الکبیر.

و استقرّ تنم الحسینی الأشرفی ثانی رأس نوبة فی نیابة حماة، عوضا عن یشبک البجاسی، و استقرّ مسفّره تمر من محمود شاه الظاهری والی القاهرة.

و استقر الأمیر تنبک المعلّم الأشرفی عوضه رأس نوبة ثانیا.

و استقرّ الأمیر مغلبای مملوک السلطان قدیما فی حسبة القاهرة، عوضا عن خشکلدی.

و فی یوم الأحد ثامن شهر ربیع الأول عمل السلطان المولد النبوی علی العادة، و قاسی من حضر المولد من الأجلاب شدائد.

و فی یوم الاثنین سادس عشر ربیع الأول استقر نانق المحمدی المقدّم ذکره أمیر حاج المحمل، و استقر الأمیر سیبای الظاهری الأمیر آخور الثالث أمیر الرکب الأوّل، و استقرّ الأمیر دمرداش السّیفی تغری بردی البکلمشی نائب قلعة حلب بعد عزل الشّیبانی.

و فی یوم السبت ثالث عشرینه ابتدأ السلطان بالحکم بین الناس بالإسطبل السلطانی فی یومی السبت و الثلاثاء، علی قاعدة ملوک

السلف، و لم يقع له ذلک من يوم تسلطن، لأن سلاطين زماننا هذا صاروا يجلسون بالدّكة من الحوش السلطانی بقلعة الجبل، و يتعاطون الأحكام بين الناس، فلم يحتج الملک مع جلوسه بالحوش إلى النزول بالإسطبل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۷

للحكم، و كانت قاعدة ملوک السلف ممن أدركنا و سمعنا الاحتجاب عن الناس بالكلية، و لم يقدر أحد من المماليک السلطانية أن يدخل الحوش- بحاجة أو غير حاجة- إلا بقماش الموكب، و لا يجتمع أحد بالسلطان بالدهيشة و الحوش إلا الخصيصين به لا غير، و من كان له مع السلطان حاجة يجتمع به فی القصر السلطانی ليالی المواكب و أيام المواكب، فبهذا المقتضی كان يحتاج السلطان إلى النزول إلى الإسطبل السلطانی للحكم بين الناس، و إنصاف المظلوم من الظالم، و يكون ذلک فی الغالب أيّام الشتاء، و تكون مدة الحكم فی يومی السبت و الثلاثاء نحو شهرين، و قد فهمت الآن معنی قولنا: «و لم يحكم السلطان بين الناس من يوم تسلطن»، أعنی بذلک نزوله إلى الإسطبل- انتهی.

ثم فی يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر نزل السلطان إلى رماية البركة لصيد الكراكی و غيرها على العادة، و هذا أيضا أول نزوله إلى الصيد من يوم تسلطن و عاد من يومه، و شقّ القاهرة، ثم تكرر من السلطان نزوله إلى الصيد فی هذه السنة غير مرة.

و فی هذه الأيام كانت واقعة أصبای البواب مع القتيلين اللذين قتلهما، و قد حكينا واقعته فی «الحوادث».

و فی يوم الأربعاء خامس عشر جمادی الأولى ثارت المماليک الأجلاب بالقلعة فی الأطباق، و منعوا الناس من الطلوع إلى الخدمة السلطانية، و طلبوا زيادة جوامک و كسوة و عليق، و وقع أمور، ثم وقع الأمر على شیء حكيناه بعد وهن فی المملكة.

و فی يوم الخميس سادس عشره استقرّ القاضی ولی الدين الأسيوطی أحد نواب الحكم قاضی قضاة الشافعية بالديار المصريّة، بعد شغور القضاء عن أبی السعادات البلقينی أياما كثيرة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۸

و فی يوم الثلاثاء سادس جمادی الآخرة استقر جانبک الظاهری أحد الدوادارية الصغار فی نيابة قلعة دمشق، بعد عزل الصارمی إبراهيم بن بيغوت.

و فی يوم الخميس تاسع عشرين جمادی الآخرة خرج الحاج الرجبی من القاهرة و أميره علّان الأشرفی، و العمدة فی الركب المذكور على القاضی زين الدين بن مزهر كاتب السر الشريف، لعظمة سار فيها، و تجمل زائد إلى الغاية، و فعل فی هذه السفرة أفعالا جميلة، حكيت عنه و شكرت.

و فی يوم الاثنين حادی عشر رجب أدير المحمل، و لعبت الرّماحة على العادة.

و استهلّ شعبان، نذكر فيه نادرة، و هی أن أرباب التقويم كانوا اجتمعوا على أن آخر مدّة الملک الظاهر خشقدم فی السلطنة تكون إلى ثامن عشر شهر رجب من هذه السنة، فمضی رجب و لم يحصل للسلطان تكدير و لا نكد مؤلم، و لا ضعف لزم منه الفراش، و لا نوع من الأنواع المشوشة، و استهل شعبان هذا و هو فی أحسن حال، و أخزی اللّه هؤلاء الكذبة الفسقة المدعين علم الغيب، تعالى اللّه أن يظهر على غيبه إلا من أراد من أصفيائه و أوليائه.

ثم استهلّ شوال يوم الثلاثاء، ففيه أيضا نكتة نذكرها، و هی أنه كان فی العام الماضی أول شوال يوم الجمعة، فتشاءم الناس بذلک على الملک من وقوع خطبتين فی نهار واحد، و لم يقع إلا الخير و السلامة، فاعتمد على أن هذا الكلام من الهذيان، و ما أعلم الذی قال ذلک، أوّلا ـ ما دليله؟ مع أن الخطبة من أعظم السنن، و يحصل بها التذكير و الخير، و الأمر بالمعروف، و النهی عن المنكر، و الخشوع ورقة القلب، فعلى هذا كلما

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۲۹۹

تكررت فی اليوم تكرّر الخير و البركة و الأجر، و ما أظن قائل هذا- أولا- إلا رجلا منافقا يكره السّنة و الاقتداء بها- انتهی.

و فى يوم الاثنين سابع شوال استقرّ الأمير شرف الدين موسى بن كاتب غريب أستادارا عوضا عن الأمير زين الدين يحيى.

و فى يوم السبت تاسع عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل، و هو نانق الظاهرى و سيباى أمير الركب الأول.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۲]

و استهلت سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة بيوم الأحد و يوافقه تاسع مسرى.

ففى يوم السبت سابعه- الموافق لخامس عشر مسرى- أو فى النيل، و نزل السلطان الملك الظاهر خشقدم، و عدّى النيل، و خلّق المقياس، و عاد و فتح خليج السّدّ على العادة.

و فى يوم الخميس ثانى عشره ورد الخبر من نائب حلب يشبك البجاسى أن شاه سوار نائب أبلستين خرج عن طاعة السلطان، و يريد المشى على البلاد الحلبية، فرسم السلطان فى الحال بخروج نائب طرابلس و نائب حماة إلى جهة البلاد الحلبية لمعاونة نائب حلب إن حصل أمر، ثم عيّن السلطان تجريدة من مصر إلى جهات البلاد الحلبية إن ألجأت الضرورة إلى سفرهم، و الذين عينهم فى هذه التجريدة من أمراء الألوف: الأتابك يلباى، و أمير سلاح قرقماس، و أمير مجلس تمربغا، و قانى بك المحمودى، و مغلباى طاز المؤيّدى، و ذكر أنه تعيّن عدة كبيرة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و ألف مملوك من المماليك السلطانية، هذا و السلطان قد بدأ فيه التوعّك من يوم عاشوراء، و هذا المرض الذى مات فيه، ثم لهج السلطان بعزل يشبك البجاسى نائب حلب و تولية الأمير مغلباى طاز المؤيّدى المقدّم ذكره عوضه فى نيابة حلب.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره ورد الخبر بأن إقامة الحاج التى جهّزت من القاهرة أخذت عن آخرها، أخذها مبارك شيخ بنى عقبة بمن كان معه من العرب، و أنه قتل جماعة ممن كان مع الإقامة المذكورة، منهم جارقطلو السّيفى دولات باى أحد أمراء آخورية السلطان، فعظم ذلك على السلطان- و زاد توعّكه- و على الناس قاطبة، و ضر أخذ إقامة الحاج غاية الضرر، و أشرف غالبهم على الموت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۱

فلما كان يوم الجمعة العشرين من المحرم وصل الحاج الرجبى، و عظيم من كان فيه زين الدين بن مزهر كاتب السّرّ المقدم ذكره، و أمير حاج الركب الأول الأمير سيباى إلى بركة الحاج معا، بعد أن قاست الحجاج أهوالا و شدائد من عدم الميرة و العلوفة و قلّة الظهر، و دخل نانق أمير الحاج من الغد.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم عيّن السلطان الأمير أزبك رأس نوبة النّوب الظاهرى، و الأمير جانبك حاجب الحجّاب الأشرفى المعروف بقلقسيز، و صحبتهما أربعة من أمراء العشرات، و هم دولات باى الأبوبكرى المؤيّدى، و قطلباى الأشرفى، و تنبك الأشرفى، و تغرى بردى الطيّارى، و عدّة مماليك من المماليك السلطانية، لقتال مبارك شيخ عرب بنى عقبة و من معه من الأعراب، و كتب السلطان أيضا لنائب الكرك الأمير بلاط، و نائب غزّة الأمير إينال الأشقر، بالمسير إلى جهة الأمير أزبك بعقبة أيلة، و مساعدته على قتال مبارك المذكور، و خرج الأمير أزبك بمن عيّن معه من القاهرة فى يوم الاثنين سابع صفر.

كل ذلك و السلطان متوعك بالإسهال، و هو لا ينقطع عن الخروج إلى الحوش، بل يتجلّد غاية التجلّد، حتى إنه عمل الموكب فى هذا اليوم بالقصر لأجل خروج الأمير أزبك، و هذا آخر موكب عمله الملك الظاهر خشقدم بالقصر السلطانى.

فلما كان يوم الخميس عاشر صفر أرجف بموته، و أشيع ذلك إشاعة خفيفة فى ألسنة العوام.

فلما كان يوم الجمعة حادى عشره خرج السلطان الملك الظاهر خشقدم إلى صلاة الجمعة من باب الحريم ماشيا على قدميه من غير مساعدة، و عليه قماش الموكب الفوقانى، و السيف و الكلفتاة على العادة، و صلى الجمعة و سنّتها قائما على قدميه، هذا و قد أخذ منه

المرض الحدّ المؤلم، و هو يستعمل التجلّد و إظهار القوة، إلى أن فرغت الصلاة، و عاد إلى الحريم ماشيا أيضا، و لكن القاضى الشافعى أسرع فى الخطبة و الصلاة إلى الغاية حسبما كان أشار إليه السلطان بذلك، بحيث إن الخطبة و الصلاة كانتا على نحو ثلاث درج رمل و بعض دقائق.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۲

فلما عاد السلطان من الصلاة إلى الحريم سقط مغشيا عليه لشدة ما ناله من التعب و عظم التجلد، و هذه أيضا آخر جمعة صلاها، و لم يخرج بعدها من باب الحريم لا لصلاة و لا إلى غيرها، و صارت الخدمة بعد ذلك فى الحريم بقاعة البيسرية

ثم أصبح السلطان فى يوم السبت ثانى عشره رسم بالمناداة بشوارع القاهرة بأن أحدا لا يخرج بعد صلاة المغرب من بيته و لا يفتح سوقىّ دكانه، و هدّد من خالف ذلک، فلم يلتفت أحد إلى هذه المناداة، و علم أن المقصود من هذه المناداة عدم خروج المماليک فى الليل، و توجه بعضهم لبعض لإثارة فتنة.

و فى هذه الأيام ورد الخبر من دمشق بأن الأمير بردبک نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها فى آخر المحرم إلى جهة حلب لمعاونة نائب حلب على قتال شاه سوار.

ثم فى يوم الاثنين رابع عشر صفر عمل السلطان الخدمة بقاعة البيسريّة من الحريم السلطانى، لضعفه عن الخروج إلى قاعة الدهيشة، و حضرت الأمراء المقدمون و غيرهم الخدمة السلطانية بالبيسرية، و لكن بغير قماش، و علّم السلطان على عدة مناشير و مراسيم دون العشرين علامة، و لكن ظهر عليه المرض، لكنه يتجلد و يقوم لمن دخل إليه من القضاة و العلماء.

فلما كان يوم الجمعة ثامن عشره لم يشهد فيه صلاة الجمعة و صلّت الأمراء بجامع القلعة على العادة، و بعد أن فرغت الصلاة دخلوا عليه و سلّموا عليه، و استوحشوا منه، و جلسوا عنده إلى أن أسقاهم مشروب السّكر، و انصرفوا.

ثم فى آخر يوم الاثنين حادى عشرينه وجد السلطان فى نفسه نشاطا، فقام و تمشّى

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۳

خطوات فتباشر الناس بعافيته، كل هذا و هو مستمرّ فى أول النهار و فى آخره يعلّم على المناشير و المراسيم، لكن بحسب الحال، تارة كثيرا، و تارة قليلا.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه لم يحضر السلطان فيه الصلاة أيضا لثقله فى المرض، و دخلوا إليه الأمراء بعض صلاة الجمعة، و جلسوا عنده، و فعل معهم كفعله فى الجمعة الماضية.

و استهل شهر ربيع الأوّل يوم الخميس و السلطان ملازم للفراش، و الناس فى أمر مريج من توقف الأحوال، لا سيما أرباب الحوائج الواردون من الأقطار، هذا و جميع نوّاب البلاد الشاميّة قد خرجوا من أعمالهم إلى البلاد الحلبية، لقتال شاه سوار ابن دلغادر، ما خلا جكم نائب صفد، و نائب غزّة قد خرج أيضا إلى جهة العقبة لقتال مبارک شيخ عرب بنى عقبة، فبهذا المقتضى خلا الجو للمفسدين و قطّاع الطريق و غيرهم بالدرب الشامى و المصرى، و مع هذا فالفتن لم تزل قائمة بأسفل مصر الشرقية و الغربية، و أيضا بأعلى مصر، الصعيد الأدنى و الأعلى، و تزايد ذلک بطول مرض السلطان.

و بينما الناس فى ذلک ورد الخبر من يشبک من مهدى الظاهرى الكاشف بالصعيد أن يونس بن عمر الهوّارى خرج عن طاعة السلطان، و قاتل يشبک المذكور، و قتل من عسكره عدّة كبيرة و انكسر يشبک منه بعد أن جرح فى بدنه، ثم أنهى يشبک أنه يريد ولاية سليمان بن الهوّارى عوضا عن ابن عمه يونس، و أنه يريد نجدة كبيرة من الديار المصرية، فرسم السلطان فى الحال بولاية سليمان بن عمر، و توجّه إليه بالخلعة قجماس الظاهرى، و رسم السلطان بتعيين تجريدة إلى بلاد الصعيد.

فلما كان يوم السبت ثالثه عيّن السلطان التجريدة المذكورة إلى بلاد الصعيد، و عليها الأمير قرقماس الجلب الأشرفى أمير سلاح، و يشبک من سلمان شاه الفقيه الدّوادار الكبير، و من أمراء العشرات خمسة نفر: قلمطاى الإسحاقى، و أرغون شاه أستادار الصحبة، و

يشبك الإسحاقى، و أيدكى، و يشبك الأشقر، و الخمسة أشرفية،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۴

و جماعة كبيرة من المماليك السلطانية أشرفية كبار و أشرفية صغار، و نزل الأمير نقيب الجيش إلى المعينين، و أمرهم على لسان السلطان بالسفر من يومهم إلى الصعيد، فاعتذروا بعدم فراغ حوائجهم؛ لكون الوقت يوما واحدا.

فلما كان آخر هذا النهار أرجف بموت السلطان فماجت الناس، و كثر الهرج بشوارع القاهرة، و لبس بعض المماليك آلة الحرب، فاستمرت الحركة موجودة فى الناس إلى قريب الصباح.

و أصبح فى يوم الأحد رابع ربيع الأوّل و السلطان فى قيد الحياة، غير أنه انحطّ فى المرض انحطاطا يشعر العارف بموته، و نودى فى الحال بالأمان و البيع و الشراء، و دقّت البشائر بعافية السلطان فى باكر النهار و فى آخره أياما كثيرة، و صار السلطان أمره إلى التلف و هم على ذلك.

فلما كان عصر نهار الأحد المذكور نزل الأمير تنبك المعلم الأشرفى الرأس نوبة الثانى إلى الأمير قرقماس أمير سلاح على لسان السلطان و أمره بالخروج إلى السّفر من وقته بعد أن ذكر له كلاما حسنا من السلطان، فخرج قرقماس من وقته، و كذلك يشبك الفقيه الدّوادار، و تبعهما من بقى ممن عيّن إلى السفر، و نزلوا إلى المراكب، و وقفوا بساحل النيل ينتظرون من عيّن معهم من المماليك السلطانية فلم يأتهم أحد، كل ذلك و السلطان صحيح الذهن و العقل، يفهم الكلام و يحسن الرد، و ينفذ غالب الأمور، و يولى و يعزل، و الناس لا تصدّق ذلك، و أنا أشاهده بالعين، هذا و السلطان يستحثّ من ندب إلى الصعيد بالسّفر فى كل يوم.

و أصبح السلطان فى يوم الاثنين على حاله، و حضر عنده بعض أمراء، و علّم على دون عشرة مناشير و مراسيم، و هو فى غاية من شدة المرض، فلما نجزت العلامة استلقى على قفاه، فرأيت وجهه كوجه الأموات، و انفضّ الناس و خرجوا، فلما كان بعد الظهر طلع إلى السلطان بعض أمراء الألوف و الأعيان، و سلّم عليه، فشكا إليه السلطان ما أشيع عنه من الموت، ثم قال: أنا ما أموت حتى أموّت خلائق، و أنا أعرف من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۵

أشاع هذا عنى، يعنى بذلك الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار، قلت: قد عرّفت الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار و أمرهما و ما وقع فى مرض السلطان من أوّله إلى آخره فى تاريخنا «الحوادث»، و ليس ما نذكر هنا إلا علم خبر لا غير- انتهى.

ثم طلع القاضى كاتب السّرّ بعد ظهر يوم الأحد المذكور و أحضر آلة العلامة، فلم يطق السلطان أن يعلّم شيئا، و قيل: إنه علّم على أربعة مناشير، و قيل غير ذلك، و قيل إنه لم يطق الجلوس إلا بشدّة، هذا مع التجلد الذى لا مزيد عليه، و كان هذا دأبه من أوّل مرضه إلى أن مات- التجلد و عدم إظهار العجز- و للّه دره ما كان أجلده.

و بات السلطان فى تلك الليلة على حاله، و الناس فى أمره على أقوال كثيرة، هذا و هو يستحث على سفر الأمراء المعينين إلى الصعيد، و القصاد منه ترد إليهم، و هم يعتذرون عن السفر بعدم حضور من عيّن معهم من المماليك السلطانية، فيأمر بالمناداة بسفرهم، فلم يخرج أحد.

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسة طلع الأمير الكبير يلباى إلى السلطان و معه خچداشه قانى بك المحمودى، و جانبك كوهيّة، و الثلاثة أمراء ألوف مؤيديّة، فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس، بل استمر على جنبه؛ لشدة مرضه، و شكا إليهم ما به، فتألموا لذلك و دعوا له، ثم أمر السلطان و هو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد، ثم خلع على يوسف بن فطيس أستادار السلطان بدمشق بمشيخة نابلس، و خرج الناس من عند السلطان، و لم يعلّم شيئا، و هذا أوّل يوم منع السلطان فيه العلامة من يوم مرض إلى هذا اليوم.

و أصبح يوم الخميس ثامنه و قد اشتدّ به المرض، و يئس الناس منه، و كذلك يوم الجمعة، و لكن عقله واع، و لسانه طلق، و كلامه

كلام الأصحاء.

و أصبح يوم السبت عاشر شهر ربيع الأول و هو فى السياق، فلما كان ضحوة النهار المذكور حدثت أمور ذكرناها فى تاريخنا «الحوادث»، و اجتمع الأمراء الأكابر بمقعد الإسطبل السلطانى عند الأمير آخور الكبير، و الأمير آخور المذكور حسّ بلا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۶

معنى، ليس له فى المجلس إلا الحضور بالجثة، و جلس الأتابك يلباى فى صدر المجلس و بإزائه الأمير تمربغا أمير مجلس، و هو متكلّم القوم، و لم يحضر قرقماس أمير سلاح لإقامته بساحل النيل كما تقدّم، و حضر جماعة من أمراء الألوف و كبير الظاهرية الخشقدميّة يوم ذاك خيربك الدّوادار الثانى، و أخذوا فى الكلام إلى أن وقع الاتفاق بينهم على سلطنة الأتابك يلباى، و رضى به عظيم الأمراء الظاهرية الكبار الأمير تمربغا أمير مجلس، و كبير الظاهرية الصغار الخشقدميّة خيربك الدّوادار، و جميع من حضر، و كان رضاء الظاهرية الكبار بسلطنة يلباى بخلاف الظنّ، و كذلك الظاهريّة الصغار.

ثم تكلّم بعضهم بأن القوم يريدون من الأمير الكبير أن يحلف لهم بما يطمئن به قلوبهم و خواطرهم، فتناول المصحف الشريف بيده، و حلف لهم يمينا بما أرادوه، ثم حلف الأمير تمربغا أمير مجلس، و شرح اليمين و كيفيته معروفة، فإنه يمين لتمشية الحال، و أرادوا خيربك أن يحلف، فقال ما معناه. «نحن نخشاكم فحلّفناكم، فنحن نحلف على ما ذا؟».

ثم انفضّ المجلس و نزل الأتابك يلباى إلى داره و بين يديه وجوه الأمراء، و لم يحضر الأمير قايتباى الظاهرى معهم عند الاتفاق و اكتفى عن الحضور بكبيرهم الأمير تمربغا الظاهرى، كل ذلك قبل الظهر بيسير، فلم يكن بعد أذان الظهر إلا بنحو ساعة رمل لا غير و مات السلطان بقاعة البيسرية، بعد أذان الظهر بدرجات، و فى حال وفاته طلعت جميع الأمراء إلى القلعة، و أخذوا فى تجهيز السلطان الملك الظاهر خشقدم رحمه اللّه تعالى، و غسلوه و كفنوه، و صلوا عليه بباب القلّة من قلعة الجبل، كل ذلك قبل أن تبايع العساكر يلباى المذكور بالسلطنة كما سنذكره فى سلطنة الأتابك يلباى، و هذا الذى وقع من تجهيز السلطان و إخراجه قبل أن يتسلطن سلطان بخلاف العادة، فإن العادة جرت أنه لا يجهّز سلطان إلا بعد أن يتسلطن سلطان غيره، ثم يأخذون بعد ذلك فى تجهيزه- انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۷

و لما صلّى عليه بباب القلّة، و حمل نعشه، و على نعشه مرقّعة الفقراء، ساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج، و لم يكن معه كثير خلق، بل جميع من كان معه أمام نعشه، و حوله و خلفه من الأمراء و الخاصكية دون العشرين نفرا، و الأكثر منهم أجناد؛ فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما هى العادة، و لا أحد من المباشرين غير الأمير شرف الدين بن كاتب غريب الأستادار و جماعة من أمراء الطبلخانات و العشرات، و ساروا به و قد ازدحمت الناس و العوام حول نعشه، إلى أن وصلوه إلى تربته و مدرسته التى أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النّصر، و دفن بالقبة التى بالمدرسة المذكورة، و حضرت أنا دفنه- رحمه اللّه تعالى- و لم تتأسف الناس عليه يوم موته ذاك التأسّف العظيم، لكن تأسّفوا عليه بعد ذلك تأسّفا عظيما لما تسلطن بعده الأتابك يلباى، بل عظم فقده عند سلطنة يلباى على الناس قاطبة.

و مات الملك الظاهر خشقدم- رحمه اللّه تعالى- و سنه نحو خمس و ستين سنة تخمينا، هكذا أملى علىّ من لفظه بعد سلطنته.

و كان الملك الظاهر خشقدم- رحمه اللّه تعالى- سلطانا جليلا عظيما، عاقلا مهابا، عارفا صبورا، مدبرا سيوسا، حشما متجملا فى ملبسه و مركبه و شأنه إلى الغاية، بحيث إنه كان لا يعجبه من البعلبكى الأبيض إلا ما تزيد قيمته على ثلاثين دينارا، فما بالك بالصوف و السمّور و غير ذلك، و كان يقتنى من كل شىء أحسنه، و كان مع هذا التأنق لائقا فى شكله و ملبسه و مركبه، نشأ على ذلك عمره كله، أعرفه جنديا إلى أن صار سلطانا، و هو متجمل فى ملبسه على ما حكيناه.

و كان مليح الشكل للطول أقرب، أعنى معتدل القامة، نحيف البدن، أبيض اللون، تعلوه صفرة ذهبية حسنة، كبير اللحية، تضرب إلى شقرة، قد شاب أكثرها، حسن فيها، و كان رشيق الحركات، خليقا للملك، عارفا بأنواع الملاعيب، كالرّمح و الكرة، و سوق المحمل،

له عمل کبیر فی ذلک أیام شبوبیّته، و له مشارکة فی غیر ذلک من أنواع الملاعیب جیدة.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۸

و کان له إلمام ببعض القراءات، و یبحث مع الفقهاء، و له فهم و ذوق بحسب الحال، و کان کثیر الأدب، و یجلّ العلماء و یقوم لغالبهم إن قدم أحد منهم علیه، مع حشمة کانت فیه و أدب فی کلامه و لفظه، و کان یتکلم باللغة العربیة کلاما یقارب الفصاحة علی عجمة کانت فی لسانه قلیلة، و ذلک بالنسبة إلی أبناء جنسه.

و کان یمیل إلی جمع المال و یشره فی ذلک من أی وجه کان جمعه، و له فی ذلک أعذار کثیرة مقبولة و غیر مقبولة، و عظم فی أواخر عمره من سلطنته، و ضخم و کبرت هیئته فی قلوب عساکره و رعیته لبطن صار فیه، و إقدام علی المهولات مع دربة و معرفة فیما یفعله، فإن کان المسیء ممن یتلافی أمره زجره و لقنه حجته بدربة و لباقة، و إن کان ممن لا یخاف عاقبته قاصصه بما یردع به أمثاله، من الضرب المبرح و النفی، و عدّ ذلک من معایبه، یقول من قال: «القوة علی الضعیف ضعف فی القوة».

و من ذلک أیضا أنه کان فی الغالب یقدم علی ما یفعله من غیر مشورة و لا تأن، و لهذا کانت أموره تنتقض فی بعض الأحیان، بل فی کثیر من الأحیان، و مما کان یعاب به علیه إمساکه، و تشویش الممالیک الذین کان اشتراهم فی أیام سلطنته الأجلاب، مع أنه- رحمه اللّه تعالی- کان کثیرا ما ینهاهم عن أفعالهم القبیحة، و یردع بعضهم بالحبس و الضرب و النفی و أنواع النّکال، و هذا بخلاف من کان قبله من الملوک، و کان له عذر مقبول فی إنشائه هذه الممالیک الأجلاب، لا ینبغی لی ذکره؛ یعرفه الحاذق، و من کل وجه فالمال محبوب علی کل حال، و بالجملة إنه کانت محاسنه أضعاف مساوئه، و أیامه غرر أیام، لولا ما شان سؤدده و ممالکه، و للّه در القائل:

[الطویل]

و من ذا الذی ترضی سجایاه کلّها کفی المرء فخرا أن تعدّ معایبه

و علی کل وجه هو من عظماء الملوک و أجلّائهم و أخفهم وطأة، مع شدة کانت فیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۰۹

ولین، و تکبر و اتضاع، و بخل و کرم، فمن أصابه شرّه یلجأ للّه، و یجعل أجره علی اللّه تعالی، و من أمطره خیره و رفده فلیترحّم علیه، و أنا ممن هو بین النوعین، لم یطرقنی شرّه و لا أمطرنی خیره، غیر أنه کان معظما لی، و کلامی عنده مقبول، و حوائجی عنده مقضیة، و ما قلته فیه فهو علی الإنصاف- إن شاء اللّه تعالی- و بعد کل شیء، فرحمه اللّه تعالی، و عفا عنه.

و کانت مدة سلطنته علی مصر ستّ سنین و خمسة أشهر و اثنین و عشرین یوما بیوم سلطنته- انتهی.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۰

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۵]

السنة الأولی من سلطنة الملک الظاهر خشقدم علی مصر و هی سنة خمس و ستین و ثمانمائة:

علی أن السنة المذکورة حکم فیها ثلاثة ملوک.

حکم الأشرف إینال من أوّلها إلی أن خلع نفسه، و ولی ولده الملک المؤیّد أحمد فی یوم الأربعاء رابع عشر جمادی الآخرة، و مات من الغد فی یوم الخمیس، و حکم ولده الملک المؤیّد أحمد من رابع عشر جمادی الآخرة إلی یوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان.

ثم حکم فی باقی السنة الملک الظاهر خشقدم إلی آخرها.

فیها توفّی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه الإینالی المؤیّدی المعروف بقراقاش حاجب الحجاب بجزیرة قبرس فی الغزاة من غیر جراح، بل مرض نحو عشرة أیام، و مات فی أول المحرم، و قد عرفنا أحواله فی تاریخنا «المنهل الصافی و المستوفی بعد الوافی»، و

أيضا فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» بما فيه كفاية عن ذكره ثانيا هنا، و مات و قد زاد سنّه على الستين، و كان مخلّطا فى أموره، يقبل المدح و الذم.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه النّوروزى، أحد أمراء الطبلخانات، و نائب الإسكندرية بها فى يوم السبت مستهل صفر و قد ناهز الثمانين من العمر، و كان من مماليك الأمير نوروز الحافظى المتغلب على دمشق، و ولى أيام أستاذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١١

نيابة بعلبك، و لهذا كان يعرف بنائب بعلبك، و كان من خيار أبناء جنسه، كان شجاعا مقداما كريما متواضعا، ديّنا خيّرا، قلّ أن ترى العيون مثله.

و توفّى الشيخ الصالح الزاهد العابد المعتقد عمر اليمنى نزيل مكة فى سحر ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الأوّل بمكة، و دفن بمقابر باب شبيكة، و كان فردا فى كثرة العبادة و الزهد، و قد سألت عنه بمكة من صاحبنا القدوة أحمد الفوّى، أعاد اللّه علينا من بركاته فقال: «هذا يشبّه بعبّاد بنى إسرائيل».

و توفّى الشيخ الإمام العالم العلّامة أبو الفضل محمد بن أبى القاسم المشدّالى البجائى المغربى المالكى غريبا ببعض أعمال حلب، و هو فى الكهولية، و كان إماما فى المعقول و المنقول، و شهرته القوية بالأول، كان إماما فى النحو و المنطق و علم المعانى و البيان و الأصلين و الطب و الحكمة و علوم الأوائل، و كان إذا حقق مسألة فقهية كان إلى كلامه المنتهى، و بالجملة إنه كان نادرة من النّوادر- رحمه اللّه.

و توفّى الشيخ الإمام العالم الفقيه عزّ الدين محمد بن محمد بن عبد السلام أحد نواب الشافعية، فى ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر، و كان آخر من حضر دروس الشيخ سراج الدين عمر البلقينى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائى ثم الظاهرى سلطان الديار المصرية فى يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى و قد تقدّم ذكره.

و توفّى جمال الدين جميل بن أحمد بن عميرة بن يوسف المعروف بابن يوسف، شيخ العرب ببعض إقليم الغربية و السخاوية بالوجه البحرى، فى جمادى الأولى و قد جاوز الستين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١٢

و توفّى الزينى مرجان بن عبد اللّه الحصنى الحبشى الطواشى، مقدّم المماليك السلطانية، فى آخر يوم الأحد ثانى جمادى الآخرة، و دفن من الغد، و قد ناهز الستين من العمر، كان وضيعا فى مبدأ أمره، و قاسى خطوب الدهر ألونا و تغرّب و احتاج فى غربته إلى التكدّى و السؤال، ثم حسنت حاله، و خدم عند خلائق من الأمراء، إلى أن تحرّك له بعيض سعد، و ترقّى إلى أن ولى نيابة المقدم، ثم التّقدمة، فلما ولى لم يراع النعمة، بل أخذ فى الإسراف على نفسه فما عفّ و لا كفّ، و دام على ذلك إلى أن مات، و على كل حال فمستراح منه، و هو ممن يقال فى حقه: «يأكل ما كان و يضيق بمكان».

و توفّى الوزير الصاحب سعد الدين فرج ابن مجد الدين ماجد بن النحّال القبطى المصرى بطّالا بالقاهرة، فى ليلة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة، و قد جاوز الستين من العمر، بعد أن ولى كتابة المماليك و الوزر و الأستادارية غير مرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين كزل بن عبد اللّه السّودونى المعلّم، أحد أمراء العشرات فى يوم السبت ثانى عشرين جمادى الآخرة، و دفن من الغد بتربته التى أنشأها بالصحراء، و سنه نحو التسعين سنة تخمينا، و قد انتهت إليه رئاسة الرّمح و تعليمه فى زمانه، و كان أصله من مماليك سيّدى سودون نائب الشام قريب الملك الظاهر برقوق، و قد ذكرنا من أمره نبذة فى ترجمة الملك الظاهر فى «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير زين الدين فيروز بن عبد اللّه الطواشى الرومى النّوروزى الزّمام و الخازندار، فى يوم الخميس رابع عشرين شعبان، و قد

شاخ و جاوز الثمانين من العمر، و كان من عتقاء الأمير نوروز الحافظى نائب الشام، ثم وقع له بعد موت أستاذه محن و خطوب ذكرناها فى غير موضع من مصنفاتنا، و ليس هذا المحل محل إطناب فى التراجم، و إنما هو إخبار بما وقع و حدث على سبيل الاختصار فى هذه الترجمة و غيرها، و مات فيروز هذا بعد مرض طويل، و دفن بتربته التى أنشأها بالصحراء، و خلّف مالا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۳

كثيرا لم يظفر السلطان إلا ببعضه، و هو نحو المائة ألف دينار أو أزيد، و كان رأسا فى البخل و الشّح، يمشى من طبقته بقلعة الجبل إلى السلطان بالدهيشة، و إذا صلى الفريضة صلى جالسا إن صلى.

و توفّى الأمير شرف الدين يونس الأقبائى الدّوادار الكبير بعد مرض طويل فى يوم الأربعاء ثانى عشرين شهر رمضان، و دفن من يومه بتربته التى أنشأها بالصّحراء، و قد جاوز الستين من العمر، و لم يخلف بعده مثله سؤددا و كرما، و حشمة و شجاعة و رئاسة، و بالجملة إنه كان به تجمل فى الزّمان- رحمه اللّه تعالى- و كان أصله من عتقاء الأمير آقباى المؤيّدى نائب الشام، حسبما ذكرنا محاسنه فى غير موضع من تواريخنا.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه الأبوبكرى المؤيدى أتابك حلب بها فى أواخر شهر رمضان، و هو مناهز الستين من العمر، و أصله من عتقاء الملك المؤيّد شيخ، و قد ولى أتابكية حلب غير مرّة، و ولى فى بعض الأحيان نيابة حماة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بدمشق، ثم إلى أتابكية حلب، و كان عاقلا حشما، حسنة من حسنات الدنيا.

و توفّى الأمير سيف الدين خشكلدى بن عبد اللّه الكوجكى، أحد أمراء طرابلس، فى أواخر شهر رمضان، و كان له شهرة، و ولى نيابة حمص فى وقت من الأوقات.

و توفّى الوزير تاج الدين بن عبد الوهاب ابن الشمس نصر اللّه ابن الوجيه توما القبطى الأسلمى، الشهير بالشيخ الخطير- و هو لقب لوالده نصر اللّه- بعد ما شاخ، فى يوم الأربعاء خامس ذى القعدة، و كان معدودا من الكتبة، و باشر الوزر بعجز، لكنه كفّ عن المظالم، فهو أحسن الوزراء سيرة- و السّداد ميسّر.

و توفّى قاضى القضاة ولىّ الدين أحمد ابن القاضى تقى الدين ابن العلّامة بدر الدين محمد ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى، قاضى قضاة دمشق معزولا

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۱۴

بها، بعد مرض طويل، فى ذى القعدة، و مولده بالقاهرة فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و كان- رحمه اللّه تعالى- عالما فاضلا ذكيا، فصيح العبارة، مستقيم الذهن، طلق اللسان جهورى الصوت، مليح الشكل، خطيبا بليغا مفوها، كثير الاستحضار للشعر و أنواعه، نادرة فى أقاربه و أبناء جنسه، إلا أنه كان قليل الحظ عند الملوك و الأكابر، كما هى عادات الدّهر من تقديم الجهلاء و تأخير الفضلاء.

و توفّى الأمير سيف الدين خيربك بن عبد اللّه النّوروزى بعد عزله عن نيابة صفد و توجهه إلى دمشق أميرا بها، و كان بلى المناصب الجليلة بالبذل لعدم أهليته، فإنه كان لا للسيف و لا للضيف.

و توفّى الشيخ المعتقد الصالح المجذوب أحمد السطوحى، المعروف بالشيخ خروف، فى يوم السبت سابع ذى الحجة، و دفن بزاويته عند جامع ملكتمر الشيخونى، المعروف بالجامع الأخضر بطريق بولاق، و كان للناس فيه اعتقاد، و كان يعجبنى حاله فى المجاذيب- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى أفضل الدين محمود بن عمر القرمى الأصل، الحنفى الفقيه المشهور، أحد نوّاب الحكم الحنفية بالديار المصريّة، و هو عائد من مجاورته بمكة بالقاع الكبير، فى ليلة الثلاثاء سابع عشر ذى الحجة، و حمل إلى منزلة بدر فدفن بها، و هو فى عشر السبعين، و كان معدودا من فقهاء السّادة الحنفية، و له اشتغال قديم، و فضل و مشاركة، و ناب فى الحكم زيادة على ثلاثين سنة، مع أدب و حشمة.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعا و واحد و عشرون إصبعا، و ثبت إلى أيام من توت، و مع هذا الثبات شرق بلاد كثيرة من عدم إتقان الجسور- و لا قوة إلا بالله العلى العظيم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١۵

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۶۶]

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة ست و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير سيف الدين بيبرس بن أحمد بن بقر، شيخ العربان بالشّرقية من أعمال القاهرة بالوجه البحرى، و قد ناهز السبعين من العمر، فى يوم الأربعاء مستهل صفر بالقاهرة، و كان مشكور السّيرة نادرة فى أبناء جنسه- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الرّبانىّ الصّوفىّ المعتقد أبو عبد اللّه محمد الفوىّ الشافعى، نزيل القاهرة بها، فى ليلة السبت سلخ شهر ربيع الأول، و هو فى الثمانين تخمينا، و دفن من الغد بالصحراء، و كان من تلامذة الشيخ المسلك إبراهيم الإدكاوى، و خدم غيره أيضا من الصالحين، و كان رحمه اللّه تعالى أحد من أدركنا من أرباب الصلاح و الخير- عفا اللّه تعالى عنه.

و توفّى الأمير سيف الدين قانى باى بن عبد اللّه الچاركسى الأمير آخور الكبير- كان- بثغر دمياط بطّالا فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر، و حمل ميتا من دمياط إلى القاهرة، فغسّل بها و كفن و صلى عليه بمصلاة المؤمنى، و حضر السلطان الملك الظاهر خشقدم الصلاة عليه، و دفن بتربته التى جددها و بناها بالقرب من دار الضيافة، و كان أستاذه الأمير چاركس القاسمى المصارع مدفونا بها، و مات قانى باى هذا و قد ناهز الثمانين من العمر، و كان أصله من مماليك الأتابك يشبك الشعبانى، و أنعم به على الأمير چاركس القاسمى المصارع، فأعتقه چاركس، و استمر بخدمته إلى أن قتل فى سنة عشر و ثمانمائة، و صار من جملة المماليك السلطانية، ثم صار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١۶

خاصكيا بعد موت الملك المؤيد شيخ، و عاش على ذلك دهرا طويلا، إلى أن صار أمر الملك إلى الملك الظاهر جقمق فى دولة الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباى و أنعم عليه بإمرة عشرة؛ لكونه من مماليك أخيه چاركس القاسمى، و كان چاركس أكبر فى السن من أخيه الملك الظاهر جقمق، فلم يكن إلا مدّة يسيرة و تسلطن الملك الظاهر جقمق، و قرّب قانى باى هذا و رقّاه، و جعله شاد الشراب خاناه، و أنعم عليه بإمرة مائة و تقدمة ألف، و دام على وظيفته و هو من جملة المقدمين، ثم جعله دوادارا كبيرا، ثم أمير آخور كبيرا، و نالته السعادة، و عظم فى الدولة الظاهرية حسبما ذكرنا أموره مفصلة فى تاريخنا «الحوادث»، و دام على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق و تسلطن ولده الملك المنصور عثمان، و خرج عليه الأتابك إينال العلائى و تسلطن عوضه، فأمسك قانى باى هذا و حبسه بالإسكندرية سنين كثيرة إلى أن أخرجه الملك الظاهر خشقدم فى أول سلطنته و سيّره إلى دمياط بطّالا، فدام بها إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان خيّرا ديّنا سليم الباطن مع طيش و خفة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين تمرباى بن عبد اللّه من حمزة الناصرى المعروف بتمرباى ططر، أحد مقدمى الألوف، فى ليلة السبت ثامن عشرين جمادى الآخرة و قد ناهز الثمانين، و كان تركى الجنس من مماليك الملك الناصر فرج، و نزل به الدهر، ثم عاد إلى بيت السلطان و ترقى ثانيا إلى أن صار أمير مائة و مقدم ألف فى دولة الملك الظاهر خشقدم، و كان من المهملين المساكين.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الجكمى نائب ملطية بها فى شهر ربيع الآخر و قد أسنّ؛ لأنه من مماليك الأمير جكم من عوض نائب حلب- كان.

و توفّى غيث بن ندى بن نصير الدّين، شيخ العربان بأحد جهات إقليم مصر، و دفن خارج القاهرة فى يوم الاثنين خامس شهر رجب، و كان موته بعد قتل ابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١٧

حمزة و سلخه باثنين و عشرين يوما، و مستراح منه و من ابنه حمزة- و للّه الحمد على موتهما.

و توفّى الأمير سيف الدين حاج إينال اليشبكى نائب حلب بها فى ليلة الخميس سابع عشرين شعبان بحلب، و دفن فى يوم الخميس، و قد قارب الستين من العمر أو جاوزها، و كان أصله من مماليك الأمير يشبك الجكمى أمير آخور، و ولى حلب عوضه الأمير جانبك التاجى المؤيّدى، و كان إينال هذا ولى عدّة أعمال بالبلاد الشّامية: حماة، و طرابلس، و حلب، غير أنه لم تسبق له رئاسة بمصر قط، و كان لا بأس به، لكنه لم يحمده الحلبيون فى ولايته عليهم.

و توفّى الأمير سيف الدين تنبك بن عبد اللّه الأشرفى المعروف بالصغير، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، قتيلا بيد العربان بالبحيرة، و قد ذكرنا واقعته و كيفية قتله فى «الحوادث»، و كذلك الأمير سنطباى قرا الظاهرى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى المقام الناصرى محمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال العلائى بثغر الإسكندرية فى يوم الخميس مستهل ذى الحجة، و عمره نحو سبع عشرة سنة، و هو شقيق الملك المؤيد أحمد، أمهما خوند زينب بنت بدر الدين بن خاص بك.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و عشرة أصابع، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع، و ثبت إلى أواخر توت على نحو ثمانية عشر ذراعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١٨

[ما وقع من الحوادث سنة ٨۶٧]

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة سبع و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير الطواشى عنبر الطنبذى الحبشى نائب مقدم المماليك السلطانية بطالا فى يوم السبت ثامن المحرم، و كان من أصاغر أبناء طائفته، كان من عتقاء التاجر نور الدين على الطّنبذى، و بنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين جانم بن عبد اللّه الأشرفى نائب الشام قتيلا بيد بعض مماليكه بمدينة الرّها، فى ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل، و هو نزيل حسن بك صاحب ديار بكر، و قد تقدّم من ذكره فى أول سلطنة الملك الظاهر هذا ما يغنى عن التعريف بأموره ثانيا هنا، و كان جانم رجلا للقصر أقرب، و فيه حدّة مزاج، و سرعة حركة، مع تديّن و جودة، و محبة للفقهاء و الفقراء و أرباب الصلاح، مع كرم و أدب و حشمة و رئاسة و عفة عن القاذورات و الفواحش- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى قاضى القضاة شيخ الإسلام سعد الدين سعد ابن قاضى القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن سعد بن أبى بكر بن مصلح بن أبى بكر بن سعد العبسى الدّيرى المقدسى الحنفى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها، معزولا عن القضاء بداره بمصر القديمة، فى ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر، و حضر السلطان الصلاة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣١٩

عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة السلطان الملك الظاهر خشقدم بالصحراء، و مولده ببيت المقدس فى شهر رجب سنة ثمان و ستين و سبعمائة، و بها نشأ و سمع الحديث على جماعة ذكرناهم فى ترجمته فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى»، و حفظ القرآن العزيز و عدّة متون فى الفقه، و تفقّه بأبيه و غيره إلى أن برع فى الفقه و أصوله، و أما فروع مذهبه و التّفسير فكان فيهما آية من آيات اللّه، و مات و قد انتهت إليه رئاسة الفقه فى مذهبه شرقا و غربا، مع أنه كان رأسا أيضا فى حفظ التفسير، و له مشاركة فى عدة فنون، و بالجملة فإنه مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين شادبك بن عبد اللّه الصارمى نائب غزّة بها فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، و قد قارب الستين، و كان من عتقاء المقام الصارمى إبراهيم ابن الملك المؤيّد شيخ المحمودى، و كان ولى غزّة بالبذل، و مات قبل أن يستوفى ما بذله

فی ولایتها، و خلف علیه دیونا- عفا اللّه تعالی عنه.

و توفّیت خوند بنت السلطان الملک الظاهر جقمق، زوجة الأمیر أزبک من ططخ الظاهری، أحد مقدّمی الألوف بالدیار المصریة، فی عصر یوم الاثنین عاشر جمادی الأولی، و حضر السلطان الصلاة علیها بمصلاة المؤمنی، و دفنت عند أبیها بتربة الأمیر قانی بای الچارکسی، و کان موتها فی غیاب زوجها، کان مسافرا فی السّرحة، و ماتت و سنها دون ثلاثین سنة، و أمها خوند مغل أخت القاضی کمال الدین بن البارزی، و هی فی قید الحیاة.

و توفّی الأمیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه القوامی المؤیدی، أحد أمراء العشرات بالقاهرة، فی یوم الجمعة ثامن عشرین جمادی الأولی، و حضر السلطان الملک الظاهر خشقدم الصلاة علیه بمصلاة المؤمنی وقت العصر، و کان من عتقاء الملک المؤیّد شیخ، و کان من الخیرین الساکنین.

و توفّی الإمام علاء الدین علی المغربی الحنفی، إمام الملک الأشرف إینال، فی یوم الاثنین ثالث عشر جمادی الآخرة، و هو فی عشر الستین من العمر، و کانت لدیه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۰

فضیلة مع وسوسة و طیش و خفة، و إسراف فی الحال، و بالجملة إنه کان من المخلّطین- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی عظیم الدّولة و مدبّر المملکة الأمیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه الظاهری الدّوادار الکبیر، المعروف بنائب جدّة قتیلا بید الممالیک الأجلاب بباب القلّة داخل قلعة الجبل، وقت صلاة الصبح من یوم الثلاثاء مستهل ذی الحجة، و قد ذکرنا قصة قتلته فی «الحوادث» مستوفاة، لکن نذکرها هنا جملة، و هی أنه رکب من بیته سحر یوم الثلاثاء المذکور بغلس بعد صلاة الصبح بغیر قماش الموکب، و معه نحو خمسة نفر، و طلع إلی القلعة، و مشی بمن کان معه إلی أن وصل إلی باب القلّة، فسلّم علی مقدم الممالیک ثم مشی إلی أن جاوز العتبة الثانیة من باب القلّة، و التفت عن یمینه إلی الجهة الموصلة إلی القصر السلطانی، فوجد هناک جماعة من الممالیک السلطانیة الأجلاب، فظن أن وقوفهم هناک لأجل أخذ الأضحیة السلطانیة علی العادة فی کل سنة، فسلّم علیهم فردّوا علیه السلام بأعلی أصواتهم، کما یفعلون ذلک مع أعیان الأمراء بطریق التجمل، ثم مشی إلی أن التفت إلی نحو العتبة التی تکون علی شماله تجاه باب الجامع الناصری، فرأی علی درجات الباب المذکور جماعة من الممالیک الأجلاب من أوّل الدّرج إلی آخرها، فسلّم علیهم کما فعل مع من صدفه منهم قبلهم، فلم یردّ أحد منهم السلام، و حال أن وقع بصرهم علیه نزلوا إلیه دفعة واحدة، و أحاطوا به، و نزلوا علیه من جهاته الأربع بالسیوف و غیرها، و هرب من کان معه إلی جهة الحوش السلطانی و الدهیشة، و لما ضرب علی رأسه سقط فی الحال من وقته، و ضربه آخر فی خاصرته بالسیف، ثم نهض و ارتکن بحائط الجامع، ثم سقط من وقته، فسحبه بعضهم برجله إلی طریق المطبخ، فوجد به رمقا، فألقی علی رأسه حجرا هائلا رضخ رأسه، فمات من وقته، و کان مقدار قتلته کلها من أول الإحاطة به إلی أن خرجت روحه دون نصف درجة رمل، و لما تحققوا قتله أخذوا ما کان علیه من

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۱

القماش و غطّوه بحصیر و رجعوا إلی جهة باب القلّة، لیلقوا من ندبوا إلی قتله أیضا من خچداشیته، فوافوا الأمیر تنم رصاص الظاهری المحتسب، و أحد أمراء الطبلخانات، قد أقبل فی أثر الأمیر جانبک المذکور فقصدوه، فاستجار بمقدّم الممالیک أو بجماعة من إنّیاته، فلم یغنوا عنه شیئا، و تناولته الأیدی بالضرب، فهجّ فیهم، و خرج من بینهم، و هو بغیر سلاح، و مضی إلی جهة القصر، و هم فی أثره فی الظلام، ثم عاد و هم فی أثره إلی جهة الجامع حیث قتل الأمیر جانبک، و قد ظفر منهم بعصاة، فضربهم بها، و دفع عن نفسه مع کثرة عددهم، و کاد أن ینجو منهم، فبادره بعضهم، و ضربه بسیف ضربة طارت یده منها، ثم تکاثروا علیه بالضرب حتی ظنوا أنه مات، فحملته إنّیاته إلی طبقته و به رمق، و أخذوا فی مداواة جراحه، فمات بعد قلیل، ذلک و النجوم ظاهرة بالسماء.

و لما وقع هذا أغلقت أبواب القلعة، و ماجت الناس، و ذهب کلّ واحد من الأمراء و الخاصکیة إلی جهة من جهات القلعة، و أما

السلطان فإنه كان جالسا بقاعة الدّهيشة و الشمعة تقد بين يدية بعد أن صلّى الصبح، فدخل إليه جانم دوادار الأمير جانبک المذكور، و لم يعلم جانم بقتل أستاذه، و عرّف السلطان أن المماليک الأجلاب منعت أستاذه من الدخول إلى السلطان، فسكت السلطان، لعلمه بباطن الأمر، ثم قال بعد ساعة: «أيش الخبر؟» فقال له بعض من حضر من الأمراء: «خير» فقال غيره:

«و أى خير» و القائل الأول جانبک كوهيّة، و الثانى مغلباى طاز و كلاهما مؤيّدى، ثم سكتوا فقال الأمير يلباى المؤيّدى الأمير آخور الكبير: «ما بقى اليوم خدمة؟» فقال السلطان: بلى نخرج إلى الحوش، و خرج إلى الحوش، و جلس على الدّكة، و ذلک بعد طلوع الشمس، و جميع أبواب الحوش و القلعة مغلقة، فجلس السلطان ساعة و ليس عنده الصحيح من خبر جانبک، إلى أن جاءه نائب المقدم و غيره، و أعلموا السلطان سرّا بواقعة الأمير جانبک و قتله، فقال السلطان إلى الخازندار: «أخرج ثوبين بعلبكيا لتكفين الأمير جانبک و تنم رصاص».

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۲

ثم أمر السلطان الأمير جانبک كوهيّة الدوادار الثانى أن يخرج و يتولّى أمرهما و تجهيزهما و الصلاة عليهما، فخرج و فعل ذلک و صلى عليهما بباب القلّة و وجّههما على نعوشهما إلى محل دفنهما، و ليس معهما كثير ناس بل جميع من كان معهما دون عشرة نفر، فدفن الأمير جانبک بتربته التى أنشأها خارج باب القرافة، و دفن الأمير تنم عند ليث ابن سعد.

و كثر أسف الناس على الأمير جانبک إلى الغاية، و عظمت مصيبته على أصحابه و خچداشيته، و انطلقت الألسن بالوقيعة فى السلطان، و رثاه بعضهم، و قالت المذاكرة فى أمره قطعا فى كيفية قتلته، و فى عدم وفاء السلطان على ما كان قام بأمره حتى سلطنه و ثبّت قواعد ملكه، و اضطرب ملک الملک الظاهر خشقدم بقتله، و خاف كل أحد من خچداشيته و غيرهم على نفسه، و ماجت المملكة و كثر الكلام فى الدولة، و وقع أمور بعد ذلک ذكرناها فى وقتها، ليس لذكرها هنا محل- انتهى.

و مات الأمير جانبک- رحمه اللّه تعالى- و هو فى أوائل الكهولية، غير أنه كان بادره الشيب ببعض لحيته، و كان- رحمه اللّه تعالى- أصله چاركسى الجنس و جلب إلى الديار المصرية، و تنقّل من ملک واحد إلى آخر- ذكرنا أسماءهم فى ترجمته فى غير موضع من مصنفاتنا- إلى أن ملكه الملک الظاهر جقمق فى أيام إمرته و أعتقه، فلما تسلطن جعله خاصكيا و قرّبه، و لا زال يرقيه حتى أمّره و ولاه بندر جدّة، و نالته السعادة فى أيام أستاذه، و عظم و ضخم و نهض فى إمرة جدّة، بحيث إنه صار فى وقته حاكم الحجاز جميعه حتى مات- فى دولة أستاذه و فى دولة غيره- و قد حررنا ذلک جميعه فى «الحوادث» و غيره، و عظم بآخره عظمة زائدة، لا سيما لما ولى الدّوادارية الكبرى فى دولة الملک الظاهر خشقدم، و صار هو مدبّر المملكة، و شاع ذكره، و بعد صيته، حتى كاتبه ملوک الأقطار من كل جهة و قطر.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۳

و أما ملوک اليمن و الحجاز و الهند فإنه أوقفنى مرّة على عدّة كثيرة من مكاتبات ملوک الهند، و بعضها مشتمل على نظم و نثر و فصاحة و بلاغة، و أماما كان يأتيه من ملوک الهند من الهدايا و التحف فشىء لا يحصر كثرة، و تضاعفت الهدايا له فى هذه الدولة أضعاف ما كان يهدى إليه أوّلا، و قال له الدهر: خذ، فأخذ و أعطى حتى أسرف و بذّر، بحيث إنه لم يكن أحد من خچداشيته و غيرهم مع كثرتهم [له مال] إلا من إنعامه عليه، أو هو ساكن فى بيت أنعمه عليه، و الذى أعرف أنا: أنه وهب تسعة دور من بيوت مقدمى الألوف بالدّيار المصريّة على تسعة نفر من خچداشيته الأكابر الأمراء و غيرهم، و قس على هذا من الخيول و القماش، و كان فى مجاورتى بمكة فى سنة ثلاث و ستين يلازمنى و ألازمه فى الحرم كثيرا، و لم أنظره تصدّق على أحد فيما تصدّق به أقل من عشرة أشرفية، هذا مع اقتنائه من كل شىء أحسنه و أجمله و أكثره، لا سيما بركه و خيمه، فكان إليها المنتهى فى الحسن، يضرب بها المثل.

و يكفيک من علو همته أنه أنشأ بداره بستانا أزيد من مائة فدان، بابه الواحد من داره قريب من خط قناطر السباع، و بابه الآخر تجاه الروضة، ثم أنشأ به تلک القبة العظيمة و الرصيف الهائل تجاه الروضة، و بالجملة و التفصيل إن بابه كان محط الرحال، و ملجأ الطالبين

الملهوفين، و نصرة المظلومين، و كثرة المحتاجين، فإنه كـان يعطى الألفين دينارا دفعة واحـدة إلى مادونها، و كان يعطى من المغلّ ألف أردب دفعة واحدة أيضا فى يوم واحد إلى ما دونها إلى عشرة أرادب، و أعطى فى يوم واحد لبعض أعيان خچداشيتة مائة ناقة بأتباعها، يعرف هذا كلّ أحد، فقس على كرمه أيها المتأمل

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۳۲۳

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۴

ما شئت أن تقيس، ثم أعلم أنه لم يخلف بعده مثله، و إن أشكل عليك هذا القول، فسل من أحد من أمرائك العصريّين عشرة من الإبل، فإن أعطاك فاشكر مولاك، و اعلم أنّ الناس فيهم بقية كرم، و إن لم يعطك فاشهد بصدق مقالتى.

و على كل حال إنه كان ملكا كريما جليلا، مهابا شهما، عارفا حاذقا فطنا، فصيح العبارة فى اللغة العربية و التركية بالنسبة لأبناء جنسه، و كان قصير القامة مع كيس فى قدّه، و ظرف فى تناسب أعضائه بعضها لبعض، و كان سيوسا حسن التدبير، و من حسن سياسته أنه لم ينحطّ قدره بعد زوال دولة أستاذه الملك الظاهر جقمق، بل زادت حرمته أضعاف ما كانت فى أيّام أستاذه، مع كثرة حكّام الدولة الأشرفية الإينالية و تفرّق كلمتهم، فساس كل واحد بحسب حاله، و أقام فى دولتهم عظيما مبجّلا، و بوجوده كان أكبر الأسباب فى إعادة دولة خچداشيته بعد موت الملك الأشرف إينال، و بالجملة إنه كان نادرة من نوادر دهره- رحمه اللّه تعالى- و قد استوعبت أحواله فى غير هذا المصنف بأطول من هذا بحسب الباعثة و القريحة، ورثيته بقصيدة نونية فى غاية الحسن- عفا اللّه عنه و صالح عنه أخصامه بمنّه و كرمه.

و توفّى الأمير سيف الدين تنم رصاص من نخشايش الظاهرى المحتسب، أحد أمراء الطبلخانات، قتيلا بيد المماليك الأجلاب مع الأمير جانبک الدّوادار، و قد تقدّم ذكر قتله فيما تقدم.

و كان تنم هذا من عتقاء الملك الظاهر جقمق و خاصكيته، و ترقّى بعد موته إلى أن ولى حسبة القاهرة فى أواخر دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار أمير عشرة فى أوائل دولة الملك الظاهر خشقدم، ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه، و دام على ذلک إلى أن قتل فى التاريخ المذكور فى قصة الأمير جانبک، و هو يوم الثلاثاء أول ذى الحجة، و كان شابا مليح الشكل، شجاعا عارفا، كريما لسنا، متحركا حاضر الجواب، و كان أحد أعوان الأمير جانبک الدّوادار فى مقاصده- رحمهما اللّه تعالى، و عفا عنهما أجمعين.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۵

و توفّى القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القرافى المالكى أحد نواب الحكم المالكية و أعيان الفقهاء بالديار المصرية، فى ليلة الاثنين رابع عشر ذى الحجة، و دفن صبيحة يومه بالقرافة و قد جاوز السبعين من العمر، و كان له اشتغال كثير فى ابتداء أمره، و عمل جيد مع ذكاء و حسن تصوّر، لا سيما فى باب التوريق و صناعة القضاء و الشروط رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم- سبعة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة [عشر] ذراعا و سبعة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۸]

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة ثمان و ستين و ثمانمائة.

فيها توفّى قاضى القضاة بدر الدين حسن بن محمد بن أحمد بن الصّوّاف الحنفى الحموى قاضى قضاة حماة، ثم الديار المصرية، إلى أن مات فى يوم الأحد رابع المحرم و دفن من الغد فى يوم الاثنين، و سنه نحو الستين سنة تخمينا، و كان أصله من حماة من أولاد التجار، و اشتغل بالعلم فى مبدأ أمره يسيرا، ثم مال إلى المتجر و تحصيل المال إلى أن حصل على جانب كبير منه، و ولى قضاء حماة بالبذل سنين كثيرة، و طال تكراره إلى القاهرة غير مرّة، و أخذ منه- بوسائطجمل مستكثرة من المال غصبا و رضا، ثم قدم القاهرة فى

سنة ست و ستين لأمر من الأمور، و حصل بينه و بين قاضى القضاة محب الدين بن الشّحنة الحنفى شنآن بواسطة صهارة، فسعى عليه و عزله، و ولى عوضه فى ثانى عشرين شهر رجب من سنة سبع و ستين إلى أن مات فى المحرم من هذه السنة، بعد أن مرض نحو الشهر، فكانت مدته كلها فى القضاء خمسة أشهر و أياما بما فيها أيام مرضه، و لقد تعب بولايته و أتعب، و استراح بموته و أراح.

و توفّى السلطان الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن السلطان الملك الأشرف أبى النصر برسباى الدقماقى الظاهرى، بعد خلعه من السلطنة بسنين كثيرة، بثغر الإسكندرية فى يوم الاثنين تاسع عشر المحرم، و هو فى أوائل الكهولية؛ لأن مولده بقلعة الجبل فى سلطنة أبيه فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، و أمه خوند جلبّان أم ولد لأبيه چاركسية، تزوّجها أستاذها الملك الأشرف بعد أن ولدت الملك العزيز هذا،

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۷

و ماتت أيام والده الأشرف، و نشأ الملك العزيز تحت كنف والده بالدّور السلطانية، إلى أن عهد له أبوه الأشرف بالسلطنة فى مرض موته، و مات بعد أيّام.

و تسلطن العزيز هذا بعد عصر نهار السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، و هو السلطان الثالث و الثلاثون من ملوک الترک بالديار المصرية و أولادهم، و التاسع من الچراكسة و أولادهم، و تم أمره فى الملک، و صار الأتابک جقمق مدبّر مملكته و فرّق النفقة على المماليک السلطانية كل واحد مائة دينار، لا يتنفّل أحد على أحد كائنا من كان، على قاعدة الملوک العظام، بخلاف من جاء بعده من الملوک، و دام فى الملک إلى أن وقع بين الأتابک جقمق و بين مماليک أبيه الأشرفية أمور آلت إلى خلعه من السلطنة، و سلطنة الأتابک جقمق عوضه فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدة ملكه نحوا من خمسة و تسعين يوما، ليس له فيها إلّا مجرّد الاسم فقط.

و بعد خلعه من الملک رسم له بالسكن فى قاعة من الحريم السلطانى بقلعة الجبل، فسكن بها إلى أن حسّن له بعض حواشيه التسحّب منها و النزول من القلعة إلى القاهرة لتثور مماليک أبيه به على الملک الظاهر جقمق، ففعل ذلک، و تزيّا فى نزوله فى زى بعض صبيان الطّباخين، و نزل بعد الفطر وقت صلاة المغرب إلى القاهرة من باب المدرج و كانت أيام شهر رمضان، فنزل و لم يفطن به أحد، لاشتغال الخدام و غيرهم بالفطر، فلما نزل إلى تحت القلعة لم ير شيئا مما قيل له، فندم على نزوله، و بقى لا يمكنه العود إلى مكانه، فاختفى من وقته هو و مملوكه أزدمر و طواشيه صندل، و طباخه إبراهيم، و وقع له و للناس فى اختفائه أمور و محن، و نكبت جماعة كثيرة من الناس بسببه و ضرب جماعة من مماليک أبيه بسببه بالمقارع و الكسّارات، و وسّط بعضهم، و قلق الملک الظاهر جقمق بسببه قلقا زائدا.

و ضاقت الدنيا على الملک العزيز يوسف، و تفرقت عنه أصحابه إلى أن ظفر به

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۸

الملک الظاهر جقمق فى أواخر شوال، و كان الذى أمسكه الملک الظاهر يلباى، و كان يوم ذاک أمير عشرة، فأنعم عليه الملک الظاهر جقمق بقرية سرياقوس، زيادة على ما بيده لكونه قبض على الملک العزيز فى الليل، و طلع به إلى السلطان، و لما ظفر به الملک الظاهر جقمق حبسه بالدّور السلطانية، ثم بعثه إلى سجن الإسكندرية، فحبس بها إلى أن أطلقه الملک الظاهر خشقدم فى أوائل سلطنته، هو و الملک المنصور عثمان ابن الملک الظاهر جقمق، و سكن العزيز بدار فى الإسكندرية إلى أن مات بها فى التاريخ المقدّم ذكره، بعد أن قضى من عمره أياما عجيبة من حبس و قهر و تنغّص عيش- عوّضه اللّه الجنة بمنه و كرمه.

و توفّى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب عمر البانى الكردى بسكنه بجامع قيدان على الخليج بالقرب من قناطر الأوز خارج القاهرة، فى ليلة الجمعة سلخ محرم هذه السنة، و صلى عليه ثلاث مرار، مرّة بجامع قيدان حيث كان سكنه و وفاته، و مرّة فى الطريق، و مرّة حيث دفن بتربة الملک الظاهر خشقدم فى الصحراء، و كانت جنازته مشهودة إلى الغاية، بحيث إن نعشة رفع على الأصابع من كثرة

الناس مع هذا المدى البعيد، و مات و قد جاوز الستين، و كان أصله ببانيّا- طائفة من الأكراد- ولد هناك و قدم القاهرة، و نزل صوفيا بخانقاه سعيد السعداء، و دام على ذلك دهرا إلى أن ظنّ منه نوع من الجنون الذى يسميه الفقراء جذبة، فنقله أهل الخانقاه عنهم، فسكن بدار، ثم انتقل إلى جامع قيدان، فدام به سنين كثيرة، و به اشتهر بالصّلاح، و قصدته الناس للزيارة و التّبرّك بدعائه، مع أنه كان لا يقبل من أحد شيئا إلا نوع الأكل، و كانت جذبته غير مطبقة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۲۹

لأنه كان لا يخل بالمكتوبة بل يغتسل فى الغالب لكل صلاة صيفا و شتاء، و كان له فى مبدأ أمره اشتغال ببلاده، و لم يبلغنى من كراماته شئ، و بان ببائين ثانى الحروف مفتوحين و بعدهما ألف و نون ساكنة- أظنها قبيلة فى الأكراد- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى المقام الشهابى أحمد ابن الملك الأشرف برسباى الدقماقى الظاهرى بدار عمّه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفى أمير سلاح، بخط التبانة خارج القاهرة، فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأول، حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى، و دفن بتربة والده الملك الأشرف برسباى بالصحراء فى فسقيّة واحدة، و بموت أحمد هذا انقرضت ذرية الملك الأشرف برسباى لصلبه، لأن أحمد المذكور خلّف بنات صغارا.

و كان سيدى أحمد هذا أصغر أولاد الملك الأشرف، تركه حملا، و أمه أم ولد چاركسية، تزوجها الأمير قرقماس الأشرفى الجلب، و هو الذى تولّى تربيته إلى أن كبر، و ماتت أمه، فلم يتركه قرقماس، و استمر عنده، و بهذا المقتضى لم يقدر أحد من السلاطين أن يأخذه منه و يرسله إلى ثغر الإسكندرية، و لما كبر أراد غير واحد من الملوك أن يرسله إلى الإسكندرية عند أخيه الملك العزيز يوسف المقدم ذكر وفاته فى هذه السنة، فقال قرقماس: «إذا خرج أحمد هذا إلى جهة من الجهات أخرج أنا أيضا معه» فسكت القائل. و لا زال الشهابى مقيما بالقاهرة إلى أن صار فى حدود الرجال غير أنه لم ينظره أحد قط، و لم يخرج من بيته قط لأمر من الأمور حتى و لا إلى صلاة الجمعة و لا إلى العيدين، بل يسمع الناس به و لا يرونه إلى أن مات، و مع هذا كاء كانت الملوك مطمئنة بإقامته بالقاهرة لحسن طاعة قرقماس للسلاطين، و كان على ما قيل شابا طوالا جميلا فاضلا عارفا، و له محبة فى الفضيلة و مطالعة الكتب، و يكتب المنسوب، و كان موته بعد أخيه العزيز من النوادر، فإنه عاش بعد موت أخيه العزيز شهرا و ثمانية عشر يوما، و العجيب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۰

أنهما شابان كاملان ماتا فى هذه المدّة اليسيرة من غير طاعون، و إنما هى آجال متقاربة، و محل الظن بالملك، و أظنه برئ من ذلك، اللهم إن كان وقع شيء من غير الملك من جهة النسوة أو غيرها فيمكن- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ جمال الدين عبد اللّه ابن الشيخ الإمام القدوة المسلك الرّبانى نور الدين أبى الحسن على بن أيّوب الدمشقى الأصل و المولد و المنشأ، المصرى الدار و الوفاة، خادم خانقاه سعيد السعداء، فى ليلة الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر، و صلّى عليه بعد أذان العصر من يوم الأربعاء المذكور بمصلاة باب النصر، و دفن بمقابر الصوفية.

و كان رحمه اللّه تعالى له اشتغال و فضيلة مع فصاحة و طلاقة لسان، و محاضرة حسنة، و كرم نفس، مع العزلة و القناعة، مع التجمل فى ملبسه و شأنه، و كان الناس فى أمن من يده و لسانه- عفا اللّه عنه.

و توفّى الأمير سيف الدين تنم بن عبد اللّه من عبد الرزاق المؤيدى نائب الشام بها فى يوم الأربعاء ثانى عشرين جمادى الأولى، و دفن بدمشق بعد يومين لأمر اقتضى ذلك، لتعلق كان عليه، و مات و هو فى عشر السبعين، و كان چاركسى الجنس، من عتقاء الملك المؤيد شيخ و خاصكيته الصغار، ثم جعله خازندارا صغيرا، و مات الملك المؤيّد و هو على ذلك، ثم صار فى دولة الملك الأشرف برسباى رأس نوبة الجمدارية، ثم أمير عشرة، ثم ولى حسبة القاهرة فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، ثم نقل إلى نيابة إسكندرية، ثم عزل و قدم القاهرة، و بعد عزله بمدّة يسيرة ولى نيابة حماة، فلم تطل مدّته بحماة، و نقل إلى نيابة حلب، فلم ينتج أمره فى نيابة حلب، و رجم من أهلها، فعزله الملك الظاهر جقمق، و استقدمه إلى مصر أمير مائة و مقدّم ألف بها، ثم صار أمير مجلس، ثم صار فى

دولة الملك المنصور عثمان أمير سلاح بعد جرباش الكريمى قاشق، بحكم عزله و عجزه، و دام على ذلك إلى أن كانت الفتنة

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۱

بين الملـك المنصور عثمان و بين أتابكه إينال العلائى، فكان تنم هـذا من حزب الملك المنصور بالقلعـة، فلما تسـلطن الأتابك إينال حبس تنم المذكور بثغر الإسكندرية، إلى أن أطلقه الملك الظاهر خشقدم، و أطلق معه الأمير قانى باى الچاركسى، و سيّرهما إلى ثغر دمياط بطّالين، ثم بعد مدة يسـيرة أحضره الظاهر خشقدم إلى القاهرة، و ولّاه نيابة دمشق بعد عزل الأمير جانم الأشرفى، فتوجّه تنم إلى دمشق و حكمها، فلم تحمد سيرته و تشكر طريقته، إلى أن مات فى التاريخ المذكور.

و كـان- رحمه اللّه تعـالى- له مسـاوئ و محـاسن، و أظن الأول أكثر، و من غريب ما اتفق فى أمره أنه لما كان محبوسا كان رجل من أصـحابه ملتفتا إلى أمره و لما يصير من شأنه، فقصد الرجل بعض المشهورين بعلم النّجوم و أرباب التّقويم، فعمل الرجل لتنم المذكور زايرجـاة، و أتقن عملهـا، فخرج له أبيـات تشـعر بسـلطنة تنم المـذكور، فجاءنى الرجل و هو مسـرور، و حكى لى ذلك، فأجبته بكلام معناه:

إن هؤلاء كذبـة، ليس لهم معرفـة بهـذه الأمور، و كل ما يقولونه كـذب و بهتان و اختلاق، نصـبة على أخذ الأموال، فعظم ذلك عليه، فقلت له: «لى معك شـرط، أكتب الأبيات، فإن تسـلطن فهو كما تقول، و إن كانت الأخرى فأكتبها فى ترجمة وفاته ليكون ذلك عبرة لمن يصدّق كذب هؤلاء الفسقة» فقال: نعم، الأبيات هى [الطويل]

و إنّ الذى فى السجن لا بدّ أنه يكون مليكا للأنام عزيزا

فأوله تاء و آخر اسمه على القطع ميم، كن عليه حريزا

و ذلك كهل يا أخىّ و إنه لضخم القفا و الصدر فاصغ مميزا

و لا بد أن يأتى الزمان بقوة و يعلو رقابا للعداة محيزا

فزايرجة فى نظمها نطقت بذا فكن لى بهذا العلم منك مجيزا

و هذا الذى عمل هذه الزّابرجة الناس مجمعون على معرفته، فما العجب من كذب

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۲

هؤلاء الكذبـة الجهلـة الأوقاح، و إنما العجب من تصـديق الناس لكلامهم، و قد رأيت جماعة من ذوى العقول تقول: «صدق فلان فى قوله كذا و كذا» فأقول له:

«ما صـدق بل حزر مرّة و ثانيـة و ثالثـة و رابعـة فأخطأ، ثم أصاب فى الخامسـة، و كل أحد يقدر على أن يقول مثل ذلك، لان الخير و الشـر و الولايـة و العزل واقع فى كـل أوان و زمان، و كل منتصب لا بـدّ له من العزل أو الموت، فالفرق فى هـذا المعنى بين العارف و الجاهل بباب الحزر واضح لا يحتاج إلى بيان».

و توفّى الأمير سـيف الـدين جانبك بن عبـد اللّه التاجى المؤيدى المعزول عن نيابة حلب، و المرشح لنيابة الشّام بعد موت تنم المقدم ذكره، قبل أن يخرج من حلب بدار سـعادتها، فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بعد أن مرض أياما يسيرة، و هو فى عشر السبعين، و كان چاركسـى الجنس، من صـغار مماليك الملك المؤيّد شيخ، و صار خاصكيا بعد موته إلى أن صار نائب بيروت فى أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، ثم نقل إلى نيابة غزة، ثم ولى نيابة صـفد، ثم حماة، كل ذلك ببذل المال لاتّضاع قدره، ثم ولى نيابة حلب بعد موت الحاج إينال اليشـبكى، فباشـر ذلك إلى هذه السـنة، فرسم له أن يقدم إلى القاهرة أمير مائة و مقدّم ألف بالديار المصـرية، فتهيأ للخروج من حلب فمات الأمير تنم نائب الشام، فأقره الملك الظاهر خشقدم عوضه فى نيابة الشام، فمات جانبك هذا قبل أن يصل إليه الخبر بولاية دمشق، و قيل بعد وصول الخبر بيوم، و كان متوسط السّيرة فى ولايته، و لم تسبق له رئاسة بالديار المصرية غير الخاصكية، و كان غالب ولايته ببـذل المال، و الـذى يبذل المال لا بد له من الظلم، و قد بلغنا عنه أنه كان يسـتعمل لقيمة الفقراء الخضـراء، و اللّه

أعلم بصحة ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۳

و توفّی الأمیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه الأبلق أحد أمراء العشرات قتیلا بید الفرنج فی الماغوصة بجزیرة قبرس فی إحدی الجمادین، و قد ذکرنا سبب قتله فی «الحوادث» و حاصل الأمر: أنه لما ملک الماغوصة، مدّ یده لأولاد أهل الماغوصة من الفرنج، فعزّ علی الفرنج ذلک، لأنه کان أخذها بالأمان: فشکوا ذلک إلی صاحب قبرس جاکم الفرنجی، فنهاه عن ذلک فلم ینته، فوقع بینهم تشاجر أدّی ذلک إلی قتله، و لم ینتطح فی ذلک شاتان، و بالجملة إن جانبک المذکور کان غیر مشکور السیرة فی مدّة إقامته بقبرس- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی شیخ الإسلام قاضی القضاة علم الدین صالح ابن شیخ الإسلام سراج الدین عمر بن رسلان بن نصیر البلقینی الکنانی الشافعی، قاضی قضاة الدیار المصریة و عالمها، فی یوم الأربعاء وقت الزوال خامس شهر رجب، بعد أن مرض نحو عشرة أیام، و دفن من الغد بمدرسة والده تجاه داره بحارة بهاء الدین، بعد أن صلی علیه بالجامع الحاکمی، و توجهوا بجنازته من طریق الجملون العتیق، و دخلوا بها من باب الجامع الذی بالشارع عند باب النصر، و عادوا بنعشه من الباب الذی بالقرب من باب الفتوح، و أعید إلی مدفنه، و کانت جنازته مشهودة إلی الغایة.

و مات و سنه سبع و سبعون سنة، لأن مولده بعد عشاء لیلة الاثنین ثالث عشر جمادی الأولی سنة إحدی و تسعین و سبعمائة، و هو من جملة الفقهاء الذین قرأت علیهم القرآن فی صغری، لأن أختی کانت تحت أخیه قاضی القضاة جلال الدین البلقینی، فکنّا بهذا المقتضی کشیء واحد، و کان إماما عالما فقیها، درّس و أفتی سنین کثیرة، و ناب فی الحکم عن أخیه جلال الدین المذکور، ثم ولی القضاء بعد ذلک غیر مرّة، و طالت أیّامه فی المنصب، و انتهت إلیه رئاسة مذهبه فی زمانه، و قد استوعبنا حاله فی عدة مواضع من مصنفاتنا، لیس لذکرها فی هذا المختصر محل، و فی شهرته ما یغنی عن الإطناب فی ذکره هنا- رحمه اللّه تعالی و رضی عنه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۴

و توفّی الأمیر سیف الدین کمشبغا بن عبد اللّه السیفی نخشبای نائب ألبیرة بها فی أواخر شوال، و کان من عتقاء الأمیر نخشبای الذی ضرب الملک الظاهر جقمق رقبته، ثم خدم کمشبغا هذا فی بیت السلطان، ثم صار خاصکیا، و دام علی ذلک دهرا إلی أن سعی فی نیابة قلعة حلب فولیها دفعة واحدة بالبذل، فلم تشکر سیرته و عزل، و نقل إلی ألبیرة، فلم تطل مدته بها، و مات فی التاریخ المذکور، و کان لا ذات و لا أدوات، و لو لا أنه ولی هاتین الولایتین ما ذکرناه هنا.

و توفّی الشیخ أبو الفضل محمد ابن الشیخ الإمام الفقیه الصالح القدوة المسلک شمس الدین محمد بن حسن المعروف والده بالشیخ الحنفی، فی لیلة السبت ثامن ذی الحجة بجزیرة أروی المعروفة بالوسطانیة، بعد مجیئه من الوجه البحری، و حمل من الجزیرة فی باکر نهار السبت المذکور، و صلّی علیه و دفن بزاویة أبیه خارج قنطرة طقزدمر، و هو فی عشر الستین من العمر، و کانت لدیه فضیلة، و له اشتغال بحسب الحال، و لکنه لم یکن أمینا علی الأوقاف- عفا اللّه تعالی عنه بمنه و کرمه.

و توفّی الوزیر علاء الدین علی ابن الحاج محمد الأهناسی بمکة المشرفة بطالا فی حیاة أبیه، فی ثانی عشرین ذی القعدة، و مات و هو فی أوائل الکهولیة، و قد ولی علی هذا الوزر و الأستاداریة و الخاص غیر مرّة، و علیّ هذا و أبوه محمد هما من أطراف الناس الأوباش المعدودة رئاستهم من غلطات الدّهر، و قد ذکرنا من أحوال علی هذا و ولایاته نبذة کبیرة فی تاریخنا «الحوادث» تغنی عن العیادة هنا- انتهی- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی السلطان صارم الدین إبراهیم بن محمد بن علی بن قرمان صاحب بلاد الرّوم- قونیة، و لا رنده و قیساریة و غیرها- فی أواخر ذی القعدة أو أوائل ذی الحجة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۵

و قد ناهز الستين من العمر، بعد أن ولى بلاد قرمان أكثر من خمس و أربعين سنة، و تولى بعده ابنه إسحاق، و فى لغتهم إسحاق أيسق، و وقع الخلف بسبب ولاية إسحاق بين أولاده.

و بنو قرمان هؤلاء من أصلاء الملوک كابرا عن كابر، أبا عن جد فصاعدا إلى السلطان علاء الدين السّلجوقى، و قيل إن بنى قرمان هؤلاء من ذرية بايندر أحد أكابر أمراء جانكزخان ملک التّرک الأعظم.

و توفّى القاضى شمس الدين محمد ابن الشيخ بدر الدين محمد بن السّحماوى الشافعى أحد أعيان موقعى الدست الشريف بالديار المصرية، فى ليلة السبت خامس عشر ذى الحجة، و دفن صبيحة يوم السبت المذكور عن اثنتين و ثمانين سنة، و كانت لديه فضيلة و عنده حشمة و أدب و تواضع، و باشر التوقيع أزيد من خمسين سنة، و خدم بالتوقيع عند جماعة من أعيان الأمراء، آخرهم الملک الظاهر خشقدم إلى أن تسلطن- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير سيف الدين طوخ بن عبد اللّه الجكمى الرأس نوبة الثانى- كان- و أحد أمراء الطبلخانات بطالا بعد ما كفّ بصره، فى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى الحجة، و دفن من الغد بالصحراء، و قد زاد سنه على الثمانين و لم يحج حجة الإسلام، و كان أصله من مماليک جكم المتغلب على حلب، و كان من مساوئ الدهر لا يصلح لدين و لا لدنيا، و كان مسرفا على نفسه، ما أظنه ترک الشرب إلا فى مرض موته، و لم يحج حجة الإسلام مع طول عمره و سعة ماله- و لا قوة إلا بالله العلى العظيم، اللهم وفقنا لما تحب و ترضى يا رب العالمين.

و توفّى الأمير سيف الدين بردبک بن عبد اللّه الأشرفى الدّوادار الثانى- كان-، قتيلا بيد العربان بالقرب من منزلة خليص فى عوده من الحج فى يوم

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۶

الاثنين سادس عشر ذى الحجة، و قد ناهز الخمسين أو جاوزها، و كان أصله من سبى قبرس قبيل سنة ثلاثين و ثمانمائة مراهقا، و ملكه الملک الأشرف إينال أيّام إمرته، و ربّاه و أعتقه و جعله خازنداره، و زوّجه بابنته الكبرى، ثم جعله دواداره، و لما تسلطن أمّره و جعله دوادارا ثالثا ثم جعله دوادارا ثانيا، و نالته السعادة، و عظم فى الدولة و قصده الناس لقضاء حوائجهم، و شاع ذكره و بعد صيته، و حمدت سيرته، و عمّر الجوامع فى عدّة بلاد، و له مآثر و ذكر فى الصدقات و الإعطاء، و دام على الدّوادارية إلى أن نكب ابن أستاذه السلطان الملک المؤيّد أحمد ابن الملک الأشرف إينال، و خلع من السلطنة، و أمسک بردبک هذا و صودر، و أخذ منه نحو من مائتى ألف دينار، و وقع له أمور.

و بالجملة إنه كان لا بأس به لولا محبته لجمع المال من أى وجه كان- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ الفقيه العالم المقرئ تاج الدين محمد بن أحمد الفطويسى الإسكندرى المالكى إمام السلطان، و مدرس الحديث بالظاهرية العتيقة، مات فى نصف ذى القعدة، و مولده سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و اشتغل كثيرا فى عدّة علوم، لكنه لم يكن ماهرا فى غير القراءات، و حصلت له وجاهة آخر عمره.

و توفّى الأمير سيف الدين سودون بن عبد اللّه اليشبكى التركمانى المعروف بسودون قندورة، أحد مقدمى الألوف بدمشق و أمير حاج المحمل الشامى، بعد خروجه من المدينة الشريفة إلى جهة الشام، فى أواخر ذى الحجة، أو فى أوائل المحرم، و قد زاد سنه على الستين، و كان من مماليک الأمير يشبک الجكمى الأمير آخور، و بقى بعد أستاذه من جملة مماليک السلطان، و دام على ذلک دهرا طويلا لا يلتفت إليه، إلى أن تحرک له بعيض سعد، و انتمى للصاحب جمال الدين ناظر الخاص ابن كاتب جكم بواسطة خجداشه جانبک اليشبكى والى القاهرة، فولى بعض قلاع البلاد الشامية:

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۷

قلعة صفد، و قلعة الشام، ثم تنقل فى البلاد بالبذل إلى أن صار من أمره ما كان، و لم يكن سودون هذا من أعيان الأمراء لتشكر أفعاله

أو تذم.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع و خمسة عشر إصبعا، مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعا و ثلاثة عشر إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۸

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۶۹]

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة تسع و ستين و ثمانمائة:

فيها توفّى الأمير سيف الدين قانى باى طاز بن عبد اللّه البكتمرى نائب ألبيرة بها، فى أواخر شهر ربيع الأول أو أوائل شهر ربيع الآخر، و هو فى الثمانين تخمينا، و كان أصله من مماليك بكتمر جلّق الظاهرى نائب الشام، و صار بعد موت أستاذه من مماليك السلطان، ثم نقل فى أواخر عمره إلى نيابة قلعة صفد، ثم إلى نيابة ألبيرة، إلى أن مات، و هو من مقولة سودون تركمان المقدم ذكره فى السنة الخالية.

و توفّى الأمير موسى [بن محمد بن موسى] صاحب حلى ابن يعقوب من بلاد اليمن فى شهر ربيع الآخر بمدينة حلى ابن يعقوب، و كان معدودا من أعيان الأمراء و من ذوى البيوت فى الممالك، و لجده موسى مع الشريف حسن بن عجلان صاحب مكّة وقائع ذكرناها فى ترجمة حسن المذكور فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى».

و توفّى الشهاب بديد بن شكر وزير الشريف محمد بن بركات صاحب مكّة، فى ليلة السبت السابع من جمادى الأولى بوادى الآبار من عمل مكة، و حمل بقية ليلته على الرقاب إلى بطن مكة، فغسّل بالبيت الذى أنشأه الشريف محمد بن بركات بمكة، و صلى عليه صلاة الصبح بالحرم، و دفن بالمعلاة على والده، و كانت جنازته مشهودة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۳۹

و أسف الناس عليه؛ لأنه كان مقصودا للخير، و من بقية الشيوخ و الأكابر المشار إليهم، و بديد بباء موحدة ثانية الحروف مضمومة و بعدها دال مهملة مفتوحة، ثم ياء آخر الحروف ثم دال ساكنتين.

و توفّى القاضى بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد ابن على بن حجر العسقلانى الشافعى فى يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة و قد جاوز الخمسين من العمر، و لم يخلف قاضى القضاة ولدا ذكرا غيره و لا أنثى، و بموته انقطع نسل ابن حجر من الذكور.

و توفّى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه الناصرى نائب طرابلس بها فى يوم الأربعاء حادى عشرين شهر رجب، و قد جاوز السبعين من العمر، و كان من صغار مماليك الملك الناصر فرج و عتقائه، ثم خدم بعد موت أستاذه عند خچداشه الأمير برسباى حاجب حجاب دمشق، و بخدمته عرف بين الناس، و دام بخدمته إلى أن خرج الأمير إينال الجكمى نائب الشام على الملك الظاهر جقمق و انهزم، فقبض جانبك عليه، و قد ذكرنا كيفية القبض عليه فى غير موضع من مصنفاتنا، ليس لذكرها فى هذا المختصر محل، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناه بدمشق، ثم تنقل بعد ذلك بعدّة وظائف و أعمال غالبها بالبذل، إلى أن مات رحمه اللّه تعالى.

و توفى الأمير عجل بن نعير أمير عرب آل فضل بالبلاد الشامية، و هو بطّال بالقرب من أعمال حلب.

و توفى السلطان خليل بن إبراهيم صاحب مملكة شماخى و ما والاها فى السنة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۰

الخالية، فيما أظن بمدينة شماخى و لم تحرّر وفاته إلا فى هذه السنة لبعد المسافة، و مات بعد أن ملك نحو أربعين سنة، و كان من أجلّ ملوك الشرق قدرا و أحسنهم سيرة، و أجودهم بضاعة و أكثرهم سياسة، و أحزمهم رأيا، و هو آخر من كان بقى من أكابر

الملوک، و هو أحـد من أوصاه السـلطان مرادبک بن محمد بن عثمان ملک الرّوم علی ولده محمد صاحب الروم فی زماننا هذا، و قد ذکرنا أمره محررا فی «الحوادث» - رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الوزیر شـمس الـدین محمد البباوی، غریقا ببحر النیل بساحل بولاق بالقرب من فم الخور، وقت المغرب من یوم الأربعاء ثامن عشـرین ذی الحجـة، و هو فی الکهولیة؛ و کان سـبب موته أنه توجه فی مرکب عقیبة إلی ناحیة طناش بالجیزیة أو غیرها، و عاد فغرق من شردریح وافی مرکبه قلبتها، و للّه الحمد.

و کـان اللبـاوی هـذا أصـله من ببـاالکبری بالوجه القبلی، کان بها خفیرا، و قیل راعیا، و قیل غیر ذلک، و قـدم القاهرة، و صار بخـدمة بعض الطباخین مرقدارا، ثم صار صبیا عند بعض معاملی اللحم، و لا زال ینتقل فی هذه الصناعات إلی أن صار معاملا، و حسنت حاله، و رکب حمـارا، و لاـ زال أمره ینمو فی صـناعته إلی أن أثری، و حصّـل مالاـ کثیرا، و صار معوّل الوزراء علیه فی حمل اللحم المرتب للممالیک السلطانیة، و بقی یرکب بغلا بنصف رحل بسلخ جلد خروف، و یلبس قمیصا أزرق کأکابر المعاملین.

و سـمع الملـک الظاهر خشـقدم بسـعة ماله- و کان من الخسّـة و الطمع فی محل کبیر- فاحتال علی أخـذ ماله بأن ولّاه نظر الدّولـة فی أوائـل ذی الحجـة مـن سـنة سـبع و سـتین، و لبس الببـاوی العمامـة و الفرجیّـة و الخـفّ و المهمـاز، و تزیّا بزی الکتـاب، و ترک زیّ المعاملین، فشقّ ذلک علی الناس قاطبة، و عدّوا ذلک من قبائح الملک الظاهر خشقدم،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۱

لأن البباوی هذا مع انحطاط قدره و جهله و وضاعته و سـفالة أصله، مع عدم معرفته بالکتابة و القراءة، فإنه کان أمّیّا لا ینطق بحرف من حروف الهجـاء، إلاـ إن کـان تلقینـا، و مع هـذا کله کـان غیر لائق فی زیّه، فباشـر نظر الدّولـة مـدّة یسیرة، و اختفی الأمیر زین الـدین الأسـتادار و ولی الأسـتاداریة من بعـده المجـد بن البقری، و شـغر الوزر عنه، و طلب السـلطان البباویّ هذا و ولّاه الوزر فی یوم الثلاثاء سـابع عشـر شـهر ربیع الأول من سـنة ثمان و ستین و ثمانمائـة، و صار وزیر الـدیار المصـریة، فلم نعلم بأقبـح حادثـة وقعت فی الـدیار المصریة قدیما و حدیثا من ولایة البباوی هذا للوزر؛ لأنه کان أحد الأعوام الأوباش الأطراف السّوقة، و وثب علی هذه الوظیفة العظیمة التی هی أجلّ وظائف الـدنیا بعـد الخلافـة شـرقا و غربا، و قد ولیها قدیما جماعة کثیرة بالدیار المصـریة و غیرها من سادات الناس من زمن عبد الملک بن مروان إلی أیام الملک الظاهر بیبرس البندقداری، و هی إلی الآن أرفع الوظائف قدرا فی سائر بلاد اللّه، و فی کل قطر من الأقطار إلا الـدیار المصـریة فإنه انحطّ بها قـدرها، و ولیها من الأوباش و صـغار الکتبة جماعة من أوائل القرن التاسع إلی یومنا هذا، فالذی ولیها فی عصـرنا هذا ممن لا یصـلح لولایتها ابن النجّار، و علی بن الأهناسی البرددار، و أبوه الحاج محمد المقدّم [ذکره]، و یونس بن جربغا دوادار فیروز النّوروزی، و غیرهم من هـذه المقولـة، و مع هـذا کله بلاء أعظم من بلاء، و أعظم الکل ولایـة البباوی هـذه، فإن کل واحد ممن ذکرنا من الذین ولّوا الوزر کان لکل واحد میزة فی نفسه، و قد تقدّم له نوع من أنواع الخدم و المباشـرات، إلا البباوی هـذا فإنه لم یتقـدّم له نوع من أنواع الرئاسة، و مع هذه المساوئ باشـر بظلم و عسف و عدم حشـمة و قلة أدب مع الأکابر و الأعیان، و ساءت سـیرته، و کثر الـدعاء علیه، إلی أن أخذه اللّه تعالی أخذ عزیز مقتدر، و أراح اللّه المسـلمین منه؛ و قد هجاه الشـعراء بأهـاج کثیرة، ذکرنـا بعضـها فی تاریخنا «الحوادث»، و أنا أسـتغفر اللّه من لفظـة وقعت منی فی ترجمته، فإنی قلت فی آخر ترجمته: ما ولی الوزر فی الدنیا أحد أخسّ

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۲

من البباوی هذا، و لا یلیها أیضا أحد قبح منه إلی یوم القیامة، فولیها بعد مدة شخص من غلمانه یقال له قاسم جغیتة، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلی العظیم.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم سبعة أذرع سواء، مبلغ الزیادة لم یتحرّر، نذکره فی السنة الآتیة عند انتهاء النیل.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۳

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۰]

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة سبعين و ثمانمائة.

فيها توفّى الأمير زين الدين قراجا بن عبد اللّه العمرى الناصرى أحد أمراء الألوف بدمشق بها فى المحرم، و قد ناهز الثمانين من العمر، و هو من مماليك الناصر فرج بن برقوق، و طالت أيامه فى الجندية إلى أن استقرّ به الملك الظاهر جقمق و الى القاهرة، ثم تنقّل بعد ذلك فى عدّة ولايات إلى أن صار أحد أمراء الألوف بدمشق، إلى أن مات فى هذه السنة، و كان من المهملين المسرفين على أنفسهم مع شهرة بالشجاعة.

و توفّى الأمير إسحاق بن إبراهيم بن قرمان ملك الروم، غريبا عن بلاده بديار بكر عند حسن بك بن قرايلك فى أوائل المحرم، بعد أن وقع له أمور و حروب لما ملك الروم و خالفه إخوته، و قد ذكرنا أمره فى تاريخنا «الحوادث» مفصلا.

و توفّى الأمير سيف الدين جانم بن عبد اللّه المؤيّدى، المعروف بحرامى شكل، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، بعد مرض طويل و عمر طويل أيضا، و كان من أوباش مماليك الملك المؤيّد شيخ، و طالت أيامه فى الخمول و الفقر إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق بوّابا، و أنعم عليه بإقطاع كبير، فحسن حاله، و امتنع عن الشحاتة من الأكابر، و دام على ذلك إلى أن تسلطن الملك الأشرف إينال، فطلب منه إمرة، فلم يعطه شيئا، فقام بين يديه فى الملأ و قال: «إما توسطنى أو تعطينى إمرة»، فضحك الناس و شفعوا له حتى أعطاه إمرة عشرة، ثم صار من جملة رءوس النوب،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۴

و دام على ذلك إلى أن مات، و كان له حكايات فى البخل و الجنون و النذالة نستحى من ذكرها، و بالجملة إنه كان بوجوده عارا على جنس بنى آدم.

و توفّى القاضى بدر الدين حسن الرهونى المالكى أحد نوّاب الحكم المالكية بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل، و قد قارب الستين من العمر، و كانت لديه فضيلة، إلا أنه كان متهوّرا فى أحكامه.

و توفى القاضى نور الدين على الشيشينى الحنبلى، أحد نوّاب الحكم الحنابلة فى صفر، و قد جاوز الكهولية، و كان فاضلا معدودا من فقهاء الحنابلة.

و توفى القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى ناصر الدين محمد، المعروف بابن المخلّطة، المالكى السكندرى الأصل، المصرى المولد و المنشأ و الوفاة، فى ليلة السبت تاسع عشر ربيع الأول، و دفن من الغد بالصحراء، و هو فى عنفوان الشبيبة، و كان ولى نيابة الحكم بالقاهرة، ثم ولى قضاء الإسكندرية، و حسنت سيرته، إلى أن مرض و قدم القاهرة مريضا، و لازم الفراش إلى أن مات، و كان فاضلا عالما فقيها أديبا، حسنة من حسنات الدهر- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الشيخ المعتقد إبراهيم الغنام بداره بالحسينية خارج القاهرة، فى يوم الخميس مستهل ربيع الآخر، و صلى عليه برحبة بالقرب من داره، و دفن بها، و كان من المعمرين، و للناس فيه اعتقاد حسن، و كان يبيع لبن المعز، يسوقها أمامه بالطرقات على عادة باعة اللبن، و كان مشهورا بالصلاح.

و توفى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد اللّه من أمير الأشرفى المعروف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۵

بالظريف، محبوسا بقلعة صفد فى هذه السّنة، و قد جاوز الكهولية، و كان من صغار مماليك الملك الأشرف برسباى، و صار خاصكيا فى دولة الملك الظاهر جقمق، ثم خازندارا صغيرا ثم دوادارا صغيرا ثم تأمّر عشرة، ثم صار خازندارا كبيرا فى دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار فى دولة الملك الظاهر خشقدم دوادارا ثانيا بإمرة مائة و تقدمة ألف، فلم تطل أيامه فيها، و قبض عليه مع من قبض

عليه من خچداشيته الأشرفية، و حبس سنين إلى أن مات فى السجن، و كان شابا خفيفا، و فيه طيش مع تكبر و تعاظم و بخل زائد، لكنه كان عارفا بأنواع الملاعيب كالرّمح و البرجاس و غير ذلك، و على كل حال كانت مساوئه أكثر من محاسنه.

و توفّى الأمير سيف الدين ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين قتيلا بها بيد فداوى فى صلاة الجمعة بالجامع، وثب عليه الفداوى و ضربه بسكين كان فى يده إلى أن قتله، و قتل الفداوى فى الوقت، و قيل إن الفداوى كان أرسله الملك الظاهر خشقدم، و حضر سيفه إلى الديار المصرية فى عاشر ربيع الآخر، و ولى بعده شاه بضع أخوه، و وقع بعد ذلك أمور و فتن قائمة إلى يومنا هذا.

و توفّى الشيخ الإمام الخطيب البليغ الأديب المفنن برهان الدين إبراهيم ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد اللّه بن عبد الرحمن الباعونى الأصل، الدّمشقى المولد و المنشأ و الوفاة، فى يوم الخميس ربع عشرين شهر ربيع الأوّل، و دفن من يومه، و قد عمّر، و مولده فى سابع عشرين شهر رمضان سنة سبع و سبعين و سبعمائة، و نشأ بدمشق، و طلب العلم، و قرأ على علماء عصره إلى أن برع فى عدّة فنون من فقه و عربية و أدب، و غلب عليه الأدبيات و الشعر، و له نظم رائق و نثر فائق، وقفت على عدّة كتب من مكاتباته تدلّ على فضل كبير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۶

و علم غزير، و اتساع باع فى الأدب و أنواعه، و له رسالة عاطلة من النقط، أبدع فيها و أتى بغرائب، مع عدم التكلّف، و خمّس ألفية ابن مالك فى النحو، و له غير ذلك من المصنفات، و ولى خطابة دمشق، و مشيخة الباسطية، و سئل بقضاء دمشق فامتنع، و وليها أخوه القاضى جمال الدين يوسف الباغونى، و لم يزل الشيخ برهان الدين على أحسن طريقة إلى أن مات- رحمه اللّه تعالى.

و توفّيت خوند شكرباى الناصرية الأحمدية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم فى يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى، و صلى عليها تحت طبقة الزّمام تجاه باب الستارة، و دفنت بتربة زوجها السلطان الملك الظاهر خشقدم التى أنشأها بالصحراء، و أنزلت من القلعة، و لم يغطّ نعشها ببخشاناه على عادة الخوندات، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء، و جعل أمام نعشها أعلام أحمدية، و كان ذلك بوصية منها، و كان أصلها چاركسية الجنس، من عتقاء الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، و تزوجت بعد موت أستاذها بالأمير أبرك الجكمى، و استولدها أبرك أولادا، منهم: خاتون أم الشهابى أحمد ابن العينى، و ماتت خاتون المذكورة فى سلطنة الملك الظاهر خشقدم، و لم يتزوّج السلطان الملك الظاهر غيرها إلا بعدها.

و توفّى الأمير سيف الدين كسباى بن عبد اللّه الششمانى الناصرى ثم المؤيدى، أحد أمراء الطبلخانات فى ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة، و دفن بتربته التى أنشأها خارج القاهرة، و كان أصله من مماليك الملك الناصر فرج، ثم ملكه الملك المؤيّد شيخ و أعتقه، و صار خاصكيا بعد موته و دام على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق دوادارا صغيرا، و وقع له معه أمور و محن، إلى أن صار أميرا فى دولة الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۷

الأشرف إينال، ثم صار من أمراء الطبلخانات فى دولة خچداشه الملك الظاهر خشقدم إلى أن مات فى التاريخ المذكور، و كان رأسا فى فنون الفروسية، عارفا بأنواع الملاعيب، كالرمح و النشاب و البرجاس و غير ذلك، لكنه كان عنده خفة و طيش، مع سلامة باطن- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

و توفّى القاضى فخر الدين محمد الأسيوطى الشافعى أحد نواب الحكم الشافعية، فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، و سنه أزيد من سبعين سنة، و قد ناب فى الحكم أزيد من أربعين سنة، على أنه كان قليل العلم و العمل- عفا اللّه عنه.

و توفّى الشيخ الواعظ المذكّر أبو العباس أحمد بن عبد اللّه المقدسىّ الشافعى الواعظ، بعد مرض طويل، بالقاهرة فى ليلة الأربعاء سادس عشرين جمادى الآخرة، و دفن من الغد بالقرافة الصّغرى، و مولده فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، هكذا ذكر لى عند ما

استجارنی، و کان له اشتغال قدیم، و غلب علیه الوعظ و التّذکیر، و عمل المواعید، و کان لتذکیره تأثیر فی القلوب، و علیه أنس، و له باع واسع فی الحفظ للأحادیث و التفسیر و کرامات الصالحین، و کان له فی التذکیر القبول الزائد من کل أحد، و أثری من ذلک و جمع المال الکثیر، و الناس فیه علی قسمین، ما بین معتقد و منتقد، و الظن الثانی أکثر، و کنت أنا من القسم الأول، لولا ما وقع له مع الحافظ العلّامة برهان الدین البقاعی ما وقع، و حکایته معه مشهورة أضربت عن ذکرها لقرب عهد الناس منها.

و توفّی الخادم الرئیس صفیّ الدین جوهر بن عبد اللّه الأرغون شاوی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۸

الظاهری، الساقی الحبشی الجنس، رأس نوبة الجمداریة، فی لیلة الخمیس عاشر شعبان، و دفن من الغد بتربة الأمیر قانی بای الچارکسی، و حضر السلطان الصلاة علیه بمصلّاة المؤمنی، و مات و هو فی عشر الستین، و لم یخلف بعده مثله دینا و أدبا و حشمة و رئاسة و تواضعا و عقلا، و بالجملة إنه کان من حسنات الدّهر- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر سیف الدین سودون بن عبد اللّه المؤیّدی الفقیه الأشقر، أحد أمراء العشرات، بعد مرض طویل، فی یوم الخمیس سابع شهر رمضان، و کان من عتقاء الملک المؤیّد شیخ، و تأمّر فی دولة الملک المؤیّد أحمد ابن الملک الأشرف إینال- فیما أظن- و دام علی ذلک إلی أن مات، و کان فقیها دیّنا خیرا فاضلا- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأدیب الفاضل أبو العباس أحمد بن أبی السعود إسماعیل بن إبراهیم بن موسی بن سعید بن علی المنوفی الشافعی، المعروف بابن أبی السعود الشاعر المشهور بالمدینة الشریفة فی خامس عشرین شهر رمضان، و مولده فی شوال سنة أربع عشرة و ثمانمائة بمنوف العلیا، و من شعره فی ملیح منجم: [الوافر]

لمحبوبی المنجّم قلت یوما فدتک النّفس یا بدر الکمال

برانی الهجر، فاکشف عن ضمیری فهل یوما أری بدری وفی لی

و قد ذکرنا من شعره قطعة جیدة فی «الحوادث» و غیرها.

و توفّی القاضی جلال الدین عبد الرحمن ابن الشیخ نور الدین علی ابن العلّامة سراج الدین عمر بن الملقّن الشافعی، فی صبیحة یوم الجمعة ثامن شوال، و قد جاوز الثمانین بأیام قلیلة، و مات فجأة، و کان من بیت علم و فضل، و ناب فی الحکم سنین، و ولی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۴۹

عدّة وظائف دینیة، و درّس بعدّة مدارس، و کان مشکور السّیرة دیّنا عاقلا، ملیح الوجه حسن السّمت- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الشیخ زین الدین خالد بن أیوب بن خالد، شیخ خانقاه سعید السعداء، فی یوم الأربعاء ثالث عشر شوال، بعد مرض طویل، و ولی المسجد بعده الشیخ تقی الدین عبد الرحمن القلقشندی- رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الأمیر الوزیر الصاحب شمس الدین منصور بن الصفی قتیلا، ضربت رقبته تجاه الصالحیة بحکم قاضی القضاة حسام الدین بن حریز المالکی، فی یوم الأربعاء العشرین من شوال، و سنّه دون الأربعین سنة، بعد أن قاسی شدائد من الضرب و العصر و المصادرات و السجن، لتحامل أهل الدولة علیه، و قد سقنا حکایته بتطویل فی تاریخنا «الحوادث» - رحمه اللّه تعالی.

و توفّی الشیخ شمس الدین محمد بن علی بن محمد المعروف بابن الفألاتی الفقیه الشافعی، فی یوم الجمعة رابع عشر ذی القعدة، و هو فی أوائل الکهولیة، و الفألاتی کانت صناعة أبیه، و کان أبوه و أعمامه ثلاثة إخوة، کان عمه الواحد أدیبا حکما لأدباء العوام، عامیا، یجلس علی الطرقات فی وسط حلقة، و عمه الآخر فی قید الحیاة بتکسب بالتنجیم بالرّمل، و کان والد شمس الدین حکویّا یجلس علی الطرقات، و علیه حلقة کعادة العوام، و کان مع هذا حکما للمصارعین، و نشأ شمس الدین هذا علی هیئة العوام، إلا أنه حفظ القرآن العزیز، فلما کبر حبّب إلیه الاشتغال بالعلم، فاشتغل علی جماعة من العلماء فی فنون کثیرة، و عدّ من أعیان الفقهاء- رحمه اللّه تعالی.

و توفّى الأمير سيف الدين تغرى برمش السيفى قراخجا الحسنى، أحد أمراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۰

العشرات و رأس نوبة، فى ليلة الخميس ثامن عشر ذى الحجة، و قد ناهز الستين أو جاوزها بقليل، و دفن من الغد، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمنى- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى بير بضع بن جهان شاه بن قرايوسف بن قرا محمد، التركمانى الأصل، صاحب بغداد و العراق، قتيلا بسيف والده جهان شاه، بعد أن حصره ببغداد نحو ثلاث سنين، و كان كآبائه و أجداده سيىء الاعتقاد، محلول العقيدة، راحت روحه إلى سقر، و يلحق اللّه به من بقى من أقاربه.

أمر النيل فى هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع و نصف، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا و ستة أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۱

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۱]

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر خشقدم على مصر و هى سنة إحدى و سبعين و ثمانمائة:

فيها توفّى أتابك العساكر بالديار المصرية الأمير قانم من صفر خجا المؤيّدى، المعروف بالتاجر، فجاءة فى ليلة الاثنين حادى عشر صفر، و سنه نحو السبعين، و كان أصله من مماليك المؤيّد شيخ و أعتقه، و صار خاصّكيا فى دولة ولده المظفر أحمد ابن شيخ، و لا زال على ذلك إلى أن تأمّر عشرة فى دولة الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباى. و استمرّ فى دولة الملك الظاهر جقمق كلها على ذلك، و حجّ أمير الركب الأوّل غير مرّة، و توجّه فى الرّسليّة إلى جهان شاه ابن قرايوسف ملك الشرق، ثم إلى خوندكار بن عثمان متملك بلاد الرّوم، ثم عاد و دام بمصر إلى أن صار فى دولة الملك الأشرف إينال من جملة أمراء الطبلخانات، ثم صار أمير مائة و مقدّم ألف بعد موت خيربك النّوروزى المؤيّدى الأجرود، ثم صار فى دولة الملك المؤيّد أحمد بن إينال رأس نوبة النّوب، بعد الأمير قرقماس الأشرفى، بحكم انتقاله إلى إمرة مجلس، و استمرّ على ذلك إلى أن نقله خچداشه الملك الظاهر خشقدم إلى إمرة مجلس، بعد انتقال قرقماس أيضا إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير جرباش إلى الأتابكية، عوضا عن الملك الظاهر خشقدم، و عظم قانم فى دولة خچداشه خشقدم المذكور، و نالته السعادة زيادة على ما كان أولا، و دام على ذلك إلى أن نقله إلى الأتابكية بعد إخراج الأتابك جرباش المحمدى إلى ثغر دمياط بطّالا، فدام على الأتابكية إلى أن مات فجاءة فى التاريخ المقدم ذكره، و كان من أجلّ الملوك و أعظمهم، لولا تكبر كان فيه- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۲

و توفّى الأمير سيف الدين برسباى بن عبد اللّه البجاسى نائب الشام بها فى يوم الاثنين ثامن عشر صفر، و قد زاد سنه على الستين، بعد مرض طويل، و كان من عتقاء الأمير تنبك البجاسى نائب دمشق، الذى كان خرج على الملك الأشرف برسباى و قتل فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، فكان بين وفاة برسباى هذا و وفاة أستاذه تنبك نحو من أربع و أربعين سنة، و لما قتل أستاذ برسباى هذا تنقّل فى الخدم حتى صار من جملة المماليك السلطانية، و ترقى إلى أن صار أمير عشرة فى دولة الملك الظاهر جقمق، ثم جعله نائب الإسكندرية، ثم صار فى دولة الأشرف إينال أمير مائة و مقدّم ألف.

ثم لما مات حاجب الحجاب جانبك القرمانى الظاهرى فى شوال سنة إحدى و ستين جعل هذا موضعه حاجب الحجاب، ثم نقل إلى الأمير آخورية الكبرى فى سنة أربع و ستين بعد موت يونس العلائى، و ذلك بعد أن صاهر السلطان و تزوج بنت الأمير بردبك الدوادار الثانى، و هى بنت بنت السلطان، فلم يكن مكافأة برسباى هذا للأشرف إينال على ما خوّله من النعم إلا أنه لمّا خرج القوم على ولده الملك المؤيّد أحمد بن إينال غدره و مال إلى الملك الظاهر خشقدم، فعابه كلّ أحد على ذلك، و ليت الملك الظاهر

خشقدم عرف له ذلك، بل أخرجه بعد قليل إلى نيابة طرابلس، ثم تنقّل بعد نيابة طرابلس إلى نيابة الشام ببذل المال، و لم يتهنأ بدمشق بل مرض و طال مرضه إلى أن مات، و كان رجلا عاقلا عفيفا عن المنكرات و الفروج، و لم يعفّ عن الأموال، و كان بخيلا جدا- عفا اللّه عنه.

و توفى شيخ مكة و محدّثها و مسندها تقىّ الدين أبو الفضل محمد بن نجم الدين محمد ابن أبى الخير محمد بن عبد اللّه بن فهد الهاشمى المكى الشافعى، بمكة فى يوم السبت سابع شهر ربيع الأول؛ و مولده بأصفون الجبلين من صعيد مصر، فى يوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۳

خامس شهر ربيع الأول سنة سبع و ثمانين و سبعمائة، و قد استوعبنا ترجمته فى تاريخنا «الحوادث».

و توفى الأمير سيف الدين قانم بن عبد اللّه الأشرفى؛ المعروف بقانم نعجة، أحد أمراء العشرات و رأس نوبة، شبه الفجاءة، فى ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى، و قد جاوز الستين، و كان من مماليك الملك الأشرف برسباى و تأمّر فى دولة الملك الأشرف إينال إلى أن مات، و كان مسرفا على نفسه منهمكا فى اللذات، و عنده بطش و ظلم.

و توفّى الأمير سيف الدين تمراز بن عبد اللّه الإينالى الأشرفى الدّوادار الثانى- كان- مقتولا بسيف الشرع بقلعة المرقب، فى يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى، و مات و قد زاد سنّه على الستين، و حكاية تمراز هذا طويلة، و ما وقع له من الحبس و النفى و المحن يطول الشرح فى ذكره، استوعبنا غالب أموره فى وقتها فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» و بالجملة إن تمراز هذا كان من مساوئ الدهر لفظا و معنى- عفا اللّه تعالى عنه.

و توفّى الخواجا التاجر بدر الدين حسن الطّاهر اليمنى الأصل و المولد و المنشأ، المكى الدار و الوفاة، شاه بندر جدّة، بمكة فى جمادى الأولى، و قد عمّر و شاخ، و انتهت إليه رئاسة التجار بمكة فى كثرة المال و البخل، و قيل إنه كان زيدىّ المذهب مع جهل مفرط، و بعد عن كل علم و فن.

و توفّى قاضى القضاة شرف الدين يحيى ابن سعد الدين محمد بن محمد المناوى الشافعى، قاضى قضاة الديار المصرية و عالمها- معزولا- فى ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، و دفن من الغد بالقرافة الصغرى، و قد زاد سنه على السبعين، و حضر السلطان الصلاة عليه بمصلّاة المؤمنى، و كانت جنازته مشهودة، و كثر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۴

أسف الناس عليه، لغزير فضله و دينه و حسن سيرته، و مات و لم يخلف بعده مثله- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى القاضى زين الدين عبد الغفار بن مخلوف السمديسى المالكى، أحد نواب الحكم بالديار المصرية، و هو فى أواخر الكهولية، و كان معدودا من فضلاء المالكية.

و توفّى الإمام نور الدين على السويفى المالكى إمام السلطان، فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب، و هو فى عشر المائة من العمر، بعد أن خدم عدّة ملوك، و ولى حسبة القاهرة- رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الحافظ تقى الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن قطب الدين أحمد القلقشندى الشافعى، شيخ خانقاه سعيد السعداء الصلاحية فى ليلة الثلاثاء ثالث شعبان، و مولده فى شهر رجب سنة سبع عشرة و ثمانمائة، و كان من الفضلاء، و صحبنى سنين كثيرة، و سمعت أشياء عالية من الحديث بقراءته، ذكرنا ذلك كله فى ترجمته فى «الحوادث» - رحمه اللّه تعالى.

و توفّى الأمير شهاب الدين أحمد ابن ناصر الدين محمد، المعروف بابن قليب، حاجب حجّاب طرابلس و أستادار السلطان بها، فى يوم الخميس خامس شعبان.

و توفّى أميرزة ابن شاه أحمد بن قرايوسف فى يوم السبت رابع ذى القعدة، بالقاهرة بسكنه بباب الوزير خارج القاهرة، و سنه زيادة على ثلاثين سنة، و أظنه حفيد شاه أحمد بن قرايوسف لا ولده - رحمه اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۵

و توفّی الأمیر سیف الدین جانبک بن عبد اللّه الناصری المعروف بالمرتدّ أحد مقدمی الألوف بالدیار المصریة- بطالا- بعد ما شاخ و کبر سنه، و کان من المهملین فی أیام عمله و بطالته- رحمه اللّه تعالی.

أمر النیل فی هذه السنة: الماء القدیم ستة أذرع و عشرون إصبعا، مبلغ الزیادة تسعة عشر ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۶

[ما وقع من الحوادث سنة ۸۷۲]

اشارة

ذکر سلطنة الملک الظاهر أبی نصر یلبای الإینالی المؤیدی علی مصر و هو السلطان التاسع و الثلاثون من ملوک الترک و أولادهم، و الرابع عشر من الچراکسة و أولادهم.

تسلطن فی آخر نهار السبت عاشر شهر ربیع الأول من سنة اثنتین و سبعین و ثمانمائة، قبل الغروب بنحو ثلاث درج رمل، و سبب تأخیره إلی هذا الوقت أنه لما مات الملک الظاهر خشقدم بعد أذان ظهر یوم السبت المقدّم ذکره طلع الأتابک یلبای المذکور و جمیع الأمراء إلی القلعة، و قبل أن یتکلموا فی ولایة سلطان أخذوا فی تجهیز الملک الظاهر خشقدم و الصلاة علیه، فغسّلوا و أخرجوه وصلوا علیه عند باب القلّة، و نزلوا به إلی حیث دفن بمدرسته التی أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، و حضرت أنا دفنه، و لم یحضره من أعیان الأمراء إلا جماعة یسیرة حسبما تقدّم ذکره فی وفاته، و هذا کله بخلاف العادة، فإن العادة سلطنة سلطان ثم یؤخذ فی تجهیز السلطان الذی مات.

و لما أنزل نعش الملک الظاهر خشقدم من القلعة شرعوا عند ذلک فی سلطنة الأتابک یلبای، و کان قد انبرم أمره فی ضحوة نهار السبت هذا مع الأمراء و ممالیک الملک الظاهر خشقدم، و کبیرهم یوم ذاک خیربک الدّوادار الثانی، و خشکلدی البیسقی أحد مقدّمی الألوف، و لما أذعن ممالیک الظاهر الأجلاب بسلطنة یلبای لم یختلف علیه یومئذ أحد؛ لأن الشوکة کانت للأجلاب، و هم أرادوه، و الظاهریة الکبار تبع لهم، و أما المؤیّدیة فخچداشیته، فتمّ أمره.

و کیفیة سلطنته أنه لما عادوا من الصلاة علی الملک الظاهر خشقدم جلسوا عند باب

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۷

الستارة وقتا هیّنا، و إذا بالأمیر خیربک خرج من باب الحریم و معه جماعة من خچداشیته و أخذوا الأتابک یلبای و أدخلوه من باب الحریم، و مضوا به إلی القصر السلطانی، و خاطبوه بالسلطنة، فامتنع امتناعا هینا، فلم یلتفتوا إلی کلامه، و أرسلوا إلی الأمراء أحضروهم إلی القصر من خارج، فوجدوا القصر قد سقط بابه، فدخلوا من الإیوان إلی القصر، فتفاءل الناس زواله بسرعة؛ لغلق باب القصر، فدخلت الأمراء قبل أن یحضر الخلیفة و القضاة، و طال جلوسهم عنده، و قبّلت الأمراء الأرض قبل المبایعة و هم فی هرج لإحضار الخلیفة و القضاة إلی أن حضروا بعد مشقة کبیرة؛ لعسر طریق القصر، إذ المصیر إلیه من الإیوان السلطانی، و أیضا حتی لبست الأمراء قماش الموکب و تکاملوا بعد أن فرغ النهار، و قد أخذوا فی بیعته و سلطنته و لبّسوه خلعة السلطنة بالقصر، و جلس علی تخت الملک من غیر أن یرکب فرسا بأبهة الملک علی العادة، و قبلوا الأمراء الأرض بین یدیه و تمّ أمره، فکان جلوسه علی کرسی السلطنة قبل الغروب بثلاث درج حسبما تقدم ذکره.

و خلع علی الأمیر تمربغا أمیر مجلس بالأتابکیة، ثم خلع علی الخلیفة، فدقّت البشائر، و نودی بسلطنته، و تلقب بالملک الظاهر یلبای.

و الآن نشرع فی التعریف به قبل أن نأخذ فیما وقع له فی سلطنته من الحوادث فنقول:

أصله چارکسی الجنس، جلبه الأمیر إینال ضضع من بلاد الچارکس إلی الدیار المصریة فی عدة ممالیک، فاشتراه الملک المؤید شیخ قبل سنة عشرین و ثمانمائة، و أعتقه و جعله من جملة الممالیک السلطانیة، و أسکنه بالقلعة بطبقة الرفرف ثم صار خاصکیا

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۸

بعد موت أستاذه، و دام علی ذلک إلی أن صار من أعیان الخاصکیة، و أنعم الأشرف برسبای علیه بثلث قریة طحوریة، ثم نقله الملک العزیز یوسف ابن السلطان الملک الأشرف برسبای إلی نصف بنها العسل بعد أیتمش المؤیدی، ثم صار ساقیا فی أوائل دولة الملک الظاهر جقمق، فلم تطل أیامه فی السقایة، و أمّره عشرة و جعله من جملة رءوس النوب، فدام علی ذلک إلی أن تسحّب الملک العزیز یوسف ابن الملک الأشرف برسبای من قلعة الجبل و اختفی إلی أن ظفر به یلبای هذا فی بعض الأماکن، و طلع به إلی الملک الظاهر جقمق، فأنعم علیه الملک الظاهر جقمق بقریة سریاقوس زیادة علی ما بیدة، و صار أمیر طبلخاناه، و دام علی ذلک إلی أن تسلطن الملک المنصور عثمان ابن السلطان الملک الظاهر جقمق، فقبض علی یلبای هذا و علی اثنین من خچداشیته:

دولات بای الدّوادار الکبیر و یرشبای الأمیر آخور الثانی؛ و ذلک فی سنة سبع و خمسین، و حبس بثغر الإسکندریة إلی أن أطلقه الملک الأشرف إینال من سجن الإسکندریة، و أطلق خچداشیته المذکورین، و وجّهه إلی دمیاطبطّالا- ثم أحضره إلی القاهرة بعد أیام قلیلة، فاستمر بطالا مدة یسیرة.

و قتل الأمیر سونجبغا الیونسی الناصری ببلاد الصعید، و کان سونجبغا هو الذی أخذ إقطاع یلبای هذا بعد مسکه، فأعاده الملک الأشرف إینال إلیه، و صار علی عادته أولا أمیر طبلخاناه إلی أن مات الأمیر خیربک المؤیّدی الأشقر الأمیر آخور الثانی، فنقل یلبای هذا إلی الأمیر آخوریة الثانیة من بعده، فدام علی ذلک إلی أن أنعم علیه الملک الأشرف إینال بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، فدام علی ذلک إلی أن نقله الملک الظاهر خشقدم إلی حجوبیة الحجاب بالدیار المصریة، عوضا عن بیبرس خال العزیز، بحکم انتقاله إلی وظیفة رأس نوبة النّوب، بعد انتقال الأمیر قانم إلی

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۵۹

إمرة مجلس بعد انتقال قرقماس إلی إمرة سلاح؛ بحکم انتقال جرباش إلی الأتابکیة، عوضا عن الملک الظاهر خشقدم، و ذلک فی یوم الأربعاء سابع شوال.

فاستمرّ یلبای هذا علی الحجوبیة إلی أن نقله الملک الظاهر خشقدم إلی الأمیر آخوریة الکبری، بعد توجه برسبای البجاسی إلی نیابة طرابلس، بعد القبض علی الأمیر إیاس المحمدی الناصری، و ذلک فی یوم الخمیس سابع عشر المحرم سنة ست و ستین.

فدام یلبای هذا فی هذه الوظیفة إلی أن نقل إلی أتابکیة العساکر بالدیار المصریة بعد موت الأتابک قانم دفعة واحدة، بعد أن کان یجلس فی مجلس السلطان خامس رجل، و ذلک فی یوم الاثنین ثامن عشر صفر سنة إحدی و سبعین و ثمانمائة، و استمرّ علی ذلک إلی أن مرض الملک الظاهر خشقدم، و ثقل فی مرضه، و تکلّم الناس فیمن یتسلطن فیما بینهم، فرشح جماعة، فاختارت الأجلاب یلبای هذا، کونه أتابک العساکر و أیضا خچداش أستاذهم، فتسلطن، و تمّ أمره حسبما تقدّم ذکره- انتهی.

قلت: و لما استمر جلوسه بالقصر السلطانی رسم فی الحال بسفر الأمیر قرقماس أمیر سلاح بمن کان عیّن معه من الأمراء و الممالیک السلطانیة إلی الصعید، و کان له أیام مقیما بالمرکب، و کذلک جمیع من کان عیّن معه، و سافروا من یومهم أرسالا.

ثم خلع الملک الظاهر یلبای علی الأتابک تمربغا فی یوم الاثنین ثانی عشره خلعة نظر البیمارستان المنصوری.

و خلع علی خچداشه الأمیر قانی بک المحمودی المؤیدی بإمرة مجلس عوضا عن الأتابک تمربغا، و أنعم علیه بإقطاع تمربغا أیضا.

و خلع علی تمر المحمودی والی القاهرة خلعة الاستمرار، و کذلک علی القاضی علم الدین کاتب الممالیک.

و فیه ورد کتاب یشبک من مهدی کاشف الوجه القبلی یتضمن أنّه ولّی سلیمان

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۰

ابن عمر الهوارى عوضا عن ابن عمه، و أنه لا حاجة له بتجريدة، فلم يلتفت السلطان إلى مقالته فى عدم إرسال تجريدة إلى بلاد الصعيد لغرض يأتى بيانه.

ثم فى يوم الخميس خامس عشره خلع السلطان على جميع مباشرى الدولة باستمرارهم على وظائفهم.

و فيه نودى بأن نفقة المماليك تكون من أول الشهر، يعنى أول ربيع الآخر.

و فيه عمل المولد النبوى بالحوش على العادة، و قبل أن يفرغ المولد ندب السلطان الأمير برسباى قرا الظاهرى، و الأمير جكم الظاهرى، و طرباى الظاهرى البواب، أن يتجهزوا إلى الصعيد لمسك الأمير قرقماس أمير سلاح و الأمير قلمطاى رأس نوبة، و الأمير أرغون شاه، و يتوجهوا بهم إلى حبس الإسكندرية، و لم يعلم أحد ما الموجب لذلك.

و فى يوم السبت سابع عشره أعاد السلطان القاضى قطب الدين الخيضرى إلى كتابة السّرّ بدمشق، بعد عزل الشريف إبراهيم بن السيد محمد.

و فيه أيضا استقرّ الصارمى إبراهيم بن بيغوت الأعرج حاجب الحجّاب بدمشق عوضا عن شرامرد العثمانى المؤيدى.

و فيه وصل الخبر بقدوم الأمير أزبك رأس نوبة النّوب من تجريدة العقبة، بعد أن أمسك مباركا شيخ بنى عقبة، الذى قطع الطريق على إقامة الحجاج.

ثم وصل الأمير أزبك فى يوم الاثنين تاسع عشره، و خلع السلطان عليه و على رفيقه الأمير جانبك قلقسيز حاجب الحجاب، و رسم بتسمير مبارك شيخ بنى عقبة المقدّم ذكره و رفقته، و كانوا أزيد من أربعين نفرا، فسمّروا الجميع، و طيف بهم الشوارع، ثم وسّطوا فى آخر النهار عن آخرهم.

و فى يوم الخميس ثانى عشرينه ورد الخبر على الملك الظاهر يلباى بعصيان الأمير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۱

بردبك نائب الشام، و أنه قتل جميع النوّاب المجردين معه لقتال شاه سوار بن دلغادر، و كان الأمر غير ذلك، و وقع أمور حكيناها مفصلة فى تاريخنا «حوادث الدهور فى مدى الأيام و الشهور» محصولها أن بردبك المذكور كان تهاون فى قتال شاه سوار المذكور، و خذل العسكر الشامى لما كان فى قلبه من الملك الظاهر خشقدم رحمه اللّه، فكان ذلك سببا لكسر العسكر الشامى و الحلبى و غيرهم و نهبهم، و قتل فى هذه الواقعة نائب طرابلس قانى باى الحسنى المؤيدى، و نائب حماة تنم خوبى الحسينى الأشرفى، و أتابك دمشق قراجا الخازندار الظاهرى، و أتابك حلب قانصوه المحمدى الأشرفى، و غيرهم من أمراء البلاد الشامية، و غيرهم حسبما يأتى ذكرهم فى الوفيات على عادة هذا الكتاب- انتهى.

قلت: و جاء هذا الخبر و الديار المصرية غير مستقيمة الأحوال لعدم المدبر، و الطرق مخيفة، و السبل غير آمنة، و ما ذاك إلا أن الملك الظاهر يلباى لما تسلطن و تمّ أمره غطّاه المنصب، و صار كالمذهول، و لزم السّكات و عدم الكلام، و ضعف عن بتّ الأمور، و ردع الأجلاب، بل صارت الأجلاب فى أيامه كما كانت أولا و أعظم، فلم يحسن ذلك ببال أحد، و صار الأمير خيربك الدّوادار الثانى هو صاحب الحل و العقد فى مملكته، و إليه جميع أمور المملكة، و شاع ذلك فى الناس و الأقطار، و سمّته العوام: «أيش كنت أنا؟ قل له» يعنون أن السلطان لما يسأل فى شىء يقول:

«أيش كنت أنا، قل لخير بك» فبهذا و أشباهه اضطربت أحوال الديار المصرية.

هذا مع ما ورد من البلاد الحلبية من أمر شاه سوار، و قتل أكابر أمراء البلاد الشامية، و نهبه للبلاد الحلبية، و أخذه قلاع أعمالها و أن نائب الشام بردبك فى أسره، و أن يشبك البجاسى نائب حلب دخل إلى حلب على أقبح وجه، فصار الناس بهذا المقتضى كالغنم بلا راع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۲

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ربيع الأول المذكور خلع الملك الظاهر يلباى على الأمير أزبك من ططخ الظاهرى رأس نوبة النوب باستقراره فى نيابة الشام عوضا عن بردبك الظاهرى، بحكم انضمامه على شاه سوار.

و فيه استقرّ الأمير قانى بك المحمودى المؤيّدى أمير مجلس أمير سلاح عوضا عن قرقماس الأشرفى بحكم القبض عليه و حبسه بالإسكندرية، و استقرّ قانى بك المذكور مقدم العساكر لقتال شاه سوار بن دلغادر.

و عيّن السلطان فى هذا اليوم عدة أمراء تجريدة لقتال شاه سوار، فعيّن من أمراء الألوف قانى بك المقدم ذكره، و جانبك الإينالى الأشرفى المعروف بقلقسيز حاجب الحجاب، و بردبك هجين أمير جاندار، و هؤلاء من أمراء الألوف، و عيّن أيضا عدة كثيرة من أمراء الطبلخانات و العشرات يأتى ذكر أسمائهم يوم سفرهم من القاهرة، ثم عيّن صحبتهم ستمائة مملوک من المماليك السلطانية.

و فيه استقرّ الأمير إينال الأشقر الظاهرى نائب غزّة فى نيابة حماة، عوضا عن ابن المبارك، و كان الناصرى محمد بن المبارک قد استقرّ فى نيابة حماة قبل تاريخه عوضا عن الأمير تنم الحسينى الأشرفى، بحكم مرضه و عوده من تجريدة شاه سوار إلى حلب، و كان الناصرى محمد بن المبارک إلى الآن لم يخرج من الديار المصرية، فعزل عنها قبل أن يحكمها أو يتوجّه إليها، و كان إينال الأشقر قدم إلى القاهرة مع الأمير أزبک من تجريدة العقبة، ثم رشح ابن المبارک إلى نيابة غزّة، فامتنع عن ولايتها.

ثم فى يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الأول لبس إينال الأشقر خلعة السفر.

ثم فى يوم السبت ثانى شهر ربيع الآخر ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار، ففرّقت هذه النفقة على أقبح وجه، و هو أن القوى يعطى، و الغائب يقطع، و المسنّ يعطى نصف نفقة أو ربع نفقة، و منع أولاد الناس و الطواشية من الأخذ، و عاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر يلباى هذا الحادث، و كثر الدعاء عليه بسبب ذلک، و تفاءل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس، فكان كذلک.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۳

و منع السلطان أيضا أمراء الألوف و غيرهم من النفقة، و لم يعط إلا من كتب منهم إلى السّفر لا غير، فبهذا المقتضى و أمثاله نفرت القلوب من الظاهر يلباى، و عظمت الوقيعة فى حقه، و كثرت المقالة فى بخله، و عدّت مساوئه، و نسيت محاسنه- إن كان له محاسن- و صارت النفقة تفرّق فى كل يوم سبت و ثلاثاء طبقة واحدة أو أقل من طبقة؛ حتى تطول الأيام فى التفرقة.

و بالجملة فكانت أيام الملک الظاهر يلباى نكدة، قليلة الخير، كثيرة الشر، و عظم الغلاء فى أيامه، و تزايدت الأسعار، و هو مع ذلک لا يأتى بشىء، و وجوده فى الملک و عدمه سواء؛ فإنه كان سالبة كليّة، لا يعرف القراءة و لا الهجاء، و لا يحسن العلامة على المناشير و المراسيم إلا بالنّقط، مع عسر فى الكتابة، و كان الناس قد أهمّهم أمر الجلبان أيام أستاذهم الملک الظاهر خشقدم، فزادوا بسلطنة الملک الظاهر يلباى هذا همّا على همهم.

ثم فى يوم الاثنين حادى عشر ربيع الآخر استقرّ الأمير جانبک قلقسيز أمير مجلس عوضا عن قانى باى المحمودى المنتقل إلى إمرة سلاح، و استقر الأمير بردبک هجين عوضه حاجب الحجاب.

و فيه أنعم السلطان على الأمير قايتباى المحمودى الظاهرى بإقطاع الأمير أزبک نائب الشام و استقرّ عوضه أيضا رأس نوبة النّوب، و أنعم بإقطاع الأمير قايتباى على الأمير سودون القصروى نائب القلعة، و الإقطاع تقدمة ألف.

و فيه أيضا استقرّ الأمير خشكلدى البيسقى فى تقدمة الألوف عوضا عن قانى باى المحمودى المؤيّدى.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۴

ثم فى يوم الثلاثاء ثانى عشر ربيع الآخر استقر الأمير سودون البردبكى الفقيه المؤيّدى نائب قلعة الجبل بعد سودون القصروى. و فى يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر رسم السلطان أن ينتقل الأمير إينال الأشقر المقدّم ذكره من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس بعد فقد نائبها الأمير قانى باى المؤيدى الحسنى فى واقعة شاه سوار، و ذلک بسعى من إينال المذكور، و ذلک قبل أن يصل إينال المذكور

إلى حماة.

ثم فى يوم الخميس رابع عشره استقرّ الناصرى محمد بن المبارك فى نيابة حماة كما كان وليها أولا.

و فيه استقرّ مغلباى الظاهرى المحتسب شاد الشراب خاناه بعد الأمير خشكلدى البيسقى، و استقر طرباى البواب محتسب القاهرة عوضا عن مغلباى المذكور، و استقرّ سودون السيفى أحمد بن إينال أمير عشرة و أستادار الصّحبة، و سودون هذا من الأوباش الأطراف.

و فيه أنعم السلطان على جماعة من الأجلاب و غيرهم كل واحد بإمرة عشرة، و الذين أعطوا أزيد من خمسة عشر نفرا، فالذى أخذ من الأجلاب أركماس البواب، و قايت البواب، و طرباى البواب الذى ولى الحسبة، و أصباى البواب الذى كان قتل قتيلين أيام أستاذه و لم ينتطح فى ذلك عنزان، و أصطمر البواب، و جانم الدوادار، و مغلباى الساقى ابن أخت الأمير قايتباى، و الذى أخذ الإمرة منهم من الظاهرية الكبار: أزبك الساقى، و جانم قشير، و قانم أمير شكار، و جكم قرا أمير آخور الجمال، و سودون الصغير الخازندار، و قرقماس أمير آخور. و الذى أخذ من السيفية:

تمرباى التمرازى المهمندار، و برسباى خازندار يونس الدّوادار.

و فيه ورد الخبر بأن الأمير بردبك نائب الشام فارق شاه سوار، و قدم إلى مرعش طائعا ثم سار إلى منزلة قارا فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۵

ثم فى يوم السبت سادس عشره تواترت الأخبار أن الأمير بردبك جاوز مدينة غزّة، فندب السلطان الأمير تمرباى المهمندار، و الأمير جكم الظاهرى أن يخرجا إليه و يأخذاه، و يتوجها به إلى القدس الشريف بطالا.

ثم فى يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر أضاف السلطان الأمير أزبك نائب الشام، و خلع عليه كاملية بفرو سمّور بمقلب سمّور، و هى خلعة السّفر، فسافر فى بكرة يوم الاثنين ثامن عشره.

و فى يوم الاثنين هذا قرئ تقليد السلطان الملك الظاهر يلباى بالسلطنة، و خلع السلطان على الخليفة و كاتب السّرّ و القضاة، و على من له عادة بلبس الخلعة فى مثل هذا اليوم.

و أما أمر بردبك نائب الشام، فإن السلطان لما أرسل تمرباى و جكم إلى ملاقاته و أخذه إلى القدس، و سارا إلى جهته، فبينماهم فى أثناء الطريق بلغهم أنه توجه إلى جهة الديار المصرية من على البدوية، و لم يجتز بمدينة قطيا، و قيل إنه مرّ بقطيا لكنه فاتهم و أنه قد وصل إلى القاهرة، فعادا من وقتهما؛ فلما وصل بردبك إلى ظاهر القاهرة أرسل إلى خچداشه الأمير تمر والى القاهرة يعرفه بمكانه، فعرّف تمر السلطان بذلك، فرسم السلطان فى الحال للأمير أزدمر تمساح الظاهرى أن يتوجه إليه و يأخذه إلى القدس بطالا، ففعل أزدمر ذلك، و قيل فى مجىء بردبك غير هذا القول، و اللفظ مختلف و المعنى واحد.

و فى يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير جانبك الإسماعيلى المؤيّدى المعروف بكوهية أحد مقدمى الألوف أمير حاج المحمل، و استقرّ تنبك المعلّم الأشرفى ثانى رأس نوبة النوب أمير الركب الأول.

ثم استهلّ جمادى الأولى، أوله الأحد، و القالة موجودة بين الناس بركوب المماليك الأجلاب، و لم يدر أحد صحة الخبر، غير أن الأمراء المؤيدية خچداشية السلطان امتنعوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۶

فى هذه الأيام من طلوع الخدمة؛ مخافة من الأمير خيربك الدّوادار الثانى و خچداشيته الأجلاب أن يقبضوا عليهم بالقصر السلطانى، و اتفقت المؤيدية فى الباطن مع الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار، كل ذلك و الأمر خفى على الناس إلا السلطان فإنه يعلم بأمره بل هو المدبر لهم فيما يفعلونه فى الباطن حسبما يأتى ذكره من الوقعة و هى الواقعة التى خلع فيها الملك الظاهر يلباى من السلطنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۷

ذكر خلع الملك الظاهر يلباى من سلطنة مصر

و لمـا كـان عصـر يوم الأربعـاء رابع جمـادى الأولى المقـدم ذكره و طلعت أمراء الألوف إلى القلعـة ليبيتوا بالقصـر على العادة امتنعت المؤيديـة عن الطلوع بمن وافقهم مـا خلاـ الأـمير جانبك الإينالى الأشـرفى المعروف بقلقسـيز أمير مجلس، و هو كبير الأشـرفية الكبار يومئـذ، فإنه طلع إلى القلعـة و وافق الظاهريـة الكبار و الظاهريـة الصـغار الأجلاب، فلما تكامل طلوع من طلع من الأمراء فى عصـر يوم الأربعاء المـذكور امتنع الأمير يشـبك الفقيه المؤيـدى الـدّوادار الكبير و خچداشـيته، و هم: الأمير قانى بك المحمودى المؤيدى أمير سلاح، و مغلباى طاز الأبوبكرى المؤيدى، و جانبك الإسـماعيلى المؤيدى المعروف بكوهية، و هؤلاء الأربعة مقدمو ألوف، و جماعة أخر من خچداشـيتهم من أمراء الطبلخانـات و العشـرات، أجلّهم الأـمير طوخ الزّردكـاش، و هو الـذى حوّل غـالب مـا كان بزردخانات السـلطان من آلات الحرب و النّفوط و غير ذلك إلى بيت الأمير يشـبك الدّوادار، و انضم عليهم جماعة كثيرة من أمراء العشـرات من الأشـرفية الكبار و خچداشيتهم أعيان الخاصكية، و غيرهم، بل غالب المماليك الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار و جماعة كثيرة أيضا من أمراء السـيفية و أعيان خاصـكيتهم، فصاروا فى عسـكر كبير و جمع هائل إلى الغايـة، لكن صار أمرهم لا ينتـج فى القتال لعدم من يقوم بأمرهم، لأن يشـبك الـدّوادار كان الملك الظاهر يلباى قـد وعـده عنـد ما أملاه ما يفعله من شأن هـذه الوقعة أنه ينزل إليه و معه الظاهريـة الكبار، وفاته الحزم فإنه لم يحسب أنه يصير هو كالأسـير فى أيـدى الأجلاب إذا تحققوا وثوب الأمير يشـبك و قتاله، فصار يشبك بسبب ذلك كالمقيّد عن القتال لمّا وقع القتال الآتى ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۸

و كـان الملـك الظاهر يلباى لما وافق يشـبك الـدوادار على ما فعله قـد ضاقت حصـيرته، و تغلّب مع خيربك و الأجلاب، و خاف إن شرع فى القبض عليهم لا يتم له ذلك، فرمّ هذه المرمة ليأخذ الثأر بيد غيره، و أنهم إذا اسـتفحل أمرهم يسألهم الملك الظاهر يلباى ما الغرض من ركوبهم؟ فيقولون: غرضـنا نزول الأجلاب من الأطباق و إبعاد خيربك و غيره من خچداشـيته، و يكون هـذا القول عنـد ما تنغلب الأجلاب فإذا أذعنوا بالنزول من الأطباق، و خلت القلعة منهم فعل فيهم الملك الظاهر يلباى عند ذلك ما أراد.

و كان هـذا التـدبير لا بأس به لو أنه نزل إليهم فى أوائل الأمر و اجتمع بهم، أو طلعوا عنده و صاروا يدا واحدة، ففاته ذلك، و أقام هو بالقلعـة، و فهـم خير بـك و الأجلـاب أنّ ذلـك كلـه مكيـدة منـه لأخـذهم، فاحتـاطوا به، و احتـاجوا إلى الإذعـان للظاهريـة الكبـار و مطاوعتهم على أنهم يخلعون يلباى من السـلطنة، و يولون أحدا من كبار أمراء الظاهرية، فوافقتهم الظاهرية على ذلك، و مالوا إليهم، و استمالت الظاهرية أيضا الأمير جانبك قلقسيز الأشرفى أمير مجلس، فمال إليهم، و وعدهم بممالأة خچداشيته الأشرفية إليهم، و خذلان يشبك الدّوادار، فعند ذلك صار الملك الظاهر يلباى وحده أسيرا فى أيدى القلعيّين.

فلمـا أصـبحوا يوم الخميس خـامس جمـادى الأولى أعلن الأمير يشـبك الفقيه، و لبسوا آلـة الحرب، و ركـب بمن معه من المؤيديـة و الأشـرفية الكبار و الأشـرفية الصـغار، و السـيفية، و لبسوا آلة الحرب، و اجتمع عليهم خلائق من كل طائفة، و مالت زعر الديار المصرية إليهم، و بلغ من بالقلعـة أمرهم، فخافوهم خوفا شديـدا، و لبسوا هم أيضا آلة الحرب، و نزلوا بالسـلطان الملك الظاهر يلباى إلى مقعد الإسـطبل السـلطانى المطل على الرّميلة، و شـرعوا فى قتال الأمير يشبك بمن معه فى الأزقّة و الشوارع بالصليبة، و هم لا يعلمون حقيقة أمر يشبك، و لم يقع بين الأجلاب و الظاهرية الاتفاق المذكور إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۶۹

الآن، فإن الاتفاق بما ذكرناه لم يقع بين الأجلاب و الظاهرية بالقلعة إلا فى آخر يوم الخميس، و كذلك الاحتراز على السلطان لم يقع إلا فى آخر يوم الخميس.

و أمـا أول نهـار الخميس مـا كـانت القلعيّون إلاـ كالحيارى، و لما وقع القتال بين أصـحاب يشـبك و بين القلعيّين تقاعـد يشـبك عن

القتال، و لم یرکب بنفسه البتـة، بل صار یترقّب نزول السـلطان إلیه، هذا و القتال واقع بین الفریقین بشوارع الصّـلیبة من أول النهار إلی آخره، و قتل بین الفریقین جماعـة کثیرة، فلما رأی الناس تقاعـد یشـبک بنفسه عن القتال ظنوا أن ذلک عجز منه عن مقاومـة القلعیّین فنفر لذلک عنه خلائق، و وافق ذلک اتفاق الظاهریّة الکبار مع الأجلاب بالقلعة.

و أصبح یوم الجمعـة سادس جمادی الأولی و القتال عمّال بین الفریقین بشارع الصّـلیبة من أول النهار إلی آخره، فلما مالت الأشـرفیة الکبار إلی القلعیّین و فارقت یشـبک خارت طباع الأشـرفیة الصـغار و مالوا أیضا للقلعیّین، و کانت القلعیّون استمالتهم أیضا، فما أمسی اللیل إلا و یشـبک الـدّوادار بقی وحـده مع خچداشیته المؤیّدیّة لا غیر، فلما رأی أمره آل إلی ذلک قام من وقته و اختفی، و کذلک فعل غالب خچداشـیته المؤیدیة لا غیر، و أما الملک الظاهر یلبای فإنه لما نزل إلی المقعد بالإسـطبل السلطانی فی باکر یوم الخمیس و شرع القتال بین القلعیّین و بین یشـبک و أصـحابه کان حینئـذ إلی ذلک الوقت فی عز السـلطان، و لم یظهر إلی ذلک الوقت أن الذی فعله یشـبک کان صادرا عنه و بتـدبیره، فلما فهموا ذلک و أبرموا أمرهم مع الظاهریـة الکبار حسـبما ذکرناه فی أول الکلام أخذوا فی مقته و الازدراء به و التلویح له بما یکره، بل ربما صرّح له ذلک بعضهم فی الوجه.

و طال هذا الأمر و الحصـر علیه یومی الخمیس و الجمعة و لیس له فیها إلا الجلوس علی المدوّرة، و الأتابک تمربغا جالس بین یدیه و قـد رشـح للسـلطنة عوضه، و هو یعرف هـذا بالقرائن، لأن الـذی بقی یطلع إلی القلعـة من الطوائف طائعا یبوس له الأرض ثم یقبّل ید الأتابک تمربغا، هذا و الأمیر قایتبای المحمودی رأس نوبة النوب، و الأمیر جانبک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۰

قلقسیز أمیر مجلس بمن معهم من خچداشیتهم الظاهریة و الأشرفیة رکّاب علی خیولهم، لإرسال الأمداد لقتال یشبک الدوادار.

فلما جاء اللیل لیلـة السبت أدخل یلبای إلی مبیت الحرّاقـة، و بات به علی هیئـة عجیبـة، إلی أن أصـبح النهار و أخـذوه و طلعوا به إلی القصـر الأبلق، و حبسوه فی المخبأة التی تحت الخرجة، بعد أن طلعوا به ماشـیا علی هیئة الخلع من السـلطنة، و أخذوا الناس فی سـلطنة الملک الظاهر تمربغا، و زال ملک یلبای هذا کأنه لم یکن، فسبحان من لا یزول ملکه.

و کانت مدة ملکه شـهرین إلا أربعة أیام، لیس له فیها إلا مجرد الاسم فقط، و لم نعلم أحدا من أکابر ملوک الترک فی السن، خاصـة من مسّه الرق، خلع من السـلطنة فی أقل من مدة یلبای هذا، و بعده الملک المظفر بیبرس الجاشـنکیر، فإن مدة بیبرس أیضا کانت سـنة تنقص ثلاثة و عشرین یوما، ثم الملک العادل کتبغا المنصوری کانت مدة سلطنته سنتین و سبعة عشر یوما، و أما الملک الظاهر برقوق فإنه خلع بعد سلطنته بنحو سبع سنین، ثم أعید.

و مع هـذه المدة الیسیرة کانت أیّامه: أعنی الملک الظاهر یلبای، أشـرّ الأیام و أقبحها، فی أیامه زادت الأجلاب فی الفساد، و ضـیقت السـبل، و عظم قطع الطرقـات علی المسـافرین مصـرا و شامـا، و ما برحت الفتنـة فی أیّامه قائمـة فی الأریاف قبلیّها و بحریّها، و توقفت أحوال النـاس لاـ سـیما الواردین من الأقطار، و زادت الأسـعار فی جمیع المأکولات، و ضاعت الحقوق، و ظلم الناس بعضـهم بعضا، و صـار فی أیامه کل مفعول جائزا، و ما ذلک إلا لعـدم معرفته، و سوء سـیرته، و ضـعفه عن تـدبیر الأمور، و بت القضایا و تنفیـذ أحوال الدولة، و قلة عقله، فإنه کان فی القدیم لا یعرف إلا بیلبای تلی، أی یلبای المجنون، فهذه کانت شـهرته قدیما و حدیثا فی أیام شبیبته، فما بالک به و قد شاخ و کبر سنه، و ذهل عقله، و قلّ نظره و سمعه.

و قد حکی الأمیر برسبای قرا الخازندار الظاهری أنه لما أخذه من مخبأة القصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۱

الأبلق و توجّه به إلی البحرة لیحبس بهـا فاجتـاز به من طریق الحریم السـلطانی، أنه عیی فی الطریق و جلس لیستریـح، ثم سـأل الأمیر برسـبای المـذکور: «إلی أین أروح؟» فقـال له: «إلی البحرة یا مولانا السـلطان معزوزا مکرّما»، فقال: «و اللّه ما أنا سـلطان، أنا أمیر، و ما کنت أفعل بالسـلطنة، و قد کبر سنی و ذهل عقلی، و قلّ نظری و سمعی؟! بالله سلّم علی السلطان و قل له إنی لست بسلطان، و سله أن

يرسلنى إلى ثغر دمياط أو موضع آخر غير حبس، فأكون فيه إلى أن أموت و أنا مأمون العاقبة، لأنى ما عرفت أدبّر المملكة و أنا مولّى سلطانا، فكيف يقع منى ما يكرهه السلطان؟!». ثم بكى أولى و ثانية. قال برسباى: «فشرعت أزيد فى تعظيمه، و أسليه، و أعده بكل خير».

و المقصود من هذه الحكاية اعترافه بالعجز عن القيام بأمور المملكة. و بالجملة كانت سلطنته غلطة من غلطات الدهر.

و دام الملك الظاهر يلباى بالبحرة إلى ليلة الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة، فحمل إلى سجن الإسكندرية فى بحر النيل، و مسفّره الأمير قانصوه اليحياوى الظاهرى المستقر فى نيابة الإسكندرية بعد عزل كسباى المؤيّدى، و توجّه إلى دمياط بطالا- فحبس الملك الظاهر يلباى ببعض أبراج الإسكندرية إلى أن توفّى بحبسه من البرج بإسكندرية فى ليلة الاثنين مستهلّ شهر ربيع الأوّل من سنة ثلاث و سبعين و ثمانمائة، و قد جاوز السبعين من العمر.

و كان ملكا ضخما، سليم الباطن مع قلّة معرفته بأمور المملكة، بل بغالب الأمور، أمّيا لا يحسن الكتابة و لا القراءة و لا الكلام العرفىّ إلا بمشقّة، و كان فى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۲

ابتداء أمره يعرف بيلباى تلّى أى مجنون، و كان عديم التجمّل فى ملبسه و مركبه و مماليكه و سماطه، مشهورا بالبخل و الشّحّ، نالته السعادة فى ابتداء أمره إلى يوم تسلطن، تنقّل فى أوائل أمره من منزلة ستيّة إلى منزلة أخرى إلى يوم تسلطن، فلما تسلطن كان ذلك نهاية سعده، و أخذ أمره من يوم جلس على تخت الملك فى إدبار، و اعتراه الصمت و السّكات، و عجز عن تنفيذ الأمور، و ظهر عليه ذلك؛ بحيث إنه علمه منه كلّ أحد، و صارت أمور المملكة جميعها معذوقة بالأمير خيربك الدوادار، و صار هو فى السلطنة حسّا و المعنى خيربك، و كل أمر لا- يبتّه خيربك المذكور فهو موقوف لا يقضى، و علم منه ذلك كل أحد، و لهجت العوامّ عنه بقولهم «أيش كنت أنا؟ قل له»، يعنون بذلك أنه إذا قدمت له مظلمة أو قصة بأمر من الأمور يقول لهم: «قولوا لخيربك» و أشياء من هذا النمط يطول شرحها، ذكرنا غالبها فى تاريخنا «الحوادث» مفصلة، كل واقعة فى وقتها.

و بالجملة إنه كان رجلا ساكنا غير أهل للسلطنة- رحمه اللّه تعالى، و عفا عنه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۳

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبى سعيد تمربغا الظاهرى على مصر

و هو السلطان الذى تكمل به عدّة أربعين ملكا من ملوك الترك و أولادهم بالديار المصرية، و الثانى من الأروام إذا لم يكن الملك المعز أيبك التركمانى من الروم، و الملك المنصور لاچين المنصورى، فإن كانا من الأروام، فيكون الملك الظاهر تمربغا هذا الرابع منهم.

و كان وقت سلطنته باكر نهار السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة- الموافق لثامن كيهك- بعد أن اتّفق جميع أكابر الأمراء من سائر الطوائف على سلطنته، و قد جلس بصدر المقعد بالإسطبل السلطانى المعروف بالحرّاقة، و حضر الخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، و القاضى الشافعى و القاضى الحنفى، و تخلّف المالكى لتوعكه، و الحنبلى لإبطائه، و حضر غالب أرباب الدّولة و الأعيان و بايعوه بالسلطنة، فقام من وقته و دخل مبيت الحرّاقة، و لبس خلعة السلطنة- السواد الخليفتى- ثم خرج من المبيت المذكور و ركب فرس النوبة من سلم الحرّاقة بأبهة الملك، و ركب الخليفة أمامه، و مشت أكابر الأمراء بين يديه، و جميع العسكر، و حمل السنجق السلطانى على رأسه الأمير قايتباى المحمودى رأس نوبة النّوب، و لم تحمل القبّة و الطّير على رأسه؛ فإنهم لم يجدوها فى الزّردخاناه، و كانت أخذت فيما أخذ يوم الوقعة لما نقل طوخ الزّردكاش ما فى الزّردخاناه، فجعلوا السنجق عوضا عن القبّة و الطير، و سار الملك الظاهر تمربغا فى موكب السلطنة إلى أن طلع من باب سرّ القصر السلطانى، و جلس على تخت الملك، و

قبّلت الأمراء الأرض بين يديه، و خلع على

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۴

قایتبای رأس نوبة النّوب باستقراره أتابک العساکر عوضا عن نفسه، و لقّب بالملک الظاهر أبی سعید تمربغا، و هذا ثالث سلطان لقّب بالملک الظاهر واحدا بعد واحد لم یکن بینهم أحد، و لم یقع ذلک فی دولة من الدّول بسائر الأقطار.

و دقّت البشائر و نودی باسمه بشوارع القاهرة و مصر، و کان حین سلطنته الثانیة من النهار و الساعة للمشتری، و الطالع الجدی و زحل.

و تمّ أمر الملک الظاهر فی الملک، و زالت دولة الملک الظاهر یلبای کأنها لم تکن، و طلع الأعیان لتهنئته أفواجا، و سرّ الناس بسلطنته سرورا زائدا، تشارک فیه الخاص و العام قاطبة؛ لکونه أهلا للسلطنة بلا مدافعة، فإننا لا نعلم فی ملوک مصر فی الدولة الترکیة أفضل منه و لا أجمع للفنون و الفضائل؛ مع علمی بمن ولی مصر قدیما و حدیثا کما مرّ ذکره فی هذا الکتاب، من یوم افتتحها عمرو بن العاص- رضی اللّه عنه- إلی یوم تاریخه، و لو شئت لقلت: و لا من بنی أیوب؛ مع علمی محاسن السلطان صلاح الدین السعید الشهید، و ماله من الید البیضاء فی الإسلام، و المواقف العظیمة و الفتوحات الجلیلة، و الهمم العالیة- أسکنه اللّه الجنة بمنه و کرمه.

غیر أن الملک الظاهر تمربغا هذا فی نوع تحصیل الفنون و الفضائل أجمع من الکل؛ فإنه یصنع القوس بیده و کذلک النشاب، ثم یرمی بهما رمیا لا یکاد یشارکه فیه أحد شرقا و لا غربا، انتهت إلیه رئاسة الرمی فی زمانه، و له مع هذا الید الطولی فی فنّ الرمح و تعلیمه، و کذلک البرجاس، و سوق المحمل، و تعبئة العساکر، و أما فن اللجام و معرفته، و المهماز و أنواع الضرب به فلا یجاری فیهما، و یعرف فنّ الضرب بالسیف، و أما فن الدّبّوس فهو فیه أیضا أستاذ مفتن، بل تلامذته فیه أعیان الدنیا، هذا مع معرفة الفقه علی مذهب الإمام الأعظم أبی حنیفة النعمان- رضی اللّه عنه- معرفة جیدة، کثیر الاستحضار لفروع المذهب و غیرها، ثم مشارکة کبیرة فی التاریخ و الشعر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۵

و الأدب و المحاضرة الحسنة و المذاکرة الحلوة، مع عقل تام و تؤدة فی کلامه و لفظه، غیر فحّاش و لا سبّاب.

و کان فیه أولا فی مبدأ أمره بعیض شمم و تعاظم، فلما نقل إلی المناصب الجلیلة تغیّر عن ذلک کله، لا سیما لما تسلطن صار کالماء الزلال، و أظهر من الحشمة و الأدب و الاتّضاع مالا عین رأت و لا أذن سمعت، و بقی یقوم لغالب من یأتیه من أصاغر طلبة العلم ذهابا و إیابا، و یجلّ العلماء و الفقراء، و سلک مع الناس مسالک استجلب بها قلوب الخاص و العام.

و لما دام جلوسه یومه کله بالقصر السلطانی جلوسا عاما لتهنئة الناس، و هنّأه الناس علی قدر منازلهم، فصار یلقی کلّ من دخل إلیه بالبشاشة و الإکرام و حسن الردّ بلسان فصیح مع تؤدة و رئاسة و إنصاف، فتزاید سرور الناس به أضعاف مسرتهم أولا، و بالله أقسم إنی لم أر فیما رأیت أطلق وجها و لا أحسن عبارة و لا أحشم مجلسا فی ملوک مصر منه.

و لما کان عصر نهار السبت المذکور أخذ الأمیر قانی بک المحمودی المؤیّدی أمیر سلاح من اختفائه ببیت الشیخ سیف الدین الحنفی، فقیّد و حبس بعد أن نهبت العامة بیته، و أخذت أمواله من غیر إذن السلطان و لا إذن أحد من أرباب الدولة، بل بأمر الغوغاء و السواد الأعظم یوم الوقعة عند انهزام یشبک الفقیه الدّوادار و اختفائه، و کان هذا المسکین جمیع ماله من المال و السکر و القنود و الأعسال و القماش فی داره، فنهب ذلک جمیعه، و ما ذاک إلا لصدق الخبر: «بشّر مال البخیل بحادث أو وارث»، و کذلک فعلته العامة و الغوغاء فی بیت الأمیر یشبک الفقیه الدّوادار، و لکن ما أخذ من بیت قانی بک من المتاع و المال أکثر.

و فیه شفع الأمیر قایتبای المحمودی فی الأمیر مغلبای طاز المؤیّدی، فقبل السلطان شفاعته و رسم له بالتوجه إلی دمیاط بطّالا.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۶

و فیه رسم السلطان بإطلاق الملک المؤیّد أحمد ابن السلطان الملک الأشرف إینال من حبس الإسکندریة، و رسم أن یسکن فی الإسکندریة فی أی بیت شاء، و أنه یحضر صلاة الجمعة راکبا، و أرسل إلیه فرسا بقماش ذهب.

ثم رسم السلطان أيضا للملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق بفرس بقماش ذهب و خلعة عظيمة، و رسم له أن يركب و يخرج من أى باب شاء من أبواب الإسكندرية و أنه يتوجه حيث أراد من غير مانع يمنعه من ذلك، قلت: و فعل الملك الظاهر تمربغا هذا مع الملك المنصور عثمان كان من أعظم المعروف، فإنه ابن أستاذه و غرس نعمة والده.

و فيه أيضا رسم السلطان بإطلاق الأمير قرقماس أمير سلاح، و رفيقه قلمطاى، و أرغون شاه [الأشرفيين] من سجن الإسكندرية، و كتب أيضا بإحضار دولات باى النجمى و تمراز الأشرفيين من ثغر دمياط.

و كتب أيضا عدّة مراسيم إلى البلاد الشامية و الأقطار الحجازية بإطلاق من بها من المحابيس، و مجىء البطالين.

و فيه رسم السلطان بأن كل من كانت له جامكية فى بيت السلطان من المماليك الإينالية الأشرفية و قطعت قبل تاريخه، تعاد إليه من غير مشورة، فعمّ الناس السرور بهذه الأشياء من وجوه كثيرة، و تباشرت الناس بيمن سلطنته.

قلت: و قبل أن نشرع فى ذكر حوادث السلطان نذكر قبل ذلك التعريف به ثم نشرع فى ذكر حوادثه، فنقول:

أصل الملك الظاهر تمربغا هذا رومى الجنس من قبيلة أرنؤط، و جلبه بعض

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۷

التجار فى صغره إلى البلاد الشامية فى حدود سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، فاشتراه الأمير شاهين الزّردكاش نائب طرابلس كان، ثم نقل إلى ملك غيره إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق و هو يوم ذاك الأمير آخور الكبير، فربّاه الملك الظاهر و أدّبه و أعتقه و جعله من جملة مماليكه الخواص به، و دام على ذلك إلى أن تسلطن فقرّبه و أدناه، و جعله خاصكيا سلاحدارا مدة، ثم جعله خازندارا، ثم أمّره فى أواخر سنة ست و أربعين و ثمانمائة إمرة عشرة عوضا عن آقبردى الأمير آخور الأشرفى، و استمر على ذلك مدة طويلة، و هو معدود يوم ذاك من خواص الملك، إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية عوضا عن دولات باى المحمودى المؤيدى، بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف، فباشر تمربغا هذا الدوادارية الثانية بحرمة و عظمة زائدة، و نالته السعادة، و عظم فى الدولة، و شاع اسمه فى الأقطار، و بعد صيته، و قصدته أرباب الحوائج من البلاد و الأقطار، و صار أمر المملكة معذوقا به، و الدوادار الكبير بالنسبة إليه فى الحرمة و نفوذ الكلمة كآحاد الدوادارية الصغار الأجناد.

و استمرّ على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق رحمه اللّه تعالى، و تسلطن بعده ولده الملك المنصور عثمان، فصار تمربغا عند ذلك هو مدبر المملكة و صاحب عقدها و حلها، و الملك المنصور معه حسّ فى الملك و المعنى هو، لا سيما لما أمسك الملك المنصور الأمير دولات باى الدّوادار و الأمير يلباى المؤيّدى هذا الذى تسلطن، و الأمير يرشباى المؤيدى الأمير آخور الثانى، و استقر تمربغا هذا دوادارا كبيرا عوضا عن دولات باى المذكور و بقى ملك مصر و أموره معذوقا به، و الناس تحت أوامره، فلم تطل أيامه بعد ذلك، و وقعت الفتنة بين الملك المنصور عثمان و بين أتابكه الأشرف إينال، و هى الواقعة التى خلع فيها الملك المنصور عثمان و تسلطن من بعده الأشرف إينال.

و دام القتال بين الطائفتين من يوم الاثنين إلى يوم الأحد، أعنى سبعة أيام و القتال عمال بين الطائفتين، و كان القائم بحرب إينال بالقلعة هو الملك الظاهر تمربغا مع خچداشيته الظاهرية، و المعول عليه فيها، مع علمى بمن كان عند الملك المنصور غير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۸

تمربغا من أكابر الأمراء، مثل تنم من عبد الرزاق أمير سلاح، و الأمير قانى باى الچاركسى الأمير آخور الكبير، و مع هذا كله كان أمر القتال و تحصين القلعة و القيام بقتال الأتابك إينال متعلقا بالملك الظاهر تمربغا هذا، فلما تسلطن إينال و انتصر أمسك الملك الظاهر تمربغا هذا و سجنه بالإسكندرية أشهرا، ثم نقله إلى حبس الصّبيبة بالبلاد الشامية، فحبس بالصّبيبة أكثر من خمس سنين.

و كانت مدة سجنه بالإسكندرية و الصّبيبة نحو ست ستين، إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال فى أواخر سنة اثنتين و ستين، و أمره أن يتوجّه إلى دمشق ليتجهز بها، و يتوجه مع موسم الحاج الشامى إلى مكة و يقيم بها، فسار إلى مكة و جاور بها سنة ثلاث و ستين، و

کنت أنا أیضا مجاورا بمکة فی تلک السنة، فتأکدت الصحبة بینی و بینه بها، و وقعت لنا محاضرات و مجالسات، و دام هو بمکّة إلی أن تسلطن الملک الظاهر خشقدم فی سنة خمس و ستین و ثمانمائة، فقدم القاهرة، فأجلّه الملک الظاهر، و زاد فی تعظیمه و أجلسه فوق جماعة کثیرة من أمراء الألوف الأعیان، ثم أنعم علیه فی یوم الاثنین سلخ ذی الحجة من سنة خمس و ستین و ثمانمائة المذکورة بإمرة مائة و تقدمة ألف عوضا عن جانبک الأشرفی المشد بحکم القبض علیه، و خلع علیه فی الیوم المذکور باستقراره رأس نوبة النوب، عوضا عن بیبرس الأشرفی خال الملک العزیز یوسف، بحکم القبض علیه أیضا، فدام علی ذلک إلی أن أخرج الملک الظاهر خشقدم الأتابک جرباش إلی ثغر دمیاط بطالا، و استقرّ عوضه فی الأتابکیة الأمیر قانم أمیر مجلس، فنقل الملک الظاهر تمربغا إلی إمرة مجلس عوضا عن قانم المذکور، و ذلک فی شهر رمضان سنة تسع و ستین و ثمانمائة، فدام علی إمرة مجلس إلی أن مات الملک الظاهر خشقدم فی عاشر شهر ربیع الأول.

و تسلطن الملک الظاهر یلبای، فصار الملک الظاهر تمربغا هذا أتابک العساکر عوضا عن الملک الظاهر یلبای المذکور، فعند ذلک تحقق کل أحد أن الأمر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۷۹

یؤول إلیه، فکان کذلک حسبما تقدم ذکره، و لنعد الآن إلی ما وعدنا بذکره من الحوادث:

و لما کان یوم الاثنین تاسع جمادی الأولی أنعم السلطان الملک الظاهر تمربغا علی جماعة من الأمراء بعدة وظائف:

فاستقرّ الأمیر جانبک قلقسیز أمیر مجلس أمیر سلاح عوضا عن قانی بک المحمودی المؤیّدی بحکم القبض علیه.

و استقرّ الشهابی أحمد بن العینی الأمیر آخور الکبیر أمیر مجلس عوضا عن جانبک قلقسیز.

و استقرّ الأمیر بردبک هجین الظاهری حاجب الحجاب أمیر آخورا کبیرا عوضا عن ابن العینی.

و استقرّ الأمیر خیربک الظاهری الدوادار الثانی دوادارا کبیرا عوضا عن یشبک الفقیه بحکم القبض علیه و إخراجه إلی القدس الشریف بطالا.

و استقرّ الأمیر کسبای الظاهری أحد أمراء العشرات دوادارا ثانیا، عوضا عن خیربک.

و استقرّ الأمیر خشکلدی البیسقی رأس نوبة النوب، عوضا عن الأتابک قایتبای.

و استقر الأمیر قانصوه الیحیاوی الظاهری أحد أمراء العشرات و رأس نوبة فی نیابة الإسکندریة عوضا عن کسبای المؤیدی السمین بحکم عزله و توجهه إلی دمیاط بطالا، بعد أن أنعم الملک الظاهر علی قانصوه المذکور بإمرة طبلخاناه عوضا عن طوخ الزردکاش، بحکم توجهه إلی دمیاط بطالا.

و فی لیلة الثلاثاء عاشره حمل الملک الظاهر یلبای فی النیل إلی إسکندریة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۰

لیسجن بها، و مسفرّه قانصوه الیحیاوی، و قد تقدم ذکر ذلک کله فی ترجمة الظاهر یلبای.

و فی یوم الثلاء عاشره فرقت نفقة الممالیک السلطانیة، و هی تمام تفرقة یلبای التی کان أنفق غالبها و لم یتم، و لم یفرق الملک الظاهر تمربغا نفقة علی الممالیک السلطانیة لقلة الموجود بالخزانة الشریفة.

و رسم الملک الظاهر تمربغا فی هذا الیوم بإعطاء أولاد الناس النفقة، الذین هم من جملة الممالیک السلطانیة، و کان الملک الظاهر یلبای منعهم، فکثر الدعاء علیه بسبب ذلک حتی خلع، و أحوجه اللّه إلی عشر من أعشارها، فلما أمر الملک الظاهر تمربغا بالنفقة علیهم کثر الدعاء له بذلک، فلم یسلم من واسطة سوء- و کلمة الشح مطاعة- فتغیر بعد ذلک، فقرأ بعض أولاد الناس هذه الآیة الشریفة: «إنّ اللّه لاـ یغیّر ما بقوم حتّی یغیّروا ما بأنفسهم» بذل و خشوع و کسر خاطر، فلم یفلح بعدها، و لم یقع للظاهر تمربغا فی سلطنته ما یعاب علیه إلا هذه القضیة، فما شاء اللّه کان، قلت:

«وا عجباه من رجل يملك تخت ملك مصر، ثم تضعف همته عن إعطاء مثل هذا النزر اليسير الذى يعوضه الملك العارف المدبر من أى جهة شاء من الجهات الخفية عن العارى الضعيف التدبير، و تطلق عليه بعدم الإعطاء ألسنة الخاص و العام، و تكثر الشناعة و القالة فى حقه بسبب ذلك و لكن العقول تتفاوت».

و فيه أيضا قدم الأمير أزدمر تمساح إلى القاهرة بعد ما أوصل الأمير بردبك الظاهرى نائب الشام إل القدس ليقيم به بطالا.

و فى يوم الخميس ثانى عشره خلع السلطان على الأتابك قايتباى خلعة نظر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٨١

البيمارستان المنصورى، و كذلك خلع على خيربك الدوادار الكبير، و على كسباى الدوادار الثانى، كليهما خلعة الأنظار المتعلقة بوظائفهما.

و فيه أنعم السلطان على ستة نفر بتقادم ألوف بالدّيار المصريّة، فرّق عليهم من الإقطاعات الشاغرة، و أضاف إليها بلادا أخر من الذخيرة السلطانية و غيرها، و هم:

الأمير لاجين الظاهرى، و سودون الأفرم الظاهرى الخازندار، و جانبك من ططخ الظاهرى الفقيه الأمير آخور الثانى، و تمر من محمود شاه الظاهرى والى القاهرة.

و استقرّ تمر المذكور حاجب الحجاب بالدّيار المصرية دفعة واحدة عوضا عن الأمير بردبك هجين المنتقل إلى الأمير آخورية الكبرى، و هؤلاء الأربعة مماليك الملك الظاهر جقمق.

ثم أنعم على الأمير تنبك المعلم الأشرفى رأس نوبة ثان أيضا بتقدمة ألف، ثم مغلباى الظاهرى شاد الشراب خاناه.

فهؤلاء الستة المقدم ذكرهم، منهم تنبك مملوك الأشرف برسباى، و مغلباى مملوك الظاهر خشقدم.

ثم استقرّ برقوق الناصرى الظاهرى شاد الشراب خاناه عوضا عن مغلباى.

و استقرّ تغرى بردى طر الظاهرى نائب قلعة الجبل بعد عزل سودون البردبكى الفقيه المؤيدى و نفيه.

و استقر آصباى الظاهرى- أحد أمراء الأجلاب- الذى كان قتل قتيلين أيام أستاذه الملك الظاهر خشقدم، و لم ينتطح فى ذلك شاتان- والى القاهرة عوضا عن تمر الظاهرى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٨٢

و فى يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى المقدم ذكره استقر الأمير تنبك المعلّم أحد المقدمين أمير حاج المحمل، عوضا عن جانبك كوهيّة، و كان تنبك هذا قد ولى قبل تاريخه إمرة الركب الأول، فلما صار أحد مقدّمى الألوف استقرّ أمير الحاج، و ولى بعده بمدّة تنبك الأشقر الأشرفى أمير الركب الأوّل.

و فيه كان تمام نفقة المماليك السلطانية بعد أن فرقت على أقبح وجه و أظهر عجز، لأنهم لم ينفقوا على أحد من الأمراء إلا من ندب إلى السفر، و لا على أولاد الناس، و لا على الخدّام الطواشية، و لا على أحد من المتعممين، و مع هذا كله فرقت النفقة فى مدة طويلة كإعطاء المديون المماطل لغريمه، و لما فرقت النفقة خلع السلطان على القاضى علم الدين كاتب المماليك، و على ولده بالتحدث عن خوند زوجة السلطان فى تعلقاتهما.

و فيه استقرّ الأمير جكم الظاهرى أحد الأمراء الأجلاب حاجبا ثانيا عوضا عن الأمير قانى بك السيفى يشبك بن أزدمر بحكم استعفائه عن الإمرة و الوظيفة معا.

و فى يوم الاثنين سادس عشره استقرّ الأمير دولات باى حمام الأشرفى أحد أمراء العشرات رأس نوبة ثانيا عوضا عن تنبك المعلّم على إمرة عشرة كما كان أولا.

و فيه استقرّ الأمير برسباى قرا الظاهرى أحد أمراء العشرات و رأس نوبة خازندارا عوضا عن سودون الأفرم المنتقل إلى تقدمة ألف.

و استقرّ فارس السيفى دولات باى أحد أمراء العشرات زردكاشا عوضا عن طوخ الأبوبكرى المؤيدى على إمرة عشرة.

و فى آخر هذا النهار وصل الأمير قرقماس أمير سلاح و رفيقاه قلمطاى و أرغون شاه من سجن الإسكندرية، و باتوا بالميدان الناصرى، و طلعوا من الغد إلى القلعة، فقام السلطان إلى قرقماس المذكور و اعتنقه و أجلسه فوق أمير سلاح على ميسرته ثم خلع عليه كاملية بمقلب سمّور، و نزل هو و رفيقاه إلى دورهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۳

و فيه فرّق الملك الظاهر تمربغا نحو سبعين مثالا، أعنى سبعين إقطاعا على جماعة من المماليك السلطانية، الكثير و القليل.

و فى يوم الأربعاء ثامن عشره نفى السلطان خمسة أمراء من أمراء المؤيّدية إلى البلاد الشامية، و أخرج إقطاع بردبك الشمسى أحد أمراء العشرات و أبقى بالقاهرة بطالا- و الذين أخرجوهم: سودون البردبكى الفقيه نائب القلعة، و جقمق، و جانم كسا، و قانى باى ميق، و جانبك البوّاب، و معهم جندى من المؤيدية غير أمير يسمى خشكلدى قرا الحسنى، و ما على خشكلدى المذكور فى نفيه أضر من كثرة متحصل إقطاعه لا غير، و شفع فى جانبك الزينى و تنم الفقيه و طوغان ميق [العمرى] و دولات باى الأبوبكرى فهؤلاء الذين بقوا بمصر من أمراء المؤيدية، ثم بعيض أجناد لم يلتفت إليهم، و هم نحو من عشرين نفرا أو أقل.

و فى يوم الخميس تاسع عشره أنعم السلطان الملك الظاهر تمربغا على نحو عشرين نفرا بإمريات عشرة: من الأشرفية الكبار، و من الظاهرية الكبار، و من الأشرفية الصغار، و من الظاهرية الصغار الأجلاب ثم على بعض سيفية.

و فيه وصل دولات باى النجمى و تمراز [الساقى الأشرفيان] من ثغر دمياط، و طلعا إلى السلطان فى يوم السبت.

و فى يوم السبت حادى عشرينه أشيع بالقاهرة بإثارة فتنة و ركوب الأمراء على السلطان، و لم يعين أحد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۴

و فيه أشيع بموت جهان شاه بن قرايوسف ملك الشرق و العراقين.

و فى يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الأولى المذكور استقرّ الأمير أرغون شاه الأشرفى فى نيابة غزّة عوضا عن دمرداش العثمانى قبل أن يصل دمرداش المذكور إليها أو يحكمها.

ثم استهل جمادى الآخرة- أوله الاثنين، و يوافقه أول طوبة.

فى يوم الثلاثاء ثانيه نودى من قبل السلطان بأن السلطان ينزل إلى الإسطبل السلطانى فى يومى السبت و الثلاثاء للحكم بين الناس و إزالة المظالم.

و فى يوم الخميس رابعه استقر الأمير خيربك الدوادار ناظر خانقاه سرياقوس و ناظر خانقاه سعيد السعداء و ناظر قبّة الصالح، و ذلك عوضا عن الشهابى أحمد بن العينى أمير مجلس لأمر قصده السلطان فى الوقوع بينهما.

و فيه وصل رأس جهان شاه بن قرايوسف ملك العراقين و الشرق على ما زعم حسن بك بن على بك بن قرايلك متملك ديار بكر، و علّقت الرأس على باب الملك الأفضل بن شاهنشاه المدعو الآن بباب زويلة أيّاما، و فى قتل حسن بك لجهان شاه المذكور روايات كثيرة مختلفة يناقض بعضها بعضا.

و فى ليلة السبت سادسه سافر الأمير قرقماس أمير سلاح كان، إلى ثغر دمياط بطّالا برغبته لذلك.

و فى يوم الاثنين ثامنه خلع الظاهر تمربغا على الأمير أزدمر تمساح بتوجهه إلى القدس الشريف و على يده تقليد الأمير بردبك و تشريفه و عوده لنيابة حلب، عوضا عن يشبك البجاسى بحكم عزله و حبسه بقلعة دمشق.

و فى يوم الخميس حادى عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر الطويل الإبراهيمى القادم قبل تاريخه من دمشق بتوجهه إلى حلب، و على يده مرسوم شريف بتوجه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۵

الأمیر یشبک البجاسی نائب حلب إلی القدس بطالا، ثم آل أمره إلی حبس دمشق، و أزدمر هذا خلاف أزدمر تمساح المقدّم ذکره.

و فی یوم السبت ثالث عشره وصل الأمیر سودون الشمسی البرقی أحد أمراء الألوف بدمشق إلی خانقاه سریاقوس، فمنعه السلطان من الدخول إلی الدیار المصریة، و أرسل إلیه بفرس بسرج ذهب و کنبوش زرکش و کاملیة بمقلب سمّور، و طیّب خاطره.

و فی یوم السبت العشرین من جمادی الآخرة ضرب السلطان القاضی تقی الدین بن الطیوری الحلبی الحنفی المعروف بخروف بالإسطبل السلطانی فی الملأ ضربا مبرحا؛ لسوء سیرته و قبح سریرته، و أرسله فی الجنزیر إلی بیت القاضی المالکی لیدّعی علیه بأمور، فاستمر فی الجنزیر إلی یوم الأحد ثامن عشرینه، فأحضروه إلی بیت القاضی کاتب السّرّ الشریف، فادعی علیه بأمر ذکرناه فی «الحوادث»، فحکم القاضی بدر الدین محمد ابن القطّان الشافعی فیه، و ضربه ثلاثین عصاة، و کشف رأسه، و أشهره و هو مکشوف الرأس مقطع الأکمام إلی الحبس، ثم نفی بعد ذلک إلی جهة البلاد الشامیة.

و فی هذه الأیام قویت الإشاعة بأن الأمیر خیربک یرید القبض علی السلطان و علی الأتابک قایتبای المحمودی إذا طلع إلی القلعة فی لیالی الموکب، و أنه قد اتفق مع خچداشیته الأجلاب علی ذلک، الذین هم من جنسه جنس أبزة، و أن خچداشیته الچراکسة تخالفه و تمیل إلی الأمیر کسبای الدّوادار الثانی، و کسبای المذکور هو صهر الملک الظاهر تمربغا أخو زوجة السلطان، و أما الأتابک قایتبای فإنه أخذ حذره من هذه الإشاعة، و احترز علی نفسه، و امتنع فی الغالب من الطلوع إلی القلعة فی لیالی الموکب و صلاة الجمعة مع السلطان، و صار یعتذر عن طلوع القلعة بأمور مقبولة و غیر مقبولة، لکن کان یطلع أیام الموکب فی باکر النهار بقماش الموکب و ینزل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۶

فی الحال، و کانت أعذاره عن الطلوع إلی القلعة بأنه تارة یتوجه إلی الربیع و تارة بغیر ذلک.

و السلطان یسمع هذه الإشاعة و یعلم من الأتابک قایتبای ما یفعله و لا ینکر علیه عدم طلوعه، و لا یجبره علی الطلوع، بل یتخوّف هو أیضا علی نفسه، و یأخذ فی إصلاح أمره بما هو أخف، فلا یسلم ممن یسکّن روعه و ینفی عن خیربک المذکور هذه الإشاعة ممن له غرض فی الباطن مع خیربک، ثم یقوّی جأش السلطان الأمیر کسبای الدوادار مع کثرة خچداشیته، فإنه مخالف لخچداشه خیربک الدوادار، و یمیل إلی صهره الملک الظاهر تمربغا، و استمر هذا الحال جمادی الآخرة کلها، إلی أن استهل شهر رجب- أوله یوم الأربعاء.

فیه سأل الأتابک قایتبای السلطان أن یتوجّه إلی ناحیة مربط جماله علی الربیع ببعض قری القلیوبیة من أعمال مصر، فأذن له السلطان فی ذلک، فسافر الأتابک إلی تلک الجهة، و غاب بها إلی یوم الأحد خامس رجب، فحضر إلی القاهرة فی آخر النهار المذکور و لم یطلع تلک اللیلة إلی القلعة کعادة طلوعه قبل تاریخه فی لیالی الموکب، و امتنع أیضا من الطلوع فی تلک اللیلة جماعة أخر من مقدمی الألوف، و لم یطلع إلا الأمیر جانبک قلقسیز أمیر سلاح، و الشهابی أحمد بن العینی أمیر مجلس، و سودون القصروی، و تنبک المعلّم الأشرفی، و الأمیر تمر حاجب الحجاب، و خشکلدی البیسقی رأس نوبة النّوب، و هو من أعظم أصحاب خیربک، و کذلک الأمیر مغلبای الظاهری.

فهؤلاء الستة الذین طلعوا إلی القلعة فی تلک اللیلة من مقدمی الألوف، و أذّن المغرب و هم بالقلعة، و صلّوا مع السلطان الملک الظاهر تمربغا صلاة المغرب، ثم دخل الملک الظاهر إلی الخرجة المطلّة علی الرمیلة علی العادة، و جلس بها.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۷

ذکر الوقعة التی خلع فیها السلطان الملک الظاهر أبو سعید تمربغا من الملک

و لما دخل الملک الظاهر تمربغا إلی الخرجة المقدم ذکرها و جلس بها سمع بالقصر بعض هرج بخارج القصر، فسأل عن الخبر، فقیل

له ما معناه: الأجلاب بينهم كلام، فراب السلطان ذلک، فطلب خيربک الدّوادار، فدخل عليه، فأخذ السلطان يتكلم معه و هو يتبرّم من وجع رجليه على ما زعم، و لم يطل جلوسه عند السلطان، و خرج إلى خارج القصر، فعظم الهرج بالقصر، فأزعج السلطان ذلک، فقام و خرج إلى القصر، فلم يجلس به إلا يسيرا و أشار عليه بعض أصحابه بالدخول إلى الخرجة، فعاد إليها، و طلب الأمير خشكلدى البيسقى رأس نوبة النوب و سأله عن أمر هؤلاء، فذكر أنه لا يعرف ما هم فيه.

و قام السلطان و صلى العشاء داخل الخرجة، و هذا بخلاف العادة، و صلى خشكلدى معه، ثم خرج و قد عظم الهرج، و ضرب أصحاب خيربک الأمير طربای المحتسب أحد أصحاب كسبای الدّوادار ضربا مبرّحا أشفى منه على الهلاک، و نالوا من كسبای أيضا، و ضربوه ضربا ليس بذاک، كل ذلک لدفع كسبای و طربای المكروه عن السلطان.

و كان من الاتفاق الغريب أن الچراكسة أصحاب كسبای لم يطلع منهم فی تلک الليلة إلا أناس قليلة، و طلع من أصحاب خيربک جنس أبزة خلائق باتفاق من خيربک، فلما وقع ذلک تحقّق الملک الظاهر تمربغا وقوع شیء، و لم يسعه إلا السكات.

و كان عند السلطان جماعة من خچداشيته الأمراء، و السلطان و من عنده كالمأسورين فی يد الأجلاب، ثم تفرقت الأجلاب إلى الأطباق بقلعة الجبل، و لبسوا آلة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۸

الحرب و عادوا إلى القصر بقوّة زائدة و أمر كبير، و توجه بعضهم لإحضار الخليفة، و توجه بعضهم انهب الحريم السلطانی بداخل الدور، ثم أغلق باب الخرجة من قبل السلطان كأنه مخافة من هجوم بعض الأجلاب عليه.

ثم وقعت أمور سمعناها بالزائد و الناقص على قدر الروايات؛ فإننا لم نحضر شيئا من ذلک، و آل الأمر إلى الدخول على السلطان و إخراج خچداشيته من عنده، ثم أرادوا إخراج من بقی عنده من السقاة، فمنعهم السلطان من ذلک قليلا، ثم سكت، فأخرجوهم، و بقی السلطان فی جماعة يسيرة من مماليكه و غيرهم.

ثم بعد ساعة دخل على السلطان ثلاثة أنفار من الجلبان ملبسة و هم ملثمون، و أرادوا منه أن يقوم و ينزل إلى المخبأة التی تحت الخرجة، فامتنع قليلا، ثم قام معهم مخافة من الإخراق، و أخذوه و أنزلوه إلى المخبأة من غير إخراق و لا بهدلة، و أنزلوا فرشا و مقعدا، و نزل معه بعض مماليكه و بعض الأجلاب أيضا، و أغلقوا عليه الطابقة، و أخذوا النّمچة و الدرقة و الفوطة و دفعوهم إلى خيربک، بعد أن أطلقوا عليه اسم سلطان، و باس له الأرض جماعة من أعيان الأمراء، و قيل إنهم لقبوه بالملک العادل، كل ذلک بلا مبايعة و لا إجماع الكلمة على سلطنته، بل بفعل هذه الأجلاب الأوباش، غير أن خيربک لما أخذ النّمچة و الدّرقة حدثته نفسه بالسلطنة، و قام و أبعد فی تدبير أمره و تحصين القلعة.

و أما الملک الظاهر تمربغا لم يتمّ جلوسه بالمخبأة حتى أنزلوا عنده جماعة كبيرة من خچداشيته الأمراء واحدا بعد واحد حتى تكمل عدتهم ثمانية أو تسعة، و هم: الأمير تمر حاجب الحجاب، و برقوق المشد، و برسبای قرا الخازندار، و أزبک ناظر الخاص، و تغرى بردى طرنائب القلعة، و قانى بای الساقى، و قانى بک، و قجماس، و اثنان آخران و قعد عندهم جماعة من الأجلاب كما تقدم ذكره.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۸۹

و أما الأمير بردبک هجين الأمير آخور الكبير فإنه بلغه الخبر فی أوائل الأمر فلم يكذب ما سمع، و نزل من الإسطبل السلطانی من وقته، و أرسل أعلم الأتابک قايتبای بما وقع، فركب الأتابک فی الحال هو و أصحابه و خچداشيته و قد انضم عليه الأشرفية الكبار و الأشرفية الصغار بعد أمور وقعت، فحضر الأتابک قايتبای إلى بيت قوصون الذی سدّ بابه من تجاه القلعة، فلم يكد جلوس السلطان الملک الظاهر تمربغا بالمخبأة إلا و قد انتشر أصحاب قايتبای بالرملة، و رآهم السلطان الملک الظاهر تمربغا من شباک المخبأة المطل على الرملة فی جمع كثير، و ذلک قبل نصف الليل، لأن إنزال الملک الظاهر تمربغا إلى المخبأة كان بالتقريب قبل ثلث الليل الأخير، و الخبر الذی ورد على الأمير بردبک هجين كان بعد عشاء الآخرة.

و أما خيربك الدوادار الكبير فإنه لما أخذ النّمجة و الدّرقة شرع فى إصلاح أمره ليتم له ما أراد من ملك مصر، و نزل إلى الإسطبل السلطانى فى جمع كبير من خچداشيته الأجلاب، و وقف بداخل باب السلسلة يترقّب من يجيء إليه من الرملة.

و الذى بلغنى من غير ثقة أن جماعة من الطوائف المشهورة كانوا وافقوه على أن يفعل ما فعل، و أنهم معه على السراء و الضراء و فى كل ما يرومه، فلما طال وقوف خيربك و لم يطلع إليه أحد، علم أنهم خذلوه و غرروا به، فندم حيث لا ينفعه الندم و لم يسعه إلا إتمام ما فعل، فعاد خيربك إلى القلعة بعد أن أمر الأجلاب أن يصعدوا على سور القلعة و يقاتلوا من بالرّملة من أصحاب قايتباى، ففعلوا ذلك، و قاتلوا قتالا جرح فيه جماعة من الفريقين، و قتل جماعة، و طلع خيربك إلى القصر و قد علم أنّ أمره تلاشى و أدبرت سعادته، و بينما هو فى ذلك فرّ عنه غالب أصحابه الكبار مثل خشكلدى و مغلباى و غيرهما، فعند ذلك لم يجد خيربك بدّا من الإفراج عن الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۰

الظاهر تمربغا و من معه من خچداشيته و مماليكه، فأخرجوهم و نزل خيربك على رجل الملك الظاهر تمربغا يقبلها، و يبكى و يسأله العفو عنه، و قد أبدى من التضرّع أنواعا كثيرة، فقبل السلطان عذره، هذا و قد جلس السلطان الملك الظاهر تمربغا موضع جلوس السلطان على عادته، و أخذ النّمجة و الدّرقة و قد انهزم غالب الأجلاب، و نزلوا من القلعة لا يلوى أحد منهم على أحد، كل ذلك و الأتابك قايتباى بمن معه من الأمراء بالرّملة.

فلما تمّ جلوس الملك الظاهر تمربغا بالقصر على عادته أمر من كان عنده من أكابر الأمراء بالنزول إلى الأتابك قايتباى لمساعدته، و الذين أرسلهم هم: الأمير جانبك قلقسيز أمير سلاح، و سودون القصروى، و تنبك المعلّم، فهؤلاء الثلاثة و أمثالهم كانوا عند خيربك فى وقت مسك الملك الظاهر تمربغا و فى قبضته، و قد أظهروا له الطاعة إما غصبا على ما زعموا، و إما رضى على ما زعم بعضهم.

ثم أرسل [السلطان] بمن كان عنده و محبوسا معه مثل الأمير تمر حاجب الحجاب و برقوق شاد الشراب خاناه و غيرهما، و كان إنزال هؤلاء الأمراء إلى الأتابك قايتباى هفوة من الملك الظاهر تمربغا، فإنه لو لم يكن نزولهم ما كان ينبرم للأتابك قايتباى فى غيبتهم أمر.

كل ذلك و الخلائق تطلع إلى الملك الظاهر تمربغا أفواجا أفواجا تهنئه بالنصر و بعوده إلى ملكه، و العساكر وقوف بين يديه.

و طلع السيفى تنم الأجرود الظاهرى الخاصكى إلى السلطان، فلما رأى خيربك الدّوادار واقفا بين يدى السلطان أراد قتله بالسّيف، فمنعه الملك الظاهر من ذلك، ثم أمر بحبسه داخل خزانة الخرجة فحبس بها.

و لما تم أمر الأتابك قايتباى من قتال الأجلاب و انتصر طلع بمن معه إلى باب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۱

السّلسلة، و جلس بمقعد الإسطبل، و كان لهج بعض الأمراء عند طلوع قايتباى إلى الإسطبل بأن قال: «اللّه ينصر الملك الناصر قايتباى»، و سمع بعض الناس ذلك.

و لما جلس الأتابك قايتباى بمقعد الحرّاقة بتلك العظمة الزائدة كلمه بعض الأمراء فى السّلطنة، و حسّنوا له ذلك، فأخذ يمتنع امتناعا ليس بذاك، إلى أن قام بعضهم و قبّل الأرض له، و فعل غيره كذلك، فامتنع بعد ذلك أيضا، فقالوا:

«ما بقى يفيد الامتناع، و قد قبّلنا لك الأرض فإما تذعن و إما نسلطن غيرك».

فأجاب عند ذلك.

فقال بعض الظّرفاء: «جلوسه بالمقعد و الملك الظاهر تمربغا بالقصر كان ذلك إجابة منه، و إلا لو لم يكن له غرض فى ذلك كان طلع إلى القصر عند السلطان دفعة واحدة».

فلما تمّ أمر الأتابك قايتباى فى السلطنة طلع الأمير يشبك من مهدى الظاهرى الكاشف بالوجه القبلى إلى الملك الظاهر تمربغا، و

عرّفه بسلطنة قايتباى، و أخذه و دخل به إلى خزانة الخرجة الصغيرة، و قد حبس بها خيربک قبل ذلک کما تقدم.

و لما استقرّ الملک الظاهر تمربغا بالخزانة المذکورة کلّمه يشبک من مهدى فى أنه يتوجه إلى البحرة أو هو أراد، فقبل أن يقوم من مجلسه تناول يشبک من يده النّمچة و الدّرقة و دفعهما إلى تمراز الأشرفى، فأخذهما تمراز و توجّه إلى الأتابک قايتباى، و قام الملک الظاهر تمربغا و توجّه فى الحال إلى البحرة مکرما مبجلا، و بين يديه يشبک من مهدى المذکور و غيره، و سار إلى البحرة من داخل الحريم السلطانى، و جلس بالبحرة.

و تمّ أمر قايتباى فى السلطنة حسبما يأتى ذکره إن شاء اللّه تعالى.

و استمرّ جلوس الملک الظاهر تمربغا بالبحرة و أصحابه و حواشيه تتردّد إليه من غير مانع يمنعهم من ذلک، و الملک الأشرف قايتباى يظهر تعظيمه و إکرامه بکل ما تصل قدرته إليه.

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۲

فلما کان ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب المذکور رسم السلطان الملک الأشرف بسفره إلى ثغر دمياط برغبة الملک الظاهر تمربغا فى ذلک، فلما کان بين العشاءين من ليلة الأربعاء خرج الملک الظاهر تمربغا من قاعة البحرة و فى خدمته الخدّام و غيرهم، و سار من الحوش السلطانى إلى داخل الحريم، و عرف الملک الأشرف قايتباى وقت خروجه من البحرة، فقام من خرجة القصر مسرعا فى مشيه إلى أن وافى الملک الظاهر تمربغا بدهليز الدّور السلطانية عند الشيخ البردينى، فبادره السلطان الملک الأشرف قايتباى بالسّلام، فاعتنقه و أهوى إلى يده ليقبلها، فمنعه الملک الظاهر تمربغا من ذلک، ثم أخذ الأشرف فى الاعتذار له مما وقع منه، و الملک الظاهر يقبل منه عذره، و يظهر له الفرح التام بسلطنته، لأنه خچداشه، و آمن على نفسه فى دولته، هذا و الملک الأشرف مستمرّ على إکرامه و تعظيمه إلى غاية ما يکون، ثم تکلّم معه سرّا فى خلوة؛ لأن السلطان کان حضر معه الأتابک جانبک قلقسيز، و يشبک من مهدى، و تمر حاجب الحجاب، و جماعة أخر من خواصّ الملکين و خچداشيتهما، و طال الوقوف بينهما ساعة جيدة، ثم تعانقا و تباکيا، و افترقا على أحسن وجه و أجمل حال.

ثم نزل الملک الظاهر تمربغا و رکب فرسا کعادته من خيله الجياد بعد أن ودعه أيضا الأمراء الذين کانوا جاءوا مع الملک الأشرف، و لما قبّل الأمير يشبک من مهدى يد الملک الظاهر تمربغا دفع له ألفى دينار، و قنطارى سکر مکرر، و غير ذلک.

و سار الملک الظاهر تمربغا من القلعة إلى ساحل النيل و هو فى غاية الحشمة فى مسيره من غير أوجاقى يرکب خلفه بالسکين کما هى عادة الأمراء و لا غير ذلک، و الذين ساروا معه غالبهم کالمودعين له، فلما وصل إلى المرکب نزل إليها بعد أن ودعه من کان وصل معه إلى البحر من أعيان خچداشيته الأمراء، و سافر من وقته من غير

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۳

أن يتوجه معه مسفّر من الأمراء و لا غيرهم، بل سار هو بنفسه کما يسافر الشخص إلى جهة تعلقه، و هذا بعد أن رسم له الملک الأشرف بالرکوب بثغر دمياط إلى حيث أراد من سائر الجهات برّا و بحرا، و أشياء کثيرة من هذه المقولة حتى سيّر معه السلطان فرسا فى المواکب.

و سافر الملک الظاهر تمربغا حتى وصل إلى ثغر دمياط و نزلها، و سکن بأحسن دورها و معه حشمه و خدمه و بعض حرمه، و دام بالثغر إلى...

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۴

ذکر سلطنة الملک الأشرف قايتباى المحمودى على مصر

و هو السلطان الحادى و الأربعون من ملوک الترک و أولادهم بالديار المصرية، و الخامس عشر من الجراکسة و أولادهم، و أمر

سلطنته و کیفیتها:

أنه لما خلع الملک الظاهر تمربغا و تمّ أمر قایتبای هذا بالإسطبل السلطانی جلس بمبیت الحرّاقة من الإسطبل المذکور، و حضر الخلیفة و القضاة، و بایعوا الأتابک قایتبای بالسلطنة و لبس خلعة السلطنة- السواد الخلیفتی- من مبیت الحرّاقة، و رکب فرس النوبة بقماش ذهب بأبهة الملک، و حمل الأمیر جانبک الإینالی الأشرفی المعروف بقلقسیز أمیر سلاح السنجق علی رأسه، و ذلک لفقد القبّة و الطیر من الزردخاناه السلطانیة فی واقعة الملک الظاهر یلبای، و سار و جمیع العسکر بین یدیه إلی أن طلع من باب سرّ القصر، و دخل إلی القصر الکبیر، و جلس علی تخت الملک، و قبّلت الأمراء الأرض بین یدیه علی العادة، و تمّ أمره، و نودی فی الحال بسلطنته بشوارع القاهرة، و تلقّب بالملک الأشرف، و دقّت البشائر، و خلع علی الخلیفة علی العادة، و علی جانبک قلقسیز أمیر سلاح باستقراره أتابک العساکر عوضا عن نفسه.

و کانت العادة أن الأمیر الکبیر یلبس الیوم خلعة حمل القبة و الطیر علی رأس السلطان، ثم بعد ذلک یلبس خلعة الأتابکیة فیما بعد، فالآن اقتصروا علی خلعة واحدة، و وفّر غیرها، ثم دخلت الناس لتهنئته بالسلطنة أرسالا إلی أن انتهی ذلک.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۵

و کان وقت بیعته بالسلطنة قبل أذان الظّهر من یوم الاثنین سادس رجب من سنة اثنتین و سبعین و ثمانمائة بثمانی عشرة درجة، و الساعة للشمس، و الطالع الثور و الزهرة، و هو أیضا یوم سادس أمشیر لأن الشهر العربی و القبطی توافقا فی هذا الشهر و الشهر الخارج أیضا.

و فی هذه السنة حکم فیها أربعة سلاطین، و قبل أن نشرع فی ذکر حوادثه و أموره نشرع فی التعریف به فنقول:

أصل الملک الأشرف قایتبای هذا أنه چارکسی الجنس، جلب من بلاده إلی الدیار المصریة فی حدود سنة تسع و ثلاثین و ثمانمائة، فاشتراه الملک الأشرف برسبای، و لم یجر علیه عتقا، و جعله بطبقة الطّازیة من أطباق قلعة الجبل إلی أن ملکه الملک الظاهر جقمق، و أعتقه و جعله خاصکیا، ثم دوادارا صغیرا، ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملک المنصور عثمان، ثم تراجع أمره عند الملک الأشرف إینال، و صار دوادارا صغیرا کما کان أولا، ثم أمّره إمرة عشرة، فدام علی ذلک إلی أن أنعم علیه الملک الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناه، و جعله شاد الشراب خاناه بعد جانبک الأشرفی المشد، فدام فی المشدیة أیاما کثیرة، و توجه إلی تقلید نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم علیه بإمرة مائة و تقدمة ألف بالدیار المصریة، فاستمر علی ذلک إلی أن جعله الملک الظاهر یلبای رأس نوبة النوب بعد خروج الأمیر أزبک الظاهری إلی نیابة الشام، و أنعم علیه بإقطاعه أیضا، فلم تطل أیام قایتبای هذا فیما ذکرناه، و نقله الملک الظاهر تمربغا إلی الأتابکیة عوضا عن نفسه لما تسلطن، فلم تطل أیّامه أیضا فی الأتابکیّة، و تسلطن حسبما ذکرناه.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۶

و لما استقر جلوسه بالقصر، و خلع علیه خلعة السلطنة أمر بحبس الأمیر خیربک الدوادار بالرکبخاناه، و کذلک الأمیر أحمد العینی أمیر مجلس، و اختفی الأمیر خشکلدی البیسقی رأس نوبة النّوب، ثم ظهر فرسم بنفیه.

تم الجزء السادس عشر، و به ینتهی کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۳۹۷

فهرس

اشارة

الجزء السادس عشر من کتاب النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ٣٩٩

فهرس الملوك و السلاطين الذين تولوا حكم مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴٠٠

فهرس الأعلام

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۵

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۰۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴١۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۱۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۲۰

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴٢٣

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۲۴

۲۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۳۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج١٦؛ ص٤٣٦

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴۲

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴۳

الأعلام التی ترجم لها المؤلف فی الوفیات

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۴۴

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴۵۴

فهرس الأمم و القبائل و البطون و العشائر و الأرهاط و الطوائف و الجماعات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۵۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴۶٠

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۳

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۴

فهرس البلاد و الأماكن و الأنهار و الجبال و غير ذلک

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۵

:۲۴۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۶۸

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۷

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۷۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۲

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۷

فهرس الألفاظ الاصطلاحية و أسماء الوظائف و الرتب و الألقاب التى كانت مستعملة فى عصر المؤلف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۸۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۹۱

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴٩٢

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۴٩۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۴۹۹

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٠۶

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٠٩

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج١۶؛ ص۵٠٩

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۳

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵١۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۶

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۱۹

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۱

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۴

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۵

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۶

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة؛ ج۱۶؛ ص۵۲۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۷

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۲۸

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٢٩

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج١۶، ص: ۵٣٠

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۱

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۵

فهرس وفاء النیل من سنة ۸۵۵- ۸۷۱ ه

وفاء النيل فی سنة ۸۶۶ ه/ ۳۱۷/ ۱۵

وفاء النيل فی سنة ۸۶۷ ه/ ۳۲۵/ ۶

وفاء النيل فی سنة ۸۶۸ ه/ ۳۳۷/ ۳

وفاء النيل فی سنة ۸۶۹ ه/ ۳۴۲/ ۳

وفاء النيل فی سنة ۸۷۰ ه/ ۳۵۰/ ۸

وفاء النيل فی سنة ۸۷۱ ه/ ۳۵۵/ ۴

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۶

فهرس أسماء الكتب الواردة بالمتن و الهوامش

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۳۸

فهرس الموضوعات

النجوم الزاهرة فى ملوک مصر و القاهرة، ج۱۶، ص: ۵۴۹

تعریف مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبهٔ/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامهٔ فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّهٔ" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیهٔ الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذهٔ هذه المدینهٔ، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرهٔ الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحهٔ صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَهِْ ۱۳۴۰ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۳۸۰ الهجریّهٔ القمریّهٔ)، مؤسَّسهً و طریقهً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّهٔ" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَهِْ ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریّهٔ القمریّهٔ) تحتَ عنایهٔ سماحهٔ آیهٔ الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَهِْ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّهٔ و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّهٔ، ثقافیّهٔ و علمیّهٔ...

الأهداف: الدّفاع عن ساحهٔ الشیعهٔ و تبسیط ثَقافهٔ الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّهٔ، تخلیف المطالب النّافعهٔ – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلهٔ أو الرّدیئهٔ – فی المحامیل (=الهواتف المنقولهٔ) و الحواسیب (=الأجهزهٔ الکمبیوتریّهٔ)، تمهید أرضیّهٍ واسعهٍ جامعهٍ ثَقافیّهٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعهٔ ثقافهٔ القراءهٔ و إغناء أوقات فراغهٔ هُواهِْ برامِج العلوم الإسلامیّهٔ، إنالهٔ المنابع اللازمهٔ لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرهٔ فی الجامعهٔ، و...

- مِنها العَدالهٔ الاجتماعیّهٔ: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزهٔ الحدیثهٔ متصاعدهً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافهِ الاسلامیّهٔ و الإیرانیّهٔ – فی أنحاء العالَم - مِن جهههٍ اُخرَی.

- من الأنشطهٔ الواسعهٔ للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبهٔ، نشرهٔ شهریّهٔ، مع إقامهٔ مسابقات القِراءهٔ

ب) إنتاجُ مئات أجهزهٍ تحقیقیّهٔ و مکتبیهٔ، قابلهٔ للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّهِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکهٔ و... الأماکن الدینیّهٔ، السیاحیّهٔ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّهٔ "www.Ghaemiyeh.com و عدّهٔ مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتجات العرضیّهٔ، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّهٔ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابهٔ الأسئلهٔ الشرعیّهٔ، الاخلاقیّهٔ و الاعتقادیّهٔ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرهٔ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّهٔ و اعتباریّهٔ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّهٔ، الجوامع، الأماکن الدینیّهٔ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامهٔ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسهٔ" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسهٔ

ی) إقامهٔ دورات تعلیمیّهٔ عمومیّهٔ و دورات تربیهٔ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلهٔ السَّنَهِْ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایهٔ "القائمیّهٔ"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١۴٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨۶٠١۵٢٠٢۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢۵-٢٣۵٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣۵٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التِّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠۴۵(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.